أدب الرحلة بين الشيخ محمد بن ناصر العبودي والشيخ محمد تقي العثماني

(دراسة تحليلية مقارنة)

أطروحة قدمت لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

كلية اللغات

إعداد

عبد الخالق

إشراف

الدكتور كفايت الله همداني

الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية الجامعة الوطنية للغات الحديثة،إسلام آباد

الجامعة الوطنية للغات الحديثة إسلام آباد

العام الدراسي، 2022-2023 م

أدب الرحلة بين الشيخ محمد بن ناصر العبودي والشيخ محمد تقي العثماني

(دراسة تحليلية مقارنة)

أطروحة قدمت لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

كلية اللغات

الجامعة الوطنية للغات الحديثة إسلام آباد

العام ، 2023 م

© عبد الخالق (همدرد)

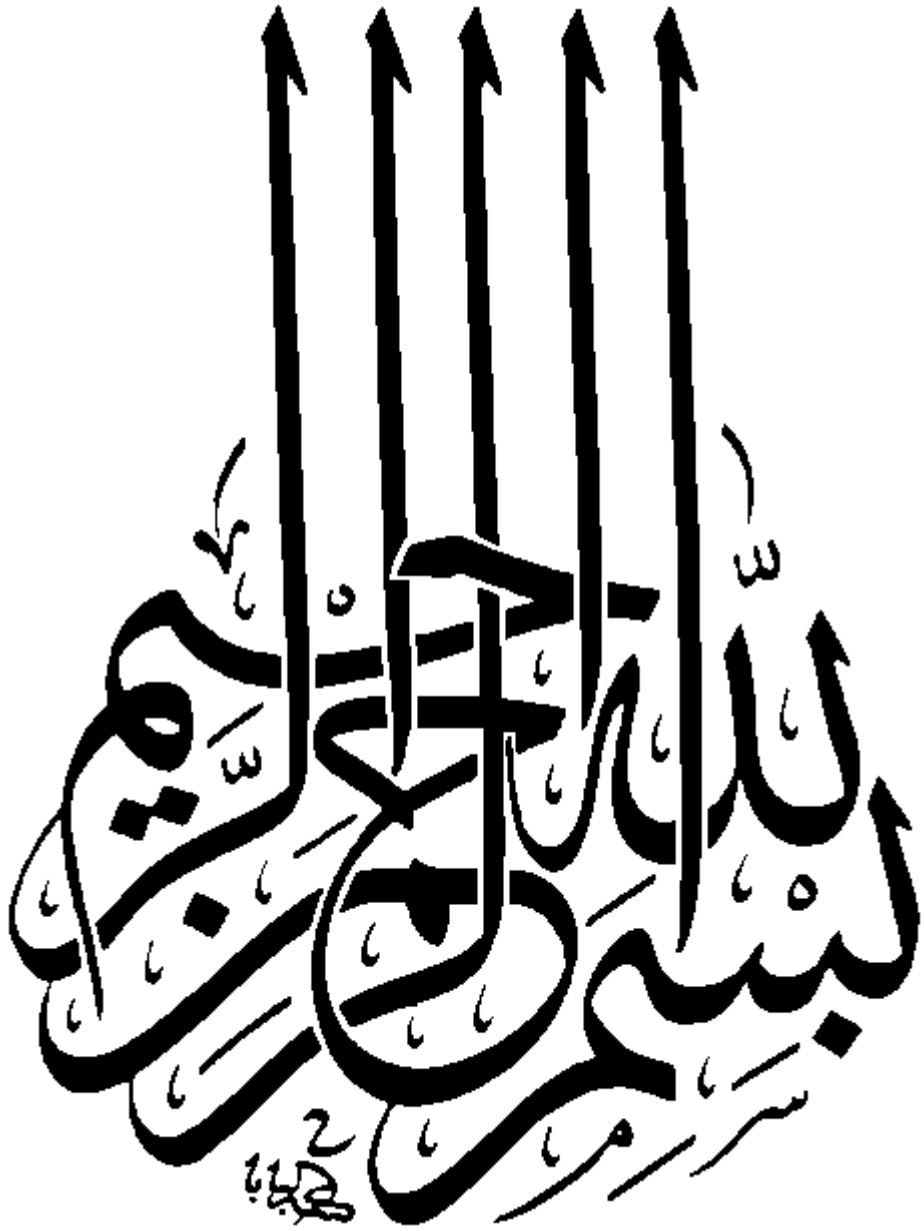
بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الوطنية للغات الحديثة كلية اللغات

استمارة الموافقة على الأطروحة والمناقشة

قام الموقعون أدناه بدراسة الأطروحة ومداولتها وقد خرجوا بنتائج طيبة حولها ونلتمس من هيئة الدراسات العليا الموافقة على هذه الأطروحة كأطروحة جيدة.

عنوان الأطروحة:

أدب الرحلة بين الشيخ محمد بن ناصر العبودي والشيخ محمد تقي العثماني

(دراسة تحليلية مقارنة)

إعداد: عبد الخالق

رقم التسجيل: 666-PhD/Ara-S17

شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

الدكتور كفايت الله همداني

المشرف **الأستاذ الدكتور جميل أصغر جامي**	**التوقيع**
عميد كلية اللغات **العميد شهزاد مير**	**التوقيع**
نائب رئيس الجامعة (المدير العام) **اللواء (المتقاعد) شاهد محمود كياني**	**التوقيع**
رئيس الجامعة	**التوقيع**

التاريخ: / /

يمين الباحث

أعلن أن أطروحتي : " **أدب الرحلة بين الشيخ محمد بن ناصر العبودي والشيخ محمد تقي العثماني (دراسة تحليلية مقارنة)**" التي أعددتها تحت إشراف الدكتور كفايت الله همداني، والتي قدمتها إلى الجامعة الوطنية للغات الحديثة بإسلام آباد، لنيل درجة الدكتوراة، لم أتقدم بها إلى أية جهة أخرى لنيل أية شهادة من قبل.

عبد الخالق

الباحث

الجامعة الوطنية للغات الحديثة، إسلام آباد

يونيو2023م

فهرس المحتويات

Abstract	ل
إهداء	م
كلمة الشكر	ن
مقدمة	**1**
رحلتي مع أدب الرحلات	2
محطات في الحياة العملية:	2
تحديد موضوع البحث	3
خطة البحث	**5**
التعريف بالموضوع:	5
أهمية الموضوع:	6
أسئلة البحث:	7
أهداف هذا البحث:	7
أسباب اختيار الموضوع:	7
الدراسات السابقة حول هذا الموضوع:	8
البحوث السابقة عن رحلات محمد تقي العثماني:	8
منهج البحث:	10
تبويب البحث:	10
التمهيد	**12**
تعريف أدب الرحلة لغة واصطلاحا	12
الرحلة لغة:	12
الرحلة والقرآن الكريم	14
الرحلة اصطلاحا	21
ما هي الرحلة؟ وما مفهومها؟	22
أنواع الرحلات	25
رأي أنور سديد حول ماهية الرحلة	25
تعريف أدب الرحلة	26
الرحلة في العصور الوسطى	28
نظرة عابرة على الرحلات	29
أهمية الرحلات	30
دوافع الرحلات وأسبابها	30
نبذة عن الرحلة والرحالين في التراث العربي	32
أدب الرحلة باللغة الأردية، وأهم الرحالين ورحلاتهم	34
بداية الرحلات باللغة الأردية:	34
بعض رحلات الحج باللغة الأردية والمترجمة إليها	40
كتب الرحلات عند العرب	42

كتب الرحلات بالأردية	43
الباب الأول	**1**
سيرة الشيخ العبودي والشيخ العثماني	**1**
الفصل الأول: سيرة الشيخ محمد بن ناصر العبودي ومؤلفاته	**46**
المبحث الأول: ترجمة الشيخ محمد بن ناصر العبودي	46
أسرته:	46
وضع بريدة في زمن العبودي	47
شيوخه وطلبه للعلم	48
رحلته إلى الرياض مع الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد	50
مدير للمدرسة الحكومية الثانية في بريدة	50
دراسة اللغة الإنجليزية	50
دراسة الأدب	51
تدوين المذكرات	51
لقاؤه مع الملك عبد العزيز ومهمته في الحجاز	52
أول رحلة خارجية للعبودي	53
الأمين العام للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة	54
الجامعة الإسلامية، منصة العبودي للانطلاق إلى أنحاء العالم	55
الرحلة الثانية إلى أفريقيا	56
أول كتاب للعبودي في الرحلات	56
دعوات لزيارات إلى مختلف أنحاء العالم	56
زيارته إلى باكستان وأفغانستان وإيران	57
باكورة رحلات العبودي إلى أمريكا اللاتينية	58
في أول مهمة رسمية إلى أوروبا	58
تمثيل المملكة في حفل إشهار رئيس الغابون إسلامه:	59
التشجيع على كتابة الرحلات من الشيخ عبد الله بن باز والشيخ عبد الله بن حميد:	59
في الهيئة العامة للدعوة الإسلامية	60
مهمات رسمية خلال عمله في الأمانة العامة للدعوة الإسلامية	61
في رابطة العالم الإسلامي	63
تحوله إلى التقاعد بعد 70 عاما في الوظيفة الحكومية	65
الجود والسخاء	66
وفاته	66
تكريمات وجوائز	67
المبحث الثاني: مؤلفات الشيخ العبودي	70
قائمة مؤلفات العبودي	70
كتب الرحلات:	70
كتب مخطوطة للمؤلف في الرحلات:	80
المعاجم واللغة:	82
الأدب:	84

السيرة والتراجم:	85
إنجازات هامة للعبودي	88
الفصل الثاني: سيرة الشيخ محمد تقي العثماني ومؤلفاته	**90**
المبحث الأول: ترجمة الشيخ محمد تقي العثماني	90
مولده ومسقط رأسه	90
أسرته	91
والده	91
والدته:	93
أخواته وإخوته:	94
الحياة الأولية:	95
الهجرة إلى باكستان:	96
الصعوبات التي واجهت أسرة العثماني في كراتشي:	97
سبب نشوء الشغب بعد تقسيم شبه القارة الهندية:	98
بداية تعليم محمد تقي العثماني:	100
تأسيس دار العلوم كراتشي:	102
تعليم العربية على أيدي أساتذة عرب:	104
علاقته بالأدب وأول مقال منشور له:	105
إخلاص والده في الدين:	106
اهتمام شديد لوالده بتعليم أولاده:	107
دار العلوم كراتشي وحياةالعثماني خارج البيت:	109
أول حفل سنوي لدار العلوم كراتشي:	111
ولوعه بمطالعة الكتب:	111
أول مقال فقهي لمحمد تقي العثماني:	112
التخرج في الدرس النظامي:	113
فائدة دراسة كتب الحديث من البداية إلى النهاية:	114
محطات في الحياة العملية:	114
التدريس:	115
رحلات خلال تلك الفترة:	115
التمرين على الإفتاء:	116
دراسة اللغة الإنجليزية:	116
البكالوريوس والمقايضة العلمية:	117
علم الحقوق والقانون:	117
القانون بلغة القانون والفقه بالعربية:	118
الماجستير في اللغة العربية:	118
التصنيف والتأليف:	118
الصحافة:	119
العمل في القطاع الحكومي:	119

المناصب التي تولاها في الماضي:	120
المناصب التي يشغلها الشيخ محمد تقي العثماني حاليا:	121
الجوائز والتكريمات:	122
المبحث الثاني: مؤلفات الشيخ محمد تقي العثماني	124
مؤلفات العثماني باللغة الأردية:	124
مؤلفات العثماني باللغة العربية:	133
مؤلفات العثماني بالإنجليزية:	134
مجاميع رحلات محمد تقي العثماني	135
ماذا يقصد محمد تقي العثماني من تدوين رحلاته؟	138
ما هي الرحلات التي يرغب العثماني في تسجيلها؟	139
لماذا غيّر عنوان المجموعة الثانية من رحلاته؟	140
الباب الثاني: رحلات الشيخين	**46**
الفصل الأول: رحلات الشيخ العبودي	**149**
(الأسلوب والأفكار والموضوعات)	**149**
المدخل: رحلات العبودي إلى الاتحاد السوفييتي ودول وسط آسيا	149
رحلات العبودي إلى الاتحاد السوفييتي و روسيا الاتحادية:	149
كيفية تقسيم الجمهوريات في روسيا الاتحادية:	150
كتب العبودي عن الرحلات إلى الاتحاد السوفييتي و روسيا الاتحادية:	151
الأوضاع التي قام فيها العبودي برحلته إلى الاتحاد السوفييتي:	153
خلفية رحلة العبودي إلى بلاد ما وراء النهر:	154
كيفية الحصول على المعلومات:	156
المبحث الأول: في بلاد المسلمين المنسيين، بخارى و ما وراء النهر	157
طلب زيارة أكبر عدد ممكن من المدن في الجمهوريات الإسلامية:	158
تحقيق الأسماء الحديثة والقديمة:	159
وصف الطائرة التي سافر بها العبودي من عمان إلى موسكو:	159
الفرق بين الروس والسوفييت:	160
الاتحاد السوفييتي ووضع الجمهوريات المستقلة فيها:	162
جزيرة قبرص من الفضاء، ووصف الضيافة وحمّام الطائرة:	163
في مطار موسكو:	164
الفرق بين مطر الشتاء والربيع في المناطق الثلجية:	165
أول ليلة في موسكو وحال الاستقبال والنزول في الفندق:	165
زيارة مكتب العلاقات الخارجية للإدارات الدينية ونفقاتها:	167
تقسيم الروس للشعوب الإسلامية في الاتحاد السوفييتي:	168
من موسكو إلى طشقند ووصف الطائرة الروسية العملاقة:	169
التدخين والخمر ممنوع في الرحلات الداخلية في الاتحاد السوفييتي:	170
لا يجوز الاختلاف مع الحكومة ولو نظريا:	171
كلمة "أوف" ودأب العبودي في شرح الكلمات الأجنبية والغريبة من العربية:	172
الحنين إلى الماضي بمجرد استماع أسماء سمر قند وبخارى:	173

وصف ربيع طشقند:	174
استغراب اللباس العربي في طشقند وسبب عدم معرفة الخادمات أي لغة سوى الروسية:	174
مائدة الطعام والكافيار الروسي الشهير:	175
لا زيارة لبخارى وترمذ في البرنامج:	176
في مجلس السوفييت الأعلى، واستحالة اعتراف المسؤولين بإسلامهم:	176
مساحة السكن للمواطنين في الاتحاد السوفييتي:	177
لقاء رئيس مجلس السوفييت لجمهورية أزبكستان والفصل بين الدين والدولة:	178
كلمة العبودي في اللقاء مع رئيس أزبكستان:	179
تقسيم تركستان بين الصين والروس:	180
ما لم يجد العبودي في طشقند وما وجد:	181
في مكتب الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان:	183
أذان شجي وزهور من شقائق النعمان والرقابة المستمرة:	184
زيارة معهد الإمام البخاري ولباقة العبودي:	185
السلام على القفال الشاشي ومعنى طشقند وسمر قند والبدعات على القبور:	186
معرض الإنجازات لشعب أوزبكستان:	187
مائة ألف بطلة من بطلات الاتحاد السوفييتي:	187
الحرية الدينية في الاتحاد السوفييتي:	188
صعوبة الحديث مع المضيفين والتقاط الصور:	189
زيارة معهد الاستشراق في طشقند:	190
الجمعية الأزبكية للصداقة والعلاقات الثقافية مع البلدان الأجنبية:	190
ماذا كان الشيوعيون يفعلون بالمساجد؟ وكيف كان المسلمون يبنونها؟	191
أمور إيجابية وسلبية ونظرة إنصاف:	192
في سمر قند:	193
قبر تيمور لنك:	195
ميدان المدارس في سمر قند:	196
في سوق سمر قند:	197
مرصد أولغ بيك والمتحف:	199
مؤتمر صحفي في فندق سمر قند:	201
إلى بخارى، مدينة الإمام البخاري:	202
في مدينة بخارى:	203
جولة في مدينة بخارى:	203
معالم أخرى لمدينة بخارى:	204
قلعة آرك ومعالم أخرى:	205
في ريف بخارى:	205
المبحث الثاني: يوميات آسيا الوسطى	208
المدخل:	208
جمهورية أزبكستان الاشتراكية السوفييتية والأزبك:	209

من أوفا إلى طشقند:	210
رحلة بدون رقيب:	211
لقاء في مكتب الإدارة الدينية:	212
لقاء مع تلفزيون الاتحاد السوفييتي والحرية التي يحظى بها المسلمون:	213
الحروف العربية بدلا من الحروف الروسية:	213
جولة على المساجد:	214
ريف طشقند وهدية الشيوعيين للإدارة الدينية:	216
إلى خوارزم واعتراف بحقيقة:	217
الخبز رمز الضيافة:	218
في مدينة أوركنج:	219
مائدة خوارزمية:	220
ماذا فعلت الشيوعية بخوارزم؟	220
مدينة خيوة:	221
مبان في قلعة خيوة:	222
إبل خوارزم:	223
ضريح الشيخ بهلوان وأبياته:	224
نهاية الجولة في قلعة خوارزم:	225
جامع شاليكار والشاعر آقاهي:	225
من خيوة إلى جمهورية تركمانستان الاشتراكية السوفييتية:	226
أول وفد إسلامي في "تاش حوض"	227
جولة على المساجد وانعدام العلماء:	228
عدد المساجد في تركمنستان والطاقية التركمانية :	229
أرض نجد في تركمنستان:	229
ضيافة واستقبال كاستقبال الملوك والرؤساء:	230
العودة إلى خوارزم ونزهة في جيحون:	231
إصرار العبودي على ذكر (آمو دريا) باسمه القديم:	231
المبحث الثالث: إلى تاجكستان وفرغانة	234
تفكير حماري:	236
جامع (سرِ آسيا) والحديث عن الإسلام:	236
تسمية دوشنبة والحديقة الغناء وسيد الطعام والأرقام العربية:	237
حصار، العاصمة القديمة لتاجكستان:	238
قرية (قلعة حصار) :	239
جولة في دوشنبة وحولها:	240
عادة عجيبة للضيافة في دول آسيا الوسطى:	241
العبودي السائح في قرية تاجكية:	242
قرية (قرا تيجين) ومسجد حافظ شيرازي:	243
إلى وادي فرغانة:	244

فرغانة المنطقة والمدينة ومسجد يبنيه شيوعي:	245
من فرغانة إلى أنديجان:	246
إلى أنديجان ونمنكان:	247
تحليل أسلوب العبودي في كتاباته وأهم ملامح رحلاته:	251
الفصل الثاني:	**256**
رحلات الشيخ محمد تقي العثماني إلى دول وسط آسيا و روسيا	**256**
المدخل:	256
المبحث الأول: رحلات العثماني إلى قيرغيزستان	258
محاضرة في جامع بشكيك ووضع العلماء:	259
لقاء مع تلميذ وجولة في بشكيك:	260
لقاء مع سفير باكستان وحديث في الجامع المركزي:	260
رحلة إلى مدينة (قارا بالتا) ولقاء مع عالم درس في حقول القطن:	261
العثماني الأديب يصور منظرا لبشكيك:	262
من بشكيك إلى أوش:	263
لم يمكن للعثماني زيارة قزاقستان لكنه زار إيسيك كول:	264
الرحلة الثانية للعثماني إلى قيرغيزستان:	264
إلى أوش:	266
في أوزجند:	266
في حي الإمام السرخسي والنصح بعدم إنشاء أي بناء على قبره:	268
ذكر الإمام السرخسي وكتابه "المبسوط" :	268
تعليق العثماني على زيارة مدينة الإمام السرخسي:	270
من أوزجند إلى إسلام آباد:	271
المبحث الثاني: رحلة العثماني إلى جمهورية تاجكستان:	273
نبذة عن تاجكستان:	273
الظلم الذي تعرض له المسلمون إبان العهد الشيوعي:	274
وضع تاجكستان بعد سقوط الاتحاد السوفييتي:	275
من كراتشي إلى دوشنبة:	276
الاستقبال في مطار دوشنبة:	276
مرض ينتاب العثماني في دوشنبة :	278
مؤتمر الإمام الأعظم أبي حنيفة رحمه الله:	279
العثماني يوضح معنى أصحاب الرأي:	279
جولة في دوشنبة والبحث عن صغانيان:	281
على ضفاف نهر "ورزوب" :	281
زيارة مسجد التشرخي ولقاء مع علماء:	282
المبحث الثالث: رحلة العثماني إلى روسيا	284
من دبي إلى موسكو:	284
موسكو والإدارة الدينية:	285

النشاط الإسلامي في ظل الإدارة الدينية:	285
من موسكو إلى محاج قلعة:	286
داغستان بعد الثورة الشيوعية:	287
استقبال في محاج قلعة وشهادة على ظلم الشيوعيين:	287
زيارة "در بند" وسد ذي القرنين:	289
تحقيق في سد ذي القرنين :	290
مقبرة الصحابة في دربند:	290
ليلة في جبال القفقاز :	291
أمر مؤسف ناشئ عن قلة الحنكة:	291
في "كيس بسك" قبيل مغادرة داغستان:	293
إلى تتارستان:	293
لقاء مع مفتي تتارستان:	294
في الجامعة الإسلامية، قازان:	295
جولة في قازان وتشاور في "قل شريف" وجلسة في"بلوناني":	295
نزهة في قازان وجلسة حول النظام المالي الربوي:	296
جولة في موسكو ومعنى "الكريملين" :	297
صلاة في المسجد القديم ولقاء مع المفتي عين الدين:	298
آخر يوم في روسيا:	299
انطباعات العثماني عن رحلته لروسيا:	300
تحليل أسلوب رحلات العثماني وأهم ما ورد فيها:	302
الباب الثالث: المقارنة بين رحلات الشيخ العبودي	**149**
المدخل: مقارنة بين شخصية الشيخ العبودي والشيخ العثماني	308
الفصل الأول: أوجه التشابه بين رحلات العبودي والعثماني	**311**
1: التفاصيل عن بداية الرحلة:	311
2: ذكر تاريخ البلاد:	315
الإسلام في داغستان:	315
الاحتلال الروسي لداغستان:	317
داغستان بعد الثورة الشيوعية:	318
3. ذكر الشخصيات البارزة في التاريخ:	319
4. النصح والتذكير بأمور الدين والنكير على ما لا يرونه جائزا:	320
5. تلخيص المحاضرات والخطب التي يلقيانها:	322
6. ذكر المناظر البهيجة بأسلوب أدبي:	323
7. ذكر الانطباعات الناشئة عن مشاهدة أي منظر أو لقاء أي شخصية:	326
8. المعلومات الجغرافية	328
9: تحقيق الأسماء التاريخية:	330
10. التعامل مع القضايا الشائكة بحنكة:	332
الفصل الثاني: أوجه الخلاف بين رحلات العبودي والعثماني:	**334**
التفاصيل حول مرافق السفر:	334

الاختلاف في دوافع الرحلات:	336
شرح الكلمات الغريبة والمقارنات:	336
التفاصيل عن الملابس والأوجه:	337
المقارنات:	339
خاتمة	**343**
نتائج البحث	**346**
نتائج عن رحلات العبودي:	346
نتائج عن رحلات العثماني:	348
توصيات واقتراحات	**350**
الفهارس	**352**
فهرس الآيات	**353**
فهرس الأحاديث	**354**
فهرس الأشعار	**355**
فهرس الأعلام	**356**
فهرس الأماكن	**357**
فهرس المصادر والمراجع	**359**
القرآن الكريم	**359**
المصادر والمراجع العربية	**359**
المصادر والمراجع الأردية	**360**
المصادر والمراجع الإنجليزية	**361**

Abstract

Topic of Ph.D. Dissertation

أدب الرحلة بين الشيخ محمد بن ناصر العبودي والشيخ محمد تقي العثماني

(دراسة تحليلية مقارنة)

The Travels of Muhammad bin Nasir Al-Oboudi and Muhammad Taqi Othmani: A Comparative Study

Travelogue is an important part of literature in any of the world's languages. All the nations have been interested in Travels/ journeys since ancient times. The travelogue has gained special importance in Islamic literature and many scholars have been known to be adventurous travelers in different periods of time. Although the world has become like a small village, thanks to modern media, and information about any place is within everyone's reach; however, travels still have a special place; as they convey to the reader information based on the writer's experience.The diversity of this information, in addition to the traveler's thoughts and impressions of his observations anywhere, offer the reader an opportunity to understand reality as it is. Every traveler looks at the situation anywhere from a different perspective, making each traveler's journey different from the other. This makes travelogues even more attractive in the age of globalization and technology.The history of Islam has seen too many great travelers who have had great effects in the literature of the travelogues and are still being read. Among them are Ibn Battuta, Muhammad bin Muhammad al-Idrisi, Ibn Jubair al-Andalusi, Ahmad ibn Fadlan, Ahmad bin Majid, Hasan al-Wazzan, Muhammad Abu al-Qasim Ibn Hawql, Abu Abdullah Shams al-Din Muhammad bin Ahmad al-Maqdisi, Abu al-Hasan al-Masoudi, Hassan al-Marrakishi and many others.In our time there are rarely traveler scholars such as Sheikh Mohammed bin Nasir Al-Oboudi and Sheikh Mohammed Taqi Othmani. It would not be an exaggeration if we say that they have traveled to every nook and corner of the world. And they told us their experiences in such a manner that their travelogues attract the readers to the extent that they become part of the scene.In this sense, I would like to make a comparative study between some travelogues of Sheikh Mohammed bin Nasir Al-Oboudi and of Sheikh Mohammad Taqi Othmani to obtain the degree of doctorate in Arabic Literature.

Chapter Breakdown:

Introduction: It includes definition of travel literature, a brief look at travelogues, an overview of travelogues and travelers in Islam, and a brief picture of travelogues in Urdu language.

The first chapter: the biography of Sheikh Muhammad bin Nasir Al-Oboudi and Sheikh Muhammad Taqi Othmani and their writings, and it contains two sub-chapters:

1.1: The biography of Sheikh Muhammad bin Nasir Al-Oboudi and his writings.

2.1: The biography of Sheikh Muhammad Taqi Othmani and his writings.

Second chapter: Presentation of the travelogues of Al-Oboudi and Othmani, and it contains two sub-chapters:

2.1: The Travels of Sheikh Al-Oboudi (Style, Ideas, and Topics)

2.2: The Travels of Sheikh Othmani (Style, Ideas, and Topics)

Chapter Three: Comparison between travels of Sheikh Muhammad bin Nasir Al-Oboudi and Sheikh Muhammad Taqi Othmani, and it has two sub-chapters:

3.1: The similarities between the travels of Sheikh Muhammad bin Nasir Al-Oboudi and Sheikh Muhammad Taqi Othmani.

3.2: The differences between the travels of Sheikh Muhammad bin Nasir Al-Oboudi and Sheikh Muhammad Taqi Othmani.

- Conclusion
- Research results
- Index of topics
- List of sources and references

****

Abdul Khaliq
Ph. D Scholar

إهداء

إلى من أسرى به الله تعالى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وإلى السماوات العلا، ومن ارتحل من مكة المكرمة مهاجرا وعاد إليها فاتحا لنشر دين الله، إلى سيدنا ومولانا رسول الله محمد بن عبد الله الذي أنار لنا طريق الجنة بهدايته، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين ...

وإلى روح والدي المرحوم، الذي لو لم يصبر على فراقي في الصبا، لم أكن لأصل إلى هذا المنى.

وإلى كل من علّمني حرفا خلال مسيرتي كطالب للعلم، فجزاه وجزاهم الله خيرا في الدارين وأجزل أجره وأجرهم.

كلمة الشكر

يقول الله تعالى في كتابه المجيد ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[1] ومن الأمثال المأثورة "من لم يشكر الناس لم يشكر الله". فمن هذا الباب، يجب تقديم الشكر إلى كل من يحسن إلى أحد. ومن المعروف أن الإنسان مهما بلغ من العلم والقوة والمال، فإنه يبقى عاجزا لا يقدر على تلبية جميع حاجاته بنفسه. ويحتاج إلى بني جنسه في تحقيق حوائجه. وهكذا يكتمل بناء المجتمع بمساندة بعضهم البعض.

ومن هذا المنطلق أشكر الله سبحانه وتعالى على نعمائه التي أسدل علي وهداني لطريق العلم والمعرفة، ثم أتقدم بخالص شكري وتقديري إلى كل من علمني حرفا في فصول الدراسة أو فصول الحياة، ولاسيما أساتذتي الذين لم يألوا جهدا في تعليمي. فجزاهم الله خير الجزاء وجعلهم منارات الهدى على طريق العلم للآخرين أيضا.

وأخص بالذكر هنا أساتذتي الذين تتلمذت عليهم في الجامعة الوطنية للغات الحديثة وعلى رأسهم الرئيس السابق لقسم اللغة العربية الأستاذ الدكتور كفاية الله همداني، والأستاذة الدكتورة المغفور لها فضيلة داود، والأستاذة الدكتورة أسماء الحسنى، والأساتذة الآخرين في القسم من الدكتور أبوبكر بُتّة و الدكتور محمد إقبال وآخرين. كما الشكر موصول إلى رئيس القسم الحالي الأستاذ الدكتور طاهر محمود أيضا.

ويجب أن أترحم على الأستاذة الدكتورة فضيلة داود التي كانت من أحب الأساتذة إلي وأحناهم علي؛ لأن تعاملها مع تلاميذها لم يكن تعامل الأستاذ مع التلميذ بل تعامل الوالدة مع أولادها. ومن حسن حظي أنها وافقت على أن تكون مشرفتي في إعداد بحث الدكتوراة؛ إلا أنها لبت داعي الله وفارقت هذه الدنيا الفانية الآنية، قبل أن أبدأ بالبحث. فرحمها الله تعالى رحمة واسعة وتغمدها بغفرانها وأنزلها في الفردوس الأعلى مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

---

[1] إبراهيم: 7

وجزى الله تعالى أستاذي الدكتور كفاية الله همداني خيرا، على أنه وافق على الإشراف على بحثي، وأن يكون خير خلف لخير سلف الدكتورة فضيلة داود، على الرغم من كثرة أشغاله وإشرافه على عدد من البحوث لمراحل دراسية مختلفة. وأرى أنه يستحق شكرا خالصا مكررا على ذلك.

ولا يسع لي أن لا أتقدم بخالص شكري إلى زملائي في مرحلة الدكتوراة؛ لأنهم من خيرة الإخوة ومن الأحباء الألباء العاكفين على العلم، والإخوة من المراحل الدراسية الأخرى الذين ساعدوني في إعداد هذا البحث أو أشاروا علي بإشارة نفعتني فيه. وكذلك من واجبي أن أشكر بعض تلاميذي الذين درستهم في وقت ما؛ لكنهم في نهاية المطاف تقدموا علي في نيل الشهادات، وأصبحوا أساتذة ودكاترة وساعدوني بمشوراتهم.

ولا أنسى عندما أشكر الآخرين، أستاذي الأستاذ الدكتور فضل الله فضل الأحد الشترالي عميد كلية اللغة العربية في الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، لأنه دائما كان يحفزني على إكمال البحث ويقدم مشورات نافعة في إعداد البحث. فجزاه الله خيرا. ولا أستطيع أن أذكر كل من ساعدني باسمه؛ لكن يمكن لي أن أدعو للجميع بالخير والبركة في علمهم وعملهم؛ لأن كل من ينفع الناس هو ملح هذه الأرض وأصل الشجرة الباسقة التي يستظل بها الناس؛ لكنهم لا يقدرون على رؤية جذورها التي تحمل تلك الشجرة العظيمة التي تقوم على رأسها.

وأرى من الواجب أن أقدم خالص شكري إلى القائمين على مكتب الشيخ محمد بن ناصر العبودي، الذين زودوني كتبه التي كنت أحتاج إليها خلال البحث؛ لأن كتبه لم تكن متوفرة في السوق الباكستانية. ورحمه الله تعالى الشيخ محمد بن ناصر العبودي وتغمده بغفرانه ورفع درجاته في عليين، الذي انتقل إلى رحمة الله في مطلع يوليو 2022م قبل إنجاز هذا البحث. كما يستحق شكري القائمون على مكتب الشيخ محمد تقي العثماني أيضا؛ لأنهم أيضا لم يبخلوا في تقديم المعلومات التي احتجت إليها خلال البحث.

وفي النهاية أتقدم بخالص الشكر والتقدير والدعوات الخالصة لوالدتي الحبيبة التي تمدني بأدعيتها الخالصة من فينة لأخرى. وأشكر زوجي وأولادي الذين يصبرون على أشغالي ولا يشكون هضم حقوقهم. فجزاهم الله خيرا في الدارين ووفقهم جميعا لما يحبه ويرضاه. إنه سميع قريب مجيب وبالإجابة جدير.

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتب وبعث الأنبياء والرسل لهداية خلقه إلى الصراط المستقيم. وأمرهم بالترحال لتبليغ رسالته إلى عباده في مختلف أرجاء المعمورة. وأمر عباده بالترحال للاطلاع على عاقبة الظالمين والنجاة بالدين والضرب في الأرض طلبا للفضل. والصلاة والسلام على رسوله ونبيه محمد بن عبد الله الهاشمي الذي قام برحلة للتجارة في صباه، فقام برحلات لتبليغ رسالات الله. وتعرض للظلم في رحلته إلى الطائف، واضطر للرحيل إلى المدينة المنورة مع صديقه الوفي أبي بكر – رضي الله عنه–. ثم قام برحلات للجهاد والفتح والحج. وأمر أصحابه وأعوانه بالترحال لنشر رسالته.

وصلى الله وسلم على أصحابه وعترته الذين لم يألوا جهدا في الامتثال بأوامره. فهم الذين ارتحلوا وهاجروا إلى الحبشة للنجاة بدينهم، وسبقوه إلى المدينة المنورة لاستقباله عليه الصلاة والسلام. ورافقوه في رحلاته التي قام لأغراض شتى. وصلاة الله وسلامه على كل من يهتدي بهداه وهداهم في الإقامة والترحال، ويحذو حذوهم إلى يوم الدين.

وبعد، فإن الرحلة من أهم وسائل الاطلاع على المجهول. والإنسان بفطرته التي فطره الله عليه، مجبول على رغبة التعرف على كل ما هو جديد وغريب. وعندما لم يكن البشر يملكون أي وسيلة أخرى للاطلاع على أوضاع بني جنسهم وأحوالهم، كانت الرحلة تفي بحاجتهم. فكان أحد يسافر إلى مكان ويرجع بعلم عن ذلك المكان ومن يقطن به.

وكان العرب ولاسيما أهالي الجزيرة العربية مولعون بالرحلات برا وبحرا قبل الإسلام أيضا لشدة حاجتهم إلى الترحال لكسب لقمة العيش، بسبب عدم توافر أسباب العيش من الزراعة والصناعة في معظم أنحائها؛ لكونها صحاري قاحلة. وازدادوا شوقا للرحلات بعد الإسلام، إذ أن الإسلام أضاف أسبابا جديدة للترحال إلى حياتهم. وعلى رأسها الجهاد في سبيل الله، والتجارة مع المناطق المجاورة، والهجرة إلى الدول

التي فتحها الإسلام لنشر الدين والإقامة فيها، والترحال من مدينة لمدينة أو من منطقة لمنطقة أخرى لطلب العلم.

رحلتي مع أدب الرحلات

لا أدري متى بدأت بالضبط قراءة كتب الرحلات لكن ما أذكره هو أن كتب الرحلات كانت تجذبني إليها وأنا في المتوسطة. وكان الكتاب الورقي هو أقرب صديق وخير جليس لكل من كان يرغب في الاطلاع أو يريد أن يتعلم أي شيء جديد في ذلك الزمان، كما يقول المتنبي:

أعزّ مكان في الدنا سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب([1])

وكانت فرحتي عظيمة عندما وجدت في المدرسة الثانوية مكتبة وهي تعير الكتب للطلاب. ومن بين الكتب الأولى التي استعرتها من تلك المكتبة ترجمة "رحلة ابن بطوطة" باللغة الأردية. وعندما انتقلت إلى كراتشي، وبدأت الدراسة في دار العلوم كراتشي، كانت العربية لغة المناهج الدراسية فيها. ومن حسن حظي كانت بدار العلوم كراتشي مكتبة عامرة مفهرسة. فاستفدت منها كثيرا.وفي هذه المكتبة تعرفت على رحلات الشيخ محمد بن ناصر العبودي والشيخ محمد تقي العثماني. وكانت لرحلة العثماني بعنوان "اندلس ميں چند روز" (أيام في الأندلس) أثر بالغ على نفسي. ولعلها لا تقل تأثيرا من قصيدة لشاعر الشرق العلامة محمد إقبال([2]) – الشاعر القومي لباكستان– نظمها عندما زار الأندلس تحت عنوان "*مسجد قرطبہ ميں*" (في مسجد قرطبة)([3]).

---

[1] المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين، ديوان المتنبي، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، 1403هـ/1983م، ص:489

[2] محمد إقبال(1876–1938م): أشهر الشعراء الفلاسفة والمفكرين المسلمين في الهند. دعا إلى إنشاء الباكستان والاستقلال عن الهند. له مؤلفات ودواوين بالفارسية والأردو. انظر: معلوف، لويس، المنجد في الأعلام، بيروت، دار المشرق، الطبعة الحادية والعشرون، 1996م، ص:58

[3] قرطبة: مدينة أسبانية في الأندلس على الوادي الكبير. أسسها الفينيقيون واحتلها الرومان 152ق.م. عاصمة الدولة الأموية في الأندلس. أسسها عبد الرحمن الأول الداخل 756م. عاصمة بني هود من ملوك الطوائف.استعادها فرديناند الثالث 1236م. من مراكز الثقافة والحضارة الإسلامية المزدهرة. انظر: المنجد في الأعلام، ص: 435

محطات في الحياة العملية:

وتخرجت في جامعة العلوم الإسلامية،كراتشي عام 1999م، ودخلت الحياة العملية من باب التدريس، فدرست اللغة العربية والعلوم الإسلامية حتى عام 2006م. ثم بدأت العمل في بعثة عربية كمترجم من اللغة الإنجليزية والأردية إلى العربية والعكس، واستمر العمل معها حتى عام 2016م. وعملت مع جريدة (إيلاف) الإليكترونية اللندنية كمراسل بين عام 2007-2013. وترجمت أكثر من عشرين كتابا في مواضيع مختلفة من العربية إلى الأردية، إضافة إلى التدريس بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد لفترة قصيرة. وفي عام 2016م بدأت العمل في بعثة عربية أخرى بإسلام آباد كمحلل سياسي، ولا زلت على رأس هذا العمل. وقد وفقني الله تعالى لإنجاز مرحلة الدكتوراة مع هذه المسؤولية الوظيفية وإدارة البيت. والله أسأله أن يوفقني لما يحبه ويرضاه. وصلى الله تعالى على نبيه محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

تحديد موضوع البحث

رغم أن عنوان هذا البحث هو "أدب الرحلة بين الشيخ محمد بن ناصر العبودي والشيخ محمد تقي العثماني (دراسة مقارنة تحليلية)"؛ إلا أن هذا العنوان كان واسعا جدا وغير محدد؛ لأن محمد بن ناصر العبودي طبع له 160 كتابا للرحلات، بينما طبع لمحمد تقي العثماني ثلاثة مجاميع للرحلات. ولما لم يمكن إحاطة هذا الكم الهائل من الرحلات في بحث كهذا، تم القرار بالتشاور مع المشرف على هذا البحث الدكتور كفاية الله همداني، وضع إطار يحدد رحلات لأتمكن من دراستها بعمق. وهذا التعديل الطفيف مسموح به وفق خطة البحث.

فوقع الاختيار على رحلات العبودي والعثماني إلى دول وسط آسيا، من أزبكستان و تاجكستان و قيرغيزستان و قزاخستان و تركمنستان و روسيا. وهي مسجلة في أكثر من عشرة كتب للعبودي؛ وبينها، في بلاد المسلمين المنسيين- بخارى و ما وراء النهر، ويوميات آسيا الوسطى، والرحلات الروسية إلى الشرق الروسي، والرحلة الروسية، وفي شمال سيبيريا، ومن روسيا البيضاء إلى روسيا الحمراء، وزيارات للمسلمين

في بلاد الروس و الباشقرد، وبلاد التتار و البلغار، وبلاد الشركس، وبلاد الداغستان، وبلاد العربية الضائعة–جورجيا، وإقليما سمارا وأسترا خان، وبلاد البلطيق. وتم اختيار رحلتين منها للدراسة المقارنة، وهما:

1. في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى و ما وراء النهر
2. يوميات آسيا الوسطى

وبالنسبة لرحلات محمد تقي العثماني، فإنها أيضا متنوعة وتستوعب مناطق شاسعة. كما أنها متوزعة بين مجاميعه الثلاث للرحلات. فاخترنا منها ما يلي:

1. "*کرغیزستان کا سفر*" (رحلة قيرغيزستان)– وهي جزء من مجموعة "*سفر در سفر*" – رحلة في رحلة–.
2. "*نو دن روس میں*" (تسعة أيام في روسيا)– وهي جزء من مجموعة "*سفر در سفر*" – رحلة في رحلة.–
3. "*تاجکستان کا سفر*" (رحلة تاجكستان)– "سفر در سفر" – رحلة في رحلة.–

ولا يعني اختيار هذه الكتب للدراسة المقارنة أننا لن نذكر أي شيء من الكتب الأخرى للعبودي والعثماني، بل سنورد ما احتجنا إليه من الكتب الأخرى أيضا؛ إلا أن هذه الكتب ستكون قطب الرحى. وسيظل التركيز عليها. والله ولي التوفيق.

خطة البحث

التعريف بالموضوع:

تعني كلمة رحل يرحل رحلا ورحيلا وترحالا عن المكان: تركه

- وإلى المكان: انتقل إليه
- وترحل القوم عن المكان: انتقلوا
- والرُحلة (بضم الراء): الجهة التي يقصدها المسافر
- وعالم رُحلة: عالم يُرتحل إليه من العالم
- والرحلة (بكسر الراء): قصة المسافر عما جرى له في سفره، النوع من الرحيل.(1)

ومن المعروف أن الرحلات جزء هام من الأدب في أي لغة من لغات العالم. وقد اهتمت بها الشعوب منذ أقدم العصور. كما أن الرحلة كسبت أهمية خاصة في الأدب الإسلامي واشتهر الكثير من العلماء الرحالين في حقبات مختلفة من الزمن. ورغم أن العالم أصبح الآن مثل قرية صغيرة بفضل وسائل الإعلام الحديثة، وأصبحت المعلومات عن أي مكان في متناول كل أحد؛ لكن مع ذلك لا تزال الرحلات تحظى بمكانة خاصة؛ لأنها تنقل إلى القارئ المعلومات المبنية على تجربة الكاتب.

وإن تنوّع هذه المعلومات إضافة إلى أفكار الرحالة وانطباعاته عن مشاهداته في أي مكان، يقدم للقارئ فرصة لفهم الواقع كما هو. كما أن كل رحالة ينظر إلى الوضع في أي مكان من منظور مختلف، مما يجعل رحلة كل رحالة تختلف عن الآخر. وهذا ما يجعل الرحلات من المواضيع الجذابة حتى في عصر العولمة والتقنية هذا.

وقد شهد التاريخ الإسلامي رحالين عظماء خلفوا آثارا عظيمة في أدب الرحلة. وهي لا تزال تُقرأ. ومن بينهم ابن بطوطة ومحمد بن محمد الإدريسي وابن جبير الأندلسي وأحمد بن فضلان وأحمد بن ماجد والحسن الوزان ومحمد أبو القاسم ابن

---

[1] معلوف، لويس، المنجد في اللغة، الطبعة الثالثة والثلاثون، بيروت، دار المشرق، 1994م، ص:253، مادة رحل، باختصار

حوقل وأبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي وأبو الحسن المسعودي وحسن المراكشي والكثير من أمثالهم.

ويستمر الرحالة في إضافة رحلات جديدة إلى المكتبة العربية والأردية في عصرنا هذا أيضا لكن قلما يوجد علماء رحالة من أمثال الشيخ محمد بن ناصر العبودي والشيخ محمد تقي العثماني. ولن يكون من المبالغة إذا قلنا أنهما من العلماء الذين وطأوا كل بقعة من أرض الله الواسعة. ونقلا لنا تجاربهما بحلوها ومرّها. ورحلاتهما تجذب القارئ إلى درجة أنه يصبح جزء من المشهد.

ومن هذا المنطلق قمت بدراسة مقارنة بين رحلات الشيخ محمد بن ناصر العبودي ورحلات الشيخ محمد تقي العثماني لنيل درجة الدكتوراة في اللغة العربية؛ إلا أنه يصعب استيعاب جميع رحلاتهما في بحث أو كتاب واحد. وبناء عليه تقرر بعد التشاور مع المشرف على هذا البحث الأستاذ الدكتور كفاية الله همداني تقييد هذا البحث في رحلات مختارة للشيخين إلى الاتحاد السوفياتي ودول وسط آسيا التي تحررت منه بعد سقوطه عام 1991م.

وبناء عليه استعرضت في هذا البحث كتابين للشيخ محمد ناصر العبودي وهما: "في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر"، و"يوميات آسيا الوسطى"، في حين تناولت بالبحث من رحلات الشيخ محمد تقي العثماني أجزاء من مجموعته للرحلات "سفر در سفر"، وهي "رحلة قيرغيزستان" و "رحلة تاجكستان" و"تسعة أيام في روسيا".

أهمية الموضوع:

يكسب هذا الموضوع أهمية للأسباب المذكورة أعلاه، إضافة إلى أن الدراسة المقارنة بين رحلات الشيخ محمد بن ناصر العبودي والشيخ محمد تقي العثماني ستعرّف كلا منهما إلى العالم العربي والإسلامي باللغة العربية. وأن هذا الموضوع سيكون سببا في تقديم رحلات الشيخ محمد تقي العثماني إلى العالم العربي؛ لأنه معروف في العالم العربي والإسلامي كمحدث وفقيه لكن رحلاته ليست معروفة لكونها باللغة الأردية.

ويزداد هذا الموضوع أهمية بسبب احتوائه على أوضاع الأقليات الإسلامية في العالم ولاسيما في الاتحاد السوفياتي السابق ودول غربية وأفريقية، إضافة إلى كشفها عن تقاليد غريبة لدى بعض الفئات من سكان العالم في مختلف البلاد.

أسئلة البحث:

يهدف هذا البحث إلى الرد على الأسئلة التالية:

- من هو محمد بن ناصر العبودي؟ وما مساهماته في أدب الرحلة؟
- من هو محمد تقي العثماني؟ وما مساهماته في أدب الرحلة؟
- ما هي الأساليب الأدبية التي استخدمها العبودي والعثماني في رحلاتهما؟
- ما هي القواسم المشتركة بين رحلاتهما؟ وما هي الفوارق المميزة بينها؟

أهداف هذا البحث:

يهدف هذا البحث إلى الأمور التالية:

- تعريف رحلات الشيخ محمد بن ناصر العبودي إلى الناطقين بالأردية وتعريف رحلات الشيخ محمد تقي العثماني إلى الناطقين بالعربية. – وذلك أن كل من سيكتب بحثا عن رحلات الشيخ العبودي والشيخ العثماني لن يستغني عن الإحالة إلى هذا البحث-.
- مقارنة بين رحلات الشيخين من الناحية الأدبية ودراسة أساليبهما في سرد الوقائع.
- الكشف عن النتائج التي وصلا إليها في تلك الرحلات.

أسباب اختيار الموضوع:

1. الشيخ العبودي من المملكة العربية السعودية والشيخ محمد تقي العثماني من باكستان. وبالتالي تختلف البيئة الثقافية التي عاشاها. وهذا ما يؤثر على رحلاتهما أيضا.
2. كل واحد من الشيخين من علماء الدين واللغة العربية؛ لكن لهما باع في الأدب أيضا إضافة إلى فضلهما في العلوم الإسلامية.

3. رحلات الشيخ العبودي بالعربية، بينما رحلات الشيخ العثماني بالأردية. وهناك حاجة إلى إنشاء جسر بينها ليعبر القارئ من رحلات أحدهما إلى رحلات الآخر.
4. قام كل واحد من الشيخين برحلات كثيرة إلى معظم أقطار العالم وألف ما شاهده خلالها. وهناك حاجة إلى الفروق والقواسم المشتركة بينها.
5. تمتاز هذه الرحلات بحرقة القلب على أوضاع المسلمين وتعبر عن الأسى عليها، إضافة إلى تقديم معلومات تاريخية وجغرافية عن كل بلد بأسلوب أدبي شيق.

الدراسات السابقة حول هذا الموضوع:

- الحجاز في أدب الرحلة العربي، رسالة لنيل شهادة الدكتوراة، إعداد محمد بادشاه، الجامعة الوطنية للغات الحديثة، إسلام آباد، باكستان
- الأساليب الأدبية لرحلات العلامة الندوي، رسالة لنيل شهادة ماجستير الفلسفة، إعداد الباحث عزيز الرحمن، الجامعة الوطنية للغات الحديثة، إسلام آباد، باكستان
- أدبية الرحلة عند العبودي، رسالة ماجستير، إعداد عمران بن محمد الأحمدي، جامعة القصيم، المملكة العربية السعودية
- رحلات محمد بن ناصر العبودي إلى شمال شبه القارة، دراسة وصفية تحليلية، بحث لنيل درجة الماجستير، الطالب توصيف أحمد بت، الجامعة الإسلامية العالمية، بإسلام آباد.
- دراسات ومقالات عن معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي، جمع وإعداد د/ محمد بن عبد الله المشوح، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الرياض، 2013م

البحوث السابقة عن رحلات محمد تقي العثماني:

تناول الكثير من الباحثين كتب الشيخ محمد تقي العثماني في علم الفقه والحديث وعلوم القرآن بالبحث في مختلف أنحاء العالم وعلى مستويات بحثية

مختلفة. وقد طبع 25 بحثا عن كتبه في الفقه والحديث باللغة الأردية، وتسعة بحوث ومقالات بالإنجليزية، وتسعة بحوث باللغة العربية.

أما بالنسبة إلى كتبه في الرحلات، فلم نحصل على أي معلومات عن أي بحث باللغة العربية حتى الآن، في حين تناول أربعة باحثين بعض رحلاته بالبحث باللغة الأردية على مختلف المراحل الدراسية الجامعية من البكالوريوس إلى ماجستير الفلسفة.

وفيما يلي تلك البحوث:

1. تناول الأستاذ محمد علي مجاهد رحلات الشيخ محمد تقي العثماني بالبحث لنيل درجة ماجستير الفلسفة من جامعة حيدر آباد([1])، الهند، سنة 2009م، بعنوان: "محمد تقی عثمانی کے سفرناموں کا تنقیدی جائزہ" (دراسة نقدية لرحلات محمد تقي العثماني)
2. تناولت الأستاذة قرة العين عيني رحلات محمد تقي العثماني بالبحث لنيل درجة الماجستير من الجامعة الوطنية للغات الحديثة (NUML) بإسلام آباد، باكستان، عام 2009-2010م بعنوان: محمد تقی عثمانی کا سفرنامہ 'دنیا مرے آگے' کا فنی وفکری جائزہ (رحلة "العالم أمامي" لمحمد تقي العثماني، دراسة فنية وفكرية)
3. تناول الطالب محمد عمر فاروق رحلات محمد تقي العثماني بالبحث لنيل شهادة البكالوريوس، من جامعة السند، بجام شورو، باكستان، سنة 2019م، بعنوان: سفرنامہ "جہان دیدہ" کا مطالعہ (بیس ملکوں کا سفرنامہ) (دراسة لرحلة "عالم العين" رحلة لعشرين دولة)
4. تناول الأستاذ هارون الرشيد رحلات محمد تقي العثماني بالبحث لنيل درجة ماجستير الفلسفة، من جامعة العلامة إقبال المفتوحة، إسلام آباد، باكستان، عام 2021م بعنوان: محمد تقی عثمانی کے سفرناموں کا تجزیاتی مطالعہ (دراسة تحليلية لرحلات محمد تقي العثماني)

---

[1] حيدر آباد، مدينة هندية في الدكن. عاصمة آندرابراديش.في ضواحيها مدينة سكندر آباد العسكرية وصناعات هامة. كانت عاصمة المملكة الآصفية. راجع: المنجد في الأعلام، ص:267

ومن هذا المنطلق فإن هذا البحث أصبح أول بحث مقارن لرحلات محمد تقي العثماني باللغة العربية، وعلى مستوى الدكتوراة. ونرجو أن يكون وسيلة لاطلاع الناطقين باللغة العربية على هذه الرحلات التي لا تقل قيمتها الأدبية والمعرفية عن أي رحلة أخرى تنوولت بالبحث. وكشف هذا البحث عن خبايا لبعض الرحلات منها؛ لأن البحث يدور حول رحلات محمد بن ناصر العبودي ومحمد تقي العثماني إلى دول وسط آسيا، أو إلى جمهوريات كانت جزءا من الاتحاد السوفييتي.

لا تزال هذه الرحلات مقيدة في حصار اللغة الأردية، إذ لم تتم ترجمتها إلى أي لغة أخرى بعد. وقد قام لقمان حكيم[1] بترجمة أول مجموعة لرحلات محمد تقي العثماني وهي (جہان دیدہ) – عالم العين- إلى اللغة العربية؛ لكن لم يتم طبعها حتى الآن. كما أن لقمان حكيم كتب سيرة ذاتية مختصرة لمحمد تقي العثماني باللغة العربية وهي مطبوعة من دار القلم دمشق عام 1423هـ /2002م، بعنوان: "محمد تقي العثماني، القاضي الفقيه والداعية الرحالة".

منهج البحث:

سلكت خلال هذا البحث المقارن المنهج الوصفي، حيث قمت بقراءة رحلات الشيخين ودرست الفروق والقواسم المشتركة بينها، مع مراعاة أسلوبهما الأدبي في سرد الوقائع وتجاربهما ومشاعرهما والدروس التي وصلا إليها.

تبويب البحث:

شملت خطة هذا البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة كالتالي:

- الإهداء
- كلمة الشكر
- المقدمة

---

[1] هو القاضي لقمان حكيم، من أجلّ تلاميذ محمد تقي العثماني. تخرج في دار العلوم كراتشي، بعد أن درس بها لعدة سنوات. وتم تعيينه مدرسا بها. وكان من الرعيل الأول لمدرسين بدأوا بالتدريس في القسم العربي بدار العلوم كراتشي. علما أن مناهج المدارس الشرعية في باكستان باللغة العربية لكن يتم تدريسها باللغة الأردية. وقد بدأ العديد من المدارس الإسلامية الأقسام العربية التي تتبنى اللغة العربية كلغة التدريس. كما درس لقمان الحكيم الحقوق والقانون. ويعمل حاليا قاضيا في المحاكم المحلية في بلتستان، شمالي باكستان.(الباحث)

التمهيد: وهو اشتمل على تعريف أدب الرحلة ونظرة عابرة على الرحلات ونبذة عن الرحلة والرحالين في الإسلام

الباب الأول: سيرة الشيخين ومؤلفاتهما، وفيه فصلان:

الفصل الأول: سيرة الشيخ محمد بن ناصر العبودي ومؤلفاته

الفصل الثاني: سيرة الشيخ محمد تقي العثماني ومؤلفاته

الباب الثاني: عرض رحلات الشيخين وفيه فصلان

الفصل الأول: رحلات الشيخ العبودي (الأسلوب والأفكار والموضوعات)

الفصل الثاني: رحلات الشيخ العثماني (الأسلوب والأفكار والموضوعات)

الباب الثالث: المقارنة بين رحلات الشيخين، وفيه فصلان

الفصل الأول: أوجه التشابه بين رحلات الشيخين

الفصل الثاني: أوجه الاختلاف بين رحلات الشيخين

- خاتمة
- نتائج البحث
- فهرس الموضوعات
- قائمة المصادر والمراجع

التمهيد

وهو يشتمل على مباحث في تعريف أدب الرحلة ونظرة عابرة على الرحلات ونبذة عن الرحلة والرحالين في الإسلام وأدب الرحلات باللغة الأردية.

تعريف أدب الرحلة لغة واصطلاحا

الرحلة لغة:

تعني كلمة رحل يرحل رحلا ورحيلا وترحالا عن المكان: تركه

- وإلى المكان: انتقل إليه
- وترحل القوم عن المكان: انتقلوا
- والرُحلة (بضم الراء): الجهة التي يقصدها المسافر
- وعالم رُحلة: عالم يُرتحل إليه من العالم
- والرحلة (بكسر الراء): قصة المسافر عما جرى له في سفره، النوع من الرحيل.[1]

وذكر ابن منظور:

- ارتحل البعير، رحلة: سار فمضى، ثم جرى ذلك في المنطق حتى قيل: ارتحل القوم ارتحالا عن المكان، ورحل عن المكان الرحل، وهو راحل من قوم رُحّل: انتقل.
- والترحل والارتحال: الانتقال، وهو الرِّحلة والرُّحلة.
- والرِّحلة: اسم للارتحال والمسير. يقال: دنت رحلتنا.
- ورحل فلان وارتحل وترحل بمعنى.([2])

وكتب أحمد بن يوسف بن عبد الدائم في كتابه عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ما يلي:

- قوله تعالى(فِي رِحالِهِمْ)([1]) جمع رَحل.

---

[1] معلوف، لويس، المنجد في اللغة، الطبعة الثالثة والثلاثون، بيروت، دار المشرق، 1994م، ص:253، مادة رحل، مع اختصار.

[2] ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، (مادة رحل)، القاهرة، دار المعارف، بدون تاريخ، ص: 1608-1611

- والرَحل: يطلق على ما يوضع على البعير عند ركوبه. قال: (من البسيط)

يَومَ ارتحلتُ برَحلي قبلَ بَردَعَتي والعَيشُ قاطعةٌ مِيلَينِ في ميلِ

- والرِحال أيضا: المنازل، ومنه الحديث: "إذا ابتلت النعال فالصلاة في الرِحال"، أي في الدور. ويعني أن المطر عذر في ترك الجماعة.
- والرَحل أيضا مصدر رحلتُ البعير أرحله أي جعلت عليه رحلا. ويقال أرحلت أيضا.
- والارتحال: الانتقال.
- ورحل فلان: انتقل. وأصله أن المنتقل يُرحل بعيره للنُقلة، ثم عبر عن النقلة بذلك، وإن لم يكن فيه وضع رحل.
- والرِحلة: الارتحال.
- وراحله: عاونه على الرحلة.
- والراحلة البعير الذي يصلح للارتحال....
- والراحلة: الرَحل. قال (من الكامل):

أزمانِ قومي والجماعة كالذي منع الرحالة أن تميل مميلا [2]

أورد المعجم الوسيط معاني عديدة للرحل والرحلة. وفيما يلي بعضها:

- رحل، رحلا ورِحلة: جعل عليه الرحل، فهو مرحول، ورحيل
- أرحل فلان: كثرت رواحله، فهو مُرحِل
- استرحله: سأله أن يرحل له. واسترحله: طلب منه راحلة.
- الرُحال: العرب الرحال: الذين لا يستقرون في مكان، ويحلون بماشيتهم حيث يسقط الغيث وينبت المرعى.
- الرَحّالة: الكثير الرحلة (والتاء للمبالغة).
- الرَحل: ما يوضع على ظهر البعير للركوب.
- الرَحل: كل شيء يعد للرحيل من وعاء للمتاع وغيره.

---

[1] يوسف: 62

[2] عبد الدائم، الشيخ أحمد بن يوسف بن، المعروف بالسمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم، تحقيق محمد باسل عيون السود، 2/89-80، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1417هـ/1996م

- الرحل: مسكن الإنسان، وما يستصحبه من الأثاث.
- الرِحلة: الارتحال. ج رِحَل. وفي التنزيل العزيز: (رحلة الشتاء والصيف)
- الرِحلة: كتاب يصف فيه الرَّحّالة ما رأى
- الرُحلة: ما يُرتحل إليه، يقال: الكعبة رُحلة المسلمين، وأنتم رُحلتي،
- عالم رُحلة: يرتحل إليه من الآفاق.
- الرُحّال: العرب الرُّحال: الذين لا يستقرون في مكان ويحلون بماشيتهم حيث يسقط الغيث وينبت المرعى.[1]

يتبين مما مضى أن كلمة الرحلة في اللغة تعني الانتقال من مكان إلى مكان. وعلى الرغم أنها بدأت من رحل البعير بمعنى إعداده للرحلة؛ لكن اختصت بعد ذلك بالرحلة بمعنى الانتقال سواء أكان فيه وضع الرحل على البعير أو لا. وهذا ما أوضحه أحمد بن يوسف عبد الدائم بقوله: "ورحل فلان: انتقل. وأصله أن المنتقل يُرحل بعيره للنُقلة، ثم عبر عن النقلة بذلك، وإن لم يكن فيه وضع رحل."[2]

الرحلة والقرآن الكريم

قد وردت في القرآن الكريم كلمة الرحلة (بكسر الراء) في سورة قريش حيث يقول الله تعالى: ﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ ([3]) وهي السفر إلى الشام في الصيف وإلى اليمن في الشتاء، والرحل (بفتح الراء) مفردة وجمعا، حيث قال تعالى في سورة يوسف: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ([4]) و ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ

---

[1] المعجم الوسيط، جمع من العلماء، استانبول، دار الدعوة، 1410هـ/1989م مادة (رحل)، ص: 334-335. للاستزادة، راجع، الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط8، 1426هـ/2005، ص: 1005 تحت مادة رحل، في باب اللام مع الراء.

[2] عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم، 79/2

[3] قريش:2

[4] يوسف:62

فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ ([1]) و ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ([2]) وهنا استعملت كلمة "رحل" بمعنى الوعاء الذي يحوي أغراض المسافر، كما استعملت كلمة "وعاء" أيضا لهذا المعنى، إذ يقول الله تعالى: فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ ([3])، وقد وضعوا السقاية في "رحل أخيه". وهذا يعني أن الرحل والوعاء هنا بمعنى واحد.

وحث القرآن الكريم المسلمين على السفر والارتحال لأغراض مختلفة. وقد قام المسلمون الأوائل بأول رحلة للنجاة بدينهم إلى الحبشة، عندما تجاوز ظلم قريش حده، فسمح لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم إن ملك الحبشة لا يُظلم لديه أحد. ولم ترق لقريش هجرة المسلمين إلى الحبشة فأرسلت وفدا إلى ملك الحبشة النجاشي([4]) ليحثه على إعادة المهاجرين إليه؛ إلا أنه أبى بعد أن استمع إلى جعفر الطيار رضي الله عنه([5])، في بلاطه، حيث وصف له الإسلام وذكر أسباب الهجرة إلى بلاده.

---

[1] يوسف:70

[2] يوسف:75

[3] يوسف:76

[4] أصحمة بن أبحر (560 م — 630م) واسمه بالعربية عطية والنجاشي لقب له. أسلم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم. ولم يهاجر إليه. وكان ردءا للمسلمين نافعا. وقصته مشهورة في (المغازي) في إحسانه إلى المسلمين الذين هاجروا إليه في صدر الإسلام. وأخرج أصحاب الصحيح قصة صلاة الغائب من طرق منها رواية سعيد بن مينا عن جابر ومنها رواية عطاء بن جابر لما مات النجاشي، قال النبي صلى الله عليه وسلم:" قد مات اليوم عبد صالح يقال له أصحمة، فقوموا فصلوا على أصحمة، فصففنا خلفه"... قال الطبري وجماعة: كان ذلك في رجب سنة تسع. وقال غيره: كان قبل الفتح. قال ابن إسحاق: عن يزيد بن رومان عن عروفة عن عائشة، لما مات النجاشي كنا نتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور. انظر: العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، 2012م-1433هـ، ص:73

[5] جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب. ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وأحد السابقين إلى الإسلام وأخو علي شقيقه. قال ابن إسحاق: أسلم بعد خمسة وعشرين رجلا. وقيل: بعد واحد وثلاثين. قالوا: وآخى النبي صلى الله عليه وسلم وبين معاذ بن جبل. كان أبوهريرة يقول: إنه أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم. وفي البخاري عنه، قال: كان جعفر خير الناس للمساكين، وقال خالد الحذاء عن عكرمة سمعت أبا هريرة يقول: ما احتذى النعال، ولا ركب المطايا، ولا وطئ التراب بعد رسول الله، أفضل من جعفر بن أبي طالب... عن أبي هريرة، قال:

والهجرة الثانية في تاريخ الإسلام كانت إلى المدينة المنورة، حيث غادر النبي صلى الله عليه وسلم وكل شخص من المسلمين يقدر على مغادرة مكة المكرمة؛ لأن الهجرة في ذلك الوقت كانت علامة الإسلام. ولم يُسمح بالتأخر عنها إلا لمن لم يجد إليها سبيلا. ووقائع رحلة النبي صلى الله عليه وسلم هذه معروفة في كتب السيرة والتاريخ. وقد حفظت لنا كتب السيرة والتاريخ أغرب ما جرى خلال تلك الرحلة، من خروج النبي صلى الله عليه وسلم سالما من بين سيوف كفار قريش، وملاحقته من جانب سراقة بن مالك طلبا للجائزة، وإقامته عليه السلام مع رفيق دربه في غار ثور، ونسج العنكبوت على مدخل الغار، ومروره عليه السلام على أم معبد وحلب عنزة لم تكن تُحلب.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده في آخر كتبه القرآن الكريم والفرقان الحميد بالسفر والترحال لأغراض شتى، من الاتعاظ بمن سبق وهلك، وكسب الرزق، ونشر العلم وحفظ الدين، والجهاد في سبيل الله، حيث قال: (قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذّبِينَ)([1])، وقال عز وجل: (فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلّ فِرْقَةٍ مّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لّيَتَفَقّهُواْ فِى ٱلدّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلّهُمْ يَحْذَرُونَ) ([2]) وقال تعالى: (وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً) ([3])، وصرح بأنه سيسأل من لم ينج بدينه من مكان لم يكن آمنا فيه على إيمانه: (إِنّ ٱلّذِينَ تَوَفّىٰهُمُ

كان جعفر يحب المساكين ويجلس إليهم ويخدمهم ويخدمونه، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكنيه أبا المساكين، وقال النبي صلى الله عليه وسلم:"أشبهت خَلقي وخُلقي".... هاجر إلى الحبشة، فأسلم النجاشي ومن تبعه على يديه وأقام جعفر عنده. ثم هاجر منها إلى المدينة. فقدم والنبي صلى الله عليه وسلم بخيبر... وعن عائشة، قالت: لما قدم جعفر وأصحابه استقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقبل ما بين عينيه.... استشهد بمؤتة من أرض الشاما مقبلا غير مدبر مجاهدا للروم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، سنة ثمان في جمادى الأولى، وكان أسن من علي بعشر سنين... عن ابن عمر، قال: كنت معهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفرا، فوجدنا فيما أقبل من جسمه بضعا وتسعين بين طعنة ورمية، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "رأيت جعفرا يطير في الجنة مع الملائكة". انظر: العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، 2012م-1433هـ، ص:224

[1] الأنعام: 11

2 التوبة: 122

3 النساء: 100

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا) ([1]). والآيات في هذا الباب كثيرة.

وأشار القرآن الكريم إلى عدد من الرحلات وبينها رحلة قريش رحلة الشتاء والصيف للتجارة، ورحلة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع زوجه وابنه إلى مكة المكرمة لبناء البيت، ورحلة سيدنا نوح عليه السلام على متن سفينته مع من اتبعه من المؤمنين والحيوانات إلى جبل الجودي، ورحلة سيدنا موسى عليه السلام من مصر إلى مدين والعودة إلى مصر، ورحلته للقاء عبد الله الذي أعطاه علما، ورحلة أصحاب الكهف، ورحلة ذي القرنين إلى الشرق والغرب، ورحلة سيدنا سليمان عليه السلام إلى وادي النمل، ورحلة بلقيس من اليمن إلى فلسطين للقاء سيدنا سليمان، ورحلة سيدنا يوسف عليه السلام من البئر إلى مصر، ورحلة إخوة يوسف من كنعان إلى مصر للميرة، ورحلة أسرة يوسف للقائه، ورحلة طالوت للجهاد، ورحلة موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة، ورحلة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، ورحلته عليه السلام إلى بدر، وللعمرة، ولفتح مكة والحج، ورحلته صلى الله عليه وسلم للإسراء والمعراج، ورحلة السحرة من مختلف أنحاء مصر لمسابقة موسى عليه السلام، ورحلة سيدنا آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض، ورحلة يونس عليه السلام من قريته إلى البحر ووقوعه في بطن الحوت، ورحلة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومن هناك إلى السماوات السبع.. ورحلات أخرى كثيرة.

والأمر المثير في هذه الرحلات كلها، أن الله سبحانه تعالى خص بالذكر المواقف التي فيها غرابة؛ إلا أنني لا أريد أن أطيل الكلام في هذا المجال هنا؛ لأن القصد هو إشارة مختصرة إلى أهمية الرحلة في نظر القرآن الكريم. وهذا الموضوع في حاجة إلى دراسة مفصلة وإعداد بحث مطول يكشف عن لآليه الكامنة؛ لأن الرحلات الواردة في القرآن الكريم تذكر العجائب (قصة موسى مع الخضر) وقضايا تتعلق بعلم

---

1 النساء: 97

الجغرافية والمساحة (قصة ذي القرنين) وأوضاع نفسية (السفر الفي البحار وإخلاص الدعاء لله) وسرد الوقائع (قصة سحرة فرعون) وأسباب الرحلة والاغتراب (قصة أصحاب الكهف). وهذا غيض من فيض، والله أعلم وعلمه أتم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أنواع من الرحلات. ومنها:

- **رحلات تجارية:** كما ورد ذلك في سورة قريش، حيث ذكر الله تعالى رحلة الشتاء والصيف كمنّ على قريش، حيث يتمكنون من مزاولة التجارة بدون أي خوف، بينما تتعرض قوافل الآخرين لقطع الطرق.
- **رحلات لطلب العلم:** ومثال على ذلك رحلة موسى عليه السلام للقاء الخضر كما في سورة الكهف حيث يقول له: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ ([1]). وهذا يشير إلى أنه ينبغي مغادرة البيت والأهل لطلب العلم؛ لأن العلم يكشف عن العين غطاء الجهل.
- **رحلة الحج:** الحج من الأركان الخمسة للإسلام. وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم في أمر الله تعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى: (وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) ([2]). والمسلمون من فجر الإسلام يقومون بأداء مناسك الحج، حسب وسائل النقل المتاحة في كل وقت، من الحج مشيا على الأقدام إلى السفر بالطائرات النفاثة والقطارات السريعة والسيارات الفارهة. وقد أنتجت رحلات الحج من أروع الكتب في أدب الرحلة، من تأليف المسلمين القدامى والجدد على حد سواء. وبذلك أصبحت لرحلات الحج ميزة خاصة بين مختلف أنواع كتب الرحلات.
- **الرحلة من أجل الفرار بالدين:** كما أشرت آنفا، أن أول هجرة للمسلمين من مكة المكرمة كانت بسبب اضطهاد قريش. وقد أشار القرآن الكريم إلى أنه لا بد من الرحلة ومغادرة بلاد الكفر عندما يصعب العمل بالدين. وخير مثال على ذلك رحلة

---

[1] الكهف:66

[2] الحج: 27

أصحاب الكهف، حيث يقول الله تعالى: (وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا) ([1]).

وحث القرآن الكريم على الرحلة للفرار بالدين وأكد أن كل من يغادر بلاده للنجاة بدينه وإخلاص العبادة لله تعالى، لن تضيع دنياه أيضا، بل سيجد في الأرض مراغما كثيرا. وقد أكد القرآن الكريم ذلك حيث يقول: (وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ) ([2]). وأشار إلى أن كل من لا يغادر موطنه للنجاة بدينه وهو قادر على ذلك، لن يُقبل عذره. ويُسأل (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ) ([3]).

- **الرحلة للاعتبار بمن مضى:** حث القرآن الكريم أتباعه على الرحلة من أجل الاعتبار والتذكر بمن مضى من القرون. وقال (قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ) ([4]). وهذا يعني أن الرحلة لاستكشاف أحوال الأمم البائدة من المطلوب من منظور القرآن الكريم؛ لأن هلاكها فيه دروس وعبر لمن يتبعها.

الرحلة والتنقل من مكان إلى مكان جزء لا يتجزأ من حياة البشر. ولو لم تكن رحلة أبي البشر آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض، لما وُجد الإنسان على متن الأرض. ولو لم تكن رحلة الجنين من بطن الأم إلى الدنيا، لم تتعمر الأرض ببني البشر. وقد ذكر القرآن الكريم عددا من الرحلات وبينها:

- رحلة قريش للتجارة أي رحلة الشتاء والصيف و
- رحلة سيدنا إبراهيم عليه السلام من مصر إلى واد غير ذي زرع و
- رحلة نوح عليه السلام من موطنه إلى جبل الجودي للنجاة بمن آمن معه من الطوفان و

---

[1] الكهف: 16

[2] النساء: 100

[3] النساء: 97

[4] الروم: 42

- رحلات موسى عليه السلام في مختلف مراحل الحياة، من منزل أمه إلى قصر فرعون في الصندوق، ومن مصر إلى مدين وحيدا، ومن مدين إلى مصر مع أهله وتلقيه الوحي في الطريق في وادي سيناء، ورحلته للقاء عبد لله في مجمع البحرين مع أحد تلاميذه، ورحلته مع ذلك العبد في البحر، وإلى القرية التي لم يستضفهما أهلها، ورحلته إلى فلسطين مع قومه بعد غرق فرعون في اليم، ورحلته إلى الطور مع سبعين رجلا من قومه و
- رحلة يوسف عليه السلام من داره مع إخوته، ثم إلى مصر بعد إخراجه من البئر، و
- رحلة إخوة يوسف عليه السلام إليه لطلب الميرة، ثم للاقتطان في مصر و
- رحلة أصحاب الكهف من منازلهم إلى الكهف الذي لجأوا إليه و
- رحلة ذي القرنين إلى المشرق والمغرب وإنشائه سدا لمنع يأجوج و مأجوج من الفساد في الأرض و
- رحلة ملكة سبأ للقاء سليمان عليه السلام و
- رحلة سليمان عليه السلام للجهاد ومروره على وادي النمل و
- رحلة طالوت للجهاد و
- رحلة عزير عليه السلام إلى القرية التي خوت على عروشها و
- رحلة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الطائف للدعوة و
- رحلته عليهم السلام للهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة و
- رحلته عليه السلام للعمرة وبيعة الرضوان و
- رحلته عليه السلام لبدر و
- رحلته عليه السلام إلى أحد للجهاد و
- رحلته عليه السلام إلى مكة المكرمة لفتحها و
- رحلته عليه السلام إلى حنين للغزو و
- رحلة الساحرين إلى لقاء فرعون ومواجهة موسى عليه السلام و
- رحلة يونس عليه السلام من قريته إلى البحر ووقوعه في بطن الحوت و

- رحلة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى ومن الأقصى إلى السماوات أي الإسراء والمعراج. و
- رحلة أنبياء إلى قرية للدعوة، كما هي مذكورة في سورة يس. ورحلات أخرى.

عنصر الغرابة في الرحلات المذكورة في القرآن الكريم:

وبما أن الغرابة من أكبر سمات الرحلات، فإن القرآن الكريم أيضا حفظ لنا الغرائب من الرحلات التي أشرنا إليها آنفا، ولم يأبه بالأمور المعتادة. على سبيل المثال ذكر من رحلات موسى عليه السلام المواقف الغريبة، من الورود على ماء مدين، وسقيه لبنات شعيب عليه السلام، وذكر في رحلة العودة أنه آنس نارا في الطريق، فلما ذهب إلى النار اختاره الله نبيا، ثم لقاءاته مع فرعون. وذكر في رحلة ذي القرنين حقائق جغرافية وقوما غريبا تلفحهم أشعة الشمس بدون أي ستر، وفي رحلة موسى عليه السلام للقاء الخضر ذكر تسلل حوت مطهي من زنبيل يوشع عليه السلام إلى البحر، وفي رحلة أصحاب الكهف ذكر سبب فرار الفتية من مدينتهم واطلاع الناس عليهم بزيارة أحد أصحابهم للمدينة. وفي رحلة السحرة إلى مصر، خص بالذكر ما حدث في الميدان عندما ألقوا حبالهم وعصيهم وسحروا أعين الناس.

وهكذا نرى أن القرآن الكريم خص بالذكر في الرحلات التي أشار إليها بطول أو بقصر، مواقف غريبة. وفيه دليل على أن الرحلات لا تخلو من الغرائب والعجائب. وينشأ بعض الغرائب من موقف الرحالة أيضا؛ لأنه يكون مسافرا غريبا، بأرض غير معهودة من قبل أو بوضع لم يمر به من قبل. وهكذا تقدم الرحلات موادا خصبة لعدة علوم ومعلومات تهم كل شخص.

الرحلة اصطلاحا

وصف المعجم الوسيط الرحلة بـ "كتاب يصف فيه الرحالة ما رأى".[1] وعلى الرغم من أن هذا التعريف لا يستوعب جميع جوانب الرحلة؛ لأن الرحلة لا تتضمن وصف الرحالة لما رأى فقط، بل ما سمع من الآخرين أو ما فكر فيه، أو معاني جادت بها قريحته. وذلك لأن الرحالة لا يكتفي فقط بوصف ما رآه، بل يقوم بالتعليق على ما

[1] المعجم الوسيط، ص:335

يرى إضافة إلى نقل ما رآه إلى القارئ، إلا أنه يعرف الرحلة بأنها "كتاب يصف فيه الرحالة ما رأى". ويبدو من هذا التعريف أن كلمة الرحلة تُطلق على كتاب يحوي بين دفتيه مشاهدات الرحالة.

وهذا ما أشير إليه في المعجم المفصل في اللغة والأدب، حيث تم تعريف أدب الرحلات كما يلي:

"أدب الرحلات: وهو الأدب الذي يضمنّه الكاتب الرحالة انطباعاته، ومشاهداته في الأقطار المختلفة التي يزورها. وتشمل على وصف الطبيعة الجغرافية، كما تشتمل على وصف عادات الناس وتقاليدهم وأنماط حياتهم وتفكيرهم، ونبذا عن تاريخهم البعيد والقريب. فيجعلها في بعض الأحيان مرجعا وثائقيا تاريخيا هاما وموضوعا للدراسات المقارنة في مختلف مجالات الأدب والفكر والحياة".([1])

وأرى أن هذا التعريف أشمل لمختلف جوانب الرحلات، كما سيأتي ذكرها، لأنه يحتوي على الرحلات التاريخية، والثقافية، والاستكشافية أيضا. ومن أهم أجزاء الرحلة وفق هذا التعريف، هو أن تتضمن انطباعات الرحالة. وإذا فرضنا هذا القيد احترازيا، فهو يعني أنه إذا خلت الرحلة من انطباعات الرحالة، فهي مجرد سرد لمجريات السفر وليست رحلة.

ومن المعروف أن الرحلات جزء هام من الأدب في أي لغة من لغات العالم. وقد اهتمت بها الشعوب منذ أقدم العصور. كما أن الرحلة اكتسبت أهمية خاصة في الأدب الإسلامي واشتهر الكثير من العلماء الرحالين في حقبات مختلفة من الزمن. ورغم أن العالم أصبح الآن مثل قرية صغيرة بفضل وسائل الإعلام الحديثة، وأصبحت المعلومات عن أي مكان في متناول كل أحد؛ لكن مع ذلك لا تزال الرحلات تحظى بمكانة خاصة؛ لأنها تنقل إلى القارئ المعلومات المبنية على تجربة الكاتب.

---

[1] بديع، إميل، وميشال عاصي، المعجم المفصل في اللغة والأدب، ج1/60-61، بيروت، دار العلم للملايين، ط 1، 1987م

ما هي الرحلة؟ وما مفهومها؟

يكتب (مرزا حامد بيك) في كتابه "*اُردو سفرنامے کی مختصر تاریخ*" في إشارة إلى ماهية الرحلة وكنهها وتعريفها الفني، وعلى الرغم من أنه قال إنه لم يمكن تحديد تعريف للرحلة بعد، لكن مع ذلك قدم إطارا أوسع لتحديد ذلك التعريف. فيقول:

''خارج سے متعلق بیانیہ اصناف ادب میں سفر نامہ سر فہرست ہے لیکن شاید سفر نامہ واحد نثری صنف اظہار ہے جس کی تکنیکی تعریف کا تعین تاحال ممکن نہیں ہو سکا۔ کچھ یہی سبب ہے کہ سفر نامہ کبھی روزنامچے کے رنگ میں لکھا گیا اور کبھی خطوط کی شکل میں۔ اس میں مکالمے کی شمولیت بھی ممکن ہے اور اس میں خبر پہنچانے کا انداز بھی کھپ جاتا ہے۔ پیش منظر کا سفر نامہ اسلوبی سطح پر ''نان فکشن'' رہتے ہوئے بھی فکشن کا انداز اختیار کر گیا ہے۔ البتہ سفر نامے میں پیش آنے والے واقعات فکشن کی طرح ترتیب نو کے متحمل نہیں ہوتے اور جہاں کہیں بھی ایسا کیا گیا ہے سفر نامہ ناول یا افسانہ بن گیا ہے، سفر نامہ نہیں رہا۔ البتہ سفر نامہ ایک ایسی ''نان فکشن'' ضرور ہے جس میں ابتدا، وسط اور اختتامیہ کی تعمیر میں فکشن کی جھلک ملتی ہے۔۔۔۔ یوں کہا جاسکتا ہے کہ سفر نامے میں ابتداء، وسط اور اختتامئے کی حد تک فکشن کے انداز کی انتخابیت کی اجازت ہے۔''(1)

''سفر نامہ بعض اوقات اپنی حدود کے پھیلاؤ میں آپ بیتی میں بھی ڈھلنے لگتا ہے لیکن یہ کہنا مناسب ہو گا کہ سفر نامہ آپ بیتی سے جدا کی گئی ایک قاش کے مماثل تو ہے لیکن نری آپ بیتی نہیں۔ عجب بات ہے کہ ہمارے ہاں سفر نامے اور رپورتاژ کا فرق بھی مٹا ہوا ہے حالانکہ جہاں تک رپورتاژ (Reportage) کی صنف کا تعلق ہے تو کہا جاسکتا ہے کہ رپورتاژ میں سفر کو بنیاد تو بنایا جاسکتا ہے، البتہ اس میں تخیل کی رنگ آمیزی اور خارج سے متعلق اپنے نقطہ ء نظر کی تشریح و توضیح اسے سفر نامے سے الگ کر دیتی ہے۔

یوں کہا جاسکتا ہے کہ سفر نامہ واقعات کی تفصیل و تشریح پیش کرتا ہے اور رپوتاژ میں پیش آنے والے واقعات سے لیا گیا تاثر۔ اور اس تاثر کی تخلیقی پیش کش میں خارج کی رپورٹنگ کے ساتھ داخلی عناصر اور تخیل کی رنگ آمیزی اضافی عناصر ہیں۔ رپورتاژ کے یہی چند ہتھیار ہیں جن کے ذریعے مصنف اپنے موضوع کی سماجی اہمیت کو اجاگر کرتا ہے۔

''سو طے پایا کہ رپورتاژ کے لئے سفر ضروری نہیں البتہ کسی سفر سے متعلق بھی رپورتاژ لکھنا ممکن ہے جبکہ سفر نامے کے لئے سفر شرط ہے۔''(2)

---

[1] بیک، مرزا حامد، *اردو سفرنامے کی مختصر تاریخ*، لاہور، اورینٹ پبلشرز، بدون تاریخ، ص:9

[2] *اردو سفرنامے کی مختصر تاریخ*، ص:10

"مختصراً یہ کہا جاسکتا ہے کہ سفر نامہ ہر ادب کی ایک مستقل بیانیہ صنف ہے جس میں خارجی مشاہدے کو تخیل پر فوقیت حاصل ہے، البتہ سفر سے متعلق ہونے کے باعث سفر نامے میں تحیر کا عنصر نمایاں تر ہے لیکن یاد رہے کہ مستقل ادبی صنف ہونے کے ناطے سفر نامے کی پیش کش ادبی نوع کی ہو گی نہ کہ محض مسافر کا بیان۔ اس لئے بامر مجبوری سفر اختیار کرنے والے ہر مسافر کا سفری احوال ادب کی ایک مستقل صنف، سفر نامہ یا سیاحت نہیں کہلائے گا۔"(1)

"الرحلة على رأس قائمة أصناف الأدب التي تتعلق ببيان الخارج؛ لكنها النوع الوحيد من الأدب المنثور الذي لم يمكن تحديد تعريفه الفني بعد. وبناء على ذلك فإن الرحلة، قد كُتبت بلون اليوميات، وأحيانا بلون الرسائل. كما يمكن ضم الحوار أيضا إليها، وأنها تسع لاستيعاب أسلوب الإخبار أيضا. وأن الرحلة تلونت بلون الخيال على مستوى الأسلوب، رغم أنها "غير الخيال"؛ إلا أن الرحلة لا تسع لإعادة ترتيب الوقائع التي حدثت خلالها. وكلما تعرضت الرحلة لذلك – لإعادة ترتيب الوقائع–، أصبحت رواية أو خيالا ولم تعد رحلة. مع ذلك، فإن الرحلة هي "غير الخيال" التي توجد في بدايتها ووسطها ونهايتها لمحة من الخيال.... ومن هذا المنطلق يمكن القول إن هناك مجالا لاختيار أسلوب الخيال والرواية في بداية الرحلة ووسطها ونهايتها".

" بعض الأحيان تتحول الرحلة في سعة حدودها إلى السيرة الذاتية؛ لكن ينبغي القول إن الرحلة تماثل قطعة مقطوعة من السيرة الذاتية؛ لكنها ليست السيرة البحتة. ومن الغريب أن الفرق بين الرحلة والتحقيق الصحفي (الريبورتاج) قد اندثر، رغم أن التحقيق الصحفي وإن كان يمكن اعتبار السفر أساسا له، فإنه يختلف عن الرحلة بسبب تلوين الخيال وإيضاح موقف الكاتب وشرح فكره عن الخارج.

وبناء على هذا يمكن القول إن الرحلة تقدم تفصيل الوقائع وشرحها، بينما يقدم التحقيق الصحفي الانطباع الناشئ عن تلك الوقائع. وأن تلوين الخيال والعناصر الداخلية، أجزاء إضافية للتقديم الإبداعي للخارج. وهذه هي بضعة أنواع من السلاح للتحقيق الصحفي التي يستغلها الكاتب لبيان الأهمية الاجتماعية لموضوعه.

---

[1] نفس المصدر، ص: 10-11

وتقرر أن الرحلة ليست ضرورية لإعداد التحقيق الصحفي؛ لكن يمكن كتابة التحقيق الصحفي عن أي رحلة أيضا، بينما السفر يعتبر شرطا لكتابة الرحلة.

وملخص الكلام أنه يمكن القول إن الرحلة نوع بياني مستقل من كل أدب، حيث تتفوق فيه المشاهدة الخارجية على التخيل؛ لكن تغلب عليها الحيرة والتعجب لكونها متعلقة بالسفر. وجدير بالذكر أن تقديم الرحلة سيكون في نوعه أدبيا، لكونها نوعا مستقلا من الأدب ولن تكون مجرد سرد لحكايات مسافر. وبناء عليه فإن أحوال كل مسافر اضطر إلى السفر رغم أنفه، لن تقع ضمن الرحلة والسياحة التي تعتبر نوع مستقل من الأدب."([1])

أنواع الرحلات

من هذا المنطلق يمكن تقسيم الرحلات إلى نوعين:

- الرحلات الأدبية
- والوقائع السفرية

ويمكن تقسيم النوع الثاني إلى ثلاثة أنواع أخرى فرعية:

- أولا: رحلات تقدم المعلومات فقط وليست لها ميزة أدبية
- ثانيا: رحلات تشبه اليوميات، قد تصبح المواد الخام لترتيب السيرة الذاتية
- ثالثا: رحلات تُكتب فقط لملء بطون المجلات والجرائد، وتتحدث عن الحب والمعلومات الجغرافية أو لبيان أوضاع الحكام.[2]

رأي أنور سديد حول ماهية الرحلة

يقول أنور سديد بعد إلقاء ضوء على بداية الرحلة، والمراحل التي مرت بها في التاريخ، إن التجار الذين كانوا يتجولون في مناطق أخرى لغرض التجارة، كانوا يصطحبون معهم كتبا عن بلادهم. ويذكرون ما في بلادهم أمام أهالي المناطق التي يزورونها. وهكذا كانت تلك الكتب تتسبب في إثارة الفضول لديهم لمعرفة ما في تلك البلاد. ومن هذه الناحية فإن الرحلات ليست مجرد كتب، بل إنها جسور تعرّف سكان

---

[1] ترجمة النصوص الأردية إلى العربية للباحث.

[2] انظر، *اردو سفرنامے کی مختصر تاریخ*، ص: 11

بلاد إلى بلاد أخرى ليست بينهم صلة لون ولا لغة، وتقدم لهم معلومات جغرافية وتاريخية وثقافية وحضارية.[1]

وفي تعريف الرحلة، يرى أنور سديد أن الرحلة تشمل مشاعر عن السفر وأوضاعه ووقائعه. ومن الناحية الفنية هي البيانية التي يرتبها الرحالة من مشاهداته، وكيفيته وما ورد في قلبه خلال تلك الرحلة، أثناء الرحلة أو بعد الانتهاء منها. وأن مواد هذا الصنف من الأدب تكون مبعثرة حول المشهد المنظور؛ لكن يجب أن نعرف أن الرحالة لا يقوم بمشاهدة الأمور الخارجية فقط، بل يضيف إليها أجزاء أخرى لتعزيز سرده بالدلائل وتنويعه.

والرحالة كلما يحظى بدقة النظر، فإنه سيكون أقدر على مشاهدة المنظر بدقة وكتابة التفاصيل، وأن الناظر العامي غير المتعمق يقوم بإعداد المعلومات الجغرافية عن المنظر بسهولة؛ لكنه لا يقدر على قيد أسرار الفطرة والطبيعة التي تنبع عن داخل المنظر وتترشح على ذهن الناظر وقلبه مثل الندى.[2]

ومثل هذه الرحلات تنقل المعلومات الجغرافية والتاريخية والتغيرات الديموغرافية وإحصائيات عن سكان ذلك البلد، لكن الحقيقة أن أي مؤرخ أو جغرافي يقدر على تقديم مثل هذه المعلومات بطريق أفضل من السائح والرحالة؛ لأنه قد نسي أن هذا ليس من وظفية السائح أو الرحالة. وتبنّى الكثير من الرحالين الذين كتبوا باللغة الأردية هذا النمط وجمعوا في رحلاتهم المعلومات التاريخية والجغرافية والمعلومات الأخرى، لتكون زادا للمسافرين بعدهم وتحميهم من الصعوبات التي مروا بها، لكن خرجت بذلك الرحلة من مسارها الحقيقي. وهذا ما اعترف به شبلي النعماني[3] في رحلته إلى مصر والشام،

---

[1] انظر، *اُردو اَدب میں سفرنامہ*، ص:46

[2] *اُردو اَدب میں سفرنامہ*، ص:46

[3] شبلي النعماني: مؤرخ وأديب وعالم وناقد، ولد في بندوال بالهند في 4 يونيو 1857م وتوفي في 18 نوفمبر 1914م. برع في العلوم الإسلامية والأدبية والتاريخ. وخلف كتبا قيمة في التاريخ والنقد والسيرة والأدب باللغة الأردية. وكان له أثر على كبار القيادات في الهند الإنجليزية من أبي الكلام آزاد وسيد سليمان الندوي ومهاتما غاندي وأخرين. وأنشأ كلية باسمه عام 1883م، كما قام بإنشاء دار المصنفين في أعظم كر، وهي لا تزال قائمة وتنشر كتبا قيمة متنوعة.

حيث قال إن كل من يقرأ هذه الرحلة كرحلة، فإنه لن يتمتع بها كثيرا؛ لكن الذين يستمتعون بمعرفة كل صغير وكبير يحدث في العالم الإسلامي، فأقدّم لهم ما حضر عندي؛ لأن ما لا يُدرك كله لا يترك كله.[1]

تعريف أدب الرحلة

يقول عماد الدين خليل في مقدمة كتابه "من أدب الرحلات":

" فأدب الرحلة ليس بحثا في التاريخ ولا وصفا جغرافيا... كما أنه ليس قصة قصيرة أو رواية أو قصيدة شعر، وإنما هو هذا وذاك. ومن ثم يكتسب خصائصه المتميزة وطعمه العذب.... وقدرته في الوقت نفسه على تلبية مطالب المؤرخين والجغرافيين والأدباء الذين يطمحون لمعاينة الوقائع، وسبر غورها العميق.

إنها حركة في الطول والعرض والعمق... تجوال في جغرافية الأماكن والظواهر والأشياء.... وإيغال في النبض الذي يكاد يغيب عن العيان، ولكنه ما يلبث أن يمنح سخاءه لأولئك الذين ينصتون جيدا للأصوات البعيدة، وهي تتشكل تحت جلد الظواهر والخبرات....

وأدب الرحلة.... في بدء الأمر ومنتهاه ... هو محاولة لاكتشاف سر الأشياء.... والتعرف على تكوينها الذي يبدو أحيانا ككتل الجليد العائمة في المحيطات والبحار، لا يظهر منها سوى العشر، وتبقى الأعشار الأخرى مغيبة تحت الماء...."[2]

ويقول فؤاد قنديل في نهاية كتابه "أدب الرحلة في التراث العربي":

"وأحسب أني بعد هذه الرحلة مع هذه الكوكبة الفريدة الجسورة من أبناء الأمة العربية، قد زاد يقيني بما استهدفته من هذه الدراسة، وهو أن أدب الرحلات في التراث العربي، قد نهل من نبعين: نبع السفر والترحال الذي شجع عليه الإسلام، ونبع أصيل هول البوتقة الإبداعية القصصية والروائية التي يتميز بها العربي، وثائق مخيلته التي أعانته على صياغة نسيج مدهش يصلح للرواية والسمر".(3)

---

[1] انظر، *اردو ادب میں سفرنامہ*، ص: 46-47

[2] خليل، عماد الدين، من أدب الرحلات، دار ابن كثير، ط 1426هـ/2005م

[3] قنديل، فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، ص: 543، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1423هـ/2002،

وقال فؤاد قنديل:

"إنني أزعم أن أدب الرحلات أوشك أن يكون – كالفلسفة- تراثا فقط، لا جديد يمكن أن يضاف إليه بعد أن تيسر السفر والانتقال لكل إنسان، واستطاعت وسائل الإعلام بتقنياتها الهائلة أن تجعل من العالم قرية صغيرة، وكتابا مفتوحا لأغلب شعوب الأرض."(1)

وكتب فؤاد قنديل أن الرحالة جابوا الأرض المعمورة في أزمانهم ودونوا ملامحها الإنسانية والاقتصادية والمعمارية والثقافية والجغرافية وخدموا العلم مثل خدمتهم الفتوحات الإسلامية؛ إلا أن ثمار تلك الجهود العظيمة لا تزال بعيدة المنال أو في طي مخطوطات لم تقع في أيدينا بعد، رغم أن هذا التراث العظيم في حاجة ماسة إلى التنقيب عنه وكشف القناع عنه.ويرى فؤاد قنديل أن هناك تلازما بين أدب الرحلة والنهضة. وأن الرحلة تتقدم النهضة.[2]

الرحلة في العصور الوسطى

أشار زكي محمد حسن في مقدمة كتابه "الرحالة المسلمون في العصور الوسطى" إلى الرحلات التي قام بها الرحالة المسلمون في العصور الوسطى بين القرن الثالث الهجري حتى القرن التاسع الهجري. وكانت بداية تلك الرحلات في دولة إسلامية واسعة الأرجاء تمتد من الأندلس إلى الصين.

وكانت الرحلات ببواعث مختلفة من أداء مناسك الحج إلى طلب العلم ومزاولة التجارة والكشف الجغرافي. وأن الرحلة في ذلك الزمان من أكبر سبل العلم بسبب ندرة الكتب وعدم توفر مرافق التعليم في موضع واحد.

واتسع نطاق التجارة لدى المسلمين لم يبلغ عند شعب آخر قبل اكتشاف أمريكا. وكانت رحلات التجارة بحرا وبرا. وقد وصل التجار المسلمون إلى بلاد بعيدة نائية في أوروبا وأفريقيا. ويدل على ذلك العثور على نقود إسلامية في أيسلندا و بريطانيا و روسيا و فنلندا و السويد و النرويج و سويسرا تعود إلى نهاية القرن الأول الهجري

---

[1] نفس المصدر، ص: 13-14

[2] انظر، أدب الرحلة في التراث العربي، ص :6-7

وبداية القرن الخامس الهجري أي من القرن السابع إلى الحادي عشر الميلادي. وهذا يدل على مدى نفوذ المسلمين وسيادتهم على التجارة في تلك البقاع النائية.

وتشير كتب الرحلات وتقويم البلدان إلى ترددهم إلى جنوبي الروسيا وأوروبا الوسطى. وقد كتب المقدسي عن السلع التي كان المسلمون يحصلون عليها من روسيا والبلاد الأوروبية الشمالية. وكان بعض المسلمين في تلك العصور يجمعون بين التجارة والعلم. فكانوا يزاولون التجارة لفترة ليحصلوا على العلم لفترة أخرى وهكذا كانوا يجمعون بين المال والعلم.

ويرى زكي محمد حسن أن التخفيف في الأحكام الإسلامية خلال السفر وحث الإسلام على الارتحال من بين أسباب كثرة الأسفار عند المسلمين الأوائل. وبناء على ذلك كان الرحالة يجدون في أقصى ما يصلون إليه من بقاع العالم خلال رحلاتهم بعض معارفهم وأقاربهم أيضا.

وما كتب الرحالة عن رحلاتهم وأسفارهم بين القرن الثالث والتاسع الهجري، كثير جدا؛ إلا أن الرحالة لم يدونوا رحلاتهم في كتب بذاتها إلا نادرا. وبالتالي وصل إلينا كتب قليلة عن الرحلات؛ لكن المعلومات التي قدموها توجد في طيات الكتب الأخرى.[1]

نظرة عابرة على الرحلات

بدأت الرحلة منذ أن دب الإنسان على الكرة المعمورة، إذ أنه كان في حاجة إلى التنقل والارتحال لمعرفة محيطه أو الكشف عن أسرار ما حوله بقصد التعرف عليه أو السيطرة عليه وتسخيره لخدمته. وبذلك يتنقل من مكان إلى مكان ومن بقعة إلى بقعة، ويحمل معه المعلومات عن كل جديد يشاهده أو يجربه أو يسمع عنه. وبما أن أول البشر هبط من الفردوس إلى هذه الأرض، فإن أبناءه سعوا للوصول إلى السماء، وحطوا رحالهم بسطح القمر أيضا.

---

[1] انظر، حسن، زكي محمد، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، بيروت، دار الرائد العربي، ط 1401هـ /1981م، ص : 6-14

تستمر هذه الرحلات منذ بداية البشرية ولا يُعرف لها حد في هذا الزمان أيضا، حيث طوت وسائل النقل الأرض، ومكنت البشر من الانتقال من موقع إلى آخر بكل سهولة، وأصبحت الأسفار التي كانت تحتاج إلى شهور وسنوات، تُقطع في ساعات، لكن مع ذلك لم تنل هذه الأمور من قيمة أدب الرحلات. ولا يزال الرحالون يدونون مشاهداتهم خلال رحلاتهم في مختلف أنحاء العالم.[1]

وقد ذكر حاجي خليفة (ت 1067هـ) بعض أهم كتب الرحلات في كشف الظنون أيضا. وبينها رحلة الشيخ ابن حبيب، ورحلة ابن خلدون، ورحلة ابن الرشيد، ورحلة ابن الصلاح، ورحلة أبي القاسم الأندلسي ورحلة بدر الدين محمد، ورحلات أخرى. ([2])

أهمية الرحلات

تكسب الرحلات أهمية وقيمة بسبب علاقاتها مع العلوم الأخرى؛ لأن الرحلة تحتوي على مشاهدات الرحالة أو ما يسمعه من الناس خلال الرحلة، إضافة إلى تعليقاته واهتمامه بمظاهر مختلفة مناحي الحياة. ويختلف الرحالون في مشاهداتهم وميولهم ورغباتهم. وهذا ما يضفي لونا خاصا على كل رحلة، إذ يولي رحالة اهتماما خاصا لدراسة الظاهرة الجغرافية والطبيعية لأي بقعة من الأرض يطويها في رحلته، بينما الآخر يهتم بالتجارة والاقتصاد وأسلوب حياة الناس، وثالث يهتم بالتاريخ ونواح أخرى من المجتمع. كما يختلف الرحالون في دقة ملاحظاتهم، وصدقهم وأمانتهم، إضافة إلى فهمهم للأمور. وهكذا تضيف كل رحلة قيمة علمية أو أدبية إليها.

أما القيمة العلمية فهي أن الرحلات تقدم مادة دسمة للباحثين في علم الجغرافيا والتاريخ والعلوم الاجتماعية والاقتصادية، بينما القيمة الأدبية هي أن ترقى الرحلات إلى مقاييس الأدب في أسلوبها وسردها. وعلى الرغم من أن الرحلة ليست جغرافيا ولا أدبا؛ إلا أنها ترقى إلى المستوى الأدبي، إذ أنها تحوي على أساليب السرد القصصي والحوار

---

[1] انظر، حسين، حسني محمود، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1403هـ /1983م، ص: 6

[2] انظر، كاتب جلبي، حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت، دار الكتب العلمية، 2000م، الطبعة الأولى، ج 164/2

والوصف، وتجمع الأساليب المختلفة فيها بدون أن تحتوي على مقالات أدبية خاصة من نسج الخيال.

وتحتوي الرحلات باللغة العربية على مادة أدبية رفيعة في فن القصة والسرد. كما أن رحلات العرب المسلمين في العصور الوسطى تعتبر مادة أساسية في علم الجغرافية إذ أنها تشمل معلومات مفصلة عن البلدان الإسلامية وحدودها ومواردها. وكل ذلك حدث قبل أن يبدأ الأوروبيون رحلاتهم الاستكشافية.[1]

دوافع الرحلات وأسبابها

كان عرب الجاهلية يقومون بالرحلات والأسفار قبل الإسلام أيضا. وكانت معظمها رحلات تجارية إلى الشام و اليمن وبلاد فارس؛ لكن لم يتم تدوينها. كما أن الشعراء كانوا يقومون برحلات داخلية في جزيرة العرب، إضافة إلى الرحلات التي تقوم بها القبائل من منطقة إلى منطقة والرحلات الحربية التي كانت تدفعهم إلى التنقل من مكان إلى مكان.

ومع بزوغ شمس الإسلام في مكة المكرمة، تغيرت دوافع الرحلات وأسبابها لدى المسلمين. واستفادوا من الخبرات السابقة والتجارب الماضية للرحلات. ومن الممكن تلخيص دواعي الرحلات كالتالي:

- **رحلات للفتوحات الإسلامية:** كانت الغزوات والرحلات للجهاد من أهم دواعي ارتحال المسلمين من أوطانهم في الجزيرة العربية. فكانوا يخرجون من بيوتهم ويستقرون في أماكن جديدة من الدولة الإسلامية التي امتدت من المغرب إلى الصين خلال فترة قصيرة.
- **إدارة البلاد المفتوحة:** كان المسلمون يحتاجون إلى معلومات دقيقة لإدارة البلاد التي فتحوها وضموها إلى الدولة الإسلامية. فقد أنشأوا إدارة البريد والخراج والإدارات الأخرى. فكان الرحالون يتجولون في الدولة الإسلامية للاطلاع على أوضاع مناطق مختلفة ويدونون المعلومات الجغرافية والاجتماعية عنها. وكان أصحاب الخراج لهم الباع الطويل في تدوين هذه المعلومات. وخير دليل على ذلك

---

[1] انظر، أدب الرحلات عند العرب، ص : 7-9

كتاب "المسالك والممالك" لابن خردازبه الذي كان يتولى البريد في الدولة العباسية. وقد دون ذلك الكتاب كتقرير عن جباية الدولة عام 230هـ في سامراء. ولا يقل عنه أهمية كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، الذي بين فيه الطرقات والمسافات بين البلدان المختلفة وجبهات الدولة وأخبار الناس. وكان المسلمون حينذاك بدأوا يولون أهمية لعلوم الجغرافية اليونانية، قبل أن تنشأ علوم جغرافية خاصة بهم.

- **رحلات الحج**: فرض الإسلام الحج على كل مسلم يستطيع إليه سبيلا. فكانت الرحلة لأداء مناسك الحج من أهم الرحلات في حياة المسلمين. فقام الكثير من الرحالين بمغادرة بلادهم لحج بيت الله الحرام، فيعودون ليدونوا مشاهداتهم وتجاربهم التي مروا بها خلال تلك الرحلات ويصفون طرق الحج، والمسافات بين منازل الحجاج ومحطات القوافل، والمعلومات الأخرى التي تهم أي حاج أو معتمر.
- **رحلات لطلب العلم**: مع توسع رقعة الدولة الإسلامية، ونشوء مدن كبيرة، بدأت حركة واسعة لتلقي العلم. فكان الطلاب يتجولون بين مدن الدولة الإسلامية لتلقي العلوم في مراكز العلم. فكانت رحلات لطلب علم الحديث، وأخرى لطلب العلوم العربية والعلوم الأخرى. فكانوا يدونون ما جرى خلال تلك الأسفار ليكون دليلا لمن يتبعهم في هذا الطريق.
- **السفارة والبعثات إلى الدول الأخرى**: عندما توسعت الدولة الإسلامية، كان لا بد لها من علاقات مع الدول التي تتاخم حدودها. وهكذا توسع نطاق صلاتها بالمناطق المجاورة لها عن طريق البعثات والسفارات. وهذه الرحلات فتحت أبواب معرفة علمية جديدة أمام المسلمين. ومن أهم الرحلات في هذا المجال رحلة سلام الترجمان الذي بعثه الخليفة الواثق بالله([1]) لمشاهدة السد الذي أنشأه الإسكندر لمنع يأجوج و مأجوج من الفساد في الأرض. فقام سلام الترجمان برحلة طويلة إلى "دربند" ودون

[1] الواثق بالله (هارون بن المعتصم): خليفة عباسي (227-232هـ/842-847م). شُغل بالاختلافات الكلامية. وناصر المعتزلة وامتحن الناس في خلق القرآن. انظر، المنجد في الأعلام، ص: 608

مشاهداته في كتاب. وبعد ذلك يأتي دور ابن فضلان الذي بعثه الخليفة المتقدر بالله([1]) إلى بلاد البلغار للقاء ملكها بعد أن أسلم الكثير من البلغار. فكانت رحلته أول رحلة إلى المناطق الروسية.[2]

نبذة عن الرحلة والرحالين في التراث العربي

إن التراث العربي مليء بالرحالة الذين قاموا برحلات جغرافية واستكشافية ورحلات الحج، والرحلات البحرية والبرية. وفيما يلي نقدم قائمة بأسماء أهم الرحالين العرب. وهي غيض من فيض. وهناك غنى من الكتابة في هذا الموضوع، لكثرة الكتب والبحوث المدونة في هذا الصدد. لذلك لن نطيل في هذا الموضوع. وفيما يلي قائمة بأهم الرحالين حسب القرون.

- لا يخلو القرن الأول والثاني الهجري من الرحالين؛ لأنه كان زمن امتداد الإسلام إلى البلدان الأخرى خارج الجزيرة العربية. والمسلمون قاموا بتأمين المعلومات التي كانت دولتهم تحتاج إليها بطرق مختلفة؛ إلا أن الرحلات بمفهومها الأدبي لم تكن معروفة.
- القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي): من أشهر الرحالين في هذا القرن هم: محمد بن موسى المنجم و سلام الترجمان و سليمان التاجر و ابن وهب القرشي و اليعقوبي و ابن خردازبة و ابن رستة و ابن الفقيه.
- القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي): من أهم الرحالين في هذا القرن، هم: أبو زيد البلخي و ابن فضلان والإصطخري و قدامة بن جعفر و الشبيبة المغرورون و المسعودي و ابن حوقل و أبو دلف و المقدسي و المهلبي.
- القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي): من أهم الرحالين في هذا القرن، هم أبو الريحان البيروني([1]) و ابن بطلان و أبو عبيد البكري.

---

[1] المقتدر بالله (جعفر بن المعتضد): الخليفة العباسي الثامن عشر، (295-320هـ/908-932م) حاول القضاء على نفوذ مؤنس أمير الأمراء، فقتل. في عهده ظهر الخلفاء الفاطميون في إفريقيا عام 909م والأمويون في قرطبة 929م. وأغار القرامطة على العراق واحتلوا مكة 930م ونقلوا الحجر الأسود إلى الإحساء. انظر، المنجد في الأعلام، ص:541

[2] انظر، أدب الرحلة عند العرب، حسين، الدكتنور حسني محمد، ص : 8-11

- القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي): من أشهر الرحالين في هذا القرن، أبو بكر بن العربي و الإدريسي و أبو حامد الغرناطي و أسامة بن منقذ و ابن جبير و الهروي.
- القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي): من أهم الرحالين في هذا القرن، هم البغدادي و ياقوت الحموي و ابن سعيد الأندلسي و العبدري.
- القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي): من أهم الرحالين في هذا القرن هم: أبو الفداء و التجاني و ابن بطوطة و ابن خلدون.[2]

أدب الرحلة باللغة الأردية، وأهم الرحالين ورحلاتهم

بداية الرحلات باللغة الأردية:

- تعود الرحلات عن الهند إلى القرن الثالث قبل الميلاد. كما أن الوقائع التي كتبها الملوك المغول ومذكراتهم أيضا تعتبر مصادر قديمة عن الحضارة الهندية. وأضيفت الصبغة الدينية إلى الرحلات في الهند بعد رحلات الشاه رفيع الدين والشاه ولي الله الدهلوي([3]) عن الحج. كما توجد في اللغة الأردية رحلات ساخرة وأخرى منظومة أيضا.

---

[1] الإمام العالم الأستاذ: أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، المنجم، أحد الحكماء المشهورين والعلماء المذكورين والأفاضل في الصناعة الطبية، والأماثل في علم الهندسة والهيئة والنجوم وحكمة الهنود. ذكره ابن أبي أصيبعة في "طبقات الأطباء" وقال: منسوب إلى بيرون. وهي مدينة في السند. وله كتب عديدة في مختلف العلوم والفنون وقصائد بالعربية. انظر: الحسني، العلامة الشريف عبد الحي بن فخر الدين، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، بيروت، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 1420هـ/1999م، ج 70/1

[2] تم استفاء المعلومات عن الرحالين العرب عبر القرون من كتاب أدب الرحلة في التراث العربي، لفؤاد قنديل.

[3] الشاه ولي الله: شيخ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي: حجة الإسلام بين الأنام إمام الأئمة قدوة الأمة علامة العلماء وارث الأنبياء آخر المجتهدين أوحد علماء الدين زعيم المتضلعين بحمل أعباء الشرع المتين محيي السنة وعظمت به لله علينا المنة، شيخ الإسلام قطب الدين أحمد ولي الله بن عبد الرحيم بن وجيه الدين العمري الدهلوي... ونسبه يتصل بالإمام موسى الكاظم عليه وعلى آبائه السلام. ولد في دلهي في 24 شوال سنة 1114هـ. بدأ الدراسة على أيدي والده الشيخ عبد الرحيم. وأجيز بالتدريس وهو ابن خمسة عشر عاما. درس العلوم العقلية والنقلية المعروفة في ذلك الزمان. وانتفع في الحديث من الشيخ محمد أفضل السيالكوتي. وكان له باع طويل في علوم الحديث والفقه. زار البيت الحرام للحج عام 1143هـ/1703م مع عدد من العلماء وأقام

- تعتبر رحلة يوسف خان كمبل بوش تحت عنوان "عجائبات فرنگ" – غرائب الفرنجة- أول رحلة في اللغة الأردية، وألفها عام 1836م. كما أن هذه الرحلة معروفة بعنوان (تاريخ يوسفي) أيضا.
- وتليها رحلة (نواب كريم خان) الذي كان من أمراء (ججر). وزار لندن عام 1839م كسفير لآخر الملوك المغول في الهند، لمتابعة قضية في محكمة. ودون رحلته تحت عنوان (سياحت نامة) – أي الرحلة-.
- وتأتي بعد رحلة نواب كريم خان، رحلة (سيد فدا حسين) بعنوان (تاريخ أفغانستان)، وطبعت تلك الرحلة عام 1852م. وكان (فدا حسين) في القوات الإنجليزية التي غزت كابول عام 1839م.
- وتُعرف من الرحلات التي تعود إلى القرن التاسع عشر رحلة (المولوي مسيح الدين علوي)، وعنوانها (سفير أود) – سفير ولاية أود-. سافر مسيح الدين إلى لندن عام 1856م وأقام بها أكثر من سبع سنين، ثم زار الديار المقدسة لأداء مناسك الحج وعاد إلى الهند عام 1865م. ودون في رحلته ما جرى له في إنجلترا وخلال رحلة الحج. وهذه الرحلة تعتبر من الرحلات الهامة لتلك الفترة. وهي تلقي ضوء على الأوضاع السياسية أيضا.
- وبعد هذه الفترة الأولى للرحلة بالأردية، يأتي عهد السر (سيد أحمد خان) في الرحلات. وهي المرحلة الثانية في الرحلة بالأردية. وتعتبر رحلة السر (سيد أحمد خان) التي دونها بعنوان (مسافران لندن) – المسافرون إلى لندن- رحلة هامة لذلك العصر. وكان سيد أحمد خان ممن يوالون الحكم الإنجليزي في الهند. وكان بدأ رحلته هذه

بالحرمين الشريفين عامين كاملين وتتلمذ على الشيخ أبي طاهر محمد بن إبراهيم الكردي المدني في المدينة المنورة. وتلقى منه جميع صحيح البخاري وشيئا من صحيح مسلم وكتب أخرى للحديث الشريف. وأخذ موطأ مالك عن الشيخ وفد الله المالكي المكي في مكة المكرمة وحضر دروس الشيخ تاج الدين القلعي المكي. وعاد إلى الهند فبدأ في نشر علوم الحديث. وخلف كتبا قيمة في علوم الحديث والقرآن والتاريخ والفقه وأصول الفقه والعلوم الأخرى. وانتقل إلى رحمة الله عام 1176هـ/ 1762م. انظر: الحسني، العلامة الشريف عبد الحي بن فخر الدين، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، بيروت، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 1420هـ/1999م، ج 6/858-866

بشكل رسائل كان يكتبها إلى أحد أصدقائه؛ لكن ضاع حلقات مهمة منها لأنه توقف عن كتابة الرحلة بسبب معارضة بعض الجهات في الهند.

- ولـ سيد أحمد خان رحلة أخرى بعنوان (سفر نامة بنجاب) – رحلة إلى البنجاب-. وقام بتلك الرحلة أوائل عام 1884م، من أجل جمع التبرعات لإنشاء كلية (علي كر). وهذه الرحلة تلقي ضوء على عزيمته وإخلاصه لعمله.
- ومن الرحلات المهمة لتلك الفترة رحلة (أيدورد هنري بامر). وهو إنجليزي مستشرق كان يجيد اللغة الأردية والفارسية. وقد تعلم اللغة العربية، وترجم القرآن الكريم إلى الإنجليزية، ودون قاموسا إنجليزيا فارسيا. وخلف عدة كتب أخرى أيضا. وله (سفر نامة بامر) – رحلة بامر-. وهي رحلته إلى مصر والبلاد العربية. ونشرت رحلته في حلقات في جريدة (أود أخبار) الأردية التي كانت تصدر من مدينة لكناو. وهي أول رحلة لمستشرق بالأردية.
- وتعتبر رحلة (مولانا جعفر تاني سري) التي ألفها بعنوان (كالا باني) – المياه السوداء، وهي مصطلح كانت تستخدم لجزر أنديمان في بحر الهند. وكان الإنجليز ينفون معارضيهم إلى هناك- وقد قضى هناك أكثر من سبعة عشر عاما وعاد إلى (باني بت) عام 1883م. وهذه الرحلة تسلط الضوء على الاضطهاد والظلم الذي كان يمارس ضد معارضي الحكومة الإنجليزية.
- وكتب (نثار علي بيك) رحلته (سفرنامة يورپ) – رحلة أوروبا- وهي أيضا تعتبر من الرحلات في فترة (سيد أحمد خان). وسلطت هذه الرحلة ضوء على الثقافة والحضارة الإنجليزية، مع الإشارة إلى التقدم التقني الذي حصلت عليه أوروبا في تلك الفترة.
- قام (محمد حسين آزاد) وهو أديب بارع، كان يجيد عدة لغات، برحلة إلى إيران عام 1885م وعاد إلى لاهور عام 1886م. وألف رحلته بعنوان (سير إيران) – سياحة في إيران-. وهذه الرحلة كانت رحلة علمية أدبية. نالت إعجابا من الأوساط العلمية والأدبية في ذاك الزمان. وتلقي ضوء على الثقافة والحضارة الإيرانية.

- ولمحمد حسين آزاد([1]) رحلة أخرى إلى وسط آسيا بعنوان (انيسويں صدى ميں وسط ايشيا كى سياحت) – سياحة في وسط آسيا في القرن التاسع عشر- وقام بتلك الرحلة عام 1865م. وكانت تلك الرحلة، رحلة سياسية، وكان محمد حسين آزاد ضمن وفد رسمي زار تلك المناطق من أجل تفقد أوضاع تلك البلاد.
- ولـ نواب محمد عمر خان، ثماني رحلات بالأردية. وقد قضى نحو خمسين عاما من حياته في رحلات البلاد المختلفة. ومن رحلاته (زاد سفر) – زاد السفر- وهي رحلة داخلية في الهند، و(زاد غريب) – زاد الفقير- وهي رحلة تشمل رحلته إلى العراق وبلاد العرب والعجم ومصر والشام. وقام بزيارة الحجاز المقدس ثلاث مرات. وله رحلة إلى إنجلترا بعنوان (آئينهء فرنگ) – مرآة الفرنجة- وقام بتلك الرحلة عام 1888م وشملت لندن و باريس و إيطاليا وتركيا و سويسرا. ومن رحلاته (سفر نامة رئيس) – رحلة الأمير- وهي رحلة إلى لنكا. وله رحلة إلى بورما بعنوان (نيرنگ رنگون) – غرائب رنكون-، وله سياحة للصين بعنوان (نيرنگ چين) – غرائب الصين-. وإضافة إلى هذه الرحلات، له رحلتان أخريان إلى أوروبا.
- وللعالم الهندي الموسوعي شبلي نعماني (سفر نامة روم ومصر وشام) – رحلة الروم ومصر والشام- وقام بتلك الرحلة عام 1892م. ولم تكن تلك الرحلة رحلة سياحية، بل رحلة للاطلاع على الكتب والمصادر العلمية التي نقلها الغرب من الدول الإسلامية ولم يكن يمكن للمسلمين حتى الوصول إليها. وكان يحتاج إلى تلك المصادر لتأليف كتاب له عن شخصيات كبيرة في الإسلام.
- وقام (نواب حامد علي خان) برحلة عام 1883م إلى الدول الشرقية من الهند، ثم دار حول العالم قبل الوصول إلى مدينته (كان بور). ومن ميزات هذه الرحلة أنها بدأت بالشرق، بدلا من الرحلات إلى الغرب. وعنوان رحلته (سير حامدي) – سياحة حامدي-. وهي أول رحلة بالأردية تشمل العالم كله. وله رحلات أخرى أيضا.

---

[1] محمد حسين آزاد: أديب ومؤرخ وصحافي. ولد في دلهي في 10 يونيو 1830م وتوفي في لاهور في 22 يناير 1910. خلف العديد من الكتب الهامة في الأدب والنقد باللغة الأردية. راجع: آزاد، محمد حسين، آب حيات، لاهور، علم وعرفان پبلشرز، 2015م

- وفي عام 1899م ألف (شاه علي سبزواري) رحلة بعنوان (خوفناك دنيا) – العالم المخيف-. وكان مولعا بالسياحة والقنص وتجارة العاج. وهذه الرحلة تشمل سياحته في قارة أفريقيا التي لم تر نور الحضارة. وقراءة تلك الرحلة تثير رعبا في قلب القارئ.
- وقام الأديب الهندوسي (بابو أما شنكر) برحلة إلى أوروبا عام 1886م. ودونها بعنوان (آئنيهء سكندري) – المرآة الإسكندرية-، وهي رحلة تقليدية؛ لكنها تقدم صورة واضحة لإنجلترا من نواح مختلفة. وتكسب هذه الرحلة أهمية لأن مؤلفها من الهندوس، وكان الهندوس لا يحبذون السفر إلى الخارج في زمنه.
- وتعود لهذا العهد رحلة (مولوي عبد الخالق موحد)، التي ألفها بعنوان (سير برما) – سياحة برما-، وهي كانت رحلة لنشر الإسلام في وادي بلاد برما. وقد ألقى في الرحلة ضوء على المعتقدات والطقوس الدينية في تلك المنطقة. وأسلوب هذه الرحلة سلس ساذج.
- ومن الرحلات التي تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر، رحلة (لالا بيچ نات) بعنوان (انگلينڈ اور انڈيا) – إنكلترا والهند-. وألفها عام 1897م بالإنجليزية. وتلبية لطلب القراء قام بتأليفها مرة أخرى بالأردية، بدلا من ترجمتها إلى الأردية.
- وتعتبر الفترة بين عام 1900م إلى 1940م فترة متوسطة بين الرحلة القديمة والحديثة باللغة الأردية. ومن أهم الرحلات في هذه الفترة رحلة (منشي محبوب عالم)، بعنوان (سفر نامة يورپ) – رحلة أوروبا- و(سفر نامة بغداد) – رحلة بغداد- وهي رحلاته إلى إلى فرنسا وإنكلترا و إيطاليا والشام ومصر. وتم نشرها في البداية في جريدة (پيسہ اخبار) التي كانت تصدر في لاهور، وهو كان رئيس تحريرها. ورحلته إلى أوروبا، تعتبر من أطول الرحلات إلى أوروبا بالأردية. وقام بتلك الرحلة عام 1900م، واستهلها من معرض دولي في باريس. وقام برحلته إلى بغداد والبلاد العربية عام 1917م ضمن وفد إعلام هندي خلال الحرب العالمية الأولى.
- وقام (نواب فتح علي خان) برحلة لأداء مناسك الحج عام 1886م، فقام بعد ذلك برحلة إلى فرنسا و إيطاليا وصقلية وبلغاريا؛ لكنه لم يتمكن من تدوين تلك الرحلة. وقام برحلة أخرى إلى الغرب لحضور حفل تتويج الملك أيدورد السابع عام 1903م،

وألف رحلته تحت عنوان (سياحت فتح خاني) – سياحة فتح خاني-. وهي تلقي الضوء على الأوضاع السياسية والثقافية لتلك الفترة.

- ومن أهم الرحلات لهذه الفترة (سفر نامة بلاد إسلامية) – رحلة البلاد الإسلامية – لـ (مولوي عبد الرحمن أمرت سري)، قام بها عام 1898م إلى مصر والشام وتركيا والروم. ورحلة (1907م كا جاپان) - اليابان عام 1907م – لمؤلفها محمد حسين، ورحلة (سير يورپ) – سياحة أوروبا- لمؤلفتها (نازلي رفيعة نواب بيكم) عام 1908م، ورحلة (زمانة تحصيل) – زمن التحصيل- لمؤلفتها (عطية بيكم فيضي رحيمن) وكانت ذهبت إلى لندن للتحصيل على منحة رسمية عام 1906م. ورحلة (سياحت سلطاني) – رحلة سلطانية- ألفتها السيدة (شاه بانو) عام 1911م. ورحلة (مقام خلافت) – موقع الخلافة- و(سياحت نامة يورپ) لمؤلفهما (شيخ عبد القادر). ورحلة (سفر نامة قسطنطينية) لمؤلفها (حميد الله خان). وهناك رحلات كثيرة أخرى تعود لهذه الفترة.
- وتعتبر الفترة بين عام 1940م و1987م فترة ذهبية للرحلة باللغة الأردية. وقد تم تأليف رحلات كثيرة جدا ومتنوعة خلالها. وهي من تأليف الأدباء والأديبات على حد سواء. كما أنها تشمل القارات والمناطق المختلفة من العالم، في حين تنوعت الرحلات خلال هذه الفترة من ناحية أسلوبها أيضا، إذ تم تأليف رحلات ساخرة وأخرى منظومة أيضا.
- وفيما يلي نذكر بعض تلك الرحلات مع أسماء الرحالين:

عنوان الرحلة	ترجمة العنوان إلى العربية	الرحالة	السنة
مسافر کی ڈائری	مذكرات مسافر	خواجہ احمد عباس	1938م
لندن سے آداب عرض	سلام من لندن	آغا محمد اشرف	
دیس سے باہر	خارج الوطن	آغا محمد اشرف	
لینن گراڈ تا سمرقند	من لينين غراد إلى سمرقند	عشرت علی صدیقی	
نظر نامہ	ما شاهدته العين	محمود نظامی	1952م
سات سمندر پار	وراء البحار السبعة	اختر ریاض الدین	
ساحل اور سمندر	الساحل والبحر	سید احتشام حسین	
امریکا کے تاثرات	انطباعات عن أمريكا	محمد مظہر الدین صدیقی	1953م
جہاں نما	مرآة العالم	ممتاز احمد خان	

ارض پاک سے دیار فرنگ تک	من الأرض الطاهرة إلى الفرنجة	ڈاکٹر عبادت بریلوی	1962م
ترکی میں دو سال	عامان في تركيا	ڈاکٹر عبادت بریلوی	
عروس نیل	عروس النيل	سلطانہ آصف فیضی	1949-1951م
تذکرہء انگلستان	ذكر إنكلترا	بریگیڈیئر گلزار احمد	
تذکرہء چین	ذكر الصين	بریگیڈیئر گلزار احمد	
دنیا کی سیر	سياحة في العالم	حاجی حیدر علی خان	
نیل سے فرات تک	من النيل إلى الفرات	محمد اقبال انصاری	1954م
نیا چین	الصين الجديدة	فضل حق شیدا	1952م
چند روز آغوش فطرت میں	أيام في مهد الطبيعة	سعید اختر درانی	
تاثرات روس	انطباعات عن روسيا	مولانا عبدالحامد بدایونی	1957م
تاثرات چین	انطباعات عن الصين	مولانا عبدالحامد بدایونی	1955م
لاہور سے لندن تک	من لاهور إلى لندن	ڈاکٹر محمد باقر	
چھ مہینے ایران میں	ستة أشهر في إيران	ڈاکٹر محمد باقر	
میرا سفر	رحلتي	امیر خانم	
سفر نامہ جرمنی	رحلة إلى ألمانيا	ریحانہ سلیم	
پیرس سے روم تک	من باريس إلى روما	قیوم نظر	
سفر نامہ مقامات مقدسہ و یورپ	رحلة إلى الأماكن المقدسة وأوروبا	عبدالحمید خان	
آسٹریلیا کی جھلک	لمحة من آستراليا	بیگم تاج یاسین علی خان	

بعض رحلات الحج باللغة الأردية والمترجمة إليها

- تعتبر رحلات الحج باللغة الأردية من أهم الرحلات بهذه اللغة الحديثة. وأنها ثرية جدا في هذا المجال، حيث قام علماء وأدباء من الرجال والنساء رحلات للحج. وهذه الرحلات تقدم من ناحية الأوضاع التي عاشها الرحالة، ومن الناحية الأخرى، فإنها تقدم معلومات جيدة عن الحج، الركن الخامس من أركان الإسلام الخمسة. وفيما يلي نقدم عناوين بعض تلك الرحلات:

عنوان الرحلة	ترجمة العنوان إلى العربية	الرحالة	السنة
ماہ مغرب	بدر الغرب	منصب علی خان	1871م

زادغریب	زاد الفقير	عمر علی خان	1880م
وکیل الغرباء	وكيل الغرباء	وزیر حسین بریلوی	1881م
حرمین الشریفین	الحرمان الشريفان	سید کاظم حسین شیفتہ	
سفر نامہء حجاز	رحلة الحجاز	مرزا عرفان علی بیگ	1894م
سفر نامہء حجاز ومصر	رحلة الحجاز ومصر	حاجی احمد حسین خان	1904م
السفر اللطیف الی بیت اللہ الشریف	السفر اللطيف إلى بيت الله الشريف	حاجی محمد لطیف مچھلی شہری	1891م
سفر حجاز	رحلة الحجاز	خطیب قادر بادشاہ	1906م
رحلۃ المسکین الی البلد الامین	رحلة المسكين إلى البلد الأمين	مولانا محمد حسین الہ آبادی	
غنچہء حج	برعوم الحج	محمد مصباح الدین أحمد	
جذب القلوب (مترجمۃ)	جذب القلوب	شیخ عبد الحق محدث دھلوي	1589م
رحلۃ الحج	رحلة الحج	شاہ ولي اللہ محدث دھلوي	1731م
حج زینب (مترجمۃ)	حج زينب	لیڈی ایولن کیوبولڈ زینب	
طوفان سے ساحل تک (مترجمۃ)	من الطوفان إلى الساحل	محمد اسد لیوپولڈ	1926م
سفر نامہ حرمین شریفین	رحلة الحرمين الشريفين	مولانا محی الدین حسین	1903م
ریاض الحرمین	رياض الحرمين	حاجی ریاض الدین قصوری	1904م
سفر حرمین الشریفین	رحلة الحرمين الشريفين	خان بہادر محمد عبد الرحیم	1910م
سفر نامہ حجاز	رحلة الحجاز	فاطمہ بیگم	1924م
سبیل الرشاد	سبيل الرشاد	قاضی محمد سلیمان منصور پوری	1924م
صراط الحمید	صراط الحميد	پروفیسر الیاس برنی	
سفر نامہ حرمین	رحلة الحرمين	مولوی رفیع الدین مراد آبادی	
زیارۃ الحرمین	زيارة الحرمين	مولوی عاشق الہی میرٹھی	
السکینۃ باخبار المدینۃ	السكينة بأخبار المدينة	صبغت اللہ	
سفر نامہء رحیمی	رحلة الرحيمي	محمد امانت اللہ	

سفر نامہ حجاز	رحلة الحجاز	مولوی ظفر احمد تھانوی	1933م
سفر نامہ بلاد اسلامیہ	رحلة البلاد الإسلامية	مولوی محمد عبد العزیز	1935م
کلید جنت	مفتاح الجنة	عبد الحمید خان	1936م
حج صادق	حج صادق	نواب آف بہاول پور	1935م
کاروان حجاز	قافلة الحجاز	مولانا ماہر القادری	
سفر نامہ صارم	رحلة صارم	عبد الصمد صارم	1938م
رہنمائے حج	دليل الحج	حکیم امیر الدین	1952م
مکے مدینے کا سفر نامہ	رحلة مكة والمدينة	خسرو شاہ نظامی	
سفر نامہ شیخ الہند	رحلة شيخ الهند	مولانا حسین احمد مدنی	
سفر نامہ حجاز	رحلة الحجاز	محمد حفیظ الرحمن حفیظ	1932م
سفر نامہ حج	رحلة الحج	محمد شریف امرت سری	1927م
سفر نامہ حجاز	رحلة الحجاز	مولانا عبد الماجد دریابادی	
سفر نامہ غوثیہ	الرحلة الغوثية	پیر محمد غوث قریشی	
سفر سعادت	رحلة السعادة	امیر احمد علوی	
سر گزشت حجاز	وقائع الحجاز	مرزا عبد الحلیم بیگ	1932م
راہ وفا	درب الوفاء	محمد حفظ الرحمن وفا	
سفر نامہ حجاز	رحلة الحجاز	مولانا غلام رسول مہر	1930
دیار عرب میں چند ماہ	أشهر في الديار العربية	مولانا مسعود عالم ندوی	
شرق اوسط میں کیا دیکھا؟	ماذا رأيت في الشرق الأوسط؟	سید ابو الحسن علی ندوی	
دیار حبیب کی باتیں	حديث ديار الحبيب	فضل الدین	
سفر حجاز	سفر الحجاز	عبد الکریم ثمر	
سفر نامہ ارض القرآن	رحلة أرض القرآن	مولانا سید ابو الاعلی مودودی	
پاکستان سے دیار حرم تک	من باكستان إلى ديار الحرم	نسیم حجازی	1959م
قافلے دل کے چلے	سارت قوافل القلب	الطاف حسن قریشی	1967م

شب جائے کہ من بودم	مکان کنت فیه لیلا	شورش کاشمیری	1969م

هذا، ونكتفي بهذه النبذة عن الرحلات في الأردية، وهذا غيض من فيض؛ لأن اللغة الأردية تحوي في طياتها أشكالا متنوعة من الرحلات التي كتبها الأدباء باللغة الأردية نفسها. كما أنها غنية بالرحلات المترجمة من اللغات الأجنبية. وعلى رأسها رحلات ابن بطوطة و ابن جبير والمقدسي والرحلات التاريخية الأخرى.[1]

كتب الرحلات عند العرب

لم يخل أي عصر من عصور الإسلام من الرحالين الذين تركوا خلفهم تراثا غنيا في أدب الرحلة. وسنوضح هذا الأمر إن شاء الله أكثر عندما أحدث عن أسباب الرحلات مفصلا؛ إلا أنني لا أجد بدا هنا من أن أشير إلى أن محمد بن سعود الحمد ألف موسوعة للرحلات بعنوان: "موسوعة الرحلات العربية والمعربة المخطوطة والمطبوعة – معجم ببليوجرافي" ودون فيه عناوين 2676 (ألفين وست مائة وست وسبعين) رحلة مطبوعة و2002 (ألفين واثنتين) رحلة مخطوطة. والكتاب مطبوع عام 1428هـ/2007م.[2]

وذكر د. أحمد رمضان أحمد أيضا أسماء الكثير من الرحلات التي ألفها الرحالون المسلمون في مقدمة كتابه "الرحلة والرحالة المسلمون" [3]، وسلط الضوء على أسباب الرحلات أيضا. كما أنه ألقى ضوءا على أسباب الرحلات الاستكشافية عند الغرب. وذكر أشهر الرحالة في العصور القديمة قبل الإسلام، وبينها العصر الفرعوني والعصر السومري والعصر الآشوري والبابلي والعصر الروماني والساساني أيضا. وخص

---

[1] تمت الاستفادة في إعداد هذا الجزء من هذا البحث من كتاب "اردو سفر نامے کی مختصر تاریخ" – التاريخ المختصر لادب الرحلة بالأردية– لـ مرزا حامد بيك، الطبع الأول، لاهور، 1999م و "اردو ادب میں سفر نامہ" – الرحلة في الأدب الأردي– لصاحبه أنور سديد، الطبع الثاني، 2017م، لاهور، مغربي باكستان أردو اكيدمي. (الباحث)

[2] الحمد، محمد بن سعود، موسوعة الرحلات العربية والمعربة المخطوطة والمطبوعة – معجم ببليوجرافي، مثقفون بلا حدود، الطبعة الأولى، 1428هـ/2007م

[3] أحمد، د. أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، بدون تاريخ

بالذكر عددا من كبار الرحالين في عصور مختلفة، مع تصنيفهم في فئات شتى، إضافة إلى تخصيص باب من كتابه للرحالين المشارقة وآخر للرحالين المغاربة.

كتب الرحلات بالأردية

على الرغم من أن اللغة الأردية لغة حديثة جدا مقارنة باللغة العربية التي اختارها الله سبحانه تعالى لإنزال آخر كتبه بها، لا يخلو حضنها أيضا من كثير من العلوم والمعارف التي تحظى بها اللغات القديمة، بل وإنها سبقت قريناتها في شبه القارة الهندية في كثير من المواضيع.

ومن أكبر ميزات هذه اللغة أن نحو 30% من كلماتها الأساسية من اللغة العربية، وأنها تكتب بالحرف العربي، بل يعرّفها البعض بأنها لغة الإسلام والمسلمين في شبه القارة الهندية؛ لكن هذا التعبير لا يتطابق مع سعتها؛ لأنها اللغة القومية في باكستان ولغة التفاهم في معظم أنحاء الهند.

وقد ألف العلماء ألوفا مؤلفة من الكتب في هذه اللغة. وتم تأليف الآلاف من الرحلات بها. ومن بين هذه الرحلات رحلات دولية، ورحلات داخلية من منطقة إلى أخرى، ورحلات تخص الحج. وقد كُتبت رحلات منظومة أيضا في اللغة الأردية، رغم أن معظم الرحلات منثورة – أي أنها نثر وليست شعرا-. ولا يخلو تراث الرحلات بالأردية من الرحلات الساخرة أيضا مثل العربية. وألقى أنور سديد ضوء على هذا الموضوع في كتابه المعروف "*اُردو اَدب میں سفر نامہ*"[1] (الرحلة في الأدب الأردي).

ويعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر حول الرحلات في الأدب الأردي؛ لأنه يتسم بصفة موسوعية، من حيث المادة، إذ بدأه أنور سديد من بيان ماهية الرحلة، فذكر رحلات قديمة ورحالين قدماء. وانتقل بعد ذلك إلى بداية الرحلة باللغة الأردية. ويرى أن الرحلة بالأردية مرت بعهد بدائي خلال فترة 1901-1940م، في حين يعتبر فترة 1941-1987م عهدا ذهبيا للرحلة بالأردية.

---

[1] *سدید، اَنور، اردو ادب میں سفر نامہ، مغربی پاکستان اردو اکیڈمی*، لاہور، الطبعة الثانية، 2017م

وخص بابا من الكتاب لذكر رحلات الحج على حدة، وبينها رحلات قديمة وحديثة، ثم تطرق إلى الرحلات الداخلية في شبه القارة الهندية، ورحلات إلى الهند بعد تقسيم شبه القارة عام 1947م، ورحلات إلى باكستان.

وقد تم تدوين رحلات بالأردية منظومة – غير منثورة-.([1]) كما أن كتّابا بالأردية كتبوا رحلات ساخرة، في حين تمت ترجمة الكثير من الرحلات المعروفة باللغات العالمية إلى اللغة الأردية. وعلى رأسها رحلة ابن بطوطة، ورحلة ابن جبير، ورحلة فاهيان([2]) ورحلة كولمبس([3])، ورحلات أخرى قديمة وحديثة.

وتحظى الرحلات باللغة الأردية أيضا بأهميتها التاريخية والثقافية والحضارية، إذ أنها متنوعة من حيث مواضيعها وموادها والمناطق المزارة والأزمنة المختلفة. مثلا تركز رحلات على ذكر تاريخ أي بلد، بينما يركز قسم آخر على ذكر الأوضاع الاقتصادية والسياسية لأي بلد، في حين تتمحور رحلات أخرى حول ما قام به الرحالة.

---

[1] انظر، لطيف، شاهدة، "**اف یہ برطانیہ**" (آه بريطانيا هذه)،لاهور، الحمد ببلي كيشنز، 2009م، وهذا الكتاب يحتوي على رحلة شاهدة لطيف إلى بريطانيا، وسجلت الكاتبة مقاطع الرحلة بالأردية نظما.

[2] فاهيان: رحالة صيني كان اسمه (سي ني هي) لكنه اشتهر باسم (فاهيان سانغ) في الصين وباسم فاهيان بالهند. ولد في إقليم (شانسي) الصيني. وغادر إلى الهند عام 399م للاطلاع على تعاليم المذهب البوذي، عابرا صحراء غوبي وسلاسل الجبال. ودخل إلى المناطق التي تعتبر الآن جزء من باكستان عن طريق جبال بامير. ومكث فترة بمدينة بيشاور، ثم وصل إلى مدينة (تيكسلا) التي كانت تعتبر مركزا للبوذية في ذاك الزمان. وقضى عامين هناك. ثم أقام نحو عامين بمدينة (باتلي بوتر) وتعلم اللغة السنسكريتية وقام بترجمة العديد من كتب البوذية إلى الصينية. ثم زار سري لنكا. ومكث فيها عامين. وعاد إلى الصين عام 413م بحرا، بعد قضاء أربعة عشر عاما في السياحة والتعلم في شبه القارة الهندية، حاملا مئات الكتب المترجمة حول البوذية. انظر: قادري، أخلاق أحمد، **دنیا کے 100 نامور سیاح اور ان کے سفر نامے**، ص:33-35

[3] كولومبس (كريستوفر) (1451-1506م) بحار إيطالي ولد في إيطاليا وتوفي في أسبانيا. اكتشف أمريكا عام 1492م ووصل إلى شواطئ سان سلفادور في 12 تشرين الأول 1492م. انظر، معلوف، لويس، المنجد في الأعلام، بيروت، دار المشرق، الطبعة الحادية والعشرون، 1996م، ص: 477

يعود تاريخ الرحلات إلى الهند، إلى نحو 300 عام قبل الميلاد، حيث وصل رحالون من الغرب إلى الشرق. وتعتبر رحلة "ميكاس تينيز"([1]) أقدم رحلة يونانية إلى الهند. وكان "ميكاس تينيز" وصل إلى مدينة (باتلي بوتر) – وهي تسمى الآن بتنة- عاصمة مملكة "جندرا كبتا موريا"([2]) عام 303 ق.م. سفيرا لسلوقس خليفة إسكندر المقدوني([3]). وقضى سنوات في الهند. وبما أنه كان يحظى بميزات خاصة كسفير، فإنه دون في رحلته أوضاع الخاصة وأصحاب المناصب في الحكومة، إضافة إلى أوضاع عامة الناس في الهند.[4]

وهناك كتب أخرى تحتوي على رحلات مختصرة أو باللغة الأردية أو على ترجمة الرحلات العالمية؛ لأن الرحلة من المواضيع الشيقة التي تحظى باهتمام القراء منذ أقدم الأزمنة إلى يومنا هذا.([5])

وكما أشرت من قبل، أن أدب اللغة الأردية غني بجميع أنواع الرحلات. وبينها الرحلات الساخرة، التي تكتب بروح خفيفة. ولعل "شير محمد" الذي اشتهر باسمه المستعار "ابن إنشاء" هو صاحب الأسلوب الخاص في هذا المجال. ورغم أنه كان مسؤولا حكوميا، خلف إرثا كبيرا في الأدب الساخر. وأنتهي من الحديث عن أدب الرحلة في اللغة الأردية، بدعاء له، حيث يقول: "اللهم وفقنا لنزور جميع تلك المتاحف والكنائس والقصور والقلاع التي كُتب عنها في الكتاب الإرشادي أنه يجب زيارتها.

---

[1] ميكاس تينيز: أول سائح يوناني زار الهند في 300 قبل الميلاد، ودون أحوال سفره إلى الهند كسفير لـ لسليوكس إلى الهند، في كتاب يذكر بعنوان (إنديكا) (Indica). انظر قادري، أخلاق أحمد، "دنیاکے ۱۰۰ نامور سیاح اوران کے سفرنامے"، (100 رحالة عالمي شهير ورحلاتهم) لاهور، بك فورت، 2018م، ص: 21-25

[2] مؤسس إمبراطورية موريا في الهند (322-185 ق م). ضمت الهند بأسرها وكابول وهرات وقندهار. أشهر أباطرتها أشوكا العظيم الذي نشر البوذية في الهند. راجع، المنجد في الأعلام، ص:554

[3] إسكندر العظيم: ملك مقدونيا (356-323 ق.م)، فتح اليونان عام 336 ق. م. وألحق هزيمة بالإمبراطور الفارسي داريوس في آسيا الصغرى عام 333 ق. م. أنشأ مدينة الإسكندرية في مصر. وفتح البنجاب أيضا قبل أن يهزم. راجع: The Hutchenson Encyclopedia, New Edition, Oxford, Helicon Publishing Ltd., 1992, p.25

[4] اُردو اَدب میں سفرنامہ، ص : 69-70 ملخصا

[5] انظر، ساجد، ضياء، "اردو کے شاہکار سفرنامے" (روائع الرحلات بالأردية)، لاهور، مكتبة القريش، 1997م. وهذا الكتاب يحتوي على واحدة وعشرين رحلة لأشهر الكتاب الرحالين باللغة الأردية.

واعف عنا إذا فاتتنا زيارة أي منها بسبب القيلولة في الظهر؛ لأننا بشر، ضعفاء البنية".([1])

[1] ابن إنشاء، "**ابن بطوطہ کے تعاقب میں**" (في ملاحقة ابن بطوطة) لاهور، لاهور أكيدمي، ط 24، 2017م، ص:9، وترجمة النص للباحث.

الباب الأول

سيرة الشيخ العبودي والشيخ العثماني

الفصل الأول: سيرة الشيخ محمد بن ناصر العبودي ومؤلفاته

فيه مبحثان:

المبحث الأول: ترجمة الشيخ محمد بن ناصر العبودي

هو الشيخ محمد بن ناصر بن عبد الرحمن بن عبد الكريم العبودي. ولد في 30 ربيع الآخر من سنة 1345 هـ (1926 م) بمدينة بريدة، وينتمي إلى أسرة آل سالم المشهورة في بُريدة. وهي أسرة عريقة قديمة يناهز عمرها في المنطقة أربعمائة سنة، ولهم أملاك موغلة في تاريخ المدينة ترجع في بعض الأقوال إلى آخر القرن التاسع الهجري، ومن أفراد هذه الأسرة كُتاب وطلبة علم بارزونَ.

وهو باكورة أولاد أبويه. وكان لوالده حانوتا ببريدة. وكان يزاول التجارة وفق أوضاع ذلك الزمان. وكانت أسرته تعيش متوسطة الحال. وكانت صناعة البارود مصدر دخل لأسرته غير التجارة العادية. وكانت أسرته تعلمت صناعته. وكانت بريدة تزود نجد كلها بالبارود والذخيرة. إذ كان الناس يشترون البارود لصيد الطيور المهاجرة خلال فصل الشتاء. [1]

أسرته:

كانت أسرة الشيخ العبودي إلى عهد قريب يُعرفون بالعبود، ثم أضيفت الياء إلى اسمها في عهد جده الأقرب عبد الرحمن. كان الكثير من وصايا أسرته وكتاباتهم ووثائقهم باسم العبود، وكان والده ناصر رجلًا شهمًا، يحفظ أخبار الناس وأحاديث العرب وقصص المروءة والشهامة. وكان ذا معرفة بالأُسر والأنساب على الرغم من أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب.

أما جده عبد الرحمن فكان شاعرًا عاميًا، ويعزو الشيخ محمد عناية والده بالاطلاع، ومعرفة الأخبار، والعناية بالعلوم الدينية إلى خال والده عبد الرحمن الشيخ المعروف المُلا عبد المحسن بن محمد السيف. أما والدته فهي نورة بنت موسى بن عبد الله الغضيب، وكانت قارئة للقرآن وللكتب.

---

[1] انظر، سبعون عاما في الوظيفة الحكومية، ص: 12

ويشير الشيخ محمد إلى أن والده التحق بأحد الكتاتيب آنذاك، إلا أنه لم يرق له حال ذلك المعلم، ثم ذهب به والده إلى البادية حيث قضى عدة سنوات مع شمر بينما كان والده مع عقيل – تجار المواشي- في العراق والشام. كما كان ذا عناية بالأدب. وكان شاعرا سياسيا. اضطر إلى الفرار إلى الكويت، وتوفي هناك عام 1323هـ.

تزوج الشيخ محمد العبودي من ابنة خاله عبد الله بن موسى العضيب، وأنجب منها تسعة أولاد ثلاثة ذكور وست بنات.

وضع بريدة في زمن العبودي

قدم العبودي صورة للعيش في ذاك الزمان في بريدة، على الرغم من أنها أكبر مدينة في نجد، أن:

"الحياة كانت بسيطة وتقتصر متطلبات حياة الأعرابي على شرب اللبن، والخبز والتمر إذا وجدهما، ويأدمه من زبد وسمن. وأما اللحم فإن الصيد البري أو مائدة لضيف طارق. واللباس من الخام الخشن يلبسه بعض الناس جديدا، لا ينزعه عن جسمه إلا عندما يتمزق ويصعب رتقه ولا يعرف الماء والغسل إليه سبيلا. وفي الشتاء يرتدون شملة وهي العباءة الصوفية الغليظة. وحذاء الأعرابي هو جلد قدميه الذي غلظ حتى صار في بعض الحالات يشبه خف البعير...

أما حياة الحضري فإنها على بساطتها أكثر تعقيدا من ذلك، فطعامه يتألف من التمر غداء، ومن القمح عشاء. وإذا أضيف إلى التمر الزبد كان منية المتمني. أما إذا أضيف اللحم إلى العشاء فإنها أمنية يعلمون أنها لا يتأكد تحقيقها عند أكثر الناس إلا مرة في العام عند ذبح الأضاحي.

والأغذية الضرورية هذه هي ما تنتجه بلادهم، ولا يحتاجون إلى استيراد شيء منها إلا إذا أصيبت الثمار بجائحة من جراد أو دبي، أو برد أو نحو ذلك على أنهم إذا احتاجوا إلى شرائها لم يجدوا النقود اللازمة لذلك. وكانت نقودهم كلها معدنية من الذهب والفضة والنحاس.

ولذلك تنتابهم المجاعات في بعض السنوات. وآخر ما يعرفونه من سنوات ذلك سنة الجوع في عام 1327هـ (1909م)، وقد حدثني من أدرك ذلك ومنهم والدي عن الناس كانوا يموتون في الشوارع والمساجد جوعا."[1]

وأشار في مقدمة كتابه "سبعون عاما في الوظيفة الحكومية" إلى أن الحالة العامة في البلاد – المملكة العربية السعودية – ستبدو للناظر فيها من أهل الجيل الجديد غريبة تستحق أن يطلع عليها، وكأنما هي حالة بلاد أخرى غير بلادنا.[2]

شيوخه وطلبه للعلم

التحق الشيخ محمد بن ناصر العبودي بكّتاب أو مدرسة الشيخ سليمان بن عبدالله العمري. وفي سنة 1356هـ (1937م) فُتحت مدرسة كُتاب مميزة في بُريدة. فتحها الشيخ محمد بن صالح الوهيبي، وقد التحق عنده الشيخ محمد العبودي مع أخيه الشيخ سليمان، وهو يصغره بخمس سنوات.

وكان العبودي مولعا بالعلم منذ نعومة أظفاره على الرغم من أن أسرته لم يكن فيه علماء أو طلاب علم. وبدأ الدراسة على المشايخ قبل أن يبلغ من العمر عشر سنوات. وكان أول شيوخه الشيخ صالح بن إبراهيم بن كريديس (ت 1359هـ) والشيخ صالح بن عبد الرحمن السكيتي الذي صار فيما بعد مدرسا عند الشيخ العبودي عندما أصبح مديرا للمعهد العلمي ببريدة. ودرس على الشيخ صالح بن أحمد الخريصي الذي أصبح رئيسا لمحاكم القصيم، والشيخ عبد الله بن محمد بن حميد، إمام جامع بريدة وقاضي بريدة. وكان يقضي معه من الوقت من الفجر حتى بعد العشاء.

وكان من الطلاب المجدين ويدرس يوميا ثلاثة عشر درسا، منها سبعة دروس يحفظها عن ظهر القلب. وعندما عين الشيخ صالح بن محمد بن حميد إماما لجامع بريدة، أنشأ فيها مكتبة، وعين العبودي قيما لها. فكان العبودي يساعد الشيخ في

---

[1] انظر، العبودي، محمد بن ناصر، سبعون عاما في الوظيفة الحكومية، الرياض، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، 1436هـ/2015م الطبعة الأولى، ج1/23-25

[2] نفس المصدر، ج 12/1

بحث ما يحتاج إليه من المسائل والتراجم، كما يساعد الطلاب الذين لا يقدرون على استخراج المسائل بأنفسهم من المصادر والمراجع.

وخلال تلك الفترة تم تقديم ستة أريل سعودية وهي تساوي نصف جنيه مصري أو إسترليني، إليه كراتب شهري. وكانت فرحته بها عظيمة جدا، إذ كان يمكن له الآن تحسين حاله ومساعدة أسرته. وقد ارتفع ذلك الراتب إلى ثمانية ريالات؛ إلا أنه بدأ يفكر متأثرا بأقوال أصدقائه من طلبة العلم أن ذلك الراتب قد يعوقه عن تحصيل العلم ويخل بالإخلاص في علمه وقد يكون فخا للوقوع في مال الدولة الذي لا يخلو من مكس. فرفض الراتب على مضض رغم شدة الحاجة إليه.

وكان ذلك القرار شاقا عليه، كما لم يرق لأسرته أيضا. وكان والده قد تجاوز السبعين عاما من عمره، وكف بصره. ولم يكن راضيا بأن ينقطع عن طلب الدنيا للعلم. وكانت والدته تسانده في بداية الأمر لكن مع امتداد فترة أجل الحصول على المال، بدأت تميل إلى رأي والده. وهذا الوضع أثر عليه كثيرا، إلى درجة أنه بدأ يفكر في الفرار من مدينته إلى مكان لا يعرفه فيه أحد، خوفا من سقوطه في أعين زملائه طلبة العلم.

وفي 22 ذي الحجة عام 1363هـ (1944م) تلقى رسالة شفهية من أستاذه الشيخ عبد الله بن إبراهيم السليم، يريد منه التوظف في أول مدرسة رسمية أنشئت في بريدة. فقبل ذلك. ولم يكن لديه من الشهادات سوى العلم لتأهيله لتلك الوظيفة. فبدأ يدرس في المدرسة العلوم الإسلامية والعربية من التوحيد والفقه والصرف والنحو؛ إلا أن زملاءه من طلاب العلم، ما زالوا يلومونه على مفارقتهم والانضمام إلى صف الموظفين الرسميين.[1]

وفي عام 1366هـ عاد إلى المدرسة مرة أخرى بعد انقطاع؛ لأنه كان عام كساد، ودخل دكان والده لم يكن يكفي، في حين كان راتبه كقيّم مكتبة جامع بريدة، ثابتا لا زيادة فيه، بينما كان راتب المدرسة يرتفع. إضافة إلى هذا الفارق في الراتب كان يرى أنه إذا لم يترشح ليصبح معلما في المدرسة، فقد يتم ترشيحه للقضاء في أحد البلدان النائية في المملكة العربية السعودية.

---

[1] انظر، سبعون عاما في الوظيفة الحكومية، ج1/ 29-45

رحلته إلى الرياض مع الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد

في عام 1367هـ (1947م) سافر إلى الرياض مع شيخه الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد. وهو في الربيع الواحد والعشرين من عمره. وكان دعاه الملك عبد العزيز لاستشارته في بعض الأمور. فسافروا بسيارة أمير منطقة القصيم؛ لأنه لم تكن توجد لدى أحد سيارة صغيرة آنذاك. فالتقى خلال تلك الرحلة الشخصيات البارزة ابتداء من طلبة العلم إلى الملك عبد العزيز وولي عهده وأمراء آخرين. وقام بتدوين بعض وقائع تلك الرحلة. وهي كانت نواة الرحلات التي كتبها في حياته بعدها إلى مختلف أنحاء العالم. وقد أصبح أكبر رحالة عربي يكتب في هذا الموضوع، حيث أثرى المكتبة العربية بأكثر من 167 كتابا في الرحلات ومعظمها مطبوعة.

مدير للمدرسة الحكومية الثانية في بريدة

وقررت الحكومة فتح مدرسة ثانية في بريدة عام 1367هـ (1947م)، فتم تعيين الشيخ محمد بن ناصر العبودي مديرا لها؛ إلا أن موقع المدرسة الثانية كان قريبا من مدرسة الوهيبي الأهلية – وهي كتّاب لأستاذه محمد الوهيبي. وقد درس فيها–. فواجه صعوبة، إذ لا يريد إفساد كتاب أستاذه. فتحدث معه لإقناعه بأن تكون طلاب مدرسته نواة للمدرسة الجديدة، على أن يتم تعيين إياه وأخيه مدرسين في المدرسة الحكومية. فوافق الوهيبي على ذلك.

وإلى ذلك الحين كان يقوم بدور قيم مكتبة جامع بريدة، تلبية لطلب شيخه الشيخ عبد الله بن حميد؛ إلا أنه اعتذر عن القيام بتلك المسؤولية بعد ازدياد مسؤولياته كمدير للمدرسة الثانية في بريدة.

دراسة اللغة الإنجليزية

اقتصرت دراسة العبودي على العلوم الإسلامية والعربية على المشايخ، إذ لم تكن هناك أي مدرسة حديثة في بريدة. وكان يتمنى عندما كان يجلس في الدكان أن يعرف اللغة الإنجليزية ليستطيع قراءة المكتوب بها على السلع التي ترد من الخارج، من باب المعرفة، وليس من باب الحاجة إليها؛ لأنه ترك الدكان. ومن الصدفة أن تم انتداب مدرس فلسطيني اسمه محمد سليمان الأشقر للتدريس في المدرسة الأولى في بريدة؛

إلا أنه لم يكن أي مقرر للغة الإنجليزية، فكان يلقي دروسا على كيفه. فقرر العبودي وأحد زملائه الأستاذ علي الحصين أن يلقي عليهما دروسا في مبادئ اللغة الإنجليزية. فوافق الأشقر على ذلك. فدرس العبودي عدة كتب لتعليم اللغة الإنجليزية. ولم يكن يعرف آنذاك أن تلك المبادئ سوف تصبح نواة لمعرفة لا بأس بها من التخاطب خلال رحلاته التي قام بها إلى مختلف أنحاء العالم.[1]

دراسة الأدب

كما سبق أن أسرة العبودي كانت أسرة متدينة لكن لم تكن لها خلفية علمية أو أدبية. وكان العبوودي أول من سلك طريق العلم ولازم العلماء والشيوخ ونبغ في العلوم الإسلامية والعربية. وعلى الرغم من أن أهل العلم في زمانه لم يكونوا يحبذون مطالعة الأدب الحديث، حُبب إليه التطرق إلى الأدب الحديث. فاشترك في مجلات أدبية وشراء الكتب مع زميله الأستاذ العبد الله الحصين. وكتب أنهما قد طالعا كل ما في مكتبة جامع بريدة من الكتب العربية والأدبية قبل ذلك. وقرءا بعد ذلك لطه حسين وعباس محمود العقاد وإبراهيم المازني ومصطفى صادق الرافعي والمنفلوطي والأدباء الآخرين. وكانوا يقرأون الأدب الحديث اعتقادا منهم بأن ذلك سينير عقول الشباب. [2]

تدوين المذكرات

كان العبودي مولعا بالقراءة والكتابة منذ نعومة أظفاره. وبدأ في تدوين يومياته عام 1367هـ (1947م) عندما كان مديرا للمدرسة الحكومية الثانية في بريدة. وكان يودع مذكراته كل ما يختلج في قلبه. فأصبحت تلك المذكرات بعد تغير الأوضاع مصدرا معرفيا هاما، رغم أنه كان يراها تافهة، في حين فقدت المقالات الأدبية التي كانت تعتبر ذات قيمة أهميتها مع مرور الزمن. وطُبعت تلك المذكرات في ثلاث مجلدات تحت عنوان "يوميات نجدي". [3]

---

[1] انظر، سبعون عاما في الوظيفة الحكومية، ج74/1

[2] انظر، نفس المصدر، ج73/1

[3] انظر، نفس المصدر، ج77/1

وتتضمن تلك المذكرات ما يدور حول ذاته وحول مجتمعه الذي عاش فيه. ولم يكن ينسى ذكر ما له علاقة معه. على سبيل المثال علق على نتيجة الطلاب في المدرسة التي كان يديرها فكتب: "..... أما هؤلاء الخمسة الذين تخلفوا، فأحدهم سافر إلى الظهران ليلتحق ببعض الأعمال، وأحدهم فتح دكانا وجلس يشتغل بزازا، وثالثهم فتح دكانا واشتغل عياشا، والآخر كان عزيزا على والده وترك الدراسة بدون سبب، إلا أنه مل الدراسة ولم يستطع والده أن يكرهه على المدرسة خوفا من أن يهرب منه فيما يقول." [1]

أوضح العبودي في مذكراته الصعوبات التي كان يواجها أثناء كونه مديرا للمدرسة الثانية في بريدة. وما ذكره يكفي لإلقاء الضوء على وضع التعليم في تلك المنطقة، إضافة إلى سلوك أولياء الأمور مع المعلمين ورغبتهم عن التعليم العصري. وأشار إلى أن راعي المواشي كان أكثر قدرا في نظر معظم أهالي المنطقة من المعلم. وكانوا يرون أن المعلم يتقاضى راتبا من الحكومة على تعليم الأولاد، وأن أولادهم سبب رزقه، فلا له عليهم أي فضل ومنّ. وكتب كلاما جميلا عن العواصف التي كانت تهب في ذهنه جراء ابتعاده عن التعليم الديني والانضمام إلى إدارة المعارف، وأجرى مقارنة بينهما، مع ذكر أسبابه لتفضيل المعارف على مواصلة المسير مع العلم الديني. وتتلخص تلك المقارنة في أن الحرية التي كانت في المعارف لم تكن في القضاء وأن حب التوسع في الاطلاع منعه من الانضمام إلى القضاء، رغم أن القضاء والعلم الديني كان يحظى باحترام شديد في المجتمع.

لقاؤه مع الملك عبد العزيز ومهمته في الحجاز

في عام 1372هـ (1953م) كلفت الحكومة شيخ العبودي الشيخ عبد الله بن حميد بمهمة حل القضايا العالقة منذ فترة طويلة في الحجاز. فاختار الشيخ عبد الله بن حميد العبودي وزميلا آخر له ليرافقاه في تلك المهمة. فغادروا إلى الرياض، حيث سلموا على الملك عبد العزيز والتقوا ولي العهد سعود بن عبد العزيز. فتم إيضاح مهمتهم، مع تجهيز ما يحتاجون إليه خلال تلك المهمة.

---

[1] انظر، سبعون عاما في الوظيفة الحكومية، ج87/1

فسافروا من الرياض إلى جدة بالطائرة، ثم وصلوا إلى مكة المكرمة. وبدأوا بمهمتهم بعد أداء مناسك العمرة. وذكرالعبودي أن الكهرباء لم يدخل بيوت مكة وجدة كلها في تلك الآونة، كما أن وسائل النقل أيضا كانت شحيحة؛ إلا أن الحكومة تكفلت بحوائجهم، وصرفت لهم رواتب ومكافئات خاصة خلال فترة تلك المهمة.

بعد الانتهاء من النظر في القضايا العالقة في مكة المكرمة والبت فيها، غادرت البعثة إلى الطائف. وعلى الرغم من أن القضايا في الطائف كانت أقل من القضايا في مكة المكرمة؛ إلا أنهم اضطروا إلى قضاء وقت أطول هناك بسبب عدم تهيئة الملفات من القضاء المحلي للنظر فيها. وقد علق العبودي على بعض تلك القضايا تعليقات تدل على ذكائه في فهم القضايا، إضافة إلى حس الأدب فيه ومشاعره الجياشة تجاه ما يلاقيه الإنسان من أخيه الإنسان.

ولا تفارق العبودي الرغبة في السياحة والاطلاع على كل جديد، فكان يخرج في النزهة مع رفاقه في مكة المكرمة، والطائف، كلما تسنح فرصة لذلك. وعندما كان في الطائف تلقى بشارتين: الأولى بشرى تعيينه رئيسا للمعهد العلمي الذي سيُنشأ في بريدة، والثانية البشرى بولادة أول أبنائه ناصر.

بعد انتهاء مهمة القضاء مع الشيخ عبد الله بن حميد في مكة المكرمة والطائف وجدة، اعتذر العبودي عن مرافقة البعثة إلى المدينة المنورة؛ لأنه كان يرى أنه لم يبق للمهمة كثير حاجة إليه؛ لأن زملاءه قد تمرسوا على الأمور ويمكن لهم مساعدة الشيخ عبد الله بن حميد خلال ما تبقى من العمل. فوافق على ذلك الشيخ عبد الله بن حميد، فرجع إلى الرياض.[1]

أول رحلة خارجية للعبودي

قام العبودي بأول رحلة خارج المملكة العربية السعودية عام 1370هـ (1951م) إلى البحرين وكانت ضمن رحلته إلى مناطق داخل المملكة العربية السعودية. والرحلة الحقيقية الأولى إلى خارج البلاد هي كانت رحلته إلى مصر عام 1375هـ (1955م) من أجل الاطلاع على الأمور الإدارية في المعاهد الأزهرية هناك؛

[1] انظر، سبعون عاما في الوظيفة الحكومية، ج1/157-274

لأنه كان يرغب بذلك في تحسين الأمور الإدارية في المعهد العلمي في بريدة الذي كان هو رئيسه.

وهذه الرحلة كانت سياحية بمعنى الكلمة، إذ أنه لم يتوقف في مكان، بل زار كل ما يمكنه من المدن في فترة وجيزة قصيرة. فزار بيروت بكل تفاصيلها، ثم وصل إلى دمشق ليتمتع بجولات فيها، فانتقل إلى عمان في الأردن، وزارها، ثم رحل إلى القدس الشريف فمكث فيه. وبعد ذلك زار مدينة نابلس وإربد ودرعا. فعاد إلى دمشق ومن هناك إلى بيروت ليطير منها إلى القاهرة. وكان كل ذلك قبل الاحتلال اليهودي لفلسطين. والسفر بسيارات أجرة مع ركاب آخرين أو بسيارات خاصة لوحده.

ونزل في وسط القاهرة وزار الأماكن التاريخية والثقافية برفقة مدرسين مصريين كانوا يعملون معه في المعهد العلمي ببريدة.

وعاد إلى مصر في ثاني رحلاته عام 1376هـ (1956م) في مهمة رسمية تتلخص في التعاقد مع مدرسين مصريين لتوظيفهم في معاهد علمية في المملكة العربية السعودية. والمطلوب مدرسون يدرسون مادة التقويم (الجغرافيا) والحسابات والرياضيات. وعلى الرغم من أن هذه الرحلة كانت رحلة عمل؛ لكنها لم تخل من السياحة أيضا.[1]

الأمين العام للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة

في عام 1380هـ (1960م) تم القرار بين الملك سعود والمفتي العام للمملكة العربية السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ إنشاء جامعة إسلامية في المدينة المنورة، بهدف نشر العقيدة السلفية، إضافة إلى إنشاء مركز إسلامي يضاهي الأزهر ويستضيف الطلاب من العالم الإسلامي.

وفق النظام الأساسي للجامعة كانت هناك ثلاثة مناصب هامة لإدارتها. وهي منصب الرئيس ونائب الرئيس والأمين العام. والأمين العام هو رئيس الموظفين الإداريين والمسؤول عن الأمور الإدارية. واختار الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، الشيخ محمد بن ناصر العبودي ليشغل منصب الأمين العام، بعد أن رفض الشيخ عبد الله

---

[1] انظر، سبعون عاما في الوظيفة الحكومية، ج2/102-106

خياط الانتقال إلى المدينة المنورة في ذلك المنصب لكونه إماما وخطيبا في المسجد الحرام وله دروس هناك أيضا.

ورغم أن الملك سعود تبرع بمباني ملكية في المدينة المنورة لتكون مقرا للجامعة الإسلامية؛ إلا أن عملية إنشاء الجامعة واجهت فتورا لفترة. وخلال تلك الفترة تم عرض منصب رفيع في قضاء الرياض على الشيخ محمد بن ناصر العبودي، وهو قبل شغله أيضا؛ إلا أن الملك سعود رفض تعيينه في ذلك المنصب، مؤكدا على ضرورة بقائه في منصب الأمين العام للجامعة الإسلامية.

وافتتحت الجامعة الإسلامية عام 1381هـ (1961م) وانتقل الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز إلى المدينة المنورة نائبا لرئيس الجامعة الإسلامية مع عدد من طلابه ورفاقه، في حين كان الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ يتولى منصب رئيس الجامعة.

زار الأمير فيصل بن عبد العزيز الجامعة الإسلامية بعد سنة من إنشائها، كنائب الملك، فنظمت الجامعة حفلا بتلك المناسبة. وذكر الشيخ محمد بن ناصر العبودي خلال كلمته أمامه أن الجامعة الإسلامية أصبحت صرحا علميا عظيما في العالم الإسلامي على الرغم من مرور أقل من عامين على إنشائها، حيث إنها تستضيف 467 طالبا من 43 دولة في مختلف أنحاء العالم وبها 202 مدرس وأستاذ، إضافة إلى الموظفين الإداريين الآخرين. ولم يجتمع ذلك العدد الكبير في أي مدرسة إسلامية في التاريخ الإسلامي.[1]

الجامعة الإسلامية، منصة العبودي للانطلاق إلى أنحاء العالم

غيرت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة مجرى حياة العبودي، وأصبحت منصة لانطلاقه إلى العالم. ودفعته إلى رحلات لم تنته حتى نهاية عمره. وبدأت تلك الرحلات مع توافد الطلاب إلى الجامعة الإسلامية من مختلف بقاع العالم. والقائمون على الجامعة لا يعرفون عن الجهات والشخصيات التي ترشح الطلاب بسبب شح المعلومات عن المسلمين في قارة أفريقيا.

---

[1] انظر، سبعون عاما في الوظفية الحكومية، ج2/110-191

فرسم العبودي أول رحلة إلى دول أفريقية برفقة الشيخ أبي بكر جابر الجزائري والشيخ عمر محمد. وقد كتب أهداف تلك الرحلة في "سبعون عاما في الوظيفة الحكومية"، وعلى رأسها الاتصال بزعماء المسلمين والعلماء، وإلقاء محاضرات دينية وتنظيم جداول إحصائية للسكان المسلمين في كل قطر، وتقدير حاجة كل بلد إلى المساعدات من الجامعة الإسلامية أو الهيئات السعودية وتوزيع المصاحف والكتب الإسلامية وأمور أخرى.

بدأت الرحلة الأولى في هذا الصدد في ربيع الثاني عام 1384هـ (أغسطس 1964) وانطلقت من جدة إلى الخرطوم، وشملت السودان وأريتيرية والحبشة والصومال وكينيا وأوغندة وبروندي وتنجانيقة وروديسية الشمالية (زامبيا). واستغرقت ثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما. وبناء على التقرير المرفوع بعد تلك الرحلة الطويلة، اقترح نائب رئيس الجامعة الشيخ بن باز على رئيس الجامعة تشكيل لجنة تتكون من ممثل لكل من الجامعة الإسلامية ودار الإفتاء والخارجية والمعارف ورابطة العالم الإسلامي لدراسته. وأدى ذلك إلى رصد مبالغ مالية واعتماد مدرسين في أفريقيا يعملون في المجال الديني بعيدا عن السياسة.

الرحلة الثانية إلى أفريقيا

تم تكليف العبودي برحلة ثانية إلى أفريقيا بموافقة الملك فيصل – يرحمه الله– في 5 جمادى الأولى عام 1386هـ / 21 أغسطس 1966م. وقال الملك فيصل خلال توديع العبودي في تلك الرحلة، "راقب الله في أفعالك وأقوالك، تنجح". واستغرقت تلك الرحلة خمسة أشهر وسبعة أيام.[1]

أول كتاب للعبودي في الرحلات

قام العبودي بتدوين يومياته خلال رحلته إلى أفريقيا. فتم نشرها تحت عنوان " في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين" في

[1] انظر، سبعون عاما في الوظيفة الحكومية، ج210/2

700 صفحة من بيروت. ونشرت في الجرائد والمجلات وهيئة الإذاعة البريطانية جناح اللغة العربية. وكان ذلك الكتاب أول قطرة من مطر كتب العبودي في الرحلات.[1]

دعوات لزيارات إلى مختلف أنحاء العالم

مع نضج عود الجامعة الإسلامية، وزيارات العلماء والقامات الإسلامية لها، بدأت دعوات تتوالى على الشيخ العبودي لزيارات دول أخرى. وكانت الزيارة الأولى من هذا النوع، زيارته إلى ماليزيا للمشاركة كممثل عن الجامعة الإسلامية، في افتتاح الجامعة الوطنية الماليزية في كوالا لمبور. وبعدها قام بسلسلة من الزيارات في دول مجاورة لماليزيا شملت إندونيسيا و تايلاندا و سري لانكا.

زيارته إلى باكستان وأفغانستان وإيران

قدمت جامعة البنجاب في لاهور دعوة إلى الجامعة الإسلامية للمشاركة في احتفال مرور مائة عام على إنشاء الكلية الشرقية في جامعة البنجاب، خلال 13-19 ذي القعدة 1392هـ / ديسمبر 1972م. فتم القرار على مشاركة العبودي فيه. فبدأ العبودي رحلته إلى باكستان من كراتشي، حيث زار جامعة كراتشي والمدرسة العربية الإسلامية (جامعة العلوم الإسلامية)، ومدارس دينية أخرى، والتقى بكبار العلماء هناك وبينهم العلامة سيد محمد يوسف البنوري.

وبعد ذلك شارك في حفل جامعة البنجاب، فزار المدارس الدينية في عدة مدن من البنجاب. وفي المرحلة الأخيرة من زيارته لباكستان، وصل إلى مدينة بيشاور وزار معاهد علمية عدة، والتقى برئيس حكومة إقليم الحدود الشمالية الغربية آنذاك الشيخ مفتي محمود أيضا.[2]

وفي المرحلة الثانية من تلك الرحلة، زار العبودي مملكة أفغانستان. وشملت الرحلة زيارة جامعة كابول، ومدينة غزنة، ومعاهد علمية عديدة، للاطلاع على وضعها. ثم انتقل إلى إيران ليزور معاهد علمية في عدة مدن إيرانية. وأعد تقريرا عن تلك الرحلة تضمنت معلومات قيمة عن مكتبات المعاهد العلمية التي زارها، وعدد الكتب

---

[1] انظر، نفس المصدر، ج214/2

[2] انظر، سبعون عاما في الوظيفة الحكومية، ج238/2

والمخطوطات فيها، إضافة إلى عدد الطلاب والمدرسين بها. وكتب خلال ذكره زيارته إلى إيران أن الرجوع إلى الكتاب والسنة، هو الحل الأوحد لحلحلة الخلافات بين السنة والشيعة.[1]

قام العبودي برحلات إلى وجهات داخل العالم العربي والصومال، لأغراض مختلفة وبينها استعادة معهد التضامن الإسلامي الذي كانت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة فتحتها في الصومال، وأممته حكومة زياد بري بعد انقلاب عسكري هناك. ولم تُعد الحكومة الصومالية المعهد؛ لكنها سمحت بإنشاء معهد إسلامي آخر. كما قام برحلات إلى تركيا وسوريا وبيروت لشراء الكتب والمخطوطات للجامعة الإسلامية. وكان من طرائف تلك الرحلات أن الشيخ فالح بن ناصر آل ثاني تبرع بمكتبته الكبيرة للجامعة الإسلامية. فتم إنشاء زاوية خاصة لكتبه في مكتبة الجامعة الإسلامية.[2]

باكورة رحلات العبودي إلى أمريكا اللاتينية

في عام 1390هـ / 1970م تلقى العبودي دعوة للمشاركة في مؤتمر للجمعيات الإسلامية في البرازيل. فجاءت الموافقة الملكية على حضوره المؤتمر. وكانت زيارته إلى البرازيل مرورا بعدد من الدول، لعدم تواجد خطوط مباشرة من السعودية أو بيروت إلى البرازيل. وكانت هي أول رحلة له يقوم بها إلى أمريكا اللاتينية. وأدت تلك الرحلة إلى إنشاء ثاني مسجد في البرازيل. وسمته الجمعية التي أنشأته باسم الملك فيصل، لإنفاقه عليه.[3]

وفي نفس العام حضر العبودي الدورة الثانية لجمعية الجامعات الإسلامية التي انعقدت في تونس. وكان سفره إلى تونس عن طريق روما. وقد وجد فرصة للتجول في روما لدى العبور إلى تونس.[4]

---

[1] انظر، نفس المصدر، ج244/2

[2] انظر، سبعون عاما في الوظيفة الحكومية، ج262/2

[3] انظر، نفس المصدر، ج278/2

[4] انظر، نفس المصدر، ج296/2

في أول مهمة رسمية إلى أوروبا

من المعروف أن العالم كان منقسما بين الرأسمالية والشيوعية إبان القرن العشرين الميلادي. وكانت الولايات المتحدة تقود المخيم الرأسمالي، بينما يقود المخيم الاشتراكي أو الشيوعي الاتحاد السوفييتي. وكان وضع المسلمين سيء جدا في الدول الشيوعية؛ لأنها كانت تحارب كل ما له علاقة بالدين ولاسيما الدين الإسلامي وحولت المساجد والمدارس الإسلامية إلى مرافق أخرى، مع رفض المسلمين حقهم في معرفة دينهم والعمل بالقيم الإسلامية. وهذا ما أدى إلى انتشار الجهل بين أبناء المسلمين مع مرور الوقت؛ لأنهم فقدوا منابع التعليم الإسلامي.

وخلال تلك الفترة تلقت الجامعة الإسلامية دعوة من المسلمين في يوغوسلافيا لزيارتها. وقد أشار العبودي إلى أن يوغوسلافيا كانت معاملته مع المسلمين أفضل من الدول الشيوعية الأخرى، إذ أنها منحت بعض الحقوق للمسلمين. فرفع المسلمون من يوغوسلافيا طلبا إلى الملك فيصل، وهو وافق على ذلك. فقام العبودي بأول رحلة إلى أوروبا عام 1393هـ (1973). والتقى بشخصيات إسلامية في بلغراد والبوسنة وكوسوفا. واقترح في تقريره الذي رفعه إلى الملك بعد عودته من تلك الرحلة تقديم دعم للمسلمين في يوغوسلافيا، إضافة إلى تقديم منح للطلاب ليدرسوا في الجامعة الإسلامية، ليعودا إلى بلادهم دعاة للإسلام وأصدقاء للمملكة العربية السعودية.[1]

تمثيل المملكة في حفل إشهار رئيس الغابون إسلامه:

قرر رئيس الغابون بونقو اعتناق الإسلام عام 1973م، فوجه خطابات إلى دول إسلامية لإيفاد وفود لحضور حفل إشهاره إسلامه. فكان العبودي رئيس الوفد السعودي الذي وصل إلى الغابون. وقد حضرت وفود من دول إسلامية أخرى أيضا. ونطق الرئيس بالشهادتين في 3 رمضان 1393هـ/ 28 سبتمبر 1973م. وسمي بعد ذلك بـ عمر. وزار العبودي مدينة (بورت جيني) أيضا إضافة إلى عاصمة الغابون. ومن الطريف في هذه الرحلة أنه عندما رفع التقرير عنها إلى الملك فيصل واقترح فيه أن يدعو الرئيس عمر بونقو لأداء مناسك الحج من العام المقبل، رد عليه الملك فيصل "الحج لا ندعو

---

[1] انظر، سبعون عاما في الوظيفة الحكومية، ج284/2

إليه كل مسلم حسب ما ينص عليه الشرع، وإذا اعتزم الحج، فإن ذلك سيسرنا ونستضيفه طيلة بقائه في المملكة".[1]

التشجيع على كتابة الرحلات من الشيخ عبد الله بن باز والشيخ عبد الله بن حميد:

يقول العبودي إنه وجد في عمله في الجامعة الإسلامية ما يشبع فضوله، ومحبته لمساعدة المسلمين، ومعرفة أحوال مناطق مختلفة عن طريق الطلاب الوافدين إلى الجامعة، ومن ورائهم من الجمعيات والشخصيات الإسلامية، إضافة إلى تدفق زيارات الشخصيات الإسلامية السفراء إلى الجامعة الإسلامية. وكان ذلك يسعده ويزيده شوقا لمعرفة العالم. وقد تخصص بطبيعة عمله كأمين عام للجامعة الإسلامية، في الإدارة والاتصالات الخارجية، بينما كان الشيخ عبد العزيز بن باز يقوم بالشؤون المتعلقة بالمناهج والتدريس. وكان الشيخ بن باز يقول له :"يا أبا ناصر اكتب عما تراه يستحق الكتابة". كما كان شيخه الشيخ عبد الله بن حميد أيضا يشجعه على تدوين رحلاته ويرى أن الناس يرغبون في المعرفة؛ لكن قلما يوجد من المسافرين والرحالين يقدر على كتابة ما يراه.[2]

في الهيئة العامة للدعوة الإسلامية

في عام 1394هـ (1974م) تم اقتراح اسم العبودي ليشغل منصب الأمين العام للهيئة العامة للدعوة الإسلامية. وكانت تلك الهيئة تنظم شؤون المساعدات التي كانت تقدمها المملكة العربية السعودية للجاليات والجمعيات الإسلامية في مختلف أنحاء العالم. وتم تأسيسها بأمر من الملك فيصل. وكان الأمير سلطان بن عبد العزيز يرأسها.

وكتب العبودي أنه لم يكن مرتاحا في عمله كالأمين العام للجامعة الإسلامية بعد تعيين الشيخ عبد المحسن العباد نائبا لرئيس الجامعة، بعد رفع الشيخ عبد العزيز

---

[1] انظر، نفس المصدر، ج312/2

[2] انظر، سبعون عاما في الوظيفة الحكومية، ج382/2

بن باز إلى منصب رئيس الجامعة. وكان الشيخ بن باز عضوا في الهيئة العليا للدعوة الإسلامية وفي رابطة العالم الإسلامي أيضا.

وافق العبودي على مغادرة الجامعة الإسلامية، فتم تعيينه أمينا عاما للهيئة العامة للدعوة الإسلامية. وعمله في هذا المنصب قدم له فرصة للتجول في معظم أنحاء العالم كمهمة رسمية للاطلاع على أوضاع المسلمين، ومشاهدة وضعهم بأم عينيه. ونتجت تلك الأسفار إلى مختلف الأقطار عن مكتبة كاملة للرحلات حافلة بالمعلومات النافعة عن مختلف البلدان والمسلمين.[1]

وإضافة إلى الرحلات الخارجية التي قام بها العبودي، كانت له رحلة مهمة وغريبة داخل المملكة العربية السعودية للكتابة عن منطقة القصيم، وعنونها بـ "رحلة لا تُنسى". وقام بتلك الرحلة بأمر من الملك فيصل برفقة الشيخ حمد الجاسر في ربيع الأول 1395هـ (1975م). وكانت رحلة استكشافية لمناطق مختلفة. وخلال تلك الرحلة اغتيل الملك فيصل – يرحمه الله- لكنها استمرت إذ بويع الملك خالد بن عبد العزيز بدون أي خلاف بين الأسرة المالكة.[2]

مهمات رسمية خلال عمله في الأمانة العامة للدعوة الإسلامية

قام العبودي برحلة إلى الفلبين كمهمة رسمية والتقى خلاله الرئيس الفلبيني (فرديناند ماركوس)، وزار المناطق الجنوبية من الفلبين وهي مناطق ذات أغلبية مسلمة. وفي عام 1403هـ (1982م) زار الصين. ثم ارتحل إلى بريطانيا حيث شارك في مؤتمر اتحاد الطلبة المسلمين في المملكة المتحدة و أيرلندا. فقام بجولة إلى البلاد الإسكندنافية من الدنمرك و فنلندا و السويد والنرويج.[3]

وذهبت به رحلة واسعة إلى أمريكا الجنوبية، شملت فنزويلا و غيانا والبرازيل وشيلي والأرجنتين وبيرو والإكوادور. وقد ذكر خلال تلك الرحلة الطويلة وضع المسلمين في تلك الدول على سبيل العموم ووضع الجمعيات الإسلامية على سبيل الخصوص.

---

[1] انظر، نفس المصدر، ج3/7-17

[2] انظر، سبعون عاما في الوظيفة الرسمية، ج3/53-54

[3] انظر، نفس المصدر، ج3/105-130

كما أشار إلى تنافس الزعيم الليبي معمر القذافي مع المملكة العربية السعودية في الأعمال الخيرية، ومهاجمته للمملكة.[1]

وقام العبودي برحلة إلى شمال شرق الهند في عام 1397هـ (). وتفقد خلالها عددا من المدارس الإسلامية ولاسيما المدارس السلفية منها. وزار مدينة بتنة و بنارس و دربنكا ومدن أخرى. وخص بالذكر خزانة خدا بخش للمخطوطات، مشيرا إلى أن تلك الخزانة أسست عام 1891م، وبها أكثر من 12000 مخطوط بالعربية والفارسية. كما أنه شاهد طقوس الهندوس في حرق موتاهم في بنارس.[2]

في عام 1396هـ زار العبودي الولايات المتحدة وكندا عندما تلقى دعوة لحضور مؤتمر لاتحاد الطلبة المسلمين. وعاد إليها لحضور اجتماع مثيل بعد ذلك أيضا. وجال خلال تلك الزيارة عددا من المدن في الولايات المتحدة للاطلاع على أوضاع المسلمين فيها. وفي عام 1397هـ قام برحلة إلى جزر بحر الكاريبي ضمن وفد لرابطة العالم الإسلامي.[3]

في محرم 1400هـ حضر مؤتمر الإعلام الإسلامي في جاكرتا. وحضر ذلك المؤتمر أكثر من خمس وثمانين شخصية إسلامية من خمسين دولة إسلامية. وقام بعد ذلك برحلة إلى السينغال للمشاركة في مؤتمر الجمعيات الإسلامية في السينغال. ولقي خلال الزيارة رئيس البلاد (ليوبولد سنقور)، وأثنى على تعاملاته، مشيرا إلى أنه كان أديبا بارعا يكتب بالفرنسية، وقد ترجمت كتبه إلى عدد من اللغات.[4]

زار العبودي تنزانيا في مهمة رسمية. وقد خصصت الحكومة طائرة لتتجول بالوفد السعودي في مختلف أنحاء البلاد خلال بقائه في تنزانيا. والتقى خلال الزيارة الرئيس التنزاني (يوليوس نيريري). وذكر أن الرئيس فرح فرحا شديدا بتعليقاته حول الوضع

---

[1] انظر، نفس المصدر، ج3/130-132

[2] انظر، نفس المصدر، ج3/132-152

[3] انظر، سبعون عاما في الوظيفة الحكومية، ج3/153-172

[4] انظر، نفس المصدر، ج3/188-191

في تنزانيا. وضحك ملء فيه، ومد يده إليه "كما يفعل رجل الشارع بصاحبه عندما يسمع منه كلمة تثير إعجابه".[1]

وفي عام 1401هـ/ 1981م وصل العبودي إلى أستراليا ليطلع على أحوال المسلمين في كبرى المدن الأسترالية. وأخذته تلك الرحلة إلى نيو زيلاندا، و جزيرة تسمانيا. وذكر أن المسلمين الأوائل في القارة الأسترالية هم كانوا من الأفغان وبعض الهنود الذين نقلتهم الحكومة البريطانية للعمل في صحراء أستراليا مع إبلهم. وكان ذلك أواخر عام 1850م، عندما لم تكن أي وسائل نقل أخرى متاحة للعمل في الصحراء غير الإبل. ونُقل الأفغان والهنود إلى أستراليا عن طريق ميناء كراتشي وموانئ في الهند. وأقام هؤلاء مساجد في بعض المناطق؛ إلا أن أجيالهم القادمة ذابت في المجتمع الجديد، بسبب التزاوج مع غير المسلمين وانعدام الاحتكاك مع المسلمين. كما وصل إليها مهاجرون من تركيا وبلغاريا والمناطق الأخرى.[2]

في عام 1402هـ / 1982م رحل العبودي إلى بوركينا فاسو (فولتا العليا سابقا)، ثم جمهورية ساحل العاج، و جمهورية توغو، و جمهورية بينين، وجزيرة مدغشقر. وقد أشبع الكلام عن مدغشقر ووصول الإسلام إليها. كما زار جزر القمر و موريشيوس وري يونين وزنجبار وجزيرة سيشل.[3]

وقام بزيارة إلى بروني دار السلام عام 1403هـ/1983م. وقبل ذلك قام برحلة إلى مملكة نيبال وسري لانكا عام 1399هـ/1978. وقام بجولة أخرى في الدول الغربية من أفريقيا عام 1401هـ/1981م. وفي نفس العام ارتحل إلى المكسيك و كولومبيا وكوستاريكا ونيجريا أيضا. وجميع هذه الرحلات كانت ترمي إلى تفقد أوضاع المسلمين وتقديم الدعم لهم عن طريق الهيئة العامة للدعوة الإسلامية.

---

[1] انظر، نفس المصدر، ج199/3

[2] انظر، نفس المصدر، ج201/3-222

[3] انظر، سبعون عاما في الوظيفة الحكومية، ج280/3-312

في رابطة العالم الإسلامي

قام الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي الشيخ محمد بن علي الحركان، بتعيين الشيخ محمد بن ناصر العبودي في منصب الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي بموافقة من الملك فهد في عام 1403هـ بدون علمه وعلم رئيسه المباشر في الهيئة العامة للدعوة الإسلامية الأمير سلطان بن عبد العزيز. فباشر العبودي عمله الجديد على الفور، إذ انتقل الشيخ محمد بن علي الحركان إلى رحمة الله في 7 رمضان 1403هـ. فقام بأداء مهام عمله كأمين عام مساعد للرابطة، إضافة إلى مهام الأمين العام. وزار الصين عام 1404هـ على رأس وفد من الرابطة.

وبلغ العبودي سن التقاعد عام 1404هـ إذ هو من مواليد عام 1345هـ، لكن تم التمديد له خمس سنوات في العمل، ليتحول إلى التقاعد عام 1409هـ؛ إلا أنه تم التمديد له بعد ذلك إلى أجل غير محدد، فكان يحصل على راتب للتقاعد، وراتب للعمل في الرابطة في الدرجة الممتازة.

وازدادت رحلاته في العالم خلال عمله في الرابطة. فزار قزاقستان وداغستان ومناطق أخرى من القوقاز عام 1414هـ. ومن الغريب أن العبودي لم يرغب في الترقي إلى منصب الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي لسبب مثير. وقد أشار إلى ذلك قائلا: "إنني لا أرغب أن أكون الأمين العام للرابطة حتى أشفي نفسي من الرحلات في العالم للاطلاع على أحوال المسلمين؛ لأنني إذا صرت الأمين العام للرابطة لم أستطع أن أتحرك خارج المملكة، ولا في إجازة إلا بموافقة الملك، كما هو العادة في الوزراء ومن هم في مرتبة الوزير. إضافة إلى أنني أحتاج إلى المزيد من تأليف الكتب في الرحلات وأحوال المسلمين. ولا يتيسر لي ذلك إلا إذا بقيت في وظيفة الأمين العام المساعد..."[1]

وهذه العبارة تدل على رغبته الحقيقية في الرحلات. فهو رحالة بفكره قبل أن يكون رحالة بجسده. وهذه الفكرة جعلته يتلألأ في سماء أدب الرحلة كالشمس بين كواكب النظام الشمسي. وهو أكبر رحالة بلا منازع في التاريخ الحديث.

---

[1] انظر، سبعون عاما في الوظيفة الحكومية، ج122/4

وخلال فترة العمل في هذا المنصب، جال العبودي في جميع القارات من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب. وتفقد أحوال المسلمين حتى في مناطق نائية وجزر لا تذكر أسماؤها في الخرائط لصغر مساحتها أو لكونها مناطق غير معروفة جغرافيا. وكتب العبودي عام 1435هـ أن عدد كتبه في الرحلات بلغ 173 كتابا، طبع منها 121 كتابا والبقية لا تزال مخطوطة جاهزة للطباعة.[1]

في عام 1410هـ قام العبودي بزيارة إلى مورمانسك في روسيا لحضور مؤتمر في مدينة أوفا، وزار منطقة بشكيريا أو جمهورية بشقردستان. ثم ترأس وفدا سعوديا لإندونيسيا بعد احتلال صدام حسين الكويت. وحضر مؤتمر القدس في بيروت عام 1417هـ. وزار جمهوريات القبائل الروسية وهي جمهوريات صغيرة في جنوب روسيا من الجوفاش وماري إيل.

وبعد سقوط الاتحاد السوفييتي والشيوعية، قام وفد للرابطة برئاسة العبودي بزيارة واسعة إلى الدول الشيوعية شرقي أوروبا. وبدأت تلك الزيارة في 24 من ذي الحجة عام 1411هـ (1991م). وشملت يوغوسلافيا وألبانيا ورومانيا وبولندا وتشيكوسلوفيكية والمجر وبلغاريا. ودون تلك الزيارة في كتاب تحت عنوان "نظرات في شرق أوروبا وحالة المسلمين بعد سقوط الشيوعية". وأشار العبودي إلى أنه كان يدون يومياته لغرض أخذ التقيد الرسمي منها، فطرأ عليها غرض آخر وهو توفير المعلومات عن أحوال المسلمين في البلاد النائية مع المعلومات المهمة الأخرى عن بلادهم.[2]

وكان عمله في رابطة العالم الإسلامي عبارة عن الأسفار إلى بلدان نائية. ولعله لم تفته زيارة لأي منطقة معروفة في العالم. وقد قام بعدة زيارات إلى الهند، ثم بلاد الهند الصينية ودول في غرب وجنوب أفريقيا. وقام بأول زيارة إلى كشمير المحتلة (جزء كشمير تحت الاحتلال الهندي) متنكرا، وزار كشمير الحرة وباكستان عام 1421هـ/2000م.

---

[1] انظر، نفس المصدر، ج131/4

[2] انظر، سبعون عاما في الوظيفة الحكومية، ج232/4-254

ومن الغريب أن العبودي لم يكتب رحلاته إلى الدول العربية سوى موريتانيا والمغرب. ويبرر لذلك بأن الكتابة عن تلك الدول كتابة عن بلده. كما ضاع له مسودات بعض كتبه عندما طلب منه بعض أصدقائه تقديم المسودة للطباعة؛ لكن لم يطبع الكتاب ولم تعد إليه المسودة، بينما قامت وزارة حكومية سعودية وجمعيات خيرية والرابطة بطبع بعض كتبه على نفقتها للتوزيع.

تحوله إلى التقاعد بعد 70 عاما في الوظيفة الحكومية

وعندما نشأت مشاكل تمنع رابطة العالم الإسلامي من مواصلة عملها كالسابق لدعم المسلمين رغم توفر الميزانيات المطلوبة،([1]) ، فضّل العبودي أن يطلب نقله إلى وظيفة أخرى غير رابطة العالم الإسلامي يتمكن فيها من تقديم الدعم والمساعدة للمسلمين. ووجد العبودي فرصة لإنجاز بعض كتبه عندما خف عمله الميداني في رابطة العالم الإسلامي.

ردا على طلبه هذا، وافق الملك عبد الله على تحويله إلى التقاعد في 12 ربيع الأول 1433هـ (2013م) وقد بلغ من العمر 89 عاما وأشهر، وأنجز 70 عاما في الوظيفة الحكومية. وأثرى المكتبة العربية الإسلامية بمؤلفات قلما توجد لها مثيل. ونقل العبودي قائمة بأسماء كتبه المطبوعة والمخطوطة في المجلد الرابع من كتاب "سبعون عاما في الوظيفة الحكومية". وتلك القائمة تشير إلى وضع كتبه عام 1435هـ. ويبلغ عددها 295 كتابا، بينها 198 كتابا مطبوعا و96 كتابا مخطوطا.[2]

الجود والسخاء

يدرك كل من يمر بسيرة العبودي الذاتية، أنه كان متحليا بأخلاق عالية والتأني والمثابرة في العمل، وعدم إضاعة أي ثانية من حياته، إضافة إلى الصبر على المشاكل والعزم على إنجاز ما يوكل إليه من الأعمال، إضافة إلى كونه عالما متبحرا وإداريا محنكا. كما أنه كان سخيا جوادا ينفق على الفقراء والمحتاجين من ماله الخاص ومن

---

[1] ولعل ذلك نتيجة الهجمات على المركز التجاري العالمي في نيو يورك في 11 سبتمبر 2001م، حيث فرض الحظر على الكثير من المنظمات الإسلامية في جميع أنحاء العالم، بذريعة أنها تقوم بتمويل التطرف والإرهاب. (الباحث)

[2] انظر، سبعون عاما في الوظيفة الحكومية، ج4/346-366

التبرعات التي كانت تأتيه من أصدقائه لتوزيعها على المستحقين. وأشار إلى أنه لم يتسلم ولا فلسا من راتب شهر رمضان من رابطة العالم الإسلامي لاثني عشر عاما. وكان مدير مكتبه يوزعها على الموظفين المحتاجين في الرابطة ويرفع له قائمة بأسماء المتسلمين.[1]

وفاته

انتقل الشيخ محمد بن ناصر العبودي إلى رحمة الله في يوم الجمعة فاتح يوليو عام 2022م عن عمر ناهز 96 عاما. ووري جثمانه الثرى يوم السبت. وبذلك انتهت في الرياض مسيرته التي كان بدأها من بريدة. وغادر هذا العالم تاركا وراءه إرثا علميا ينير درب الأجيال القادمة في ظلام الجهل. وأن أعماله حول وضع المسلمين في بلاد مختلفة، ستكون سجلا مرشدا لكل من يرغب العمل في حقل الدعوة والتكاتف مع إخوانه المسلمين في أي بقعة من بقاع الكرة الأرضية. فرحمه الله تعالى رحمة واسعة وغفر له ورفع درجاته في عليين مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين. إنه سميع قريب مجيب.([2])

وقد قرض العبودي قصيدة لطيفة حول أسفاره ورحلاته في أرجاء المعمورة، ويقول فيها:

أقول وقد جاوزت ستين حجة ألا ليت شعري ما يؤول له أمري
رايت بقاع الأرض طرا وطوفت بي الرحل من بر بعيد إلى بر
وزرت بلاد الهند والسند كلها وما كان خلف الهند قطرا ورا قطر
ومن الصين واليابان والمشرق الذي يقيم به قوم من السمر والصفر

---

[1] انظر، نفس المصدر، ج329/4

[2] للاستزادة من ترجمة العبودي، راجع: محمد بن أحمد سيد أحمد، الشيخ العلامة والأديب الرحالة محمد بن ناصر العبودي، جدة، دار الثقافة العصرية، الطبعة الأولى، 1431هـ/2010م. كما ألقى عبد العزيز بن سعود العويد أيضا ضوءا على سيرة الشيخ العبودي ورحلاته بأسلوب جميل. يرجى مراجعة كتابه: لطائف من رحلات الشيخ الرحالة محمد بن ناصر العبودي، الرياض، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، 1435هـ/2014م. راجع دراسات ومقالات عن معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي، جمع وإعداد د/ محمد بن عبد الله المشوح، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الرياض، 2013م

وفتشت بلدان الأفارقة التي يحل بها السودان من أقدم الدهر

.....

فلله ربي الحمد والمدح والثنا ولله ربي الشكر في العسر واليسر([1])

ولا يسعني أن أنسى إحسانه إلي في إعداد هذه البحث؛ لأنني عندما سجلت خطة البحث في الجامعة الوطنية للغات الحديثة في إسلام آباد عام 2018م، وتمت الموافقة على عنوان البحث، اتصلت بمكتبه في الرياض لتأمين بعض المصادر التي أحتاج إليها؛ لأن كتبه غير متوفرة في الأسواق الباكستانية. فتم تأمين الكتب المتوفرة لديهم من الكتب المطلوبة بالمجان. فجزاه الله خيرا وتقبل ذلك في حسناته.

تكريمات وجوائز

كُرم العبودي من جهات عدة تقديرًا لجهوده العلمية والأدبية، فمنح عدد من الشهادات، ومن الجهات التي كرمته: وزارة المعارف عام 1394هـ كرمته بميدالية الاستحقاق في الأدب، واثنينية عبد المقصود خوجة عام 1406هـ.

- نادي أدبي القصيم عام 1421هـ.
- ثلوثية المشوح.
- فاز بجائزة الأمير سلمان بن عبدالعزيز لدراسات تاريخ الجزيرة العربية في دورتها الثالثة 1429-1430هـ (2008 -2009م)، حيث نال الجائزة التقديرية للرواد لجهوده العلمية المتمثلة في رصده الدقيق لجهود المملكة العربية السعودية في مجال الدعوة الإسلامية، وإيصال المساعدات السخية للشعوب الإسلامية، وتدوين ذلك بدقة من خلال كتبه التي تجاوزت المائة عن رحلاته في العالم الإسلامي، والوصف الببليوجرافي الممزوج بالرصد التاريخي لكثير من الأماكن في المملكة العربية السعودية، وبخاصة في معجمه لمنطقة القصيم الذي أنشأه في ستة مجلدات، اهتمامه بالمأثورات الشعبية والأمثال العامية في بعض مناطق المملكة العربية السعودية، وتدوين ذلك في الكثير من كتبه، وعنايته بالتأريخ لبعض الشخصيات الشعبية وتدوين أخبارها.

---

[1] انظر، العبودي، محمد بن ناصر، بين الأرغواي والبيرغواي، الرياض، مطابع الفرزدق التجارية، الطبعة الأولى، 1413هـ، ص: 51-52

- فاز كتابه "معجم الأصول الفصيحة للألفاظ الدارجة" بجائزة كتاب العام التي يقدمها نادي الرياض الأدبي الثقافي في دورتها الثالثة عام 1431هـ (2010م).
- فاز كتابه "معجم الملابس في المأثور الشعبي" بجائزة وزارة الثقافة والإعلام للكتاب عام 1435 هـ (2014م).
- فاز كتابه "معجم وجه الأرض وما يتعلق به من الجبال والآبار والجواء ونحوها في المأثورات الشعبية" بجائزة الملك عبد العزيز للكتاب في دورتها الثانية 1436هـ (2015م) في فرع جائزة الكتب المتعلقة بجغرافية المملكة العربية السعودية.
- كُرّم في 7 رمضان 1442هـ الموافق 19 أبريل 2021م بجائزة شخصية العام الثقافية في مبادرة الجوائز الثقافية الوطنية من وزارة الثقافة في المملكة العربية السعودية.[1]
- تم اختياره شخصية العام الثقافية في المهرجان الوطني للتراث والثقافة في المملكة العربية السعودية.
- وسام الملك عبد العزيز من الدرجة الأولى.
- ميدالية الاستحقاق في الأدب.
- وسام السلطان قابوس للثقافة والعلوم والفنون من الدرجة الثانية.
- تم تكريمه كأحد الرواد في التاريخ من قبل دارة الملك عبد العزيز.
- درع مؤسسة حمد الجاسر تقديرا لجهوده العلمة.
- تم تكريمه من قبل العديد من المؤسسات والجمعيات الدعوية الإسلامية في مختلف أنحاء العالم.
- عضو في عشرات اللجان العلمية والأدبية داخل المملكة العربية السعودية وخارجها.
- تم تكريمه من جانب عدد من الأندية الأدبية والمؤسسات والجمعيات العلمية في مناسبات مختلفة.[1]

---

[1] قلالة، نور الدين، موقع https://shorter.me/LSMB2 بتاريخ، 2023/12/5م الساعة 11:43 بتوقيت باكستان.

المبحث الثاني: مؤلفات الشيخ العبودي

منح الله تعالى الشيخ محمد بن ناصر العبودي شخصية موسوعية عبقرية. وقد خلف مؤلفات كثيرة في مواضيع مختلفة، تشمل الأدب، والمقامات والأنساب والتراجم والمعاجم. وأثرى المكتبة العربية بكتب للرحلات يربو عددها 191 كتابا، وبينها 143 كتابا مطبوعا و49 مخطوطا. وقد كتب في مقدمة أحد كتبه أنه أكثر مَن كتب في الرحلات في التاريخ الإسلامي. ولن يكون في هذا الكلام مبالغا؛ لأنه لم يسبق أي رحالة إسلامي جاب مثله أقطار الأرض ودوّن أسفاره في رحلات.

أثرى الشيخ محمد بن ناصر العبودي المكتبة الإسلامية والعربية بأنواع مختلفة من الكتب. وقد صدر له حتى الآن أكثر من مائتين وعشرين كتابا، في الرحلات والتاريخ والجغرافيا واللغة والأدب والأنساب والتراث الشعبي والسيرة.

وتمكن العبودي أولا بسبب طبيعة عمله في رابطة العالم الإسلامي، ثم بفضل رغبته في الرحلات، بزيارات لكل قُطر من أقطار الأرض المعمورة. وبما أن رحلاته عن طريق الرابطة كانت محددة في إطار عمله لكسب أهدافها المنشودة، فإن رحلاته السياحية كانت استكشافية ومن أجل تروية غليله من معرفة المناطق والثقافات المختلفة في مختلف بقاع العالم. وهذه الرحلات تقدم لنا صورة قلمية لمختلف الشعوب والثقافات والحضارات بكل تفاصيلها.

قائمة مؤلفات العبودي

كتب الرحلات:

1- في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين، بيروت، دار الثقافة، 1388هـ/1968م.

2- رحلة إلى جزر مالديف إحدى عجائب الدنيا، الرياض، دار العلوم، 1401هـ/ 1981 م.

---

[1] انظر، سبعون عاما في الوظيفة الحكومية، ج368/4

3- مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين، الرياض، النادي الأدبي، 1401هـ/ 1981 م.

4- جولة في جزائر البحر الزنجي أو حديث عن الإسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي، الرياض، المطابع الأهلية للأوفست 1402هـ/1982م.

5- رحلة إلى سيلان، الرياض، جمعية الثقافة والفنون، 1403هـ/1982م.

6- صلة الحديث عن إفريقية مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين، دار العلوم في الرياض، 1404هـ/1984م.

7- مشاهدات في بلاد العنصريين، رحلة إلى جنوب إفريقية وحديث في شؤون المسلمين، نادي القصيم الأدبي في بريدة، 1404هـ/1984م.

8- إطلالة على نهاية العالم الجنوبي، مكة المكرمة، نادي مكة الثقافي، 1404هـ/1984م.

9- زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية، مطابع الرياض الأهلية للأوفست، عام 1405هـ/1984م.

10- شهر في غرب إفريقية مشاهدات وأحاديث عن المسلمين، الرياض، المطابع الأهلية، 1405هـ/ 1984م.

11- في نيبال بلاد الجبال، رحلة وحديث في شؤون المسلمين، الرياض، مطابع الفرزدق، 1405هـ/ 1985م.

12- رحلات في أمريكا الوسطى، المطابع الأهلية للأوفست في الرياض،1405هـ/1985م.

13- إلى أقصى الجنوب الأمريكي، رحلة في الأرجنتين وتشيلى، الرياض،1407هـ/1987م.

14- على ضفاف الأمازون، رحلة في المنطقة الأستوائية من البرازيل، النادي الأدبي في أبها، 1410هـ/ 1990م.

15- على قمم جبال الأنديز، الرياض، مطابع الفرزدق التجارية، 1410هـ/ 1990م.

16- في غرب البرازيل، الرياض، مطابع الفرزدق التجارية 1412هـ/ 1991م.

17- في بلاد المسلمين المنسيين : بخارى و ما وراء النهر ، مطابع الفرزدق التجارية عام 1412هـ/ 1991م.

18- بقية الحديث عن إفريقية، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1412هـ/ 1991م.

19- جولة في جزائر البحر الكاريبي، مطابع الرياض الأهلية للأوفست، 1407هـ/1987م.

20- جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ، مطابع الفرزدق، الرياض، 1410هـ/ 1990م.

21- داخل أسوار الصين (مجلدان)، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1413هـ/1992م.

22- بلاد الداغستان، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1413هـ.

23- الرحلة الروسية، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1414هـ.

24- مع المسلمين البولنديين، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1413هـ/1992م.

25- جمهورية أذربيجان، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1413هـ/1992م.

26- في أعماق الصين الشعبية، نشرته مجلة المنهل.

27- بين الأرغواي والبارغواي، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1413هـ/1992م.

28- بورما الخبر والعيان، طبع ببيروت عام 1412هـ.

29- مقال عن بلاد البنغال، طبع بالرياض عام 1414هـ/1993م.

30- ذكريات من يوغسلافيا، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1414هـ/1993م.

31- كنت في بلغاريا، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1414هـ/1993م.

32- في جنوب الصين، طبعته رابطة العالم الإسلامي بمطبعتها في مكة المكرمة عام 1414هـ.

33- كنت في ألبانيا، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1414هـ.

34- ذكرياتي في إفريقية، محاضرة طبعتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

35- أيام في النيجر، طبع ببيروت عام 1414هـ.

36- على أرض القهوة البرازيلية، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1415هـ.
37- نظرة في شرق أوربا وحالة المسلمين بعد الشيوعية، طبع ببيروت عام 1414هـ.
38- بين غينيا بيساو وغينيا كوناكري، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1414هـ.
39- من أنقولا إلى الرأس الأخضر، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1414هـ.
40- سياحة في كشمير، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1412هـ/1992م.
41- يوميات آسيا الوسطى، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1414هـ.
42- نظرة في وسط إفريقية، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1411هـ/ 1991م.
43- بلاد القرم، دار القبلة في جدة.
44- قصة سفر في نيجريا (مجلدان)، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض.
45- حديث قازاقستان، دار القبلة في جدة.
46- المسلمون في لاوس وكمبوديا : رحلة ومشاهدات ميدانية، رابطة العالم الإسلامي في سلسلة دعوة الحق، وطبعته في مطبعتها عام 1416هـ.
47- في جنوب الهند (من سلسلة الرحلات الهندية)، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1417هـ.
48- رحلات في أمريكا الجنوبية : غينيا وسورينام،ع مطابع التقنية، الرياض، عام 1419هـ.
49- إطلالة على أستراليا، مطابع التقنية للأوفست، الرياض، عام 1417هـ.
50- أيام في فيتنام، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، عام 1417هـ.
51- في غرب الهند (من سلسلة الرحلات الهندية)، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، عام 1417هـ.
52- إطلالة على موريتانيا، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت عام 1417هـ.
53- حديث قيرغيزستان، دراسة في ماضيها ومشاهدات ميدانية، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت عام 1418هـ/1997م.
54- زيارة رسمية لتايوان، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت عام 1418هـ/1997م.

55- سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور، مطابع النرجس التجارية، الرياض، 1420هـ/ 2000م.

56- راجستان : بلاد الملوك (من سلسلة الرحلات الهندية)، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1417هـ/1997م.

57- في شرق الهند (من سلسلة الرحلات الهندية)، مطابع التقنية للأوفست في الرياض عام 1419هـ/1999م.

58- العودة إلى الصين (من سلسلة الرحلات الصينية)، مطابع النرجس في الرياض عام 1420هـ /2000م.

59- في شرق البرازيل، من سلسلة الرحلات البرازيلية، مطابع التقنية، الرياض، عام 1419 هـ /1999م.

60- هندوراس ونيكاراقوا وكوستاريكا (من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز)، مطابع التقنية، الرياض، 1419 هـ / 1999م.

61- من بلاد القرتشاي إلى بلاد القبرداي (من سلسلة الرحلات القوقازية)، مطابع التقنية للأوفست، الرياض، 1420هـ 2000م.

62- بلاد التتار و البلغار (من سلسلة رحلات الشمال)، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، 1420هـ/1999 م.

63- بلاد الشركس : الإديغي، مطابع التقنية، الرياض، 1420هـ/1999 م.

64- مواطن إسلامية ضائعة مشاهدات من مولدوفا و أرمينيا، مطابع التقنية، الرياض، 1420هـ/1999 م.

65- تائه في تاهيتي، مطابع التقنية، الرياض،1420 هـ.

66- نظرة إلى الفلبين بين زيارتين : رسمية وخاصة، مطابع النرجس، الرياض، 1420هـ / 2000م.

67- ذكريات من الاتحاد السوفييتي، مطابع النرجس، الرياض، 1420هـ /2000م.

68- نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض أو رحلة إلى أبعد مكان : جولات في أقصى جزر المحيط الهادئ الجنوبي، مطابع التقنية، الرياض، 1420هـ/1999 م.

69- إقليما سمارا وأستراخان (من سلسلة الرحلات في جنوب روسيا)، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، 1420هـ/ 2000م.

70- في إندونيسيا أكبر بلاد المسلمين، مطابع النرجس، الرياض، 1420هـ/1999م.

71- قرينادا وسانتالوسيا ودومنيكا (من سلسلة الرحلات الكاريبية)، مطبعة العلا، الرياض، 1420 هـ/ 2000م.

72- مشاهدات في تايلند، مطابع النرجس في الرياض، عام 1421هـ / 2001م.

73- مع العمل الإسلامي في القارة الأسترالية، جولة وحديث في شؤون الإسلام، مطابع النرجس، الرياض، 1421هـ / 2001م.

74- فطاني أو جنوب تايلند، مطابع المسموعة، الرياض، 1421هـ/ 2000م.

75- المستفاد من السفر إلى شاد، مطابع التقنية، الرياض، 1421هـ/ 2000م.

76- في جنوب البرازيل (من سلسلة الرحلات البرازيلية)، مطابع التقنية، الرياض، 1421هـ/ 2000م.

77- شمال شرق الهند، رحلة في ولايتي بيهار وأترابراديش وحديث عن المسلمين، مطابع النرجس، الرياض، 1422هـ/ 2001م.

78- بلغاريا ومقدونيا (من سلسلة الرحلات في بلاد البلقان)، مطابع العلا، الرياض، 1422هـ/ 2001م.

79- بلاد البلطيق، مطابع الجاسر، الرياض، 1421هـ/ 2001م.

80- بيليز والسلفادور (من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز)، مطابع العلا، الرياض، 1422هـ/ 2001م.

81- العودة إلى ما وراء النهر: جولة في آسيا الوسطى، وحديث عن شؤون المسلمين، مطابع المسموعة، الرياض، 1421هـ/ 2001م.

82- على سقف العالم: رحلة في التبت وحديث في شؤون المسلمين، نادي القصيم الأدبي، بريدة، 1422هـ.

83- الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، أو بقية البقية من حديث إفريقية، مطابع النرجس، الرياض، 1422هـ/ 2001م.

84- بلاد العربية الضائعة (جورجيا)، مطابع العلا، الرياض، 1423هـ/2002م.

85- الاعتبار في السفر إلى ماليبار (من سلسلة الرحلات الهندية)، النادي الأدبى الثقافي في مكة المكرمة، 1423هـ/2002م.

86- ذكريات من خلف الستار العقيدي، رحلة في شرق أوروبا وأحاديث في أحوال المسلمين، مطابع النرجس، الرياض، 1422هـ.

87- بالي: جزيرة الأحلام، مطابع النرجس، الرياض، 1423هـ/2002م.

88- غايتي من السفر إلى هايتي، مطابع النرجس، الرياض، 1423هـ/2002م.

89- إلى جنوب الشمال : بلاد السويد، مطبعة العلا، الرياض، 1423هـ.

90- وراء المشرقين: رحلة حول العالم وحديث في أحوال المسلمين، مطابع النرجس، الرياض، 1423 هـ/2002م.

91- إلمامة بجنوب الفلبين لحضور الاحتفال بافتتاح المباحثات السلمية بين الحكومة الفلبينية وجبهة تحرير مورو الإسلامية، ومشاهدات أخرى، مطابع النرجس عام 1424هـ/2003م.

92- رحلة هونغ كونغ وماكاو، مطابع النرجس، الرياض، 1423هـ/2002م.

93- إلى أقصى الجنوب الإفريقي، مطابع النرجس، الرياض، 1423هـ/2002م.

94- شمال سيبيريا (من سلسلة الرحلات السيبرية)، مطابع النرجس، الرياض، عام 1424هـ / 2004م.

95- فوق سقف الصين: رحلة في الشمال الغربي من الصين، وحديث عن المسلمين، مطابع العلا في الرياض، عام 1424هـ/2003م.

96- إقليم أورنبورغ (من سلسلة الرحلات في جنوب روسيا)، مطابع العلا في الرياض، عام 1424هـ/2003م.

97- إلى إريتريا بعد 36 سنة، مطابع النرجس، الرياض عام 1424هـ.

98- الشرق الشمالي من البرازيل: رحلة في ولايات : برنانبوكو وريوقراندي دي نورتي وباراييبا (من سلسلة الرحلات البرازيلية)، مطابع العلا، الرياض.

99- من غينيا الاستوائية إلى ساو تومي: رحلات في القارة الإفريقية، مطابع النرجس، الرياض عام 1424هـ/2003م.

100- من روسيا البيضاء إلى روسيا الحمراء (من سلسلة الرحلات في القارة الأوروبية)، مطابع العلا، الرياض، 1424هـ/2003م.

101- إلى شمال الشمال: بلاد النرويج و فنلندا (من سلسلة الرحلات في القارة الأوروبية)، مطابع العلا، الرياض، 1424هـ / 2004م.

102- في غرب أستراليا (من سلسلة الرحلات الأسترالية)، مطابع العلا، الرياض، عام 1428هـ.

103- نظرات في شمال النهد (مجلدان)، مطابع النرجس، الرياض، عام 1424هـ-2003م.

104- جولات فنزويلية وحديث عن المسلمين في أحد أركان القارة (من سلسلة رحلات في أمريكا الجنوبية)، مطابع النرجس، الرياض، عام 1427هـ/ 2007م.

105- الحل والرحيل في بلاد البرازيل (ثلاثة مجلدات من سلسلة الرحلات البرازيلية)، مكتبة الرشد، الرياض، عام 1428هـ /2008م.

106- في وسط الهند، مطبعة النرجس عام 1426هـ / 2006م.

107- قوادي لوب وانتقوا وسان مارتن (من سلسلة الرحلات في البحر الكاريبي)، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، عام 1429هـ/2009م.

108- في شمال شرق آسيا، رحلة في سيبيريا ومنغوليا، مطابع العلا في الرياض، عام 1428هـ / 2008م.

109- القلم وما أوتي، في جيبوتي، مطابع النرجس، الرياض عام 1425هـ / 2005م.

110- خلال أوكرانيا بحثا عن المسلمين، (من سلسلة الرحلات في بلاد الشمال).

111- مقال في زيارة منطقة الأورال، (من سلسلة الرحلات في وسط روسيا)، دار الطرفين للنشر والتوزيع، الطائف، عام 1429هـ /2009م.

112- بورتوريكو و جمهورية الدومنيكان، (من سلسلة الرحلات الكاريبية)، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض عام 1429هـ /2009م.

113- جمهوريات القبائل الروسية (رحلات في جنوب روسيا)، مكتبة الرشد، الرياض عام 1429هـ /2009م.

114- في غرب سيبيريا، مشاهدات وأحاديث في شئون المسلمين (الرحلات السيبيرية)، مكتبة الرشد، الرياض، عام 1429هـ /2009م.

115- شمال أستراليا، رحلة وحديث في أحوال المسلمين (الرحلات الأسترالية)، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض 1434 هـ / 2014م.

116- إلمام بالمحيط الهادي من أستراليا إلى جزيرة قوام (الرحلات الأسترالية)، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض.

117- إلى الشرق الأقصى الروسي (الرحلات الروسية)، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض 1433هـ / 2013م.

118- في أقصى الشرق الهندي (الرحلات الهندية)، مطبعة النرجس 1432 هـ/ 2012م.

119- جنوب أستراليا (الرحلات الأسترالية)، دار الثلوثية، الرياض عام 1430 هـ /2010م.

120- رحلة أخرى إلى الحبشة بعد أربعين عاما، مطبعة النرجس، الرياض 1430هـ / 2010م.

121- قول أوفى، في كوسوفا، دار الثلوتية للنشر والتوزيع، عام 1431هـ/2010م.

122- القول المجسد في الجولة في الجبل الأسود، دار الثلوثية، الرياض 1433 هـ /2013م.

123- رحلة إلى المدينة المنورة قبل ستين سنة، دار الثلوثية، الرياض 1431 هـ / 2011م.

124- في أعماق الصين الشعبية: رحلة في مقاطعة منقوليا الداخلية وحديث عن الإسلام والمسلمين، مطبعة النرجس، الرياض، عام 1431هـ/ 2011م.

125- العودة إلى غرب إفريقية، مطبعة النرجس، الرياض، عام 1432هـ /2012م.

126- رحلة من بريدة إلى الظهران قبل ستين سنة، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض 1432هـ / 2012م.

127- غينيا الجديدة آخر الغينيات زيارة، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض عام 1434هـ/2014م.

128- الإشراف على أطراف من المغرب العربي - وزارة التعليم العالي، 1433هـ / 2013م.

129- شرق أستراليا، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض 1435هـ /2015م.

130- رحلة الأندلس، نادي المدينة المنورة الأدبي، 1435هـ /2015م.

131- حصاد الرحلات، مكتبة الرشد، الرياض، عام 1429هـ /2009م.

132- رحلات ونظرات حول المسلمين في العالم، دار الطرفين للنشر والتوزيع، الطائف، عام 1439هـ /2018م.

133- المارتينيك وبارباروس، دار الثلوتية للنشر والتوزيع، الرياض، عام 1430هـ/2009م.

134- سفرة إلى تاجيكستان، دار الثلوثية، الرياض، 1434هـ /2013م

135- تجوال في بلاد البرتغال، سلسلة الرحلات الأوروبية، دار الثلوثية، الرياض، 1434هـ /2013م.

136- شرق أستراليا، سلسلة الرحلات إلى أستراليا، دار الثلوثية للنشرة والتوزيع، الرياض، 1435هـ /2014م.

137- عود إلى أوزباكستان بعد عشر سنين، دار الثلوثية للنشرة والتوزيع، الرياض، 1435هـ /2014م.

138- السفر والأوبة من كوبة، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1435هـ /2014م.

139- جولة في تركستان الشرقية تحت حكم الشيوعية، رابطة العالم الإسلامي، 1437هـ 2016م.

140- كنا في كانو وجئنا من أبوجا، مطابع النرجس، الرياض، 1437هـ /2016م.

141- الإشراف على أطراف المغرب العربي، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1437هـ /2016م.

142- العودة إلى المغرب الأقصى: بين الصحراء والأرض الخضراء، دار الثلوثية للنشر والتوزويع، الرياض، 1437هـ /2016م.

143- الإشراف على أطراف من المغرب العربي، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1437هـ / 2016م.

كتب مخطوطة للمؤلف في الرحلات:

1- رحلات في البيت: رحلات داخل المملكة العربية السعودية
2- جولة في جزائر البحر الأبيض المتوسط
3- حديث المؤتمرات (الخارجية)
4- جولة في جزائر المحيط الأطلسي
5- مؤتمرات إسلامية حضرتها
6- رحلة المسافات الطويلة
7- حول العالم في خط متعرج
8- الإشراف على أطراف من المشرق العربي
9- التعليق على السفر إلى أقطار البلطيق
10- من كوبنهاغن إلى كييف مرورا بباريس
11- رحلة إلى الشمال
12- زيارة لإيطاليا وحديث في شؤون المسلمين
13- تجوال في البلاد البرتغال
14- زيارات خاطفة لمدن أوروبية مختلفة
15- العودة إلى داغستان

16- على أعتاب الهملايا
17- بلاد الهند والسند- باكستان
18- في الشمال الغربي من الهند
19- في أقصى شرق الهند
20- وسط الهند
21- رحلات في بلاد الملايو
22- في مهد الترك – تركستان الشرقية
23- في أحناء إندونيسيا
24- في شمال شرق آسيا
25- جمهورية قازاغستان: ملخص تاريخي ومشاهدات ميدانية
26- إلى تاجيكستان ثانية
27- قازاغستان بعد أوزبكستان وتاجيكستان
28- رؤية جديدة للجانب الأبعد من أمريكا الجنوبية
29- رحلة الجنوب
30- شمال البرازيل
31- وسط البرازيل
32- فنزويلا وترينداد
33- رحلات فنزويلية
34- وراء العمل الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية
35- تلبية النداء لزيارة كندا
36- في وسط الصين
37- المارتينيك وبربادوس
38- دومنيكا وقواديلوب وأنتيقوا
39- كرواتيا و سلوفينيا
40- في شمال أستراليا

41- في جنوب أستراليا
42- الإلمام بالمحيط الهادئ من أستراليا إلى جزيرة قوام
43- بلاد المكسيك وقواتيمالا
44- التشريق بعد التغريب في بحر الكاريب
45- مقال في السفر إلى منطقة الأورال
46- شرق سيبريا
47- إلى إرتيريا بعد 36 عاما
48- البرتقال و بلجيكا و هولندا

المعاجم واللغة:

1. معجم بلاد القصيم (6 مجلدات)، دار اليمامة، 1399هـ (ط1)1410 هـ (ط2)
2. مدلولات كلمات قضى عليها حكم الملك عبد العزيز، الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، 1399هـ
3. كلمات عربية لم تسجلها المعاجم، 1420هـ جامعة أم القرى- مكة المكرمة
4. كلمات قضت: معجم بألفاظ اختفت من لغتنا الدارجة أو كادت (مجلدين) 1423هـ، دارة الملك عبد العزيز
5. الكناية والمجاز في اللغة العامية، 1423هـ، مجلة الدرعية، الرياض
6. معجم الألفاظ الدخيلة في لغتنا الدارجة (مجلدين) 1425هـ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة
7. الأصول الفصيحة للألفاظ الدارجة: أو ما فعلته القرون بالعربية في مهدها (13 مجلد) 1430هـ (2009) مكتبة الملك عبد العزيز العامة (فاز هذا الكتاب بجائزة وزارة الثقافة والإعلام للكتاب في دورتها الثالثة عام 1431هـ)
8. معجم أسر بريدة (23 مجلدا) 1431هـ (2010) دار الثلوثية للنشرة والتوزيع، الرياض
9. معجم النخلة في المأثور الشعبي 1431هـ (2010) دار الثلوثية للنشر والتوزيع

10. معجم المطر والسحاب في لغة العامة، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1432هـ / 2011م.
11. معجم الأنواء والفصول، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الريضا، 1432هـ / 2011م.
12. معجم الديانة والتدين في لغة العامة ومأثوراتها، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1432هـ / 2011م.
13. معجم ألفاظ الصيد والقنص في المأثور الشعبي، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1432هـ / 2011م
14. معجم الحيوان عند العامة (مجلدان) مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1432هـ / 2011م.
15. معجم الأقارب والأصدقاء عند العامة، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1433هـ / 2012م.
16. معجم السفر والارتحال عند العامة، دار الثلوثية للنشر والتوزيع الرياض، 1433هـ / 2012م
17. معجم التجارة والمال والفقر والغنى، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1433هـ / 2012م
18. معجم الملابس في المأثور الشعبي، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1434هـ /2013م. (فاز هذا الكتاب بجائزة وزارة الثقافة والإعلام للكتاب لعام 1435هـ.)
19. معجم شجر البساتين ونباتها في المأثورات الشعبية في القصيم، مركز صالح بن صالح الاجتماعي في عنيزة، 1434هـ / 2013م.
20. معجم ألفاظ الحرف والصنائع في المأثورات الشعبية، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1435هـ / 2014م
21. معجم الأصول الفصيحة للأمثال الدارجة (ثمانية مجلدات)، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1435هـ / 2014م.

22. معجم وجه الأرض في المأثور الشعبي، وما يتعلق به من الجبال والآبار والأجواء ونحوها في المأثورات الشعبية، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1435هـ / 2014م. (فاز هذا الكتاب بجائزة الملك عبد العزيز للكتاب في دورتها الثانية عام 1436هـ (2015م).
23. معجم ألفاظ الحضارة في المأثور الشعبي، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1435هـ / 2014م.
24. معجم المرض والصحة في المأثور الشعبي، دار الثلوثية للنشر والتوزيع الرياض، 1436هـ /2015م.
25. معجم الشراب والطعام في المأثور الشعبي (ثلاثة مجلدات)، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1436هـ / 2015م.
26. معجم أشجار البرية في المأثور الشعبي، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1436هـ / 2015م.
27. معجم أسر عنيزة (17 مجلدا)، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1437هـ /2016م.
28. معجم الشجاعة والإقدام (مجلدان)، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1437هـ / 2016م.
29. معجم المنازل والديار (مجلدان)، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1437هـ / 2016م.
30. معجم غرائب الألفاظ النجدية ذوات الأصول الفصيحة، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1437هـ /2016م.
31. معجم أزواج في التراث الشعبي، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1438هـ / 2017م.
32. معجم الإبل في المأثور الشعبي (3 مجلدات) دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1440هـ / 2019م.

33. معجم أسر الرس (17 مجلدا)، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1441هـ / 2020م.

الأدب:

1. أخبار أبي العيناء اليمامي، الرياض، 1398هـ / 1978م.
2. كتاب الثقلاء، الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، 1399هـ / 1979م.
3. صور ثقيلة، مطابع الفرزدق، الرياض، 1405هـ / 1985م.
4. المقامات الصحراوية: رواية أبي ناصر النجدي عن أبي الخيالي، مطابع التقنية، 1418هـ / 1997م. (حولت الرواية إلى مسلسل تاريخي تحت عنوان (مقامات صحراوية) من بطولة زيناتي قدسية وإخراج حسن حسني العبيدي).
5. حكايات تحكى، نادي القصيم الأدبي، 1421هـ / 2000م.
6. المقامات البلدانية، نادي الرياض الأدبي، 1426هـ / 2005م.
7. مطوع في باريس، نادي الرياض الأدبي، 1429هـ / 2008م.
8. المستدين (قصة)، مطبعة النرجس، الرياض، 1432هـ / 2011م.
9. الأصدقاء الثلاثة (رواية)، مطابع الفرزدق، الرياض، 1432هـ / 2011م.
10. موضي وبناتها (رواية)، مطابع الفرزدق، الرياض، 1435هـ / 2014م.

السيرة والتراجم:

1. أخبار الملا ابن سيف، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1430هـ /2009م. (سيرة عبد المحسن بن محمد السيف المولود في بريدة سنة 1215هـ)
2. أخبار قني: عبد الكريم بن عثمان العبيد (1271-1359هـ)، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1430هـ /2009م.
3. أخبار مطوع اللسيب (عبد الكريم بن عودة المحيميد المولود عام 1270هـ)، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1430هـ /2009م.
4. الشيخ عبد الله بن حميد كما عرفته (مجلدان)، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1432هـ / 2011م.

5. صاحب المعالي الشيخ محمد بن علي الحركان كما عرفته، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1433هـ / 2012م.
6. معالي الشيخ عبد العزيز بن صالح آل صالح إمام المسجد النبوي كما عرفته، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1433هـ / 2012م.
7. الرحالة العظيم ابن بطوطة: شواهد حية على صدقه، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1434هـ / 2013م.
8. أخبار حمد الصقعبي، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1434هـ / 2013م.
9. سبعون عاما في الوظيفة الحكومية (أربعة مجلدات، سيرة ذاتية للمؤلف محمد بن ناصر العبودي)، دار الثلوثية، للنشر والتوزيع، الرياض، 1436هـ / 2015م.
10. سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز كما عرفته، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1439هـ / 2018م.
11. يوميات نجدي (ثلاثة مجلدات) يوميات المؤلف محمد بن ناصر العبودي، دار الثلوثية للنشر والتوزيع الرياض، 1441هـ / 2020م.

و- **الأدب الشعبي**:

1. الأمثال العامية في نجد (خمسة مجلدات)، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1399هـ
2. مأثورات شعبية، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1402هـ /
3. حكم العوام، مطابع الجاسر، الرياض، 1421هـ /2001م.

ز- **مؤلفات متنوعة**:

1. نفحات من السكينة القرآنية، دار العلوم، الرياض، 1403هـ
2. العالم الإسلامي والرابطة، رابطة العالم الإسلامي، 1414هـ
3. نظرة إلى العلاقات العربية مع أهالي جنوب الصحراء، مطابع التقنية، الرياض، 1418هـ / 1997م.

4. مساعدات المملكة العربية السعودية للمسلمين: وبخاصة الأقليات المسلمة، مطابع النشر العربي، الرياض، 1419هـ
5. المملكة العربية السعودية بين الماضي والحاضر، رابطة العالم الإسلامي، 1419هـ
6. رابطة العلم الإسلامي إحدى القنوات السعودية لمساعدة المسلمين 1420هـ (1999) رابطة العالم الإسلامي.
7. الدعاة إلى الله: شرف مهمتهم وطرق دعمهم، 1420هـ (1999) رابطة العالم الإسلامي.
8. واجب المسلم في بلاد الأقليات، 1420هـ (2000) رابطة العالم الإسلامي.
9. العالم الإسلامي: واقع وتوقعات، 1420هـ (2000) ، المجلة العربية
10. الدعوة الإسلامية وإعداد الدعاة، 1421هـ (2001) مطابع الجاسر، الرياض
11. أثر الأقليات المسلمة في الدعوة الإسلامية 1423هـ (2002)، رابطة العالم الإسلامي.
12. أماكن قديمة العمارة في القصيم، مكتبة العبودي- بريدة
13. وجهة نظر،1428هـ (2007)، مكتبة الرشد
14. الحوار في الإسلام، 1429هـ (2008) دار الطرفين- الطائف
15. دور الأقليات المسلمة في الدعوة إلى الله،1429هـ (2008) دار الطرفين، الطائف
16. الأقليات المسلمة: الواقع والمأمول، 1429هـ (2008)، دار الطرفين، الطائف
17. العالم الإسلامي: الواقع والمعاناة،1429هـ (2008) دار الطرفين، الطائف

18. هذا ما استوحيته من الناس، 1430هـ (2009)، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض.
19. جهود خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز رحمه الله في مساعدة الإخوة المسلمين وبخاصة في بلاد الأقليات المسلمة،1429هـ (2008)، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض.
20. العلاقات بين المملكة العربية السعودية وتركيا، 1429هـ (2008)، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض.
21. مشاهد من بريدة: قبل خمس وسبعين سنة،1430هـ (2009)، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض.
22. القضاء في المملكة العربية السعودية بين الماضي والحاضر، 1432هـ دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض.
23. أهمية الوثائق المحلية في تاريخ الأفراد والأسر، 1433هـ (2012) دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض.([1])

إنجازات هامة للعبودي

يُعد العبودي من العلماء الموسوعيين، حيث صدر له، إضافة إلى مؤلفاته في أدب الرحلات، العديد من المعاجم اللغوية والجغرافية، أضخمها (معجم أسر بريدة) الذي صدر في 23 مجلداً وتجاوز عدد صفحاته 12 ألف صفحة، و (معجم أسر عنيزة) الذي يتكون من 17 مجلداً، وكذلك (معجم الأصول الفصيحة للألفاظ الدارجة) الذي صدر في 13 مجلداً.

كتب للعبودي حصلت على جوائز:

[1] تم اقتباس قائمة مؤلفات الشيخ محمد من ناصر العبودي من كتابه "سبعون عاما في الوظيفة الحكومية" ج4/346-366، إضافة إلى أغلفة من مؤلفات أخرى له من "في بلاد الداغستان" و"خلف الستار العقدي" و"يوميات آسيا الوسطى". (الباحث)

- حصل (معجم الأصول الفصيحة للألفاظ الدارجة: أو ما فعلته القرون بالعربية في مهدها) على جائزة وزارة الثقافة والإعلام للكتاب في دورتها الثالثة عام 1431هـ (2010م)
- حصل (معجم الملابس في المأثور الشعبي) على جائزة وزارة الثقافة والإعلام للكتاب لعام 1435هـ (2014م)
- حصل (معجم وجه الأرض في المأثور الشعبي) على جائزة الملك عبد العزيز للكتاب في دورتها الثانية عام 1436هـ (2015م) في فرع الكتب المتعلقة بجغرافية المملكة العربية السعودية.
- حصل المؤلف على جائزة ومنحة الأمير سلمان لدراسات تاريخ الجزيرة العربية عام 2010م لجهوده العلمية ورصد جهود المملكة العربية السعودية في مجال الدعوة الإسلامية وتدوينها في كتبه للرحلات في العالم الإسلامي.
- كُرّم في 7 رمضان عام 1442هـ الموافق 19 أبريل 2021م بجائزة شخصية العام الثقافية في مبادرة الجوائز الثقافية الوطنية من وزارة الثقافة في المملكة العربية السعودية.

****

الفصل الثاني: سيرة الشيخ محمد تقي العثماني ومؤلفاته

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: ترجمة الشيخ محمد تقي العثماني

هو محمد تقي العثماني ابن محمد شفيع ابن محمد ياسين ابن خليفة تحسين علي ابن إمام علي ابن الحافظ كريم الله ابن خير الله ابن شكر الله. وينتهي نسبه إلى الخليفة الرابع عثمان بن عفان رضي الله عنه على ما هو معروف في أسرته على لسان أجداده، كما ذكره والده المفتي محمد شفيع رحمه الله في كتابه (میرے والد ماجد) – والدي الماجد–.[1]

وينبغي هنا الإشارة إلى أن الأسماء في شبه القارة الهندية من بنغلاديش والهند وباكستان، عادة تكون مركبة. وقد يتركب اسم مفرد من أربعة أجزاء أيضا، خلافا لما هو المعروف في العالم العربي. وهكذا فإن الأسماء في نسب محمد تقي العثماني أيضا ليست مستثنية من التقليد المعروف، وكل اسم يتكون من جزئين على الأقل. وبدأ التغير يطرأ على هذا النمط من الأسماء في باكستان منذ فترة. ويبدو أن سبب ذلك يعود إلى سهولة الاحتكاك بين الشعوب المختلفة بفضل وسائل الإعلام المتقدمة.

مولده ومسقط رأسه

فتح محمد تقي العثماني عينه في هذا العالم في 5 شوال عام 1362هـ الموافق 3 أكتوبر 1943م ببلدة (ديوبند)، في بيت علم وفضل وأدب. وتشتهر بلدة ديوبند بفضل "دار العلوم" التي تعتبر أزهر الهند. وكان والده الشيخ المفتي محمد شفيع مدرسا ومفتيا بدار العلوم؛ إلا أنه كان تفرغ لأمور أخرى غير التدريس بدار العلوم عندما ولد محمد تقي العثماني.

---

[1] العثماني، محمد تقي، مجلة البلاغ، ص: 88، صفر المظفر 1439هـ

أسرته

كان جده الشيخ محمد ياسين من أوائل الطلاب في مدرسة ديوبند. ولد عام 1282هـ أي قبل عام من تأسيس دار العلوم سنة 1283هـ وتوفي عام 1355هـ قبل ولادة محمد تقي العثماني. وتلقى جده العلوم من كبار مشايخ ديوبند وبينهم الشيخ محمد يعقوب النانوتوي والشيخ سيد أحمد الدهلوي والشيخ الملا محمود الديوبندي والشيخ محمود الحسن([1]) المعروف بشيخ الهند. وتتلمذ في الأدب الفارسي على ميرزا غالب الهندي.

كان مشايخ أسرته معروفين بالعلم والتقوى، ولُقبوا بـ (ميان جي). ولهذه الكلمة عدة معان، وبينها المدرس والمعلم والشيخ، كما هو موضح في قواميس اللغة الأردية. وهذا اللقب أصبح جزءا لا ينفك عن أسمائهم، لانشغالهم بنشر العلم بين أهل تلك المنطقة.

عيّن الشيخ محمد ياسين مدرسا للأدب الفارسي بدار العلوم ديوبند. فقام بتلك المهمة لأربعين عاما. فتخرج على يديه أجيال في الأدب الفارسي. كما كان يدرس الأدب العربي أيضا. وخلّف عددا من الكتب حول الأدب الفارسي والصرف العربي، وهي لا تزال تُطبع وتُقرأ. ولا يزال أهل العلم ينهلون من منهله.

والده

والده هو الشيخ المفتي محمد شفيع العثماني المفتي العام السابق لباكستان. ولد في 21 شعبان من عام 1314هـ الموافق 25 يناير 1897م بديوبند. والتحق بدار العلوم ديوبند سنة 1325هـ وواصل التحصيل هناك عشر سنوات على أيدي كبار

---

[1] شيخ الهند محمود الحسن: ولد عام 1268هـ/1851م. وتم تعيينه مدرسا بدار العلوم ديوبند، فارتقى إلى منصب رئيس المدرسين عام 1888م. وأنشأ جمعية الأنصار عام 1909م. في عام 1915م هاجر إلى مكة المكرمة وسلمه شريف مكة إلى الإنجليز. فحبسه الإنجليز في السجن في مالطة لأربع سنوات. عاد إلى الهند عام 1339هـ/ 1920م لكن صحته كانت متدهورة جدا. توفي في دلهي في 30 نوفمبر 1920م ووري الثرى في ديوبند. ويعتبر من كبار الشخصيات العلمية والسياسية في الهند، بسبب نضاله المتواصل ضد حكومة التاج البريطاني في الهند. وحركة المناديل الحريرية التي قادها، معروفة في التاريخ. انظر: *اردو انسائكلوپيڈيا*(دائرة المعارف الأردية)، لاهور، فيروز سنز، الطباعة الأولى، 1962م، ص:1393

المشايخ. وبعد تخرجه فيها، أسند إليه التدريس والعمل في دار الإفتاء التابعة لدار العلوم. وبلغ عدد فتاويه التي كتبها بين عام 1350هـ - 1362هـ أربعين ألف فتوى، في حين تجاوز ذلك العدد ثمانين ألف فتوى عام 1371هـ.

وكان بايع شيخ الهند الشيخ محمود حسن الديوبندي في الطريقة؛ لأنه كان مولعا بالاسترشاد منذ نعومة أظفاره. وعندما نفت الحكومة الإنجليزية الشيخ محمود حسن وعلماء آخرين من الهند وسجنتهم في مالطا عام 1916م، بعد أن اعتقلهم شريف مكة وسلمهم إلى الإنجليز، بايع الشيخ محمد أشرف علي التهانوي العالم النحرير في شبه القارة الهندية الذي تجاوز عدد كتبه التي خلفها في العلوم الإسلامية ألفا ومائة كتاب، بعضها في مجلدات وبعضها رسائل صغيرة. وعاد ليجدد البيعة للشيخ محمود حسن بعد عودته إلى الهند. وبعد وفاته عام 1920م بايع الشيخ التهانوي مرة أخرى ولازمه بعد ذلك.

مع بداية حركة استقلال باكستان، تفرغ الشيخ محمد شفيع العثماني للعمل السياسي وتوعية الشعب المسلم لدعم حركة الاستقلال. وقام العلامة شبير أحمد العثماني([1]) والشيخ ظفر أحمد العثماني والشيخ محمد شفيع العثماني بتأسيس منظمة سياسية باسم "جمعية علماء الإسلام". وبدأوا سلسلة من الزيارات في طول الهند وعرضها لتوعية الشعب. وكان لزياراتهم إلى إقليم الحدود الشمالية الغربية — الذي يسمونه الآن إقليم خيبر بختون خوا- أثر كبير لكسب الدعم الشعبي لحركة استقلال باكستان.

---

[1] شيخ الإسلام شبير أحمد العثماني: عالم فقيه ومحدث جليل، ولد في مدينة بجنور بالهند عام 1305هـ/1885م، ودرس الحديث والفقه والعلوم الأخرى في ديوبند. كان من أخص تلامذة شيخ الهند محمود الحسن. درّس لفترة في مسجد فتح بوري بدلهي، ثم تعيينه مدرسا بدار العلوم ديوبند. وقف إلى جانب حزب الرابطة خلال حركة استقلال باكستان. عُين عضوا للمجلس الدستوري بعد استقلال باكستان. وسكن مدينة كراتشي. وتوفي عام 1949م. وشرحه لصحيح مسلم بالعربية وهوامش تفسيرية على ترجمة شيخ الهند للقرآن الكريم بالأردية، من أهم مآثره. انظر: *اردوانسائكلوپيڈيا* (دائرة المعارف الأردية)، لاهور، فيروز سنز، الطباعة الأولى، 1962م، ص: 963

أعلنت الحكومة الإنجليزية تقسيم شبه القارة الهندية إلى دولتين الهند وباكستان عام 1947م. وكانت بنغلاديش تسمى باكستان الشرقية آنذاك وكانت جزءا من باكستان؛ لكنها انفصلت عن باكستان عام 1971م. وقد استقلت باكستان في 14 أغسطس عام 1947م (27 رمضان عام 1367هـ). وهاجر المفتي محمد شفيع إلى باكستان مع أسرته عام 1948م.

كانت باكستان دولة فيتة، لكنها واجهت مشاكل هائلة، بسبب أكبر هجرة شهدها العالم في التاريخ بين الهند وباكستان، إضافة إلى الفتن والمحن التي مر بها المسلمون في الهند حيث راح أكثر من مليون نسمة ضحية للشغب الذي ثار بين المسلمين والهندوس. وحدثت مجازر بحق المسلمين المهاجرين.

وبما أن باكستان أنشئت على أساس الفكرة الإسلامية، كان لا بد من وضع دستور إسلامي لها؛ إلا أن أصحاب الحل والعقد والقيادات التي تولت زعامة حركة استقلال باكستان، قلما وجد فيهم من يقدر على أداء هذه المهمة الصعبة. فأخذها العلماء على عاتقهم. وبذلوا جهودا مضنية. وكان الشيخ محمد شفيع في الصف الأول من العلماء الذين وضعوا الأساس الإسلامي لدستور باكستان. وتمكن العلماء من إعداد الإطار الأساسي لأسلمة الدستور. فتم ضم هذا الإطار إلى الدستور كمقدمة له، مع النص على عدم تغييره، عام 1949م.

على الرغم من أن الشيخ محمد شفيع واجه مصاعب هائلة بعد أن استقر به المقام في كراتشي عاصمة باكستان آنذاك، لم تغب عنه مهمة تعليم المسلمين وتربيتهم تربية إسلامية. فقام أولا بإنشاء مدرسة إسلامية في (نانك وارة) بكراتشي، ثم أنشأ دار العلوم كراتشي، في منطقة كورنكي، وهي تعتبر اليوم من أكبر المدارس الإسلامية التي لا يتجاوز عددها أصابع يد واحدة.

وخلّف الشيخ محمد شفيع تفسيرا كاملا للقرآن الكريم بالأردية بعنوان "معارف القرآن" وكتبا قيمة عديدة، إضافة إلى دار العلوم كراتشي وأبناء وبنات في قمة العلم

والأدب، وانتقل إلى رحمة الله عام 1396هـ (6 أكتوبر 1976م) ووري الثرى في محيط دار العلوم كراتشي.[1]

والدته:

هي السيدة نفيسة خاتون. وكانت تنتمي إلى أسرة أنصارية معروفة في ديوبند. وكانت من أهل الورع والتقوى. وصبورة على مُرّ الحياة وحلوها، وحنونا على أولادها ووفية بزوجها. وحظي محمد تقي العثماني بحبها ودلالها أكثر من إخوته وأخواته، لكونه أصغرهم.[2] وهي التي قامت بتربيته ودرّسته كتابين باللغة الأردية وهما (بهشتي كوهر) و(سيرة خاتم الأنبياء). ويقول محمد تقي العثماني إن تعليمه للغة الأردية هو ما درس من والدته.[3]

أخواته وإخوته:

وهو آخر العنقود بين تسعة إخوة وأخوات. أكبرهم نعيمة خاتون وبعدها عتيقة خاتون، ثم محمد زكي كيفي، فحسيبة خاتون، فرقيبة خاتون، وبعدها محمد رضي العثماني، ثم محمد ولي رازي، ثم محمد رفيع العثماني وأخرهم محمد تقي العثماني. وجميع إخوته وأخواته من أهل العلم والفضل والأدب. وكانت حسيبة خاتون ورقيبة خاتون تقرضان الشعر أيضا ولهما ذوق رفيع في الأدب، على الرغم من أنهما لم تتلقيا التعليم في أي مدرسة أو جامعة رسمية.[4]

أما إخوته، فتحدث ولا حرج، لأن كل واحد منهم بمكانة من العلم والفضل. فكان شقيقه الأكبر محمد زكي كيفي شاعرا مجيدا خلّف ديوان شعر باللغة الأردية بعنوان "كيفيات". وكان ممن بايع الشيخ أشرف علي التهانوي في صباه.

---

[1] انظر، حكيم، لقمان، محمد تقي العثماني القاضي الفقيه والداعية الرحالة، دمشق، دار القلم، الطبعة الأولى، 1423هـ/ 2002م ص :15-20

[2] انظر سلسلة "يادیں" – ذكريات- السيرة الذاتية لمحمد تقي العثماني، مجلة البلاغ، ربيع الأول 1439هـ ص: 21

[3] انظر، محمد تقي العثماني القاضي الفقيه والداعية الرحالة، ص: 21

[4] انظر، "يادیں"، مجلة البلاغ، ربيع الثاني 1439هـ، ص:33

والثاني هو محمد رضي العثماني. وهو من ساعد الأسرة في أوقات صعبة وقام بإدارة مكتبة تجارية باسم "دار الإشاعت" في ديوبند، ثم نقلها إلى كراتشي بعد استقلال باكستان. وأنشأ فرعا لها في لاهور أيضا. وقام بنشر عدد كبير من الكتب في مواضيع مختلفة عن طريق هذه المكتبة. وكان المفتي محمد شفيع أنشأ تلك المكتبة في ديوبند لتغطية مصاريف بيته وإدارة شؤونه، بعد تقديم استقالته من دار العلوم ديوبند التي كان يعمل بها مفتيا ومدرسا.

والأخ الثالث هو الأستاذ محمد ولي رازي العثماني. وهو أستاذ بجامعة كراتشي، ويحظى بشخصية عبقرية. قام بعدد من الأعمال الإسلامية والأدبية. وألف كتابا في السيرة النبوية غير منقوط باللغة الأردية بعنوان "هادي عالم" – هادي العالم-. ونال هذا الكتاب إعجابا وتقديرا واسعا من أهل العلم، كما حظي بالجائزة الرئاسية عليه أيضا.([1])

والرابع هو المفتي العام السابق لباكستان الشيخ محمد رفيع العثماني. ولقبه العلماء المفتي العام أو الأعظم بعد وفاة الشيخ المفتي ولي حسن تونكي[(2)]. تم تعيينه رئيسا لدار العلوم كراتشي إثر وفاة والده المفتي محمد شفيع. فعمل جادا لتطوير دار العلوم من جميع النواحي، من ناحية البناء والتوسعة إلى تحسين التدريس والنظام الإداري. وكان معروفا بذوقه الرفيع في أعمال البناء. ولم يعزف عن التدريس رغم الأشغال الإدارية. كما كان يرأس دار الإفتاء لدار العلوم أيضا. وخلف مآثر علمية كثيرة باللغة الأردية والعربية. ووافته المنية في 18 نوفمبر 2022م، وكان من مواليد 21 يوليو 1936م. وتم تعيين محمد تقي العثماني رئيسا لدار العلوم كراتشي خليفة له.[(3)]

---

[1] إن حرف الياء عندما يكتب بالأردية منفصلا هكذا "ى" فإنه يعتبر غير منقوط خلافا للغة العربية التي تعتبر فيها الياء منقوطة. (الباحث)

[2] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، ربيع الثاني 1439هـ، ص:37

[3] انظر، محمد تقي العثماني القاضي الفقيه والداعية الرحالة، ص : 21-23، و يادیں، مجلة البلاغ، ربيع الثاني 1439هـ، ص :29-37

الحياة الأولية:

فتح محمد تقي العثماني عينه في هذا البيت المعمور بالعلم والأدب والفضل، بين أخوات وإخوة نبهاء ووالد عالم وأم رؤف حنون. والجميع يحبونه لكونه أصغر واحد في الأسرة. وقد كتب في ذكرياته أنه لم يكن يحتاج للعب مع أولاد الحارة؛ لأن في البيت ثلاث بنات لأخواته وابن لأخت، كلهم أكبر منه. فكان يقضي معظم وقته معهم. وقلما يحتاج إلى الخروج من البيت. وكان معروفا في الأسرة بنباهته وذكائه حتى في السنين الأولى من حياته.

وكان ثلاثة إخوته يدرسون آنذاك في دار العلوم بديوبند؛ لكنه لم يلحق بها للدراسة، لصغر سنه؛ إلا أنه كان يزورها بصحبة إخوته. وأرسله والده إلى كتّاب السيدة أمة الحنان التي كانت تسكن بجوار منزلهم، وتعلم البنات والأطفال الصغار. فكان درس عندها "بغدادي قاعدة" (القاعدة البغدادية). وهو كتيب صغير لتعليم الأطفال قراءة القرآن الكريم. وكان تعليم الأطفال يبدأ منه.[1]

الهجرة إلى باكستان:

كتب محمد تقي العثماني في ذكرياته أنه قضى نحو أربع سنوات ونصف السنة من عمره في بلدة ديوبند. وعندما تم إعلان استقلال باكستان في 27 من شهر رمضان 1366هـ الموافق 14 أغسطس 1947م. كانت الأجواء مشحونة. فبدأت أعمال الشغب في البنجاب الشرقي الذي معظم سكانه ينتمون إلى الديانة السيخية. فأخذوا يهاجمون أملاك المسلمين ويقتلونهم. وبما أن ديوبند كانت قريبة من البنجاب، وبها نسبة كبيرة من السيخ أيضا، انتقلت شرارة الشغب إلى هناك أيضا. ويذكر محمد تقي العثماني أن حيهم كان به المسلمون والهندوس يعيشون جنبا إلى جنب كجيران؛ لكن الذعر خيّم عليه أيضا؛ لأن مجموعات السيخ كانت تمر به رافعة شعاراتهم. فبدأ أهل الحي في تنظيم حراسة لتفادي أي مكروه.

وكان والده بنى بيتا خاصا له، بعد أن قضى فترة طويلة من عمره في غرفة لمنزل ورثه من والده. وأنشأ بستانا للمانجو قريبا من منزله، وكان يزوره بين فينة وأخرى في

---

[1] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، جمادى الأولى 1439هـ، ص: 20

أوقات فراغه، ويجتمع به أفراد الأسرة في بعض الأحيان؛ إلا أنه اتخذ قرارا للهجرة إلى باكستان، على الرغم من أنه كان يعرف جيدا أن تلك الأملاك والعقارات كلها ستنتقل إلى الحكومة الهندية. وكتب محمد تقي العثماني أن والده كان يقول: "اليوم الذي أخرجت فيه قدمي من ذلك البستان والمنزل، خرجت تلك الممتلكات والعقارات من قلبي أيضا".[1]

قرر المفتي محمد شفيع الهجرة إلى باكستان؛ لكن لم يمكن لأسرته الكاملة الهجرة معا. فتقرر أن يبقى أولاده وبناته المتزوجون في ديوبند، ويهاجر الآخرون في المرحلة الأولى؛ لأن جدة محمد تقي العثماني كانت على قيد الحياة في ذلك الحين؛ لكنها ضعيفة جدا لا تقدر على امتشاق تعب السفر. فبقي أكبر إخوته محمد زكي كيفي واثنتان من أخواته مع أسرهن في ديوبند، وشد الآخرون الرحال إلى باكستان مع والدهم في أول مايو 1948م.

فباتت الأسرة ليلة في دلهي، وركبت بعدها القطار إلى باكستان. وهذه كان أول رحلة يرى فيها محمد تقي العثماني السيارة والقطار في حياته. ووصلت اليوم الثاني إلى راجستان على حدود باكستان. ومرت الأسرة بتفتيش شديد من قبل الجمارك الهندية التي لم تسمح لها بحمل أي ملابس غير مخيطة معها. وقضت الأسرة يوما في راجستان لتصل اليوم التالي إلى حيدر آباد بإقليم السند. وانتهى بها المطاف في كراتشي في 6 مايو 1948م.

ونزلت أسرة محمد تقي العثماني في عمارة بمنطقة (صدر) في كراتشي. وقد كانت الحكومة خصصت شقة منها للمفتي محمد شفيع من قبل؛ لأنه كان مدعوا من جانب الحكومة. وكما ذكر العثماني في ذكرياته أن تلك العمارة كانت نموذجا فريدا للتعايش بين الأديان والحضارات المختلفة، إذ كانت تسكن بها أسرة إنجليزية مسيحية، وأخرى مجوسية، وثالثة سندية مسلمة؛ لكن كلها كانت تعيش جنبا إلى جنب وكل

---

[1] انظر، نفس المصدر، جمادى الثانية 1439هـ، ص: 17

يرعى حسن الجوار، والعلاقات الأسرية تربط بينها. وكلها تتشارك الأحزان والأفراح معا. وبقيت تلك الصلات قائمة حتى بعد مغادرة أسرته تلك المنطقة.[1]

الصعوبات التي واجهت أسرة العثماني في كراتشي:

شهدت باكستان أكبر هجرة في التاريخ البشري بعد استقلالها، حيث تشير إحصائيات إلى أن أكثر من 18 مليون مسلم هاجروا إليها حتى عام 1948م من مختلف أنحاء الهند، في حين قتل أكثر من مليون من المسلمين في البنجاب الشرقي، بينما اغتصبت وقتلت نحو 75000 مسلمة، إضافة إلى إجبار أكثر من مليون نسمة على تغيير دينهم واعتناق الهندوسية أو السيخية.[2]

لم تكن باكستان مستعدة لاستقبال هذا العدد الهائل من المهاجرين. فازداد العبء عليها؛ إلا أنها بذلت جهودا مضنية لإيواء المهاجرين وتأمين المرافق الممكنة لهم. وعلى الرغم من أن المهاجرين أووا إلى إقليم البنجاب والسند؛ إلا أن النسبة الكبرى منهم أوت إلى إقليم السند.

سبب نشوء الشغب بعد تقسيم شبه القارة الهندية:

ولا بد هنا من ذكر سبب الشغب الذي ثار بعد إعلان الإنجليز تقسيم شبه القارة الهندية. وهو أن المسلمين حكموا شبه القارة الهندية لقرون؛ لكنهم لم يفرقوا بين الشعب المسلم وغير المسلم. وكان الهندوس يشكلون أكبر فئة دينية في الهند. وكانوا لا يرغبون في تقسيم الهند، على أساس أنه تقسيم لوطنهم الأم. وعندما قررت بريطانيا مغادرة شبه القارة في سلسلة من انسحابها من مستعمراتها في العالم، بدأ الهندوس يحلمون بحكم الهند؛ لأنهم كانوا مقربين من الحكم الإنجليزي، بعد سيطرة التاج البريطاني على الهند وسقوط حكومة المسلمين فيها.

---

[1] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، جمادى الثانية 1439هـ، ص : 20-23

[2] انظر، تشنہ، پروفیسر ایم نذیر احمد، تاریخ پاکستان 1947-2013، جہلم، بک کارنر، 14 اگسطس 2013م، ص:80-82، وتقرير لقناة الـ سي أين أين الأمريكية
https://edition.cnn.com/2017/08/08/asia/india-pakistan-independence-timeline/index.html
بتاريخ 2023/12/5م الساعة 11:46 ليلا، بتوقيت باكستان

وهذا ما دفع المسلمين إلى مطالبة إنشاء وطن خاص لهم وتقسيم الهند إلى دولتين. وبعد كفاح سياسي طويل، وافقت الحكومة الإنجليزية على تقسيم الهند، فثار الهندوس والسيخ ضد المسلمين وأخذوا في التنكيل بهم، على الرغم من أن القيادة الهندية كانت تتظاهر بمحاولات لضبط الوضع. وكان الدور الأشنع لوصي الحكومة الإنجليزية على الهند اللورد ماونت بيتن الذي لم يتخذ الإجراءات الكافية لمنع الشغب وقتل المسلمين المهاجرين، وفق رأي المؤرخين.

وفي هذه الخلفية، عندما وصلت أسرة محمد تقي العثماني إلى كراتشي مهاجرة، لم تكن الأوضاع مواتية. وأن والده المفتي محمد شفيع كان ترك ما لديه من المال والعقار في الهند، وكان يتلقى دعما ماديا من الحكومة خلال أشهر أولى في كراتشي لأنه كان يعمل في لجنة قانونية للحكومة كانت تعمل لوضع أسس الدستور؛ لكن ذلك الدخل انقطع فيما بعد. ويروي محمد تقي العثماني أن والده كان حوّل ما لديه من المال في ديوبند إلى الذهب وعمل منه قلادة لزوجته ليتمكن من نقله إلى باكستان وبيعه لدى الحاجة؛ لكن صدمته كانت كبيرة عندما حاول بيعه في كراتشي لتغطية حاجات البيت، إذ عرف أن الصراف الذي أخذ منه النقود ليبيعه القلادة، كان خدعه وأعطاه قلادة نحاسية مطلية بماء الذهب.[1] ويذكر العثماني أن والده كان يضحك عندما يذكر هذه الخدعة.

مرت أسرة العثماني بأوقات صعبة خلال تلك الفترة وواجهت ضائقة مالية دفعتها إلى التقشف واحتمال شظف العيش. ويستذكر العثماني تلك الأوقات ويقول إنه كان صبيا لا يدرك بالأوضاع التي تمر بها الأسرة؛ إلا أن الوالدة أشارت إلى ذلك عندما سأل أحد إخوته سبب طبخ العدس كل يوم.

وفي تلك الأيام المريرة، كان أحد أصدقاء المفتي محمد شفيع رحمه الله، يرسل بعض المواد الغذائية إلى منزله كهدية لأنه كان يعرف الوضع. وكانت له بقالة يبيع فيها المواد الغذائية؛ إلا أن المفتي محمد شفيع كان يكتب لديه كل شيء يدخل بيته. ويحسب حسابه. فقدم له هدية بقيمة ما دفع إليه، عندما وسع الله عليه. ومن

---

[1] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، جمادى الثانية 1439هـ ص : 21-22

مصادفات القدر، أن أوضاع ذلك الصديق انقلبت فيما بعد، فرد المفتي محمد شفيع الجميل له، وزاد عليه.

وكان المكان الذي حلّت به أسرة العثماني في كراتشي، معظم قاطنيه من الإنجليز والمجوس، وعدد قليل من المسلمين. ولم يكن به مسجد. فشق ذلك الأمر على المفتي محمد شفيع. فبدأ جهدا أدى إلى إنشاء مصلى يؤدي فيه الناس الصلوات الخمس. ثم أنشئ مسجد بعد فترة، ولا يزال قائما. وكان من الصعب تعليم الأطفال وتربيتهم في تلك البيئة، إذ لم تكن هناك أي مدرسة إسلامية يمكن إرسالهم إليها.

وازداد العبء على المفتي محمد شفيع بسبب قدوم المزيد من المهاجرين من أقاربه ومعارفه إلى كراتشي، إذ كان يقوم باستضافتهم وتدبير مأوى لهم. ولا يألو أي جهد في البحث عن فرص العمل لهم. وهكذا أصبح منزله أول محطة لأقاربه المهاجرين في كراتشي. وعلى الرغم من المشاكل وقت الهجرة، كان المفتي محمد شفيع تمكن من اصطحاب مخطوطات وكتب هامة ورسائل وأشياء أخرى من هذا القبيل. فكان العلامة شبير أحمد العثماني أيضا يزور منزله لمراجعة بعض الكتب، لعدم توفرها في أي مكان آخر.

ذكر محمد تقي العثماني أن والده لم ينس مؤانسة الأهل والأولاد في تلك الأوضاع الحالكة أيضا. فكان يخرج بهم إلى الشاطئ أو إلى أي مكان آخر للسياحة والحديث معهم خارج بيئة المنزل. وكان يستغل تلك الفرصة لترسيخ القيم العليا في أذهانهم وتربيتهم وتنشئتهم نشأة إسلامية.

استقرت الأوضاع نسبيا بعد فترة. فقام بعض أصدقاء المفتي محمد شفيع بإنشاء مكتبة باستشارته وشراكته. وهاجر ابنه الأكبر محمد زكي كيفي أيضا إلى باكستان وجاء بوالدته على متن رحلة جوية من دلهي إلى كراتشي؛ لأنها لم تكن تقدر على السفر بالقطار. كما أن أحد تلاميذه المقربين الشيخ نور أحمد الذي كان يدرس لديه ويلازمه في ديوبند بعد استقالته من دار العلوم، قام بنقل مكتبته "دار الإشاعة" من

ديوبند إلى كراتشي بحرا. وهكذا عاد الاطمئنان وشيء من راحة البال إلى أسرة محمد تقي العثماني.[1]

بداية تعليم محمد تقي العثماني:

كانت مدينة كراتشي عاصمة باكستان الأولى وكانت تعج بالمهاجرين القادمين من الهند. ويذكر محمد تقي العثماني أنه لم تكن هناك مدارس إسلامية في تلك المنطقة من كراتشي، سوى مدرسة واحدة، وهي أيضا بعيدة عن منزله. وكان والده دائما يفكر في تعليم أبنائه. وبعد فترة أنشأ الشيخ احتشام الحق التهانوي مدرسة، كان يدرس بها كبار أهل العلم آنذاك. فألحق المفتي محمد شفيع اثنين من أبنائه بتلك المدرسة.

وذات يوم أخذ المفتي محمد شفيع ابنه الثالث محمد تقي العثماني إلى منزل العلامة شبير أحمد العثماني ليبدأ تعليمه من "قاعدة بغدادي". وهكذا بدأ تعليمه الابتدائي. وبعد ذلك كان يدرسه الشيخ نور أحمد في بيته، إلى أن أتم القرآن الكريم. ودرس كتابين بالأردية من والدته والشيخ نور أحمد.

يستعيد محمد تقي العثماني ذكريات تلك الأيام، ويقول إن العادة جرت بأن الناس ينظمون حفلات عندما يختتم الأولاد القرآن الكريم؛ لكنه عندما اختتم القرآن الكريم، لم يكن أحد معه في غرفته. فقرأ السور الأخيرة من المصحف، ولفه في الغلاف، متحسرا على تلك الوحدة؛ لكن حزنه تحول إلى فرحة لا تعوض عندما عرف والده أن ابنه اختتم القرآن الكريم، فأرسل أخويه ليشتريا له هدية بتلك المناسبة. فأحضرا سيارة صغيرة زرقاء. ويقول إنه فرح بتلك الهدية أيما فرح.[2]

بعد عام في كراتشي، انتقلت أسرة العثماني إلى منطقة (جيكب لاين). وكانت هناك مدرسة للشيخ احتشام الحق التهانوي، يدرس بها إخوته من قبل. فتم إلحاقه أيضا بتلك المدرسة. فأخذ يدرس الفارسية من الشيخ نور أحمد؛ إلا أن دراسته خلال تلك السنة ظلت غير منتظمة، إذ كان يحضرها ويغيب عنها على كيفه؛ لأنه أصيب بحمى قلاعية أكثر من مرة.

---

[1] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، رجب المرجب 1439هـ، ص : 17-21

[2] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، رجب المرجب 1439هـ، ص : 22-23

في عام 1951م انتقلت الأسرة إلى (برنس رود) – شارع برنس- وأخذت تسكن شقة وسعى. وبقيت هناك حتى عام 1956م. ويقول العثماني إن تلك السنوات الخمس كانت ذات بركة. وفي نفس ذلك العام قام محمد تقي العثماني – وهو ابن ثماني سنوات آنذاك- بأداء مناسك الحج مع والديه وأحد أشقائه. وكانت رحلة الحج بـ "سفينة العرب" بحرا. وأخذت سبعة أيام للوصول إلى جدة من كراتشي. وقد كتب العثماني بعض ذكريات تلك الرحلة المباركة في (يادين). وقدم صورة قلمية للمشاعر عام 1951م.[1]

وإذا قارنّا تلك المعلومات بوضع المشاعر اليوم من حيث العمران والبناء والازدهار، نجد أن ما ورد في رحلته، يبدو وكأنه من أساطير الأولين؛ لأن الحرم المكي والمدني وكذلك منى والمزدلفة والصفا والمروة، تغيرت تماما، حتى إن مكة المكرمة، قلما تجد فيها تلك الأسامي والأمكنة التي ورد ذكرها في ذكريات العثماني.

وكان مسجد "باب الإسلام" يقع قريبا من منزله في (برنس رود). ومعه كتّاب باسم "مدرسة إمداد العلوم". فقام والده المفتي محمد شفيع بتنظيم الأمور لتدريس الفارسية والعربية هناك – ولا تزال المدارس الإسلامية في شبه القارة الهندية تدرس اللغة الفارسية والصرف والنحو واللغة العربية في الصفوف الأولى-. كما أنه أنشأ دارا للإفتاء في تلك المدرسة.

وتتلمذ محمد تقي العثماني في تلك المدرسة على مشايخ أجلاء من الشيخ فضل محمد السواتي والشيخ أمير الزمان الكشميري والشيخ نور أحمد. وكان والده عضو للجنة التعاليم الإسلامية التي كانت تابعة للمجلس الدستوري لباكستان آنذاك. فكان يصطحب ابنه محمد تقي العثماني إلى المجلس الدستوري أيضا. وعندما كان يشتغل الوالد بواجباته هناك، كان ابنه يحفظ دروسه أمام عينيه.[2]

---

[1] انظر، نفس المصدر، شعبان المعظم 1439هـ ص :17-26

[2] انظر، يادين، مجلة البلاغ، شوال المكرم 1439هـ ص : 13-22

تأسيس دار العلوم كراتشي:

كان المفتي محمد شفيع لا يطمئن له بال على وضع التعليم الشرعي في باكستان آنذاك؛ لأن المدارس الإسلامية الكبرى ظلت في الهند. وكان دائما يفكر في نشر العلوم الإسلامية في باكستان الدولة الفتية التي كانت تواجه أزمات وتحديات لا تحصى.

ومن حسن الحظ أن الحكومة أعطت له مدرسة كانت بمنطقة (نانك وارة)، وكان أهالي تلك المنطقة من الطائفة السيخية، وهاجروا إلى الهند بعد استقلال باكستان، فأقفرت تلك المدرسة أيضا. فبدأ المفتي محمد شفيع فيها مدرسة إسلامية في 11 شوال عام 1371هـ الموافق 3 يوليو 1952م. وكانت هذه المدرسة الصغيرة نواة لجامعة دار العلوم كراتشي التي أنشأها فيما بعد، وأصبحت محط أنظار المسلمين من جميع أنحاء العالم.

وقام المفتي محمد شفيع بتعيين خيرة المدرسين في تلك المدرسة. وهم أصبحوا من كبار العلماء والمشايخ فيما بعد. وهذا الفريق التعليمي الذي اختار المفتي محمد شفيع كل فرد منه بنفسه، قام بجهود جبارة في نشر العلم وترقية دار العلوم كراتشي إلى عداد كبرى المدارس في باكستان. كما أن بعضا من أولئك المدرسين قاموا بإنشاء مدارس كبيرة في مختلف أنحاء باكستان.

وتربّى محمد تقي العثماني في كنف أولئك الرجال المختارين، فنبغ في العلوم التي درس منهم، رغم صغر سنه. وكان شقيقه الأكبر منه المفتي محمد رفيع العثماني زميله في المدرسة في صف واحد؛ لأن محمد تقي العثماني لم يحفظ القرآن الكريم، خلافا لإخوته الأربعة الآخرين الذين بدأوا تعليمهم من حفظ القرآن الكريم. وسبب ذلك يعود إلى ضعفه البدني.

وكانت نتيجة اختباره للسنة الأولى، حيث درس اللغة الفارسية والقواعد والرياضي والخط والفقه، ممتازة. وقد ذكر أن طريق التقييم كان 50 درجة لكل ورقة. والمراتب تبدأ من ممتاز وتنزل إلى مقبول وراسب. فالمرتبة الأولى بين 48-50 درجة، والمرتبة الثانية بين 45-47 درجة والثالثة بين 40-44 درجة، والمرتبة الدنيا بين

35-40 درجة. وكل من يحصل على أقل من 35 درجة، لا يسمح له بالترقي إلى الصف التعليمي المقبل.

والشيء الغريب في الدرجات أنه كان يسمح للمعلم أن يعطي درجة أو درجتين إضافيتين، إذا وجد ورقة الطالب غير عادي. وقد حصل محمد تقي العثماني 51 درجة في ورقتين للسنة الأولى من تعليمه. ودرس الكتب الفارسية في الصف الأول من الشيخ بديع الزمان عام 1952م. وعمره تسع سنوات.[1]

في عام 1372هـ الموافق 1953م بدأ محمد تقي العثماني دراسة علوم اللغة العربية من الصرف والنحو، إضافة إلى مواد أخرى تتعلق بالأدب والحديث. وكان الشيخ سحبان محمود يدرس جميع المواد ماعدا "عربي كا معلم" (معلم العربية) – وهو كتاب لتعليم اللغة العربية، بأسلوب بسيط، مع تمارين لحفظ القواعد النحوية والصرفية- الذي كان يدرسه الشيخ ولي حسن. وفي تلك السنة درس أربع عشرة مادة. وهي ليس أقل من المناهج الدراسية لعامين وفق نظام المدارس الإسلامية اليوم. وفاز في الاختبار النهائي بدرجات ممتازة وحصل على 51 درجة في ثلاث مواد. وكان عمره آنذاك عشر سنوات.[2]

يذكر محمد تقي العثماني في ذكرياته أن لسانه لم يكن ينطلق في ذلك الزمان ويتلكع كثيرا، وكان يواجه صعوبة في الحديث بطلاقة، بينما كان شقيقه الأكبر وزميله في الدرس المفتي محمد رفيع العثماني أفصح منه. وهو كان يعيد الدروس وفق نظام المدارس الإسلامية ومحمد تقي العثماني يجلس مستعما معه.[3]

تعليم العربية على أيدي أساتذة عرب:

كانت كراتشي العاصمة الاقتصادية والسياسية لباكستان بعد الاستقلال. وبها السفارات والقنصليات. وبما أن باكستان كانت دولة فتية وحديثة، فكانت علاقات الدول معها متنوعة. وكل دولة تبحث عن طرق جديدة للتعاون. ويذكر محمد تقي

---

[1] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، شوال المكرم 1439هـ، ص : 13-22

[2] انظر، نفس المصدر، ص: 21

[3] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، شوال المكرم 1439هـ، ص: 19

العثماني في ذكرياته أن السفير السوري لدى باكستان آنذاك جواد المرابط اقترح على والده إنشاء مراكز لتعليم اللغة العربية في كراتشي. فرحب والده بتلك المبادرة.

وأخذ الملحق الثقافي في السفارة السورية محمد أمين المصري مسؤولية إنشاء تلك المراكز وإعداد المنهج والتدريس فيها ومراقبتها، على عاتقه. وبدأ أول مركز للغة العربية في كراتشي بدار العلوم نانك وارة. وبعد ذلك نُقل إلى مدرسة أخرى قريبة منها. فكان الأستاذ محمد أمين المصري يُحضر دروسا مكتوبة بخط يده ويلقيها على الطلاب. وتم جمع تلك الدروس في كتاب بعنوان "الطريقة الجديدة لتعليم العربية".[1]

بدأ تدريس اللغة العربية من مجموعة واحدة؛ لكن تم تقسيمها إلى ثلاث فئات فيما بعد حسب مستوى التلاميذ. وكان محمد تقي العثماني في الفئة الثانية. وتولى ثلاثة أساتذة سوريين مهام التدريس لتلك المجموعات الثلاث. وهم الأستاذ أحمد الأحمد والأستاذ عبد الحميد الهاشمي والأستاذ ياسين الحلو. تتلمذ محمد تقي العثماني عند الأستاذ أحمد الأحمد والأستاذ عبد الحميد الهاشمي واستفاد منهما كثيرا؛ لكن لم تتسن له فرصة للاستفادة من الأستاذ ياسين الحلو؛ لأنه كان يدرس المجموعة الثالثة.

ويذكر العثماني أن جميع أولئك المدرسين كانوا مجدين، وكان لكل واحد منهم أسلوبه الخاص في التدريس. وإذا كان الأستاذ الأحمد جادا، فكان الأستاذ الهاشمي خفيف الروح. والأول عندما يلقي درسه بكل جد، كان الثاني يُضحك الطلاب ويلقنهم الدروس في اللغة بالجد والهزل. وذات مرة زار أحد الضيوف دار العلوم كراتشي، فتقرر أن يلقي محمد تقي العثماني كلمة بتلك المناسبة باللغة العربية، فكان الأستاذ أحمد الأحمد هو من كتب له تلك الكلمة، وعلمه كيفية الإلقاء. وهذه كانت أول كلمة يلقيها العثماني أمام الجمع باللغة العربية.[2] ومن ذكرياته عن تلك الدروس بيت شعر أورده الأستاذ أحمد الأحمد خلال إيضاحه تنافر الحروف في اللغة:

---

[1] كان هذا الكتاب ضمن مناهج الصف الأول في دار العلوم كراتشي وقد درسه هذا الكاتب عام 1992م عندما كان طالبا بها.

[2] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، ذو القعدة 1439هـ، ص: 21

يا راكبا في ككك وصائدا في شركك ككككك ككككي وككككي ككككك[1]

علاقته بالأدب وأول مقال منشور له:

كان بيت محمد تقي العثماني بيت علم وفضل وأدب. فكان مجبولا على الأدب، لكن أستاذه الشيخ سحبان محمود قام بصقل الموهبة الأدبية لديه؛ لأنه كان شاعرا ويشجع طلابه على قرض الشعر أيضا. ويذكر محمد تقي العثماني أنهم كانوا يحاولون قرض الأبيات ويقدمونها إليه، فكان يقوم بتصحيحها. كما ساعدت بيئته في البيت على تنمية تلك الموهبة. ويقول العثماني إن والده المفتي محمد شفيع كان يقرض الشعر بثلاث لغات من الأردية والعربية والفارسية. وكان شقيقه الأكبر محمد زكي كيفي شاعرا مجيدا ويتزاوره زملاؤه الشعراء في البيت. كما أن شقيقه الآخر محمد ولي رازي أيضا كان يقرض الشعر.

وكتب محمد تقي العثماني في ذكرياته أنه كان مولعا بالأدب والكتابة منذ نعومة أظفاره. وكان شقيقه محمد رضي العثماني عمل له اشتراكا في مجلة للأطفال. ومن تلك المجلة أخذ عنوان أحد من الأطفال لإنشاء صداقة قلمية معه بمراسلته.[2] ويذكر العثماني أن شقيقة له كانت تشجعه على الكتابة وتقوم بمراجعة ما يكتبه لإخراجه بشكل لائق. وهكذا بدأ يتدرج على درب الكتابة والأدب. ويقول إن سعادته كانت عظيمة عندما وجد أول رسالة له منشورة في جريدة (جنك) الأردية.[3]

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص:22

[2] كانت الصداقة القلمية من الهوايات المعروفة للأطفال قبل جيل الهواتف المتحركة والحواسيب وخدمات الشبكة الدولية. فكانوا يراسل بعضهم بعضا، مثل الدردشة اليوم. والفرق بين الأمرين أن ذلك الجيل كان ينتظر الرد على الرسالة من الأسابيع إلى الأشهر أيضا، بينما أصبحت المراسلة اليوم مثل الحديث المباشر. (الباحث)

[3] يُذكر أن جريدة (جنك) كانت تصدر قبل استقلال باكستان. ولا تزال أكبر جريدة باللغة الأردية في باكستان. وتصدر من عدة مدن باكستانية إضافة إلى لندن. وتعتبر مجموعة (جنك) أكبر مؤسسة إعلامية في باكستان، إذ تملك قنوات عديدة، إضافة إلى مجلات وجرائد بالأردية والإنجليزية. (الباحث)

ويذكر العثماني أنهم كانوا يعقدون في البيت مسابقات شعرية، ويقومون بمطالعة جماعية، ويستفيدون من برامج أدبية تُبث من الإذاعة الباكستانية. وعندما يجد والدهم فرصة، يجلس معهم، ويحدثهم في مواضيع مختلفة.[1]

إخلاص والده في الدين:

كان والد محمد تقي العثماني المفتي محمد شفيع في قمة الإخلاص. وقد حدث في حياته أمور كثيرة تدل على أنه كان يعمل كل عمل من أجل مرضاة الله فقط؛ لكن ما حدث في 20 فبراير 1955م، كان مثالا نادرا للإخلاص والتقوى. كما ورد من قبل، أنه كان أنشأ مدرسة إسلامية في (نانك وارة) كراتشي؛ لكن مع مرور الوقت ضاقت تلك المدرسة على الطلاب. فبدأ جهدا للحصول على قطعة أرض كبرى، لينشئ عليها مدرسة إسلامية كبيرة.

وافقت الحكومة على منح قطعة أرض لهذا الغرض قرب ضريح شيخ الإسلام شبير أحمد العثماني. وقرر المفتي محمد شفيع إنشاء مدرسة هناك لإحياء ذكرى شيخ الإسلام. فانتهت الإجراءات الرسمية. وجاءت الموافقة النهائية. وأنشئت في تلك الأرض غرف، مع إيصال الكهرباء إليها. وكل ذلك في علم أسرة شيخ الإسلام وأرملته.

وبعد ذلك بدأت التحضيرات لوضع أساس دار العلوم في 20 فبراير 1955م. وحضر علماء من الهند وباكستان الشرقية (بنغلاديش الحالية)، وجميع أنحاء باكستان، إضافة إلى أعضاء للبرلمان وقامات هامة من كراتشي. وترأس الجلسة الأولى السفير السعودي عبد الحميد الخطيب، في حين ألقى طلاب دار العلوم أيضا كلمات في تلك الجلسة، وبينها كلمة لمحمد تقي العثماني بالعربية. وعمره لم يتجاوز السنة الثانية عشرة.

وبينما يستعد الجميع لوضع لوضع حجر الأساس في نهاية الحفلة، وصلت أنباء عن عدم رضا أرملة الشيخ شبير أحمد العثماني، عن إنشاء المدرسة هناك. وكان هذا النبأ صدمة كبيرة في ذلك الأوان. وسبب ذلك أن البعض حاول إثارة أرملة شيخ الإسلام بقول إن هذه الأرض قريبة من ضريح شيخ الإسلام وأن أسرته أحق بها من

---

[1] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، ذو الحجة 1439هـ، ص : 15-21

المفتي محمد شفيع. فبدأت وساطات وتفاوضات للبحث عن حل تلك القضية؛ إلا أن تلك الجهود راحت سدى.

وعلى الرغم من أن السلطات الرسمية أكدت أن الأرض قد تم تخصيصه للمفتي محمد شفيع ولا يحق لأحد الاعتراض على ذلك؛ قرر المفتي محمد شفيع عدم إنشاء المدرسة في تلك الأرض، مبررا بأنه يريد إنشاء مدرسة لمرضاة الله، وليس دكانا لنفسه. وبالتالي لن ينشئ تلك المدرسة مع عدم رضا أرملة أستاذه بذلك. وأعلن أن الحفل سيستمر كحفل سنوي ديني يستفيد الناس فيه من كلمات العلماء؛ لكن لن يوضع حجر أساس المدرسة. وهكذا تم إلغاء ذلك المشروع بعد تلك التحضيرات الكثيرة.[1]

كان عام 1955م عاما مهما في حياة محمد تقي العثماني، حيث انتقلت أسرته إلى منزل خاص بها في (لسبيلة) في 25 مايو 1955م. وكان والده حصل قطعة أرض هناك من الحكومة في إطار اتفاقية بين باكستان والهند حول تبادل العقارات التي أخلاها المهاجرون من الهند إلى باكستان ومن باكستان إلى الهند؛ لأن حكومات البلدين كانت تدير تلك العقارات التي غادرها ملاكها. ولا تزال بعض العقارات من هذا النوع في باكستان، وتشرف عليها دائرة رسمية خاصة.

اهتمام شديد لوالده بتعليم أولاده:

وفي هذا العام سافر محمد تقي العثماني مع والدته إلى لاهور والهند. وكان الوقت وقت الدراسة في المدارس الإسلامية. فوجهه والده المفتي محمد شفيع بأن يحضر الدروس في الجامعة الأشرفية ما دام في لاهور. وهذا كان من شدة حرص والده على تعليم أبنائه. وكان خير أب لخير أولاد. فدرس شرح الجامي وشرح التهذيب لأيام من الشيخ المفتي محمد حسن رئيس الجامعة الأشرفية. وكان من كبار العلماء ومن خلفاء الشيخ أشرف علي التهانوي.

انطلق محمد تقي العثماني من لاهور متوجها إلى ديوبند في 27 نوفمبر 1955م. فزار أخواله مع والدته في ديوبند، وزار بيته الذي كان يسكنه بعض الهندوس.

---

[1] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، محرم الحرام 1440ھ، 17-32

وجال بالأماكن التي قضى فيها صباه؛ إلا أن الدراسة ظلت نصب عينيه في ديوبند أيضا. وعلى الرغم من أنه لم يدرس في ديوبند قبل الهجرة لصغر سنه، وجد هذه المرة فرصة لينهال من هذا المنهل العذب الفرات الذي روّى بقاعا شاسعة من الأرض بنور العلم والإيقان. فأخذ محمد تقي العثماني يحضر في دار العلوم ديوبند دروس المواد التي كان يدرسها في كراتشي.

فدرس شيئا من شرح الجامي من الشيخ نصير الدين، وكنز الدقائق وشرح التهذيب من الشيخ أسعد الله ومقامات الحريري من الشيخ جليل الرحمن. وهكذا أصبح طالبا غير رسمي بدار العلوم ديوبند بعد هجرته إلى باكستان.[1]

وعندما عاد محمد تقي العثماني من الهند إلى لاهور، كان والده في طريقه لجولة سياسية ودينية لعدة مدن في إقليم البنجاب والحدود الشمالية الغربية – التي يسمونها الآن إقليم خيبر بختون خوا-. فاستأذنه محمد تقي العثماني ليصاحبه خلال تلك الرحلة، فأذن له.

كانت هذه الرحلة ذات أهمية كبرى للمفتي محمد شفيع إذ كان خرج للقاء العلماء من أجل توعيتهم حول الدستور الإسلامي للبلاد، وتنظيم جمعية علماء الإسلام على مختلف المستويات؛ لأن العلمانيين كانوا يعارضون وضع دستور إسلامي لباكستان، بل كانوا يريدون دستورا علمانيا. وكان المفتي محمد شفيع ألف كتابين لدحض شبهات العلمانيين عن أي أساس إسلامي للدولة، وحقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية.

مع تلك المهمة الكبرى لوالده، فإن تلك الرحلة كانت رحلة سياحية لمحمد تقي العثماني، إذ أنه كان ابن ثلاثة عشر عاما فقط. وزاروا خلال تلك الرحلة مدنا كثيرة. وكانوا يلقون الترحيب والاستقبال الحار أين ما حلوا وساروا. وكان المفتي محمد شفيع يخطب أمام الجماهير، وفي تجمعات العلماء، ويلقي الدروس الوعظية.

ورغم الغياب عن الدرس لأكثر من شهرين، فاز محمد تقي العثماني في الاختبار النهائي بدرجات ممتازة. وقد ذكر أنه اضطر إلى اجتهاد شديد لاجتياز

---

[1] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، صفر المظفر 1440هـ، ص :13-19

الاختبار. كما أنه تتلمذ على المقري محمد إلياس – وهو زميل المفتي محمد شفيع في الدراسة–، والمقري عبد الوهاب المكي، ليتعلم منهما التجويد؛ لأنه كان يشعر بنقص بسبب عدم حفظه للقرآن المجيد، وعدم إتمام القرآن الكريم قراءة على معلم. وقد استفاد في هذا المجال من القاري عبد المالك في لاهور أيضا. وكان هذا العام أي عام 1956م آخر سنة دراسية لمحمد تقي العثماني في دار العلوم نانك وارة.[1]

وعندما هاجمت إسرائيل شبه جزيرة سيناء عام 1956م، بدأ المفتي محمد شفيع حملة لدعم مصر، ووجه خطابات إلى قيادات إسلامية للوقوف والتكاتف مع مصر. وقام بتنظيم الأمور لتدريب طلاب دار العلوم أيضا، على فرض احتمال إرسال متطوعين للمشاركة في تلك الحرب. فأمنت الحكومة مدربا للدفاع المدني لدار العلوم. فقام بدورة تدريبية للطلاب على الإسعاف الأولي وخدمات مدنية أخرى. وشارك محمد تقي العثماني في تلك الدورة بكل نشاط. فأعطى المدرب في نهاية الدورة شهادة خاصة له، مع اقتراح إرساله لتدريب أعلى.[2]

دار العلوم كراتشي وحياة العثماني خارج البيت:

ذكرنا من قبل أن المفتي محمد شفيع رفض إنشاء دار العلوم كراتشي وسط المدينة، عندما بلغت إلى مسامعه أنباء عدم رضا أرملة العلامة شبير أحمد العثماني، رغم إكمال جميع التحضيرات والمتطلبات القانونية. ففتح الله عليه طريقا آخر لإنشاء دار العلوم، حيث أعرب أحد التجار في جنوب أفريقيا، واسمه إبراهيم دادا بائي، رغبته في التبرع بقطعة أرض كبيرة خارج المدينة لإنشاء المدرسة فيها، شريطة أن تبدأ أعمال البناء خلال خمس سنوات.

وتلك المنطقة كانت بعيدة عن مركز المدينة وتقع قرب (شرافي كوت) وتحيطها الرمال والشجيرات الشوكية البرية. وهي منطقة معزولة، قفرة خالية عن العمران. ولا توجد المواصلات للوصول إليها، حتى لا يوجد طريق معبد، بل كانوا يحتاجون إلى المشي

---

[1] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، جمادى الأولى 1440هـ، ص : 9-17

[2] انظر، نفس المصدر ، ص:16-17

على الأقدام أيضا للوصول إليها؛ إلا أن المفتي محمد شفيع قرر إنشاء "دار العلوم" هناك.

بدأت أعمال بناء دار العلوم كراتشي في (كورنكي) في 16 ديسمبر 1955م. وبفضل الله ونتيجة جهود مضنية للقائمين عليها، تم إنشاء جناحين مكونين من عدة غرف بعد عشرة أشهر. وبدأ العام الدراسي الجديد فيها عام 1956م. وكان محمد تقي العثماني من الطلاب الأوائل الذين بدأوا الدراسة فيها.

ويذكر محمد تقي العثماني المحن التي مروا بها خلال تلك الفترة. ويقول إن عمره كان أربعة عشر عاما آنذاك. واضطر لمغادرة البيت والأهل من أجل العلم؛ لأن المدرسة كانت بعيدة، ولا يمكن الإياب والذهاب يوميا. كما أن دار العلوم في تلك الأيام كانت مأوى لدواب الأرض من الحيات والعقارب والحشرات السامة من أنواع مختلفة. وتكون دار العلوم تحت سلطة الطلاب نهارا وسلطة تلك الحياة البرية ليلا. ولا يمضي يوم بدون أن يُلدغ طالب أو يُلسع.

ولم تكن تتوفر في دار العلوم مرافق المدن من الكهرباء والماء والهاتف أيضا. وكان يتم حمل ماء الشرب من (شرافي كوت) ويوزع على الطلاب، وهم يحفظونه في الجرار، بينما يوقد الطلاب المصابيح ليلا ليعيدوا دروسهم. وكانت لدار العلوم عربة يجرها حمار. وهي تستخدم لنقل الماء والمرضى، إضافة إلى استقبال الضيوف وجلبهم إلى دار العلوم، عندما ينزلون في محطة الحافلات في (لاندي). وبما أن المنطقة كانت صحراء مكشوفة، كانت عواصف الرمال تضيق الحياة على الطلاب، حيث كانت تملأ غرفهم رملا. كما أن طعامهم أيضا لم يكن يخلو من أثر الرمل عندما تهب العاصفة من الجهة الغربية.

على الرغم من مرارة الحياة في تلك المنطقة، كانت هناك سلسلة من البساتين في إحدى جوانب دار العلوم. وهي تقدم متنفسا للطلاب. وكان محمد تقي العثماني ورفاقه يتنزهون في تلك البساتين بعد العصر. وكتب محمد تقي العثماني أنه كان يبكي على وضعه بعيدا عن أعين الناس؛ لكنه قرر تجشم تلك المشاق من أجل العلم.

اقترح أحد العاملين في دار العلوم على المفتي محمد شفيع أن يطبخ الطعام لأبنائه في بيته؛ لأنهم غير معتادين على أكل الطعام العادي. فوافق في البداية على ذلك شريطة أن يتحمل نفقة الطعام هو بنفسه؛ لكن بعد فترة ألغى ذلك القرار، ووجه أبناءه بأن يأكلوا من طعام المدرسة مع الطلاب. وأوضح لهم أنه يقدر بحول الله على استئجار طاه يطبخ لهم الطعام على حدة؛ لكنه يريدهم أن يعيشوا كما يعيش رفاقهم من الطلاب، وأن يأكلوا من نفس طعامهم، ليذوقوا الطعم الحقيقي لطلب العلم وبركاته.

واستفاد محمد تقي العثماني في ذلك العام من علماء كل واحد منهم وحيد دهره وفريد عصره، من الشيخ المفتي رشيد أحمد، والشيخ المحدث سليم الله خان، والشيخ أكبر علي، والشيخ محمد إدريس الميرتي.[1]

أول حفل سنوي لدار العلوم كراتشي:

في نهاية العام الدراسي الأول في الحرم الجديد لدار العلوم كراتشي، تم تنظيم حفل سنوي استمر لثلاثة أيام اعتبارا من 7-9 مارس 1958م. وقد دُعي إليه اثنان من رؤساء الوزراء الباكستانيين السابقين من شودري محمد علي و إسماعيل إبراهيم شندريكر، إلى جانب كبار العلماء والمشايخ من مختلف أنحاء باكستان.

وفي ذلك الحفل ألقى محمد تقي العثماني كلمة بالعربية، ونال إعجاب الحضور ولاسيما شودري محمد علي، وألقى نفس الكلمة مرة أخرى عندما طُلب إليه كلمة مرة أخرى في اليوم التالي.

ولوعه بمطالعة الكتب:

ذكر محمد تقي العثماني في ذكرياته أنه ممتن لجميع المشايخ والعلماء الذين تتلمذ عليهم، لكن منّ اثنين من أساتذته عليه عظيم. الأول منهما الشيخ سحبان محمود الذي درسه معظم الكتب في الصفوف الأولى، والثاني المفتي رشيد أحمد

---

[1] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، عدد جمادى الثانية 1440هـ ، ص :15-32

تعمدت الإسهاب في بيان الأوضاع التي أنشئت فيها دار العلوم كراتشي، والمشاق التي تحملها الطلاب الأوائل فيها، لإلقاء ضوء على وضع المدارس الإسلامية في باكستان؛ لأن جميع المدارس هنا أنشئت بمثل هذه الصعوبة، بدون أي دعم حكومي، وعلى أساس الإخلاص ومساعدة أهل الخير من المسلمين. وهذا ما حافظ على المدارس الإسلامية على الطراز القديم في شبه القارة الهندية، إذ قلت نظائرها في الدول الإسلامية والعربية الأخرى.(الباحث)

الذي درسه في الصفوف العليا. وذكر من ميزات المفتي رشيد أحمد أنه كان يحقق في كل صغير وكبير، ويطرح الأسئلة أمام الطلاب ويطلب منهم مراجعة أمهات الكتب. وهكذا يشاركهم في التحقيق، ويرسّخ حب الاطلاع في قلوبهم.

وكان مولعا بمطالعة الكتب منذ نعومة أظفاره، بسبب البيئة العلمية والأدبية التي كانت تحيط ببيته. ويقول إنه كان يدخل مكتبة والده الخاصة أيام العطلة الأسبوعية ويقرأ فيها ما يحلو له من الكتب، ومقالات مختارة من المجلات التي كانت تصل إلى والده. وبذلك عرف مكان كل كتاب في تلك المكتبة، وكان يستفيد منه لدى الحاجة.[1] وذكر أنه كان يزور مكتبة دار العلوم أيضا لمطالعة الكتب. ورغم أن ناظور المكتبة كان شديدا، إلا أنه كان متعاونا معه. ويسمح له بمواصلة المطالعة في المكتبة عندما يحين موعد إغلاق المكتبة ظهرا. فكان يغلق الباب من الخارج، والعثماني يطالع في الداخل.[2]

أول مقال فقهي لمحمد تقي العثماني:

ظهرت آثار النبوغ على محمد تقي العثماني في الكتابة منذ البداية. فكان مجليا في مسابقة للكتابة عام 1958م. وفي نفس العام وجهه والده بأن يجمع المواد حول "جماعة صلاة التهجد في رمضان"، ليرد على استفتاء. فجمع العثماني المواد من المراجع، وسعد والده عندما شاهد كومة الكتب عند وسادته، وقال تعمل حسبما أريد أن أعمل. فطلب العثماني من والده أن يسمح له بتلخيص تلك الإحالات، فوافق على ذلك. وعندما قدم ما كتبه إلى والده، سعد بذلك، وقال كفيتني. وأرسل ما كتبه إلى المستفتي مع مقدمة كتب فيه:

"اپنے چھوٹے لڑکے محمد تقی سلمہ کو جو اس سال دورہء حدیث میں شریک ہونے والا ہے، یہ مسئلہ حوالے کیا۔ خیال یہ تھا کہ اس کو مشق ہو گی اور یہ کتابوں کے حوالے نکال کر پیش کر دے گا، تو پھر میں کچھ لکھوں گا، مگر ماشاءاللہ یہ لڑکا ذہین ہے، اس لئے تمام کتابوں کے حوالے بھی میری کسی امداد کے بغیر نکالے، پھر ان کے اقتباسات لے کر خود ہی

[1] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، شعبان المعظم 1440ھ، ص : 21-31

[2] انظر، نفس المصدر، رمضان المبارك 1440ھ، ص:25

ایک تحریر لکھ دی۔اب جو تحریر دیکھی تو میری نظر میں بالکل کافی وافی تھی،اس لئے اسی پر تصدیق لکھ دی،وہ بھیج رہا ہوں". [1]

(فوضت هذه المسألة إلى ابني الصغير محمد تقي سلمه، الذي سيشارك في دورة الحديث[2] هذا العام. وكنت أرى أنه سيكون تمرينا له، وسيقدم الإحالات من الكتب، وبعد ذلك سأكتب شيئا؛ لكن – ما شاء الله- هذا الولد فطين، إنه أخرج الإحالات من جميع الكتب بدون مساعدتي، ثم كتب مقالا، مقتبسا منها. وعندما شاهدت المقال، وجدته كافيا وافيا تماما. وبالتالي صدقت عليه، وأرسله). وفي نهاية تلك الفتوى كتب والده:" لله در المجيب حيث أصاب فيما أجاب، وأجاد فيما أفاد، مع ملاحظة أدب الأكابر، وفقه الله لما يحب ويرضى".

وهذه كانت شهادة والده المفتي على رسوخ علمه، على الرغم من أنه لم يتخرج بعد.

التخرج في الدرس النظامي[3]:

كان اهتمام العثماني بالدراسة شديدا منذ البداية، كما لاحظنا فيما ذكرنا من قبل؛ لكنه أصبح أشد خلال العام الأخير من "الدرس النظامي". وبدأ ذلك العام الدراسي في شوال 1378هـ الموافق أبريل 1959م. وكان شيوخه في هذا العام المفتي رشيد أحمد، والشيخ سليم الله خان، والشيخ أكبر علي والشيخ محمد حقيق والشيخ المقرئ رعاية الله، والشيخ سحبان محمود، ووالده المفتي محمد شفيع.[4]

وكان العثماني يكتب درس المفتي رشيد أحمد باللغة الأردية، ودرس الشيخ سليم الله خان بالعربية؛ لأن الأخير كان يملي الدرس على الطلاب ليسهل ضبطه

---

[1] نفس المصدر، ص:23

[2] "دورة الحديث" هي العام الأخير والتخرج في المناهج الدراسية في المدارس الإسلامية في شبه القارة الهندية، وفق الدرس النظامي. وهذا العام يكون مخصصا لدراسة الصحاح الست، وشمائل الترمذي والمؤطأ.

[3] "الدرس النظامي" هو اسم لمناهج المدارس العربية والإسلامية في شبه القارة الهندية وفي جنوب أفريقيا وكندا والولايات المتحدة وبريطانيا ومناطق أخرى من العالم. بدأها الملا نظام الدين السهالوي اللكنوي في الهند في القرن الثامن عشر. والمناهج المتبعة في معظم المدارس الإسلامية في شبه القارة الهندية اليوم، والتي تتضمن دراسة ثماني سنوات، هي شكل حديث لتلك المناهج. وكان "الدرس النظامي" في البداية يتكون من أربعين كتابا لثلاثة عشر علما، بينها الصرف والنحو والمنطق والفقه وأصول الفقه والتفسير والحديث والكلام والفلسفة.

[4] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، رمضان المبارك 1440هـ ، ص : 24-25

وكتابته لمن يريد ذلك، بينما الأول لم يكن يهتم بهذا الأمر. وكانت نتيجة العثماني لاختبارات هذا العام مدهشة، حيث حصل على 54 درجة في ورقة صحيح البخاري في اختبار الفصل الأول والاختبار النهائي، و55 درجة في ورقة سنن النسائي. ولم يحصل أي طالب آخر على تلك الدرجات في تاريخ دار العلوم، علما أن مجموع الدرجات لكل ورقة كانت 50 درجة في ذلك الزمان، وفق نظام الاختبارات لدار العلوم ديوبند؛ إلا أن المدرس كان يُسمح له بمنح درجة أو درجتين لتشجيع الطالب إذا كانت ورقته غير عادية.[1]

وفي 7 رجب 1369هـ الموافق 4 يناير 1960م ألقى المفتي محمد شفيع آخر درس من صحيح البخاري. وبذلك انتهى العام الدراسي. وانتهت الدراسة الرسمية لمحمد تقي العثماني في دار العلوم كراتشي.

فائدة دراسة كتب الحديث من البداية إلى النهاية:

وأشار العثماني خلال الحديث عن عامه الأخير للدراسة، إلى فائدة دراسة كتب الحديث كاملة في المدارس الإسلامية في شبه القارة الهندية، بدلا من دراسة أجزاء مختارة لها أو على طريق المحاضرات المعروفة في الجامعات. فيقول إن طريق المدارس الإسلامية يتضمن فائدتين لا توجدان في دراسة الجامعات، وهما: الأولى: أن الطالب يمر على الأحاديث وبذلك تنشأ لديه ملكة لاستنباط المسائل وفهم الأحاديث، والثانية: أن علم الحديث علم متأسس على السند وليس كالعلوم الأخرى. وبناء عليه عندما يدرس الطالب الكتاب من البداية إلى النهاية من الشيخ، فيحصل له سند متصل لكل حديث؛ لأن كل أستاذ يذكر سنده عندما يدرّس الحديث. وهذه الفائدة لا تحصل من دراسة الملخصات أو الأجزاء المنتخبة.[2]

محطات في الحياة العملية:

عندما تخرج محمد تقي العثماني في دار العلوم عام 1960م وبلغ من العمر سبعة عشر عاما، لم يكن أمامه طريق واضح لما سيقوم به في المستقبل. وكان أمام

---

[1] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، رمضان المبارك 1440هـ، ص : 28-31

[2] انظر، نفس المصدر، ص: 29

عدة خيارات. أحدها أن يذهب للدراسة في الأزهر الشريف؛ لكن والدته لم تكن راضية بإبعاده عنها. وبعد التشاور قرر أن يقوم بأربعة أمور: التدريس بدار العلوم، والتمرين على الإفتاء تحت رعاية والده، ودراسة اللغة الإنجليزية والتصنيف والتأليف.[1] وكل هذه الأمور كانت بأهداف محددة واضحة.

التدريس:

درّس محمد تقي العثماني جميع العلوم التي تُدرس في المدارس الإسلامية من الصرف والنحو والأدب والبلاغة والفقه وأصول الفقة والمنطق والفلسفة والكلام والتفسير والحديث. ولا يزال يدرس صحيح البخاري حتى يومنا هذا.[2] وقد علق على أساليب التدريس في ذكرياته، وقارن بين طريق المدارس الإسلامية في التركيز على دراسة كتب من البداية إلى النهائية وأسلوب الجامعات والكليات الذي يركز على إلقاء محاضرات. ويرى أنه يجب سلوك طريق وسط بينهما، وهو أن يتم تدريس أي علم عن طريق تدريس كتاب بعينه لتوسيع أفكار الطالب، إضافة إلى تمكينه من مراجعة الكتب بنفسه؛ لأن المقصود هو تعليم أي علم وليس كتابا بعينه.[3]

رحلات خلال تلك الفترة:

في 27 يناير 1961م قام برحلة مع والده المفتي محمد شفيع إلى باكستان الشرقية – بنغلاديش- وأقام أكثر من أسبوعين في مدينة (سلهت). وكانت تلك الرحلة سياحية في طبيعتها لكن والده كان يلقي خطبا ودروسا أمام الجماهير الذين كانوا يزورونه.[4]

وفي عام 1963م قام برحلة لأداء مناسك العمرة مع شقيقه، على متن سفينة بحرية. وقد كتب مذكراته خلال أيام العمرة، لكنها فقدت على متن السفينة خلال العودة، ولم يجد لها خبرا. وأثناء تلك الرحلة كان يحضر درس الشيخ حسن المشاط

---

[1] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، شوال المكرم 1440هـ، ص : 11-19

[2] انظر، نفس المصدر، ذو الحجة 1440هـ، ص:41

[3] انظر، نفس المصدر، رجب 1440هـ، ص:10

[4] انظر، نفس المصدر، ذي الحجة 1440هـ، ص : 14-43

المالكي. فأجازه الشيخ في الحديث. كما قام بزيارة للطائف، وأماكن تاريخية أخرى. وكانت السفن من باكستان تصل إلى جدة بعد مرورها على ميناء عدن.[1]

وفي عام 1964م قامت برحلة الحج برفقة والده المفتي محمد شفيع. ولم تقتصر تلك الرحلة على أداء مناسك الحج فحسب، بل كانت رحلة للقاء العلماء والقيادات الإسلامية خلال موسم الحج. فكانت زيارات ولقاءات. وقام المفتي محمد شفيع رحمه الله بلقاء الشيخ عبد العزيز بن باز أيضا. وأجازه في الحديث. ومن يقرأ ما جرى خلال تلك الرحلة، لا يصعب عليه إدراك الوجع الذي كان يشعر به المفتي محمد شفيع تجاه الأمة الإسلامية.[2]

التمرين على الإفتاء:

كان محمد تقي العثماني يدرس حصصا، ثم يجلس ليتمرن على الإفتاء. وذكر أنه لم يصدر أي فتوى في حياة والده بدون أن يعرضها عليه. وكتب أن طريق الإفتاء هو أنه كلما يأتي أي استفتاء، فليفكر المفتي ما ذا سيكون رده عليه، ثم يراجع الكتب ليعرف الجواب. وإذا وجد الفتيا في الكتاب، فلينظر هل يمكن استنباط المسألة المعروضة من الدليل الذي استدل به صاحب الكتاب أم لا. فإن رأى أن الاستنباط صحيح، فليُفت بذلك. وإذا تردد في ذلك فليراجع المرجع والمصدر الأصلي الذي نُقل الدليل منه. وأشار محمد تقي العثماني إلى أن أصحاب العلم يعلقون على فتاواه، وأنه لا يتردد في الرجوع عن رأيه، إذا رأى أن الرأي الآخر صحيح.[3]

دراسة اللغة الإنجليزية:

ذكر محمد تقي العثماني في ذكرياته أنه كان درس قواعد اللغة الإنجليزية من شقيقه محمد ولي رازي. وكان هدفه من تعلم اللغة الإنجليزية فهم الأفكار الغربية ونقل رسالة الإسلام بتلك اللغة. وكان والده أيضا يرى حاجة إلى علماء يعرفون اللغة الإنجليزية. وقام بتعيين مدرس للغة الإنجليزية في دار العلوم كراتشي واسمه محمد

---

[1] انظر، نفس المصدر، ربيع الأول 1441هـ، ص : 21-29

[2] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، جمادى الثانية 1441هـ، ص : 11-20

[3] انظر، نفس المصدر، شعبان المعظم 1441هـ ، ص :19-29

سلطان. فتتلمذ عليه محمد تقي العثماني ودرس منه. ومن الغريب أنه عندما لم يجد أحدا يدرسه تلك اللغة، لم يستنكف الاستفادة من أحد تلاميذه أيضا. فبدأ يدرس كتابا من الشيخ محمد إسحاق الجهلمي الذي كان يدرس في الصف الثاني آنذاك، وكان أكمل الثانوية قبل الالتحاق بدار العلوم. وكان محمد تقي العثماني يدرسه في الفصل. وشارك بعد ذلك في اختبار الثانوية تحت رعاية جامعة البنجاب، ففاز بدرجات ممتازة ونال المرتبة الثانية بين جميع طلاب تلك المرحلة على مستوى لجنة التعليم الثانوية.[1] وحصل على شهادة الثانوية العليا عام 1963م بمرتبة جيد جدا.

البكالوريوس والمقايضة العلمية:

واختار في مرحلة البكالوريوس مادة العلوم السياسية والاقتصاد، إضافة إلى اللغة الإنجليزية، إلا أنه لم يجد أحدا ليدرس منه الاقتصاد، مع الحفاظ على جميع نشاطاته في دار العلوم؛ لأن دار العلوم كانت خارج المدينة بعيدة، ويضيع الكثير من الوقت في الذهاب والإياب إليها من مركز المدينة.

ومن المصادفات العجيبة أنه وجد أستاذا لتعليم الاقتصاد بمقايضة علمية، حيث اتفق صديقه رئيس قسم البحوث الإسلامية التابعة للبنك المركزي الباكستاني حسن الزمان الصديقي على دراسة الاقتصاد، شريطة أن يدرسه المجلدين الأخيرين من كتاب الهداية في الفقه. فكان الصديقي يحضر دار العلوم أياما ليدرسه الاقتصاد، ويزوره العثماني في بيته أياما أخرى ليدرسه الفقه. كما أنه استفاد من محاضرات للخبير الاقتصادي البروفيسور غفور أحمد أيضا. وكان هدفه من تعليم الاقتصاد فهم الأسس الفكرية للنظام المالي الرأسمالي والنظام الاشتراكي. وقد حصل له ذلك بما درس في مرحلة الليسانس أو البكالوريوس. ونال شهادة البكالوريوس عام 1966م بدرجة جيد جدا.[2]

---

[1] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، شعبان المعظم 1441هـ ص:26

[2] انظر، نفس المصدر، ص :27-29

علم الحقوق والقانون:

بعد أن نال شهادة البكالوريوس، فكر العثماني في مواصلة دراسة الاقتصاد؛ لكنه أحجم عن ذلك بسبب أن المطالعة بدون الأستاذ لم يكن كافيا، كما أن ما درسه في مرحلة الليسانس من هذا العلم، كان يفي بحاجته إليه. وبناء عليه قرر دراسة القانون، وذلك أيضا ليس لأن يعمل في مجال المحاماة، بل من أجل أن يتمكن من القيام بعمل ما في مجال نقد القانون وتدوين القوانين الإسلامية وترتيبها؛ إلا أن تعليم القانون لم يكن مسموحا بالانتساب. فالتحق بكلية للقانون وكان يحضرها بعض الأحيان. وحصل على شهادة البكالوريوس في الحقوق عام 1969م بدرجات ممتازة وكان الأول على المستوى الكلية وفاز بالمرتبة الثانية على مستوى الجامعة.[1]

القانون بلغة القانون والفقه بالعربية:

كتب العثماني في ذكرياته أنه على الرغم من أن دراسة القانون كانت مسموحة باللغة الأردية، وكذلك الإجابة في الاختبارات بها؛ لكنه قرر أن يدرس القانون باللغة الإنجليزية؛ لأنها لغة القانون وأن ترجمة تلك اللغة إلى أي لغة أخرى لن تزاهي اللغة الأصلية. وأشار إلى نكتة مهمة في ذكرياته أنه لا يمكن لأحد أن يصبح فقيها بقراءة تراجم كتب الفقه، ما دام لم يتقن اللغة العربية؛ لأنها لغة الفقه. وأضاف أنه كلما درس القانون، ازداد احتراما وإجلالا للفقهاء؛ لأن القانون الوضعي يبدو لعبة الأطفال إذا قورن بالفقه.[2]

الماجستير في اللغة العربية:

وسجل محمد تقي العثماني في الماجستير للغة العربية من جامعة البنجاب، بدلا من جامعة كراتشي، وأدى الاختبار بعد التحضير لفترة قصيرة. فنال شهادة الماجستير في اللغة العربية عام 1972م، بمرتبة الشرف الأول. وبعد ذلك لم يعجبه أن يسجل في مرحلة الدكتوراة من أجل اختبار وشهادة. فرمى بفكرة الحصول على شهادة

---

[1] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، رمضان المبارك، شوال 1441هـ، ص: 31

[2] انظر، نفس المصدر، ص: 33

الدكتوراة عن قلبه؛ لكنه أصبح ممتحنا للدكتوراة بعد فترة قصيرة. وهكذا وصل إلى نهاية مشوار التعلم الرسمي.[1]

التصنيف والتأليف:

كان محمد تقي العثماني يكتب في الجرائد والمجلات عندما كان طالبا بدار العلوم. وزاد ذلك النشاط بعد تخرجه، فألف أول كتاب حول تحديد النسل بعنوان "ضبط ولادت" بالأردية. والكتاب الثاني جاء عن ربا البنوك بعنوان "مسئلة سود" أي مسألة الربا. وهنا أيضا لم ينس أن يذكر أهداف التصنيف والتأليف. وكتب في ذكرياته أنه ألف كتيبا وعرضه على والده، فقرأه، ثم سأل: ما هدف هذا الكتاب؟ لأنه كان يتضمن عبارات حادة ضد المعارضين. ثم قال له إذا تريد منه أن يثني عليك من يوافقك في رأيك، فهو كتاب جيد؛ لكن إذا تريد إيصال الحق إلى الآخرين، فلن يستفيد منه من يعارضك.

ونصحه بأن تكون كتاباته خالية عن أي كلمات نابية والاستهزاء بمن يخالف رأيه. واستدل على ذلك بقوله تعالى (**فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ**) ([2])، أن الله سبحانه وتعالى أمر موسى عليه السلام بأن يتحدث مع فرعون بلين رغم كفره وطغيانه، فلسنا نحن بمثابة سيدنا موسى، وليس مخاطبونا بمثابة فرعون.[3] ومنذ تلك الأيام، لم يمر عليه يوم يخلو عن التصنيف والتأليف.

الصحافة:

في عام 1967م قرر المفتي محمد شفيع رحمه الله إصدار مجلة إسلامية شهرية من دار العلوم، بعنوان "البلاغ" باللغة الأردية. وبدأ يبحث عن رئيس تحرير لها. وبعد التشاور تم تعيين محمد تقي العثماني في ذلك المنصب، وهو ابن أربع وعشرين عاما. وصدر أول عدد لـ "البلاغ" في المحرم 1387هـ الموافق أبريل 1967م. ولا

---

[1] انظر، نفس المصدر ، ص : 35-36

[2] طه: 44

[3] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، رمضان المبارك، شوال 1441هـ ، ص : 38-39

تزال تصدر بدون أي انقطاع تحت إدارته إلى يومنا هذا.[1] كما تصدر نسخة للبلاغ باللغة الإنجليزية، إضافة إلى نسخة فصلية باللغة العربية أيضا.

العمل في القطاع الحكومي:

طلب ضابط كبير في الجوية الباكستانية من المفتي محمد شفيع رحمه الله، عام 1967م أن يساعد في وضع منهج لنشر التعاليم الإسلامية في الجوية الباكستانية وأن يرشح عالما للعمل في ذلك القسم يكون على معرفة باللغة الإنجليزية، ليخطط طريقا لإدارة تلك الشعبة. فوقع الاختيار على محمد تقي العثماني؛ إلا أن العثماني اقترح أن يتخذ القرار النهائي بعد زيارة المقر العام للجوية في بيشاور.

فقام بزيارة إلى بيشاور مع شقيقه، وحضر المقر العام للجوية؛ لكنه اعتذر عن العمل هناك لعدة أسباب. وبينها استحالة القيام بالخدمات العلمية التي يقدمها في دار العلوم، وصعوبة إنجاز مهمة وضع المناهج خلال عام، وعدم إمكانية تقديم الاستقالة من الجوية بعد الانخراط في صفوفها، والبعد عن الوالدين. كما أن الجوية وجدت عالما آخر ليقوم بتلك المهمة، فعاد العثماني إلى كراتشي بعد أن قام بجولة أخرى في إقليم الحدود الشمالية الغربية – إقليم خيبر بختون خوا حاليا-.[2]

وتم ضم العثماني إلى مجلس الفكر الإسلامي كعضو عام 1977م، فعمل به حتى عام 1985م. وهذا المجلس مؤسسة دستورية في باكستان أنشئت من أجل مراجعة القوانين السائدة في البلاد في ضوء الشريعة الإسلامية من أجل أسلمة القوانين. وهي تقدم توصياتها وملاحظاتها على القوانين الوضعية إلى البرلمان، لإعادة النظر فيها وتعديلها لتتطابق الشريعة الإسلامية. ولعب محمد تقي العثماني دورا بارزا في سن قوانين الحدود والقصاص وقوانين أخرى.

عمل محمد تقي العثماني قاضيا في المحكمة الشرعية الاتحادية لسنوات، وأصدر قرارات حول قضايا هامة تم نشرها في كتاب. كما ظل عضوا لهيئة الاستئناف الشرعية التابعة لمحكمة التمييز الباكستانية لعدة سنوات. والقرارات التي كتبها في تلك

---

[1] انظر، نفس المصدر، ذو القعدة 1441هـ ، ص: 18

[2] انظر، يادیں، مجلة البلاغ، ذو القعدة 1441هـ ، ص : 19-20

الفترة تدل على علو كعبه في الفقه والقانون. ومن أهم القضايا التي علق عليها، رجم الزاني المحصن، والصورة الفوتوغرافية وقانون العقد، والقصاص والدية، وقانون الشفعة وتحديد ملكية العقار وتقادم اليد الغاصبة وحق الملكية والجوائز الحكومية بالقرعة ومسألة الربا.[1]

المناصب التي تولاها في الماضي:

وعلى الرغم من أن العثماني لم ينخرط في الدوائر والمؤسسات الرسمية كموظف أو مسؤول عادي؛ فتح الله له مجال العمل في الكثير من المؤسسات القضائية والمالية المحلية والدولية بفضل قدراته في علم الفقه والحقوق. فتولى المناصب التالية في الماضي:

- عضو مجلس الفكر الإسلامي، 1977-1981م
- قاض في المحكمة الشرعية الاتحادية الباكستانية، 1980-1982م
- قاض في لجنة الاستئناف الشرعية، المحكمة العليا الباكستانية، 1982-2002م
- عضو نقابة جامعة كراتشي، 1985-1988م
- عضو مجلس محافظي الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد، 1989-1985م
- عضو المعهد الدولي للاقتصاد الإسلامي 1985-1988م
- عضو مجلس أمناء الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، 2004-2007م
- عضو لجنة أسلمة الاقتصاد الباكستاني
- عضو الهيئة الشرعية لبنك خيبر، بيشاور، باكستان
- عضو الهيئة الشرعية لمؤشر داو جونز بنيويورك
- عضو المجلس الشرعي لـ HSBC أمانة للتمويل، دبي
- عضو الهيئة الشرعية لـ Swiss Re Takaful ، سويسرا

---

[1] انظر، حكيم، لقمان، محمد تقي العثماني القاضي الفقيه والداعية الرحالة، دمشق، دار القلم، الطبعة الأولى 1423هـ - 2002م، ص : 49-57

- عضو الهيئة الشرعية بـ "بنك إسلامي"
- عضو الهيئة الشرعية لـ بنك دبي
- عضو المجلس الشرعي، صندوق روبرت فليمنغ، لوكسمبورغ
- عضو الهيئة الشرعية لمجموعة البكارة، جدة
- عضو الهيئة الشرعية لـ بنك ABC للاستثمار

المناصب التي يشغلها الشيخ محمد تقي العثماني حاليا:

- رئيس دار العلوم كراتشي، منذ عام 2022م
- رئيس وفاق المدارس العربية ملتان، منذ عام 2021م
- رئيس اتحاد تنظيمات المدارس، باكستان، منذ عام 2021م
- رئيس مركز الاقتصاد الإسلامي، باكستان، منذ عام 1991م
- رئيس مجلس المعايير الشرعية الدولية، هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية
- عضو دائم في مجمع الفقه الإسلامي الدولي بجدة، التابع لمنظمة التعاون الإسلامي، جدة
- عضو مجمع الفقه الإسلامي برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة
- رئيس الهيئة الشرعية لمصرف أبوظبي الإسلامي، الإمارات العربية المتحدة
- رئيس الهيئة الشرعية لـ بنك ميزان المحدود، كراتشي
- رئيس الهيئة الشرعية لوكالة التصنيف الإسلامية الدولية البحرين
- رئيس الهيئة الشرعية لـ "باك-كويت تكافل"، كراتشي
- رئيس الهيئة الشرعية لمجموعة عارف حبيب للاستثمار - الصندوق الإسلامي الباكستاني الدولي، كراتشي
- عضو الهيئة الشرعية لصندوق "أركابيتا" الاستثماري، البحرين
- عضو الهيئة الشرعية الموحدة للبنك الإسلامي للتنمية، جدة
- عضو الهيئة الشرعية للمجموعة المالية الإرشادية، الولايات المتحدة الأمريكية

الجوائز والتكريمات:

- صنف المركز الملكي للدراسات الإستراتيجية الإسلامية محمد تقي العثماني في المرتبة السادسة في نسخة عام 2023م بين "أكثر 500 قيادي إسلامي تأثيرا".
- درجة الدكتوراه الفخرية في الشريعة الإسلامية والفقه من الجامعة الأمريكية الدولية، عام 2022م
- وسام نجمة الامتياز (ستارة امتياز) في مجال الخدمة العامة، من جانب رئيس جمهورية باكستان الإسلامية، عام 2019م.
- صنف المركز الملكي للدراسات الإستراتيجية الإسلامية محمد تقي العثماني في المرتبة الأولى في نسخة 2020 من "أكثر 500 مسلم تأثيراً". ويدرجه في قائمة "أفضل 50 قياديا إسلاميا" في كل منشور من إصداراته منذ إنشاء المركز عام 2009م.
- صنف تقرير التمويل الإسلامي العالمي محمد تقي العثماني عام 2017م في المرتبة الثانية بين الشخصيات الإسلامية الأكثر نفوذا في صناعة الخدمات المالية العالمية.
- جائزة الإنجاز مدى الحياة، من جوائز التميز في التمويل الإسلامي (IFEA)، من جانب مركز التمويل الإسلامي التابع لمعهد (كومساتس) (COMSATS) لتكنولوجيا المعلومات، لاهور، عام 2017م.
- جائزة الإنجاز مدى الحياة، من جانب منتدى التمويل الإسلامي في جنوب آسيا(IFFSA) ، عام 2016م.
- جائزة البنك الإسلامي للتنمية في الصيرفة والتمويل الإسلامي، عام 2014م
- جائزة الملك عبد الله الثاني، عام 2011م.
- جائزة الإنجاز مدى الحياة من جانب مجلة (Islamic Business & Finance)، عام 2011م.
- وسام الاستقلال من الدرجة الأولى من ملك الأردن، عام 2010م.
- جائزة الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، عام 2004م.[1]

[1] https://en.wikipedia.org/wiki/Taqi_Usmani بتاريخ 2023/12/5م، الساعة 11:55 ليلا، بتوقيت باكستان

المبحث الثاني: مؤلفات الشيخ محمد تقي العثماني

لا يمضي يوم من حياة محمد تقي العثماني؛ إلا وهو يستغله في التأليف والتدريس والكتابة. ومن الغريب أنه قام بعدد من الأعمال الهامة من تأليفاته وبينها ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الأردية، خلال أسفاره ورحلاته، وأثناء توقفاته في تلك الرحلات.

وبفضل ثقافاته المختلفة، قدم للمكتبة الإسلامية كتبا كثيرة بعناوين شتى بثلاث لغات كبيرة وهي الأردية والعربية والإنجليزية. وتتنوع تأليفاته وفق ثقافته وعلومه الجمة. وتتوسع لتشمل علم التفسير والحديث والفقه والقانون والاجتماع والأدب. وقد تمت ترجمة بعض أعماله إلى اللغات الأخرى أيضا. وفيما يلي قائمة تأليفاته باللغة الأردية، والعربية، والإنجليزية على التوالي.

مؤلفات العثماني باللغة الأردية:

1. آسان ترجمه قرآن

(الترجمة السهلة للقرآن الكريم: وهي ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الأردية. وقد نالت إعجابا من جميع شرائح المجتمع؛ لأنها سلسة وباللغة الحديثة التي يعرفها معظم الناس.)

2. علوم القرآن

(هو كتاب في علوم القرآن، كان ألفه في البداية كمقدمة لتفسير معارف القرآن الذي ألفه والده المفتي محمد شفيع؛ لكن تمت طباعته ككتاب مستقبل لكبر حجمه).

3. درس ترمذي كامل (3 مجلدات)

(هو دروس العثماني لجامع الإمام الترمذي، ألقاها على طلابه، فتم جمعها وتنقيحها مع التخريج. ويعتبر شرحا لجامع الترمذي باللغة الأردية).

4. تقرير ترمذي كامل (مجلدان)

(هذا الكتاب أيضا يحوي دروسا للعثماني من جامع الترمذي).

5. إنعام الباري كامل (7 مجلدات)

(هو دروس العثماني على صحيح الإمام البخاري. ويعتبر شرحا لصحيح البخاري).

6. حجيت حديث

(حجية الحديث: وهو كتاب حافل في موضوع حجية الحديث، لدحض الشكوك والشبهات حول حجية الحديث والسنة).

7. بائبل سے قرآن تک (3 مجلدات)

(من الكتاب المقدس إلى القرآن الكريم: هو الترجمة الأردية لكتاب "إظهار الحق" للشيخ رحمة الله الكيرانوي، حول النصرانية، مع إضافات مفيدة والتخريج).

8. بائبل کیا ہے؟

(ماهي النصرانية؟: هو مقدمة مطولة لكتاب "إظهار الحق" للشيخ رحمة الله الكيرانوي، وتم طبعها ككتاب على حدة لكبر حجمه. كما تُرجم هذا الكتاب إلى عدد من اللغات).

9. اپنے گھروں کو بچایئے

(احموا بيوتكم: كتاب يذكّر المسلمين بضرورة حماية بيوتهم من المناهي والآثام ويحثهم على فعل الحسنات)

10. احكام اعتكاف

(أحكام الاعتكاف: كتاب فقهي عن مسائل الاعتكاف)

11. اسلام اور سیاست حاضرہ

(الإسلام والسياسة الحاضرة: كتاب يتحدث عن الإسلام والسياسة في العصر الحاضر. وهو يتضمن مقالات للعثماني في هذا الموضوع طبعت في مجلة البلاغ).

12. اسلام اور سیاسی نظریات

(الإسلام والأفكار السياسية: هو أيضا كتاب يفصل في الإسلام والأفكار السياسية الحديثة. ويتضمن مقالات منشورة للعثماني في مجلة البلاغ).

13. اسلام اور جدت پسندی

(الإسلام والتجدد: هذا الكتاب يتضمن مقالات عن الإسلام والتجدد، ويتحدث عن قضايا حديثة في ضوء الشريعة الإسلامية).

14. اسلام اور جدید معیشت و تجارت

(الإسلام والاقتصاد والتجارة الحديثة: كتاب فقهي يلقي الضوء على المبادئ الإسلامية والاقتصاد والتجارة الحديثة.)

15. اصلاح معاشرہ

(إصلاح المجتمع: كتاب يتحدث عن أفكار حول إصلاح المجتمع الإسلامي في ضوء الشريعة الإسلامية).

16. اصلاحی خطبات کامل (18 مجلدا)

(خطب إصلاحية: هي مجموعة لسلسلة من خطب ألقاها العثماني، بمختلف المناسبات. وتم طبعها بعد تفريغها من أشرطة التسجيل، ومراجعة دقيقة.)

17. اصلاحی مجالس کامل (7 مجلدات)

(مجالس إصلاحية: هي أيضا مجموعة من خطب إصلاحية في التزكية)

18. اصلاحی مواعظ کامل (3 مجلدات)

(مواعظ إصلاحية: هذا الكتاب أيضا يتضمن مواعظ وخطبا إصلاحية ألقاها العثماني).

19. اکابر دیوبند کیا تھے؟

(ماذا كان أكابر علماء ديوبند؟ : كتاب يتحدث عن كبار علماء المدرسة الديوبندية وأسلوبهم العلمي واعتدالهم وإخلاصهم في الدين).

20. البانیہ میں چند روز

(أيام في ألبانيا: حديث عن أيام قضاها العثماني في ألبانيا. وهي رحلة وجزء من مجامعيه للرحلات).

21. البلاغ عارفی نمبر

(البلاغ، العدد الخاص حول حياة الشيخ العارفي: وهو عدد خاص لمجلة البلاغ الناطق الرسمي باسم دار العلوم كراتشي، عن حياة شيخ العثماني عبد الحي العارفي.)

22. اندلس میں چند روز

(أيام في الأندلس: قصة أيام قضاها العثماني في أسبانيا، وزار خلالها تراث المسلمين في الأندلس وبكاه مثل الشعراء الأندلسيين. طبع هذا الكتيب على حدة أولا، ثم تم ضمها إلى رحلات العثماني).

23. آسان نیکیاں

(الحسنات السهلة: هو كتاب يتحدث عن حسنات سهلة في الأداء لكنها تحمل في طياتها أجرا عظيما).

24. پرنور دعائیں

(أدعية مشعة: كتاب يتضمن أدعية من الكتاب والسنة لمناسبات مختلفة).

25. تبصرے

(تعليقات: مجموعة من المقالات الافتتاحية لمجلة البلاغ بقلم العثماني حول مواضيع مختلفة).

26. تذکرے

(تراجم: تراجم لشخصيات بريشة العثماني، كتبها في مجلة البلاغ).

27. تراشے

(قصاصات: هي اقتباسات نقلها العثماني خلال مطالعته في الكتب.)

28. تقلید کی شرعی حیثیت

(الوضع الشرعي للتقليد: بحث العثماني في هذا الكتاب الجوانب الشرعية للتقليد في الفقه).

29. جہان دیدہ (سفر نامہ)

(عالم العين، أو العالم المشاهَد: أول مجموعة لرحلات العثماني لعدة دول).

30. حدود آرڈیننس: ایک جائزہ

(مراجعة لمرسوم الحدود: نظرة فقهية حول مرسوم الحدود الإسلامية في باكستان).

31. حضرت معاویہ اور تاریخی حقائق

(سيدنا معاوية والحقائق التاريخية: رد على شبهات تثار حول سيرة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه).

32. حضور صلی اللہ علیہ وسلم نے فرمایا

(قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مجموعة لأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم).

33. حکیم الامت کے سیاسی افکار

(الأفكار السياسية لحكيم الأمة: كتاب تحدث فيه العثماني عن أفكار حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي عن السياسة. وكان الشيخ التهانوي شيخ والده المفتي محمد شفيع. وقد خلف أكثر من 1100 كتابا صغيرا وكبيرا حول العلوم الإسلامية والاجتماعية).

34. دنیا مرے آگے (سفر نامہ)

(العالم بين يدي: مجموعة لرحلات العثماني إلى عدد من الدول.)

35. دینی مدارس کا نصاب ونظام

(مناهج المدارس الإسلامية ونظامها: كتاب يلقي ضوء على نظام المدارس الإسلامية في شبه القارة الهندية ومناهجها).

36. ذکر وفکر

(الذكر والتفكير: كتب العثماني عمودا في جريدة "جنك" الناطقة بالأردية، وهي أكبر جريدة في باكستان، لفترة، بهذا العنوان. وتم جمع تلك الأعمدة التي تتمحور حول مواضيع دينية واجتماعية واقتصادية وتربوية وتعليمية، في هذا الكتاب.)

37. سود پر تاریخی فیصلہ

(القرار التاريخي حول الربا: كما هو واضح من عنوان الكتاب، أنه نص قرار المحكمة الشرعية الاتحادية حول حرمة الربا. وهو أطول قرار للمحكمة الشرعية الاتحادية الباكستانية يحتوي على 1100 صفحة، وكتب العثماني 250 صفحة منها.)[1]

[1] انظر، حكيم، لقمان، محمد تقي العثماني القاضي الفقيه والداعية الرحالة، دمشق، دار القلم، الطبعة الأولى 1423هـ 2022م، ص:56

38. ضبط ولادت

(حد النسل: هذا أول كتاب ألفه العثماني، عن حد النسل ردا على محاولات الحكومة في عهد الجنرال محمد أيوب خان للترويج لحد النسل).

39. عدالتی فیصلے کامل (مجلدان)

(القرارات القضائية: كتاب يجمع بين دفتيه القرارات التي أصدرها الشيخ محمد تقي العثماني خلال فترة عمله قاضيا للمحكمة الشرعية الاتحادية.)

40. عیسائیت کیا ہے؟

(ما هي النصرانية؟: هو ترجمة مقدمة "إظهار الحق" للشيخ رحمة الله الكيرانوي).

41. غیر سودی بینکاری، فقہی مسائل کی تحقیق اور اشکالات کا جائزہ

(المصرفية غير الربوية، تحقيق المسائل الفقهية ومراجعة الإشكالات حولها)

42. فتاویٰ عثمانی (3 مجلدات)

(الفتاوى العثمانية: مجموعة لفتاوى أصدره العثماني)

43. فرد کی اصلاح

(إصلاح الفرد: كتاب يتحدث عن تزكية النفس وإصلاح الأفراد الذين يتكون منهم المجتمع الإسلامي؛ لأن الفرد نواة المجتمع).

44. فقہی مقالات کامل (5 مجلدات)

(المقالات الفقهية: هي مجموعة لمقالات فقهية ألفها الشيخ محمد تقي العثماني ومطبوعة في خمس مجلدات).

45. قادیانی فتنہ اور ملت اسلامیہ کا موقف

(موقف الأمة الإسلامية عن الفتنة القاديانية: شهدت باكستان حركة شعبية واسعة بقيادة العلماء عام 1953م وعام 1974م ضد القاديانيين أتباع المرزا غلام أحمد القادياني الذي تنبأ إبان الحكم الإنجليزي في الهند. وكانت هذه الجماعة تحظى بنفوذ في أوساط الحكم. ومارست الحكومة العنف لقمع الأصوات ضد القاديانية؛ لكن الحركة زادت قوة. وأخيرا انتقلت قضية القاديانية للمداولات في البرلمان. وبعد 29 يوما من

الجلسات المتواصلة حول هذا الموضوع، وافق البرلمان بالإحماع على تكفير القاديانيين. ويقدم هذا الكتاب الأسباب والدلائل التي تتطلب تكفيرهم.)

46. قتل اور خانہ جنگی کے بارے میں آنحضرت صلی اللہ علیہ وسلم کے ارشادات

(أقوال النبي صلى الله عليه وسلم حول القتل والاقتتال)

47. مآثر حضرت عارفی

(مآثر حضرة العارفي: كتاب يحتوي على إنجازات عبد الحي العارفي، شيخ محمد تقي العثماني في الطريقة.)

48. مقدمہ معارف القرآن

(مقدمة معارف القرآن: مقدمة لتفسير معارف القرآن للمفتي محمد شفيع. وكان العثماني كتب مقدمة أخرى قبلها بتوجيه من والده؛ لكنها جاءت طويلة جدا، فاستحسنها والده، وأمره بطبعها ككتاب مستقل بعنوان "علوم القرآن".)

49. ملکیت زمین اور اس کی تحدید

(ملكية الأرض وتحديدها: كتاب يبحث في ملكية الأرض وفق الشريعة الإسلامية، وأحكامها قبل الفتح وبعده.)

50. موجودہ پر آشوب دور میں علماء کی ذمہ داریاں

(مسؤوليات العلماء في هذا الوقت الصعب: كتاب يلقي الضوء على مسؤوليات العلماء في المجتمع، ومجابهة الوضع الراهن، وتقديم النصح إلى المسلمين.)

51. موجودہ حالات اور ہماری ذمہ داریاں

(الأوضاع الراهنة ومسؤولياتنا: يتضح من عنوان الكتاب أنه يهدف إلى دعوة المسلمين نحو أداء مسؤولياتهم تجاه ربهم وتجاه عباده.)

52. میرے والد میرے شیخ

(والدي وشيخي: مقال طويل كتبه العثماني في وفاة والده ونشر في العدد الخاص للبلاغ حول المفتي محمد شفيع رحمه الله. وتم طبعه بعد ذلك في كتاب مستقل.)

53. نشری تقریریں

(كلمات مبثوثة: كلمات للعثماني ألقاها بمناسبات مختلفة وتم نشرها في كتاب.)

54. نفاذ شریعت اور اس کے مسائل

(قضايا تتعلق بتطبيق الشريعة الإسلامية: يحتوي هذا الكتاب على مقالات للعثماني تذكر المشاكل التي تعرقل طريق تطبيق الشريعة الإسلامية في باكستان، على الرغم من أن الشعب الباكستاني شعب مسلم يرغب في العيش تحت ظل الشريعة الإسلامية الغراء.)

55. نقوش رفتگاں

(نقوش لمن مضى: هي تراجم وصور قلمية لقامات وشخصيات كبيرة في مختلف المجالات من العلماء والمشايخ والسياسيين، رسمها محمد تقي العثماني بريشته في مجلة البلاغ. وتم طبعها في كتاب مستقل.)

56. نمازیں سنت کے مطابق پڑھئے

(أدوا الصلاة وفق السنة: هو كتيب صغير ترجم إلى عدد من اللغات، يحتوي على إرشادات لأداء الصلاة وفق السنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام.)

57. ہمارا معاشی نظام

(نظامنا الاقتصادي: هذا الكتاب يتضمن مقالات للعثماني كتبها عن قضايا تتعلق بالاقتصاد، في مجلة البلاغ، وتم طبعها في كتاب على حدة. وهي مقالات قيمة تلقي الضوء على عدد من القضايا المتعلقة بالاقتصاد.)

58. ہمارا تعلیمی نظام

(نظامنا التعليمي: يتكون هذا الكتاب من عدة مقالات تحوم حول نظام التعليم في باكستان، وتقدم مقترحات لإصلاحه. هي أيضا من ضمن مقالات مطبوعة في البلاغ، وتم جمعها في مجلد على حدة.)

59. ہمارے عائلی مسائل

(قضايانا الأسرية: يجمع هذا الكتاب في طياته مقالات من بنات أفكار العثماني حول قضايا تتعلق بالشؤون العائلية. وقد أوضحها في ضوء الشريعة الإسلامية.)

60. آزادیٔ نسواں کا فریب

(خداع حرية المرأة: كتاب يكشف القناع عن شعار تحرير المرأة).

61. بدعت ایک گمراہی

(البدعة ضلالة: واضح من عنوان الكتاب، أنه يهدف إلى دحض البدعات).

62. بسم اللہ کی اہمیت

(أهمية البسملة: كتيب في فضائل البسملة).

63. حقوق العباد اور معاملات

(حقوق العباد والمعاملات: كما هو معروف أن الدين المعاملة. وهذا الكتاب يلقي ضوء على حقوق العباد وإحسان المعاملات بينهم.)

64. خواتین اور پردہ

(المرأة والحجاب: كتاب يتحدث عن الحجاب للمرأة في ضوء الشريعة الغراء.)

65. دجالی فتنہ کے خد وخال

(ملامح فتنة الدجال: يعود هذا الكتاب إلى الشيخ مناظر أحسن الكيلاني الذي كتب حول موضوع فتنة الدجال في ضوء سورة الكهف تحت عنوان "تذكير بسورة الكهف". وقام العثماني بتخريج أحاديث ذلك الكتاب وأضاف حواشي لإيضاح غوامضه.)

66. درود شریف ایک اہم عبادت

(الصلاة على النبي عبادة هامة: كتاب في فضائل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم)

67. دنیا کے اس پار

(وراء هذا العالم: هذا كتاب نادر في موضوعه. وهو رد على استفتاء ورد إلى العثماني عن العلاقة بين الروح والبدن، وهل يمكن لروح البشر أن تعود إلى الجسد بعد خروجها منه؟).

68. دین کیا ہے؟

(ما هو الدين؟: كتيب يعرّف بأهم أمور الدين الإسلامي.)

69. علم پر عمل کریں

(اعملوا بعلمكم: كتيب يؤكد على أهمية العمل بالعلم، مشيرا إلى أن العمل وإصلاح النفس هو المقصود بالعلم، وهذا الأمر كان ميزة السلف الصالحين.)

70. غیر سودی بینکاری

(المصرفية غير الربوية: كتاب يحتوي على أصول المصرفية الإسلامية غير الربوية.)

71. فلسفہء حج وقربانی

(فلسفة الحج والأضحية)

72. قرآنی دعائیں

(الأدعية القرآنية)

73. گوشہء تنہائی

(الخلوة: ديوان شعر للعثماني يحتوي على مختلف أصناف الشعر باللغة الأردية.)

74. معاشرتی حقوق اور فرائض

(الحقوق والمسؤوليات الاجتماعية: هذا الكتاب من إفادات العثماني وألفه محمد إسحاق مدير مجلة "محاسن إسلام"، جمع فيه الآداب الإسلامية الاجتماعية.)

75. یادیں

(ذكريات: هذه سيرة ذاتية للشيخ العثماني. يكتبها منذ سنوات في حلقات تنشر في مجلة البلاغ. وقد تم نشر الحلقة الـ 58 لها في عدد صفر المظفر وربيع الأول عام 1444هـ من مجلة البلاغ. ولم تتوقف هذه السلسلة. وقد أودع العثماني في هذا السلسلة ذكرياته منذ صباه إلى يومنا هذا، بحلوها ومرها، بأسلوب أدبي شيق. وهي أوثق مصدر لمحطات حياته المختلفة. وقد اعتمدت على الحلقات المنشورة لـ ذكريات، في إعداد ترجمة العثماني لهذا البحث؛ لأنه لم يتم نشر أي ترجمة مفصلة له، سوى كتيب لأحد تلاميذه الأجلاء لقمان حكيم بعنوان: "محمد تقي العثماني، القاضي الفقيه والداعية الرحالة".)

مؤلفات العثماني باللغة العربية:

1. تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم (ست مجلدات)
2. بحوث في قضايا فقهية معاصرة (مجلدان)

3. أصول الإفتاء وآدابه
4. أحكام الذبائح
5. ما هي النصرانية؟
6. نظرة عابرة حول التعليم الديني في باكستان
7. البيوع على المذاهب الأربعة مع تطبيقاته المعاصرة مقارنا بالقوانين الوضعية
8. الربا
9. مقالات العثماني (مجلدان)
10. فسخ نكاح المسلمات من قبل المراكز الإسلامية في بلاد غير إسلامية
11. الصكوك وتطبيقاتها المعاصرة
12. زراعة عضو استؤصل في حد أو قصاص

مؤلفات العثماني بالإنجليزية:

1. The Meanings of The Noble Quran
(ترجمة معاني القرآن الكريم)
2. An Introduction to Islamic Finance
(تقديم للاقتصاد الإسلامي)
3. Contemporary Fatawa
(فتاوى معاصرة)
4. Discourses on The Islamic Way of Life
(محاضرات حول أسلوب الحياة في الإسلام)
5. Do Not Despise The Sinners
(لا تحقّر المذنبين)
6. Islam & Modernism
(الإسلام والتجدد)
7. Islamic Months
(الشهور الإسلامية)
8. Legal Rulings on Slaughtered Animals
(الأحكام القانونية للذبائح)
9. Perform Salah Correctly
(أدّ الصلاة بأسلوب صحيح)
10. Radiant Prayers

(الأدعية المشعة)

11. Quranic Sciences

(علوم القرآن)

12. Sayings of Muhammad

(قال النبي صلى الله عليه وسلم)

13. Quadianism on Trial

(القاديانية على المحك)

14. Spiritual Discourses

(خطب روحانية)

15. The Authority of Sunnah

(حجية السنة)

16. The Historic Judgment on Interest

(القرار التاريخي عن الربا)

17. The Language of The Friday Khutba

(لغة خطبة الجمعة)

18. The Legal Status of Following a Madhab

(الحيثية القانونية لتقليد مذهب)

19. The Rules of Etikaf

(أحكام الاعتكاف)

20. What is Christianity?

(ما هي النصرانية)

21. Present Finanacial Crisis: Causes And Remedies From Islamic Perspective

(الأزمة الاقتصادية الراهنة: أسبابها وعلاجها من المنظور الإسلامي) ([1])

****

مجاميع رحلات محمد تقي العثماني

نشرت حتى الآن ثلاثة مجموعات لرحلات محمد تقي العثماني إلى مختلف أنحاء العالم. طبعت المجموعة الأولى منها عام 1410هـ/1990م تحت عنوان "جهان

[1] تم جمع المعلومات عن مؤلفات الشيخ محمد تقي العثماني من أغلفة بعض مؤلفاته. ومنها كتاب (دنيامرے آگے) و (سفرورسفر). (الباحث)

دیدہ". هذه الكلمة مركب إضافي من كلمتين جهان و ديدة وتعني "عالم العين" أو العالم المشاهد. وطبع الكتاب بحلة قشيبة وبصف كمبيوتري عام 2012م.

تتضمن هذه المجموعة رحلات العثماني إلى عشرين دولة كما يلي:

1. وادی دجلہ وفرات – رحلة إلى العراق–
2. مصراورالجزائرمیں چندروز (أيام في مصر والجزائر)
3. احد سے قاسیون تک (سعودی عرب، اردن، شام) – من أحد إلى قاسيون– رحلة إلى المملكة العربية السعودية والأردن وسوريا
4. سلطان محمد فاتح کے شہر میں (ترکی) – في مدينة السلطان محمد الفاتح – رحلة إلى تركيا
5. جزیروں کاملک(سنگاپور،انڈونیشیا) – بلاد الجزر– رحلة إلى سنغافورة وإندونيسيا
6. بنگلہ دیش میں چند دن – أيام في بنغلاديش – رحلة إلى بنغلاديش
7. قطرسیرت کانفرنس (قطر) – مؤتمر السيرة النبوية في قطر – رحلة إلى دولة قطر
8. دورہء چین – رحلة إلى الصين–
9. امریکہ اور یورپ کا پہلا سفر (امریکا، برطانیہ) – أول رحلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية و بريطانيا – رحلة إلى الولايات المتحدة و بريطانيا
10. ہندوستان کا سفر – رحلة الهند –
11. جنوبی افریقہ کے دو سفر (کینیا، جنوبی افریقہ) – رحلتان إلى جنوب أفريقيا– رحلة إلى كينيا وجنوب أفريقيا –
12. دیارمغرب میں تین ہفتے (فرانس، امریکہ، کینیڈا) – ثلاثة أسابيع في ديار الغرب– رحلة إلى فرنسا والولايات المتحدة وكندا

المجموعة الثانية: هي "**دنیامرے آگے**" – العالم أمامي– طبعت هذه المجموعة أولا عام 1423هـ/ 2003م وأعيدت طباعتها عام 2012م وهي تتضمن ثماني عشرة رحلة إلى وجهات مختلفة من العالم على النحو التالي:

1. اندلس میں چندروز – أيام في الأندلس –
2. سفر برونائی – رحلة إلى بروناي دار السلام–

3. مغرب میں دو ہفتے – أسبوعان في الغرب-
4. ری یونین کے جزیرے میں – في جزيرة ري يونين-
5. جنوبی افریقہ میں – في جنوب أفريقيا-
6. سلطان محمد فاتح کے شہر میں – في مدينة السلطان محمد الفاتح -
7. دنیا کے گرد ایک چکر – رحلة حول العالم -
8. کیلی فورنیا میں – في كيليفورنيا-
9. ٹوکیو میں – في طوكيو-
10. آسٹریلیا میں چند روز – أيام في أستراليا-
11. ملائشیا میں چند روز – أيام في ماليزيا-
12. ہارورڈ یونیورسٹی کا ایک سفر – رحلة إلى جامعة هارفرد-
13. ایک ہفتہ آئرلینڈ اور آکسفورڈ میں – أسبوع في أيرلندا وأكسفورد-
14. صنعاء یمن کا ایک سفر – رحلة إلى صنعاء اليمن-
15. آدھی رات کا سورج (دنیا کے شمالی سرے کا ایک سفر) – شمس منتصف الليل- رحلة إلى القطب الشمالي
16. ناروے، سویڈن، فن لینڈ – النرويج و السويد وفنلاند-
17. جرمنی اور اٹلی کا سفر – رحلة ألمانيا و إيطاليا -
18. فن لینڈ کا سفر – رحلة إلى فنلندا –

المجموعة الثالثة: سفر در سفر – سفر في سفر-

صدرت الطبعة الثانية لهذه المجموعة عام 1432هـ/ 2011م وهي تشمل اثنتي عشرة رحلة إلى ست عشرة وجهة في قارات مختلفة من العالم. وتلك الرحلات كما يلي:

1. نکلتے سورج کا ملک، جزائر فجی کا ایک سفر – في بلاد الشمس الطالعة – رحلة إلى جزر الفيجي
2. ایک ہفتہ ایران میں – أسبوع في إيران-
3. نیوزی لینڈ کا ایک سفر – رحلة إلى نيوزيلندا-
4. شام کا دوسرا سفر – الرحلة الثانية إلى سوريا-

5. کرغیزستان کا سفر – رحلة قيرغيزستان-

6. البانیہ میں چند روز – أيام في ألبانيا-

7. نودن روس میں – تسعة أيام في روسيا-

8. دس روز جاپان میں – عشرة أيام في اليابان-

9. لاطینی امریکہ کا ایک سفر (برازیل، پانامہ، ٹرینیڈاڈ، بارب ڈوس) – رحلة إلى أمريكا اللاتينية – البرازيل والباناما وترينيداد وباربيدوس –

10. تاجکستان کا سفر (بشکیک میں) – رحلة إلى تاجكستان- (في بشكيك)

11. ہندوستان کا تازہ سفر (اس گھر میں جو کبھی ہمارا تھا) – رحلة حديثة إلى الهند – في البيت الذي كان لنا يوما ما-

12. اردن کا سفر – رحلة الأردن –

ماذا يقصد محمد تقي العثماني من تدوين رحلاته؟

رغم القيمة الأدبية والثقافية لرحلات محمد تقي العثماني، فإنه لم يكن مقتنعا بتدوين رحلاته في البداية. كما أنه فقد مسودة أول رحلة دون فيها وقائع سفره إلى بيت الله العتيق للعمرة مع شقيقه الأكبر عام 1963م؛ إلا أنه لم يكتب لتلك الرحلة أن ترى النور؛ لأنه فقدها على السفينة خلال سفر العودة ولم يجد لها خبرا بعد ذلك. ويشير إلى ذلك في مقدمة المجموعة الأولى من رحلاته "**جہان دیدہ**" قائلا:

''اپنی ذات کی طرف دیکھوں تو اپنا سفر نامہ لکھنے کا خیال بھی ایک خبط معلوم ہوتا ہے۔ میرے والد ماجد (رحمۃ اللہ علیہ) کے بقول کوئی مکھی مچھر ایک جگہ سے دوسری جگہ اڑ کر چلا جائے تو اس کا سفر نامہ کون لکھے؟ لیکن جب میں نے 1963ء میں برادر محترم جناب محمد ولی رازی کے ساتھ عمرے کا سفر کیا تو سفر نامہ لکھنے کا شوق اس لئے پیدا ہوا کہ اس بہانے حجاز کے مقامات مقدسہ اور ان سے وابستہ تاریخ کے دلکش واقعات لکھنے کا موقع مل جائے گا۔ چنانچہ سب سے پہلے وہ سفر نامہ بڑے ذوق وشوق اور تفصیل سے لکھنا شروع کیا، اور یہ واقعہ ہے کہ ع

لذیذ بود حکایت، دراز تر گفتم

لیکن اس سفر نامے کی تکمیل اور اشاعت مقدر میں نہ تھی۔ اسی سفر سے واپسی میں ایک روز بحری جہاز کے عرشے سے اس کا مسودہ ایسا گم ہوا کہ ہزار تلاش اور اعلانات کے باوجود نہ مل سکا اور اس کے بعد ایسی ہمت ٹوٹی کہ میں اسے دوبارہ نہ لکھ سکا اور یہی وجہ ہے کہ اس مجموعے میں حجاز کا سفر نامہ شامل نہیں ہے۔"[1]

(لو أنظر إلى نفسي، فحتى التفكير في كتابة الرحلة يبدو جنونا. وحسب قول والدي المحترم رحمة الله عليه، إذا طار ذباب أو بعوض من مكان إلى مكان، فمن يكتب رحلته؟ لكن عندما سافرت عام 1963م مع شقيقي المحترم السيد محمد ولي رازي للعمرة، ثار الشوق لكتابة الرحلة من أجل أن يتيح ذلك فرصة للكتابة عن الأماكن المقدسة في الحجاز والوقائع الرائعة المتعلقة بتاريخها. فبدأت أولا بكتابة تلك الرحلة بكل شوق ورغبة وتفصيل. ومن الحقيقة أنها كانت حكاية جميلة فزدتها تفصيلا، لكن لم يقدر لتلك الرحلة الإكمال والطباعة. وخلال تلك الرحلة فقدت مسودة تلك الرحلة على سطح السفينة ولم يمكن العثور عليها رغم تكرار الإعلان والبحث الشديد عنها. وهذا هو السبب وراء خلو هذه المجموعة من الرحلة إلى الحجاز.)

هذا وقد وردت أجزاء من تلك الرحلة في مذكراته التي تنشر في حلقات في مجلة "البلاغ" التي تصدر من دار العلوم كراتشي تحت عنوان "يادیں" (الذكريات). وقد بلغ فيها إلى سرد سيرته الذاتية من مولده حتى عام 1968. ولم تكتمل تلك السيرة حتى الآن. ومن هذا المنطلق يمكن القول إن أول رحلة كتبها محمد تقي العثماني هي رحلته إلى الحجاز لأداء مناسك العمرة.

يقول محمد تقي العثماني في مقدمة "**جہان دیدہ**" (عالم العين) " بدأت تلك الأسفار من مناطق في العالم الإسلامي تتعلق بها ذكريات ثمينة للتاريخ الإسلامي، وكان الشوق إلى زيارتها يترعرع في قلبي منذ أن بدأت قراءة أبجد التاريخ الإسلامي. ولهذا نشأت داعية إلى كتابة ما جرى في السفر إلى تلك المناطق لتكون سببا في عرض تلك الأوراق المفقودة من التاريخ وسوف تُرزق حلاوة ذكر شخصيات نابغة.

---

[1] عثمانی، محمد تقی، جہان دیدہ، طبع جدید، کراچی، مکتبہ معارف القرآن، 2012، مقدمة الكتاب

وبناء على ذلك كتبت الرحلة إلى العراق ومصر والجزائر والأردن وسوريا وتركيا وغيرها من البلاد مدفوعا بهذا الشعور واستمر نشرها في مجلة البلاغ في حلقات."[1]

ما هي الرحلات التي يرغب العثماني في تسجيلها؟

أشار محمد تقي العثماني في مقدمة المجموعة الثالثة لرحلاته وهي "سفر در سفر" (سفر في سفر) إلى سبب تدوين رحلاته. وهو لا يختلف عما كتب في بداية مجموعته الأولى للرحلات (عالم العين)، حيث يقول:

"مجھے اللہ تعالیٰ نے دنیا کے چھ کے چھ براعظموں میں کسی نہ کسی کام کے سلسلے میں جانے کے مواقع عطا فرمائے ۔۔۔۔۔۔ جس کی وجہ میں جہان دیدہ کے شروع میں لکھ چکا ہوں"[2]

(أتاح لي الله تعالى فرصا للسفر إلى القارات الست من العالم لعمل أو آخر. وبينها دول لم تُكتب الرحلات إليها. وسبب ذلك هو أنني اخترت لكتابة الرحلة أماكن إما أن تصبح سببا لذكر القامات الكبيرة في التاريخ الإسلامي أو أن يتم عن طريقها تقديم معلومات مفيدة إلى القارئ. وحيثما لم يرد شيء يذكر في ذهني، لم تنشأ أي داعية لكتابة الرحلة من أجل ذكر الوقائع الشخصية؛ لكن مع ذلك هناك دول كنت أريد أن أكتب الرحلات إليها؛ لكنني لم أتمكن من كتابتها بسبب كثرة أشغالي. على سبيل المثال كنت أشتاق إلى أن أكتب عن الأماكن التاريخية التي زرتها خلال السفر إلى أزبكستان؛ لكن لم أجد فرصة لذلك. والحسرة الكبرى هي أن الرحلة إلى الحجاز المقدس والتي كان يجب أن تكون مقدمة على كل رحلة أخرى، حرمت منها أيضا. وقد كتبت سبب ذلك في "**جهان ديده**" (عالم العين).[3]

وتتجلى من هذه الاقتباسات من كتب محمد تقي العثماني، أن رحلاته لم تجئ كمذكرات عفوية، بل جاءت بأهداف رفيعة قيمة، تتلخص في ذكر التاريخ،

---

[1] **جهان ديده**، مقدمة الكتاب

[2] عثمانی، محمد تقی، سفر در سفر، طبع جدید، کراچی، مکتبہ معارف القرآن، 2011

[3] ترجمة إلى العربية من مقدمة "سفر در سفر" (سفر في سفر). والترجمة للباحث.

وأوضاع المسلمين، والأمور التي تتطلب التفكير فيها لمواكبة العصر الحاضر والتماشي مع الشعوب والدول.

لماذا غيّر عنوان المجموعة الثانية من رحلاته؟

قام محمد تقي العثماني برحلات إلى عدة دول بعد طباعة المجموعة الأولى من رحلاته. وكان يكتب عن تلك الرحلات، مثلما فعل قبل ذلك، في مجلة "البلاغ" الشهرية التي تصدر في دار العلوم كراتشي. وعندما اجتمعت مادة المجموعة الثانية من الرحلات، اقتُرح عليه أن يسميها " **جہان دیدہ**" الجزء الثاني؛ إلا أنه رفض ذلك الاقتراح وغيّر عنوانها إلى "دنیا مرے آگے" (العالم أمامي) لسبب أدبي لطيف، حيث كتب في مقدمة الكتاب:

"نام تبدیل کرنے کی ایک وجہ یہ ہے کہ میں قاری کو اس بات کا پابند نہیں بنانا چاہتا کہ وہ دونوں کتابیں ایک ساتھ ضرور خریدے یا پڑھے۔ اور دوسری وجہ یہ بھی ہے کہ میری پہلی کتاب کا صحیح نام ''جہان دیدہ '' تھا (یعنی نون کے نیچے زیر تھا) مگر اس نام کو بہت سے پڑھنے والوں نے ''جہاں دیدہ'' اتنی کثرت سے پڑھا کہ میں دوسری کتاب کے ساتھ اس ظلم کا حوصلہ نہیں پاتا۔ جتنی بار میرے سامنے اس کتاب کو ''جہاں دیدہ'' (نون غنہ کے ساتھ) پڑھتے ہیں، اتنی ہی مرتبہ طبیعت پر تکدر کی چوٹ لگتی ہے۔ لہذا اس دوسری کتاب کا نام بدل دینے میں عافیت نظر آئی''۔[1]

(أحد أسباب تغيير العنوان هو أنني لا أريد أن أجعل القارئ ملتزما بابتياع الجزئين من الكتاب أو قراءتهما معا. والسبب الثاني أن الاسم الصحيح لكتابي الأول كان ''جہان دیدہ'' (بكسر النون) لكن الكثير من القراء قرأواها ''جہاں دیدہ'' بكثرة لا أجد معها الجرأة على ظلم الكتاب الثاني (بوضع نفس العنوان له). وبعدد المرات التي يقرأونه أمامي ''جہاں دیدہ'' (بنون الغنة)، تقع بذلك العدد ضربات التكدر على مزاجي. ولأجل ذلك رأيت العافية في تغيير الاسم.) انتهى.

من الجدير بالذكر أن الاسم الأول بكسر النون مركب إضافي باللغة الفارسية والأردية ومعناه "عالم العين"، بينما اللفظة الثانية تعني "الرجل الحكيم" أو "من رأى الدنيا". فكان قصده المعنى الأول وليس الثاني. كما أن هناك فرقا في نطق حرف النون

---

[1] عثمانی، محمد تقی، دنیا مرے آگے، ص:8، کراچی، مکتبہ معارف القرآن، طبع جدید، 1433ھ/2012م

بالأردية عندما تكتب منقوطة وبدون النقطة، حيث تلفظ الأولى مثل النون في اللغة العربية، بينما لا تنطق الثانية كالنون لكن تكون فيها غنة.

****

الباب الثاني: رحلات الشيخين

الفصل الأول: رحلات الشيخ العبودي
(الأسلوب والأفكار والموضوعات)

المدخل: رحلات العبودي إلى الاتحاد السوفييتي ودول وسط آسيا

من المعروف أن الشيخ محمد بن ناصر العبودي من أكبر الرحالين في التاريخ البشري. وهو يفوق كبار الرحالين؛ لأنه قد ارتحل إلى معظم أنحاء العالم، في فترة قصيرة، بفضل وسائل النقل الحديثة، بينما استغرقت رحلات الكثير من الرحالين في الماضي وقتا أكثر وزمنا أكبر من ذلك؛ إلا أن رحلاتهم لم تشمل تلك المساحة الكبيرة وعدد المناطق التي اجتازها العبودي. وقد أشار إلى ذلك بنفسه، حيث يقول:

"ولمناسبة الحديث عن كثرة كلامي – ولا أقصد بذلك مدحه أو ذمه، لأنه موكول للقراء الكرام- أقول: إن كتبي التي كتبتها في فن الرحلات قد بلغت 151 كتابا قبل هذا الكتاب، طبع منها حتى الآن 120 كتابا، ولدي كتب أخرى جاهزة للطبع، حتى إنها مكتوبة على الناسوخ.... وعلى هذا الاعتبار أقول – ولا فخر- إنني أكثر من كتب في أدب الرحلات المقرون ببيان أحوال المسلمين وحاضرهم في بلادهم. وإنني لا أعرف من كتب بالعربية منذ أن بدأ التدوين بها مثل هذا المقدار من الكتب في هذا الفن، بل لا أعرف من كتب نصف هذه الكتب من المؤلفين الأولين ولا الآخرين ممن كتبوا بالعربية".[1]

رحلات العبودي إلى الاتحاد السوفييتي و روسيا الاتحادية:

قام الشيخ محمد بن ناصر العبودي بثلاث رحلات إلى الاتحاد السوفييتي. وكانت أولاها قبل سقوط النظام الشيوعي، في عام 1406هـ الموافق 1986م؛ لكن قد طرأ على النظام الشيوعي بعض التغيرات. وكان ميخائل غورباتشوف قد تولى منصب الأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي، خليفة لـ ليونيد بريجنيف. والأمين العام للحزب الشيوعي هو يكون رئيسا للدولة والحكومة. وكانت تلك الرحلة تلبية لدعوة من الإدارة

---

[1] العبودي، محمد بن ناصر، إلى الشرق الأقصى الروسي، الرياض، دار الثلوثية، ط1، 1433هـ/2012م، ص 24-23:

الدينية في الاتحاد السوفييتي. وسنحت للعبودي فرصة لزيارة العديد من المناطق في الاتحاد السوفييتي، برفقة القائمين على الإدارة الدينية لمختلف الجمهوريات التابعة للاتحاد السوفييتي.

وقام بتدوين تلك الرحلة في أربعة كتب مستقلة. وهي:

- في البلاد المسلمين المنسيين (بخارى و ما وراء النهر)
- جمهورية آذربيجان السوفييتية
- بلاد الداغستان
- زيارة للمسلمين في الاتحاد السوفييتي

والرحلة الثانية للعبودي إلى الاتحاد السوفييتي كانت عام 1410هـ/1990م أي قبل فترة قصيرة من سقوط الاتحاد السوفييتي واستقلال جمهوريات وسط آسيا ومناطق أخرى من النظام الشيوعي الذي احتلها بعد عام 1917م. وشملت هذه الرحلة جمهورية أزبكستان و خوارزم و وادي فرغانة و جمهورية تركمنستان و جمهورية تاجكستان.[1]

والرحلة الثالثة للعبودي إلى الاتحاد الروسي كانت عام 1420هـ/1999م، بعد مرور نحو تسع سنوات على سقوط النظام الشيوعي. وكان أثر ذلك ملموسا على أوضاع البلاد والعباد في روسيا. وزار خلالها سيبيريا ومناطق شرقية وشمالية من الاتحاد الروسي أو روسيا الاتحادية.

كيفية تقسيم الجمهوريات في روسيا الاتحادية:

بالإشارة إلى التقسيم السياسي والإداري لروسيا الاتحادية، ذكر العبودي أن روسيا الاتحادية تتألف من 169 وحدة سياسية ذات استقلال داخلي محلي. وأن العادة عندهم – الروس- أن السكان إذا كانوا من أصل واحد أي كيان سابق على إلحاقهم بروسيا، فإنهم يخصصون لهم جمهورية محلية مثل (تتارستان) و(الشيشان) والأنقوش والأديغي الذين من الشركس والياقوتيين الذين يقطنون أقصى الشمال في بلاد هي أقسى بلاد روسيا بردا ولكنها ذات معادن كثيرة.

---

[1] انظر، العبودي، محمد بن ناصر، يوميات آسيا الوسطى، ط1، 1415هـ/1995م ص :5-8

وإذا كان الشعب صغيرا وبجانبه شعب آخر مثله ذو كيان ولكنه صغير العدد مثل القرتشاي الذين يتكلمون التركية والشركس الذين يتكلمون الشركسية جعلوا لهم جمهورية صغيرة مشتركة مثل (قرتشاي شركس). أما إذا كان الإقليم لا يرجع إلى أصل خالص لطائفة ذات أصل عنصري واحد، فإنهم يسمونه إقليما مثل (إقليم كمشاتكا) وإقليم (خباروفسك).[1]

ولا يرضى العبودي بترجمة بعض المترجمين كلمة إقليم إلى (محافظة)، مبررا بأن كلمة المحافظة صارت تدل في بعض البلدان العربية على الوحدات الصغيرة أو التي هي أصغر من المدينة، مثل محافظة الطائف في إمارة مكة وهكذا؛ لكن الإقليم لا يشتبه بذلك. وهو مصطلح عربي قديم ورد في اسم كتاب المقدسي البشاري الذي عنوانه: (أحسن التقاسيم إلى معرفة الأقاليم). والإقليم هو منطقة من المناطق سواء أكانت مستقلة أم تابعة لمملكة من الممالك أو سلطة من السلطات.[2] وهنا يتجلى علم العبودي بالمصطلحات القديمة ودقة فهمه للكلمات ومدلولاتها.

كتب العبودي عن الرحلات إلى الاتحاد السوفييتي و روسيا الاتحادية:

ألف العبودي أكثر من 32 كتابا عن رحلاته إلى الدول التي كانت جزءا من الاتحاد السوفييتي في وقت ما. واستقلت بعد سقوطه عام 1991. وبما أنه لم يكن يمكن إلقاء الضوء على تلك الرحلات كلها في بحث واحد، اخترنا منها كتابين فقط لدراستهما ومقارنتها مع رحلات الشيخ محمد تقي العثماني، كما أشرت إلى ذلك في المقدمة. وهما "في بلاد المسلمين المنسيين – بخارى و ما وراء النهر "، و"يوميات آسيا الوسطى". وسنعرض الكتاب الأول في بحث، بينما سنتناول الكتاب الثاني في مبحثين إن شاء الله. وعناوين جميع رحلات العبودي إلى تلك البلاد كما يلي:

1. في بلاد المسلمين المنسيين : بخارى و ما وراء النهر ، مطابع الفرزدق التجارية عام 1412هـ/ 1991م.

---

[1] انظر، العبودي، محمد بن ناصر، إلى الشرق الأقصى الروسي، الرياض، دار الثلوثية للنشر، ط1، 1433هـ/2012م، ص:149

[2] انظر، نفس المصدر، ص:149

2. بلاد الداغستان، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1413هـ.
3. الرحلة الروسية، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1414هـ.
4. جمهورية آذربيجان، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1413هـ/1992م.
5. يوميات آسيا الوسطى، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1414هـ.
6. بلاد القرم، دار القبلة، جدة
7. حديث قازاقستان، دار القبلة، جدة
8. حديث قيرغيزستان، دراسة في ماضيها ومشاهدات ميدانية، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، 1418هـ/1997م
9. من بلاد القرتشاي إلى بلاد القبرداي (من سلسلة الرحلات القوقازية)، مطابع التقنية للأوفست، الرياض، 1420هـ 2000م.
10. بلاد التتار و البلغار (من سلسلة رحلات الشمال)، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، 1420هـ/1999 م
11. بلاد الشركس: الإديغي، مطابع التقنية، الرياض، 1420هـ/1999.
12. مواطن إسلامية ضائعة مشاهدات من مولدوفا و أرمينيا، مطابع التقنية، الرياض، 1420هـ/1999 م
13. ذكريات من الاتحاد السوفييتي، مطابع النرجس، الرياض، 1420هـ /2000م
14. إقليما سمارا وأستراخان (من سلسلة الرحلات في جنوب روسيا)، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، 1420هـ/ 2000م.
15. العودة إلى ما وراء النهر: جولة في آسيا الوسطى، وحديث عن شؤون المسلمين، مطابع المسموعة، الرياض، 1421هـ/ 2001م.
16. بلاد العربية الضائعة (جورجيا)، مطابع العلا، الرياض، 1423هـ/2002م.
17. شمال سيبيريا (من سلسلة الرحلات السيبرية)، مطابع النرجس، الرياض، عام 1424هـ / 2004م.
18. إقليم أورنبورغ (من سلسلة الرحلات في جنوب روسيا)، مطابع العلا، الرياض، عام 1424هـ/2003م

19. من روسيا البيضاء إلى روسيا الحمراء (من سلسلة الرحلات في القارة الأوروبية)، مطابع العلا، الرياض، 1424هـ/2003م

20. في شمال شرق آسيا، رحلة في سيبيريا ومنغوليا، مطابع العلا، الرياض، عام 1428هـ / 2008م

21. خلال أوكرانيا بحثا عن المسلمين، (من سلسلة الرحلات في بلاد الشمال) مقال في زيارة منطقة الأورال، (من سلسلة الرحلات في وسط روسيا)، دار الطرفين للنشر والتوزيع، الطائف، عام 1429هـ /2009م.

22. جمهوريات القبائل الروسية (رحلات في جنوب روسيا)، مكتبة الرشد، الرياض عام 1429هـ /2009م.

23. في غرب سيبيريا، مشاهدات وأحاديث في شئون المسلمين (الرحلات السيبيرية)، مكتبة الرشد، الرياض عام 1429هـ /2009م.

24. إلى الشرق الأقصى الروسي (الرحلات الروسية)، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض 1433هـ / 2013م

25. سفرة إلى تاجيكستان، دار الثلوثية، الرياض، 1434هـ /2013

26. عود إلى أوزباكستان بعد عشر سنين، دار الثلوثية للنشرة والتوزيع، الرياض، 1435هـ /2014م.

27. العودة إلى داغستان (مخطوط)

28. جمهورية قازاغستان: ملخص تاريخي ومشاهدات ميدانية (مخطوط)

29. إلى تاجيكستان ثانية (مخطوط)

30. قازاغستان بعد أوزبكستان وتاجيكستان (مخطوط)

31. مقال في السفر إلى منطقة الأورال (مخطوط)

32. شرق سيبريا (مخطوط)

الأوضاع التي قام فيها العبودي برحلته إلى الاتحاد السوفييتي:

من المعروف أن الاتحاد السوفييتي كان قائما على المبادئ الشيوعية والاشتراكية. وكان ذلك النظام قائما حتى عام 1991م، والعالم قبل ذلك كان متوزعا بين القطب

الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية والقطب الشيوعي بقيادة الاتحاد السوفييتي الذي كانت تسميته الرسمية "اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية".

وبما أن الشيوعية كانت تحارب الأديان كلها ولاسيما الإسلام، فقد ساء أوضاع المسلمين في دول آسيا الوسطى التي كانت مهدا للعلوم والفنون في عصر ما، إلى درجة أنهم نُسيوا ولم يكن يُسمع عنهم شيء لعدة أسباب، وعلى رأسها انقطاع الصلات بينهم وبين الشعوب الإسلامية الأخرى، بسبب الأنظمة السياسية المتبائنة التي كانت الدول المختلفة تخضع لها.

وأشار العبودي إلى أنه كان يستمع إلى كلمات بخارى، و ما وراء النهر والأسامي الأخرى من تلك المناطق التي أنجبت كثيرا من العلماء الأفذاذ في العلوم الإسلامية ولاسيما الحديث والرجال والأدب. وعلى أساس تلك المعرفة بها، كان يتمنى زيارتها. وقد سنحت له فرصة لذلك. فزارها وكتب عنها ونقل عنها المعلومات التي لم يكن يعرفها الناس عنها في عدد من كتبه.

وكانت منطقة ما وراء النهر، منطقة مزدهرة عامرة، عريقة في الإسلام، حتى جاء التتار (المغول) ففعلوا بها أفاعيل ولم يتركوا في مدنه ظلا مقيلا. ثم تراكمت عليها النكبات إلى أن نبغ تيمور لنك في سمر قند، فغزا مناطق شاسعة ووصل إلى الشام وسفك الدماء وخرب البلاد.[1]

خلفية رحلة العبودي إلى بلاد ما وراء النهر:

كتب العبودي أن الاتحاد السوفييتي قطع صلات المسلمين من المناطق الخاضعة له مع الدول الأخرى إلى درجة أن الاتحاد كان يعترف رسميا أن هناك ثلاثين مليون نسمة من المسلمين يعيشون في أرجاء الاتحاد السوفييتي، بينما كانت تشير إحصائيات أخرى إلى أن عددهم أكثر من ستين مليون نسمة؛ إلا أن الحجاج الذين كانوا يزورون الديار المقدسة كان عددهم لا يبلغ حتى العشرين أيضا. وأعضاء وفد الحجاج من الاتحاد السوفييتي أيضا يكونون من الرسميين المنتفعين.

---

[1] انظر، العبودي، محمد بن ناصر، في بلاد المسلمين المنسيين، بخارى وما وراء النهر، ط 1، 1412هـ / 1991م، بدون اسم المكتبة، ص : 9-13

وذكر العبودي أنه عندما كان أمينا عاما للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، زاره وفد الحجاج من الاتحاد السوفييتي، في مكتبه وتحدث في شؤون مختلفة، إلى أن قال إن المسلمين في الاتحاد السوفييتي يتمتعون بحرية دينية وأنهم يبنون مساجد. فسألهم العبودي عن عدد المسلمين في الاتحاد السوفييتي، فقالوا ثلاثون مليون نسمة، وكان وفد الحج السوفييتي يتكون من 13 شخصا فقط. فسأل العبودي لماذا عدد الحجاج من الاتحادي السوفييتي قليل إلى هذه الدرجة، بينما مناطق فقيرة لا يكون فيه المسلمون مليون نسمة، يحج منهم ألفان؟ فلم يحر للوفد جواب.[1]

في هذا الوضع تلقت رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة دعوة رسمية من مدير العلاقات الخارجية للإدارات الدينية في الاتحاد السوفييتي ورئيس الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان شمس الدين بن ضياء الدين بابا خان، لإيفاد وفد لزيارة الاتحاد السوفييتي، مشيرا إلى أن الإدارة الدينية ستُسر بتلك الزيارة. فتمت تلبية تلك الدعوة؛ إلا أن العبودي كان يرى أن السلطات الروسية ستسعد بتلك الزيارة، وستستعملها لغرض الدعاية وإعادة علاقاتها الدبلوماسية مع المملكة العربية السعودية؛ لأن العلاقات بين الجانبين كانت مقطوعة، بسبب الحرب الباردة، وإن لم يعلن الجانبان صرمها رسميا.[2] وتمت تلبية تلك الدعوة، على الرغم من ذلك التحفظ، من أجل الاطلاع على أوضاع المسلمين، وهو غرض نبيل.

بدأت تلك الرحلة من مدينة عمان عاصمة الأردن في 6 رجب 1406هـ الموافق 15 أبريل 1986م. وأخذ العبودي في تسجيل يوميات تلك الرحلة. وأشار إلى أن هذا دأبه خلال زيارة البلاد التي لا تتوفر عنها المعلومات الكافية. وأن مذكراته التي دونها خلال عشرين عاما، نتجت عن 49 كتابا في الرحلات.[3]

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص :10-11

[2] انظر، نفس المصدر، ص :12-13

[3] انظر، نفس المصدر، ص:14

كيفية الحصول على المعلومات:

ومن المعروف أن وسائل الإعلام الحالية لم تكن متاحة في الثمانينات من القرن المنصرم، إذ لم تكن هناك الشبكة الدولية، ولا القنوات التلفزيونية الفضائية الإخبارية، ولا وسائل التواصل الاجتماعية، بل كانت الجرائد اليومية والمجلات والقنوات التلفزيونية والإذاعات الرسمية هي مصدر المعلومات. والرقابة عليها في البلدان الشيوعية كانت شديدة جدا، إذ لم يكن يمكن طباعة أي شيء قبل عرضه على مشرط التحرير الرسمي.

وجاءت رحلة العبودي إلى الاتحاد السوفييتي في ظل هذه الظروف، إضافة إلى كون زيارته رسميا. وهو أشار إلى صعوبة الحصول على المعلومات الحقيقية. وكتب أن "الزيارة كانت رسمية مرسومة السير، محددة الوقت وحتى المعلومات التي تحصل عليها بالاطلاع الشخصي أيضا محدودة.... اجتهدنا في الاستخبار عما لم نشاهد، وقسنا على ما شاهدناه".[1] وبهذا الأسلوب جمع المعلومات المقدمة في كتابه "في بلاد المسلمين المنسيين" قشة قشة.

سبقت هذه الرحلة تطبيق سياسة "إعادة البناء والانفتاح" (بيريسترويكا وكلاسنوست)، التي نادى به غورباتشوف. وهذه السياسة كانت تهدف إلى انفتاح وتقديم متنفس للشعب، في الأجواء القمعية التي عاشتها شعوب الاتحاد السوفييتي ولاسيما المسلمون منهم لزمن طويل. وأثرت هذه الحركة على وضع المجتمع الروسي على سبيل العموم وعلى أوضاع المسلمين على سبيل الخصوص، إذ تم السماح لهم خلال تلك الحركة باستعادة بعض المساجد التي كانت الحكومة صادرتها، إضافة إلى السماح بإنشاء مساجد جديدة. كما أن تلك الحركة اعترفت بضرورة تحرير الاقتصاد وفتح المجال السياسي أمام المرشحين من خارج الحزب الشيوعي الاشتراكي. وهي

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص:16

كانت بداية لنهاية النظام الشيوعي في الاتحاد السوفييتي. وكان غورباتشوف آخر أمين عام للحزب الشيوعي حكم الاتحاد السوفييتي.[1]

سنعرض كتابين من رحلات العبودي إلى الاتحاد السوفييتي ودول وسط آسيا، في ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: في بلاد المسلمين المنسيين، بخارى و ما وراء النهر

كتبت من قبل أن "في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى و ما وراء النهر "، أول كتاب للعبودي عن رحلاته إلى الاتحاد السوفييتي. وقام بتلك الرحلة في أبريل 1986م. ويقع هذا الكتاب في 274 صفحة من الحجم المتوسط. وطُبع لأول مرة عام 1412هـ/1991م. ولم يُكتب عليه اسم الدار التي قامت بنشره.

قدم لهذا الكتاب بابكر درويش، مدير مكتب رابطة العالم الإسلامي في أديس أبابا. وألقى ضوءا على ضرورة معرفة أوضاع المسلمين في الاتحاد السوفييتي الذي وصفه بأنه سجن كبير. وأشار إلى أنه "شيء صعب أن يرسم الإنسان صورة حقيقية لأوضاع المسلمين في الاتحاد السوفييتي، ليس فقط بسبب القهر وأجواء الإرهاب التي كان يعيشها الناس داخل هذا السجن الكبير من عصر القياصرة وحتى عصر الانفتاح الحالي .... بل هي بقدر كبير تتركز في الامتداد الشاسع لأرض الاتحاد السوفييتي الذي يحتل سدس اليابس من الكرة الأرضية واقعا وأكثر من سدسيها بشكل نظري..."[2]

بعد المقدمة، هناك تصدير كتبه المؤلف محمد بن ناصر العبودي، وأشار فيه إلى رغبته في زيارة بلاد ما وراء النهر، ولمحة عن تاريخ تلك البلاد العريقة، والإحصائيات عن عدد المسلمين فيها وفق المصادر الرسمية الروسية والاستطلاعات

---

[1] بيريسترويكا وكلاسنوست (Perestroika, Glasnost): هي حركة إصلاحية داخل الحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي، خلال أواخر الثمانينات من القرن المنصرم. وكانت تهدف إلى إصلاحات اقتصادية واجتماعية. وتم السماح بتعدد الأحزاب ومشاركة المرشحين من خارج الحزب الشيوعي في الانتخابات. بدأت تلك الحركة عام 1985م واستمرت حتى 1991م بقيادة ميخايل غورباتشوف. راجع للتفاصيل:
https://www.britannica.com/place/Russia/The-Gorbachev-era-perestroika-and-glasnost
بتاريخ 2023/12/7م الساعة 12.04 ليلا، بتوقيت باكستان

[2] في بلاد المسلمين المنسيين، ص:5

الأخرى، والوضع المكبوت الذي كان يعيشه المسلمون في الاتحاد السوفييتي. وذكر العبودي في "تصدير" أن سبب تلك الزيارة كان الاطلاع على أوضاع المسلمين وتقديم مساعدة لهم من على رصيف رابطة العالم الإسلامي. وهو كان رئيس الوفد الذي تضمن خمسة أعضاء آخرين غيره. وطاروا إلى موسكو عاصمة الاتحاد السوفييتي من عَمّان[1] عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية.

بعد "تصدير"، يبدأ المؤلف في كتابة يومياته حسب التاريخ. ويضع عنوانا لكل يومية، إضافة إلى وضع عناوين جانبية للإيضاح، كلما تستجد الحاجة إليها. وعلق المؤلف على النظام السوفييتي ضمن عنوان "من عمان إلى موسكو".

زار المؤلف خلال هذه الرحلة عدة مدن من الاتحاد السوفييتي من موسكو وطشقند، وسمر قند، و خوارزم، وخرتنك، وأوركنج، وبخارى ومناطق أخرى.

وقد سلط الضوء على جغرافية بلاد ما وراء النهر أو تركستان الغربية، وتاريخها وثرائها في الماضي، إضافة إلى تاريخها الإسلامي العريق والاحتلال السوفييتي لها. وانتهى الكتاب بتعليق على النظام السياسي في جمهوريات تركستان الغربية والإسلام والمسلمين فيها، مع لفت الانتباه إلى عهد "إعادة البناء" (بيريسترويكا). وإليكم أهم ما ورد في هذا الكتاب.

طلب زيارة أكبر عدد ممكن من المدن في الجمهوريات الإسلامية:

أشار العبودي إلى أنهم طلبوا زيارة أكبر عدد ممكن من المدن في الجمهوريات الإسلامية داخل الاتحاد السوفييتي من بلاد بخارى و ما وراء النهر، من بخارى بلدة الإمام البخاري وترمذ بلدة الإمام الترمذي و خوارزم التي هي خيوة في العصر الحاضر، وفرغانة التي كانت منتهى أرض الإسلام جهة الشمال الشرقي، كما كانت (غانة) هي منتهى أرض الإسلام فيما يقابل ذلك في الجنوب الغربي. وقد وردت تلك الكلمات في مقامات بديع الزمان الهمذاني في القرن الرابع الهجري؛ لكن العبودي يؤكد أن بلاد

---

[1] ينبغي الانتباه إلى أن عمان اسم لمدينة ودولة في العالم العربي. والأولى عمان بفتح العين وتشديد الميم، وهي عاصمة الأردن، والأخرى عمان بضم العين وفتح الميم، وهو اسم لسلطنة عمان التي عاصمتها مدينة مسقط. والقراء في باكستان عادة لا يفرقون بين الاسمين. (الباحث)

الإسلام لم تنته بفرغانة، بل بعدها كانت مملكة سيبير الإسلامية التي قضى عليها الروس عام 1580م.[1]

ولا تفوت الإشارة إلى أن التأشيرات – ويسميها العبودي سمات الدخول- للدول الشيوعية كانت تحدد المدن التي يمكن لأي زائر زيارتها. وهذا الأمر معمول به في مختلف البلاد حتى الآن على الرغم من الانفتاح الذي حصل في مجال التأشيرات في الوقت الحالي. ولا تزال باكستان والهند تعملان بهذا النظام في التأشير، بينما لا تحدد معظم الدول المدن في التأشيرات، بل السائح يكون حرا في زيارة البلاد كما يشاء إذا تم السماح له بالدخول إليها.

تحقيق الأسماء الحديثة والقديمة:

بالإشارة إلى كلمة (غانة) ينبه العبودي إلى أن غانة القديمة، ليست جزء من غانة الحالية في أفريقيا التي عاصمتها (أكرا)، وكان اسمها قبل الاستقلال (ساحل الذهب)، وسماها زعماء الاستقلال (غانة) تيمنا بمملكة غانة القديمة التي كانت قائمة مزدهرة، في وقت كانت فيه القارة الأوروبية تتقاسمها إمارات متبائنة. وتقع عاصمة غانة القديمة على ضفتي نهر السنغال الذي كان يسميه العرب (نيل غانة).[2] وهذه المعلومة تدل على سعة معرفة العبودي وتعمقه في جغرافية الدول المختلفة. وأوضح العبودي أنهم تمكنوا من زيارة مدينة طشقند وسمر قند ومدن أخرى؛ لكنه لم ينس هنا أيضا الإشارة إلى أن (طشقند) أو (طاشقند) هي بلاد (الشاش) القديمة. وهكذا يدل العبودي إلى أسماء قديمة وحديثة لمدن مختلفة ليتمكن القارئ من ربط الماضي بالحاضر، أو ليعرف المناطق الجغرافية القديمة بأساميها الحديثة.[3] وهذا الأمر لا يسهل إلا على من يكون له إلمام بالتاريخ وبالجغرافية الحالية؛ لأن القراءة السطحية عادة لا تساعد في ذلك.

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص :14-15

[2] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص:15

[3] انظر، نفس المصدر، ص: 15

وصف الطائرة التي سافر بها العبودي من عمان إلى موسكو:

من أهم سمات كتابات العبودي أنه وصاف لما يشاهد، وما يواجه، وما يسمع. وقد وصف وصفا دقيقا الطائرة التي أقلعت بهم من عمان إلى موسكو، فيقول:"غادرنا مطار عمان في الساعة الثالثة إلى عشر دقائق بتوقيت الأردن على طائرة تابعة لشركة (أيروفلوت) السوفييتية ويسمونها هنا الروسية. ... والطائرة من طراز (ليوشن 154) ذات محركات ثلاثة كلها في مؤخرتها، وتشبه في مظهرها الطائرة الأمريكية (د س 9 أو بوينج 727). وفي هذه الطائرة درجة أولى تتألف من صفين فيهما ثمانية مقاعد والباقي من مقاعد الطائرة مقسمة إلى قسمين أحدهما قبل الآخر، ولا أدري بما يسمونهما".[1]

كتب العبودي أن الدرجة الأولى في الطائرة الروسية كانت أقل من درجة رجال الأعمال في الطائرات العالمية والخدمة فيها أضعف من ذلك بكثير. ولم تكن في جيوب المقاعد في الطائرة شيء عن نوع الطائرة أو من الأوراق المتعلقة بالسلامة في حالة الطوارئ، كما يكون في الطائرات العالمية. ولم تكن بها إلا نشرة باسم (أخبار موسكو) ولها نسخة بالعربية أيضا.

ولم ينس العبودي وصف المضيفة والضيافة في تلك الطائرة الروسية التي توجهت من عمان إلى مطار لارنكا في قبرص. فكتب: "كانت المضيفة وهي روسية أصيلة، يبين ذلك من استدارة وجهها وحمرة في لونها وغلظ في تقاسيم خلقها. قد قدمت الشراب في أكواب صغيرة قبل الإقلاع. وكان فيها خمر لم يقربها من ركاب الطائرة أحد إلا الراكب الروسي الوحيد في الأولى. وفيها ماء معدني قليل وعصير ليمون قليل أيضا. ثم كانت الضيافة بعد الإقلاع فنجانا من الشأي أو القهوة وقليلا من البسكويت وحبة من الحلوى (الشيكولاتة). عندما عفتها أصرت المضيفة أن آخذها قائلة: إنها (قود قود) (good, good) أي جيدة، فأخذتها".[2] وهذا الوصف الدقيق لنوع الطائرة وما جرى فيها، إذا يدل على شيء، فهو يدل على اهتمام العبودي بكل صغير وكبير يصادفه خلال رحلاته. وهذا ما سنراه كثيرا في الصفحات الآتية أيضا.

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص: 17

[2] نفس المصدر، ص: 23-24

الفرق بين الروس والسوفييت:

أشار العبودي إلى أن هذا الكتاب يتحدث عن مناطق في الاتحاد السوفييتي، ويختلف المتحدثون عن تلك المناطق في البلاد العربية، فمنهم من يسميها بلاد الروس وآخرون يسمونها بلاد السوفييت. وعلى ذلك يسمون أهلها بالروس أو بالسوفييت، والبعض لا يفرقون بين التسميتين؛ إلا أن الفرق بينهما كبير؛ لأن البلاد الروسية تعني بلاد الجنس الروسي أي الشعب الذي ينتمي إلى العنصر الروسي. وبلاده تقع في الشمال الغربي من الاتحاد السوفييتي. وكانت منطقة محدودة بالنسبة إلى الاتحاد السوفييتي. وكانت تخضع لنفوذ المسلمين البلغاريين الذين أسماهم الروس بالتتار لأن بعضهم جاؤوا إلى هذه المنطقة مع هولاكو خان حفيد جنكيز خان. ولحقتهم هذه التسمية حتى الآن. وتسمى منطقتهم جمهورية تتارستان وعاصمتها (قازان)؛ إلا أن أوائلهم كانوا موجودين في تلك المنطقة قبل جنكيز خان وهولاكو خان بقرون. وهم الشعب البلغاري ولا ينحصرون في جمهورية تتارستان فقط، بل موجودون في مناطق أخرى من الاتحاد السوفييتي أيضا.[1]

واتضح من هذا الكلام أن الروس شيء والسوفييت شيء آخر. والسوفييت تستوعب جميع الشعوب التي تسكن الاتحاد السوفييتي بينما كلمة الروس لا تعني سوى الروس. ويضيف العبودي:

"إنك لو قلت لأحد الأشخاص من سكان جنوب الاتحاد السوفييتي أو وسطه: يا روسي، لاستنكر ذلك. وإذا كان مسلما فإنه يستفظعه لأن معنى ذلك كمعنى من يقول له يا كافر. ثم إن الجميع من الشعوب التي تقطن الاتحاد السوفييتي هي تكره سيطرة العنصر الروسي التامة عليه في الوقت الحاضر، حتى المسيحيون من غير العنصر الروسي يكرهون ذلك. ولكن الجميع مجبرون حتى على عدم الشكوى لأن الحكم الشيوعي للاتحاد السوفييتي هو صارم، بل عاتٍ والعقاب أشد صرامة وعتوا. ولذلك يقبل سائر الشعوب التي تقطن الاتحاد السوفييتي أن يقال لهم سوفييت، رغم كونهم يكرهون ذلك، ويعرفون

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص :18-19

أنه ذو معنى فارغ من حقيقة الشورى، غير أنه أهون وقعا في نفوسهم من نعتهم بأنهم من الروس".[1]

كتب العبودي أن الشعب البلغاري – التتري كما يسميهم الروس– أكثر منطقة نهر الفولغا لهم، مشيرا إلى أنهم يسمون الفولجا بلغتم نهر (إيدل)، والعرب القدماء كانوا يسمونه نهر (إيتل) بالتاء بدلا من الدال، ويأسف العبودي على استخدام كلمة (الفولجا) بدلا من إيتل، معلقا على ذلك بقوله: "ولو كنا نقرأها لأسميناه بإيتل ولم نسمه بنهر الفولجا".[2]

الاتحاد السوفييتي ووضع الجمهوريات المستقلة فيها:

كتب العبودي أن كلمة السوفييت تعني الشورى. والاتحاد السوفييتي يعني الاتحاد القائم على الشورى؛ لكنه يرى أن الشورى لم تكن لها وجود في النظام السوفييتي الذي حل محل النظام القيصري الروسي. وأشار إلى أنه عندما قامت الدولة الشيوعية، أرادت التقرب من الشعوب التي تقطن القيصرية الروسية، فأظهرت أن الشعب الروسي نفسه كان مقهورا في حكم القياصرة؛ لذا فإنهم ثاروا عليها من أجل الشعوب التي تقيم في القيصرية الروسية كلها.

وللبرهنة على ذلك الادعاء قاموا بتقسيم البلاد إلى جمهوريات صغيرة حسب قوميات السكان أو لغاتهم. وشكلوا مناطق داخل تلك الجمهوريات وسموها جمهوريات مستقلة ذاتية الحكم أو جمهوريات اتحادية؛ إلا أن كلها لم تكن أكثر من أقاليم محكومة من قبل الشيوعيين، مثلما كانت القياصرة تحكمها. وخلعوا على النظام الجديد اسم الاتحاد السوفييتي أي الاتحاد القائم على الشورى، و جمهورية سوفييتية

---

[1] نفس المصدر، ص:22

[2] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص:19، وهنا أقول إن الجيم في الفولجا، هي في الأصل الكاف الفارسية وتنطق بين الكاف والغين. ولذلك تُكتب كلمة الفولجا عادة الفولغا؛ لأن الغين أقرب إلى النطق الصحيح من الجيم. وتختلف آراء خبراء اللغة في هذا المجال. كما أن استبدال الدال بالتاء في كلمة (إيدل) و(إيتل) أيضا بسبب اختلاف اللهجات في اللغة التركية؛ لأن الدال في كثير من الكلمات التركية تُستبدل بالتاء. على سبيل المثال تعني كلمة (داغ) الجبل ومنها كلمة (داغستان) أي بلاد الجبال، وهي تنطق بلهجة أخرى (تاغ) مثل كلمة (موز تاغ)، وهو اسم لسلسلة جبال معروفة في تركستان الشرقية، وهكذا (دوغرا) و(توغرا). (الباحث)

معناها جمهورية حكمها شورى بين أهلها؛ لكن هذا المدلول اللفظي لم يكن مطبقا، بل الشورى تنحصر بين الحاكمين الشيوعيين، بغض النظر عن المحكومين.

أشار العبودي إلى أن النظام السوفييتي لم يكن أكثر من نظام الأقلية النافذة على الشعب؛ لأن الشيوعيين هم أعضاء الحزب الشيوعي، وهم يحكمون البلاد. وعندما كان عدد سكان البلاد يبلغ 250 مليون نسمة، كان عدد الشيوعيين بينهم وفق إحصائيات رسمية 15 ملايين نسمة. وعندما ارتفع عدد السكان إلى 272 مليون نسمة، بلغ عدد أعضاء الحزب الشيوعي19 مليون نسمة فقط. وهذه النسبة أقل من 7% من سكان البلاد. وهذا يعني أنه لا يوجد أي شورى. وعلى فرض الشورى بين أعضاء الحزب الشيوعي، فإنها أيضا تنحصر في اللجنة المركزية لأن الأشخاص واللجان الأخرى لا تقدر على إقرار أي موضوع بدون موافقة اللجنة المركزية.

وتعليقا على هذه النسبة المتفاوتة بين أعضاء الحزب الشيوعي وسكان البلاد، يرى العبودي أنه لو قيس هذا الأمر على محك المنطق، فيمكن القول إن أكثر من نصف أعضاء الحزب الشيوعي أيضا ليسوا شيوعيون عقائديا، بل هم ممن انضم إلى الحزب لمصالح ومناصب؛ لأن المناصب الرسمية تظل حكرا على أعضاء الحزب الشيوعي. ويرى أن الشورى – مدلول كلمة سوفييت- لم تُطبق في أي وقت، إذ لم يحدث أي استفتاء شعبي حول أي مسألة هامة، فضلا عن أي استفتاء حول نظام الحكم أو المسائل الأساسية للدولة. ولا بد للاستفتاء أن يكون حرا نزيها؛ لأن الاستفتاءات المزورة لا تسمن ولا تغني من جوع.[1]

جزيرة قبرص من الفضاء، ووصف الضيافة وحمّام الطائرة:

كتب العبودي أنه لا معنى لكلمة الشاطئ أو الساحل عند الحديث عن قبرص؛ لأنها جزيرة صغيرة، وتبدو من الفضاء كبساط مفروش على البحر. وازدادت صغرا بعد انقسامها إلى قبرص اليونانية والتركية، مضيفا أن مطار لارنكا هو المطار الرئيس لقبرص التي تعتبر نفسها جزيرة سياحية وتسهل لذلك كل ما استطاعت. وأن

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 19-22

البضائع المعروضة في المطار وهي معفاة عن الضرائب؛ إلا أن أسعارها أغلى منها في سوق المملكة العربية السعودية.[1]

أقلعت الطائرة من لارنكا متوجهة إلى موسكو، والمسافة بين لارنكا وموسكو 2900 كلم، تقطعها الطائرة في ثلاث ساعات ونصف الساعة. وكان الإعلان باللغة الروسية والإنجليزية. "والضيافة كانت صحنا صغيرا من السلطة، وآخر فيه بعض الخضروات المطبوخة وقليل من البطارخ وهو الكافيار الروسي الشهير الذي هو بيض سمك خاص يوجد في بحر قزوين. وصحن آخر فيه لحم بقري غير طازج، وقليل من الأرز، ثم الجبن والفاكهة التي أخذوها من قبرص".[2]

ووصف العبودي حمام الطائرة بأدق وصف، حيث كتب:"دخلت حمّام الطائرة الذي هو خاص للدرجة الأولى. فوجدته في مستوى الحمام في بيت الفلاح الجيد أو الحضري الفقير. فالحوض من المعدن غير اللامع، والمرحاض خشن نوعا ما، والورق قاسي اللمس. وهناك فوطة معلقة بجانب الحوض ليمسح فيها الركاب أيديهم بصورة جماعية. أي كل من دخل الحمام، مسح يده فيها. وليست هناك مناديل ورقية منفردة كما يكون عليه الأمر في الطائرات العالمية التي تكون فيها تلك المناديل حتى في حمامات الدرجة السياحية".[3]

نرى في هذا الوصف، وكأنه صورة قلمية لحمام الطائرة السوفيتية تتمثل أمام عيون القارئ. كما نجد أن العبودي لم يبخس في حق أي شيء. فإذا رآى شيئا جيدا، قال إنه كان جيدا، وإذا لم يعجبه شيء، لم يُخف التعليق عليه أيضا. مثلا أضاف كلمة الشهير إلى "الكافيار الروسي" في الفقرة السابقة، للتدليل على إعجابه به، في حين أضاف كلمة "غير طازج" إلى لحم بقري، ليدل على أن اللحم لم يكن جيدا.

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص: 24

[2] في بلاد المسلمين المنسيين، ص:25

[3] نفس المصدر، ص:25

في مطار موسكو:

وصلت الطائرة إلى مطار موسكو في ليلة ربيعية مطيرة، لأنها منتصف أبريل؛ إلا أن درجة الحرارة كانت الصفر المئوي. ويرى العبودي أن المطار كان متواضعا لا يدل بفخامته على أنه مطار عاصمة دولة عظمى. واستقبلهم في المطار مدير الإدارة الدينية لآسيا الوسطى ورئيس مكتب العلاقات الخارجية للإدارات الدينية شمس الدين ضياء الدين بابا خانوف، وكبار المسؤولين في الإدارات الدينية. لم يكن فيهم غير المسلمين سوى مسؤول روسي واحد "كان أكثر ما يتحرك من جسمه عيناه وهو صامت" حسب تعبير العبودي. وأشار العبودي إلى أن غرف استقبال كبار الزوار في مطار موسكو كانت كبيرة وجيدة.[1]

الفرق بين مطر الشتاء والربيع في المناطق الثلجية:

كتب العبودي أن درجة الحرارة في مطار موسكو كانت صفر مئوية؛ لكنهم لم يشعروا بالبرد لكون المطار مدفأ. وكان المطر ينزل والبرق يلمع. فقال المستقبلون من باب المجاملة، "لقد أتيتم بالربيع معكم. فقالوا لهم: أين الربيع ودرجة الحرارة هي الصفر؟ فأجابوا إنها كانت أدنى من الصفر ولكن ذلك ليس بالمهم، وإنما المهم أن المطر الذي يأتي مع البرق والرعد، هو مبشر بقدوم الربيع؛ لأن المطر في الشتاء ينزل ثلجا في أكثر الأحيان. وإذا نزل مطرا فإنه لا يكون معه برق ورعد؛ إلا إذا دخل فصل الربيع أو قرب حلوله".[2]

أول ليلة في موسكو وحال الاستقبال والنزول في الفندق:

نال العبودي استقبالا وحفاوة في موسكو، حيث تم نقله في موكب عادة يكون مخصصا لرؤساء الجمهوريات، وأنزله المضيفون مع وفده المرافق في فندق (سوفييتكايا). ويشرح العبودي أن (سوفييتكايا) معناها السوفييتي، وكلمة (كايا) مثل ياء

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص: 27

[2] نفس المصدر، ص: 28، وهذا الكلام صحيح؛ لأن كاتب هذه الحروف من منطقة ينزل فيها الثلج شتاء. والمعروف فيها أن الرعد لا يُسمع خلال فصل الشتاء، كما لا ينزل المطر في الشتاء. وأول الرعد يكون مع بداية الربيع وذوبان الثلج ونزول المطر. (الباحث)

النسبة باللغة العربية. والفندق واسع وفخم. وكان إستالين ينزل ضيوفه فيه. وشرح العبودي وضع الفندق من الألف إلى الياء مع تعليقاته حول ما يشاهده. وكتب أن في كل غرفة سريران لكن السرير ضيق، رغم ضخامة أجسام الروس. والغريب فيما ورد عن الفندق، وصف السرير، إذ يقول العبودي:

"أما الغطاء فإنه بطانية صوفية غليظة قد وضعوها في غلاف من القماش الأبيض النظيف. وجعلوا فيما يلي جسم النائم منه فتحة يطل منها وسط البطانية، يدخل منها النائم رجليه حتى يثبت عليه غطاؤه الذي هو ضيق أيضا وثقيل، بحيث إذا لم يفعل ذلك، فإنه ينزلق عنه مع ضيق السرير. وإذا حدث ذلك في شتاء هذه البلاد الباردة كان الضرر مؤكدا. وأما أرض الغرفة فإنها مفروشة بشيء رديء من السجاد الموحد (الموكيت) فوق أرض خشبية كاملة. وقد وضعوا في غرفة الجلوس وفيما بين السرير سجادا صغيرا".[1]

وصف العبودي الحياة في موسكو، وإسراع الناس إلى مكاتبهم في الصباح الباكر فرارا من البرد الشديد، والأرصفة أيضا عريضة وفيها الأشجار المتصلة، غير أنها كلها هامدة، لم تستيقظ بعد من سبات الشتاء الطويل. ويربط العبودي الوضع المناخي في موسكو مع جو مدينة (أورومتشي) عاصمة تركستان الشرقية – شين جيانغ–، بأسلوب أدبي لطيف، فيقول:

"قال لي الإخوة من أهل طشقند هذا الصباح أن هذه الأشجار سوف تورق بعد أسبوعين. وهذا بالضبط ما كان قد قاله إخوان لهم في أرض شقيقة لهم تركستان الشرقية، عندما كنت فيها في منتصف أبريل قبل سنتين. أي في مثل هذا الوقت بالضبط، وكنت رأيت الأشجار التي في عاصمتها (أورمسي) كلها هامدة، كأنها لا ترجو نشورا. إن هذه الأشجار ستورق بعد أسبوعين، أي في آخر أيام أبريل. وحدث ذلك بالضبط، وإن كانت عاقته عن الإسراع في الاخضرار عاصفة ثلجية هبت على المدينة، ونحن فيها، من تلقاء سيبيريا".[2]

من دأب العبودي في رحلاته أنه عندما يتحدث عن شيء في مكان ما، فإنه يربطه بما يماثله وشاهده في مكان آخر. وعلى سبيل المثال إنه أجرى مقارنة بين عدد

---

[1] في بلاد المسلمين المنسيين، ص: 31

[2] نفس المصدر، ص: 33

السيارات في شوارع موسكو وشوارع مدينته بريدة مركز منطقة القصيم في المملكة العربية السعودية، فيذكر ...

"إذا رأيت شارعا من شوارع موسكو طوله نصف ميل مثلا، فإن عدد السيارات فيه تقلّ بكثير عن عدد السيارات التي توجد في شارع مماثل له في الطول في مدينة بريدة في مثل هذا الوقت. ولا شك في أن السبب في ذلك هو الحرية الاقتصادية غير المحدودة التي تتمتع بها بلادنا والحرية المفقودة هنا".[1]

ولم ينس العبودي هنا الرد على سؤال قد ينشأ في ذهن القارئ عن كيفية تنقل سكان موسكو من مكان إلى مكان وعددهم يبلغ الملايين، رغم قلة عدد السيارات. فيقول:

"إنهم يحرصون على أن يكون مكان عمل المرء قرب منزله؛ لأن المساكن في المدن مملوكة للدولة، ثم إن هناك وسائل النقل العامة من قطارات كهربائية تسير تحت الأرض، وسيارات كهربائية (ترولي باص) تسير فوقها، والحافلات الكثيرة التي تجوب الشوارع".[2]

زيارة مكتب العلاقات الخارجية للإدارات الدينية ونفقاتها:

بعد انقضاء أول ليلة في موسكو، زار العبودي مكتب العلاقات الخارجية للإدارات الدينية في الاتحاد السوفييتي. وهو مكتب واسع جميل مزدان بالفسيفاء الإسلامي العريق. والإدارات الدينية أربع إدارات لمناطق مختلفة من الاتحاد السوفييتي. ولكل إدارة ممثل في مكتب العلاقات الخارجية في موسكو، ورئاسة المكتب دورية بين الإدارات الدينية. والغريب من أمر الإدارات الدينية هو أنها "تمول نفسها من تبرعات المسلمين، ولا تساعدها الحكومة السوفيتية، بل العكس هو الصحيح، فهي تساعد المجلس السوفيتي للسلام والصداقة، بما يفيض لديها من نقود لا بد من أن تودعها في حسابها في المصارف. وكل ذلك من تبرعات المسلمين وصدقاتهم، حتى نفقات استقبال الضيوف الأجانب مثلنا تكون بنفقة المسلمين".[3]

---

[1] نفس المصدر، ص: 36

[2] بلاد المسلمين المنسيين، ص:36

[3] نفس المصدر، ص:33

هذه الملاحظة من العبودي تدل على دقة نظره في الأمور؛ لأن الضيوف عادة لا ينظرون ولا يسألون عن النفقات التي يقوم بها المضيف، من أين تأتي وكيف تصرف. وفي نفس الوقت تشير هذه الملاحظة إلى أن الإدارات الدينية التي كانت هي راعية رسمية لشؤون المسلمين في الاتحاد السوفييتي لم تكن تتلقى الدعم المادي من الحكومة الشيوعية، على الرغم من أنها كانت تتكفل بكل شيء للشعب، حتى المأوى والمأكل. ولا غرابة في هذا الأمر، إذ الدين لم يكن يقع ضمن اهتمامات النظام الشيوعي، الذي كان أصلا قائما على الإلحاد ومعارضة الدين. ولم تكن هذه الإدارات أكثر من وسائل دعائية رسمية يستفيد منها النظام في تقديم صورة لامعة له لدى المسلمين في الخارج؛ إلا أنها في النهاية ترعى الشؤون العائلية للمسلمين.

تقسيم الروس للشعوب الإسلامية في الاتحاد السوفييتي:

تعليقا على قاعة الإفطار في مكتب الإدارات الدينية، كتب العبودي:

"أن القاعة التي جرى فيها الإفطار، قد زخرفت وزينت بأشكال هندسية إسلامية عريقة مستوحاة من النقش والزخرفة العريقة في البلدان الإسلامية في تركستان الغربية التي لا تكاد تسمع من يذكر لك عن اسمها هذا شيئا. فهم إما أن يسموها وسط آسيا السوفيتية، أو يسمونها بأسماء الجمهوريات التي قسموهم إليها، حسب اعراق القوم أو لغاتهم. وحتى الذين هم من أصول واحدة، ولغاتهم ترجع إلى لغة واحدة كالتركستانيين الذين هم من الأتراك جاؤوا إلى تلك البلاد في منطقة بخارى وما والاها شمالا وغربا، واختلطوا بأبناء عمومة لهم كانوا قدموا إليها قبلهم، فإن الحاكمين قسموهم إلى أقسام من أجل تفتيت روح الوحدة لديهم، ولإبقاء الانقسام بل ترسيخه وتعميقه في نفوسهم".[1]

ولا شك في أن المستعمرين دائما يتبعون سياسات تفيدهم في العاجل والآجل. وهذا بائن من الوضع الذي تعيشها الدول التي استقلت من الاستعمار الفرنسي والبريطاني والبرتغالي والإسباني في العالم؛ لأن تلك الدول خلفت وراءها قضايا مستعصية على الحل عن طريق ترسيخ الخلافات بين شعوب تلك الدول. وليس أدل على ذلك من قضية الصحراء في المغرب، وقضية فلسطين وقضية كشمير، وقضايا عالقة أخرى التي لم تقدر الشعوب على حل بعضها حتى بعد مرور أكثر من سبعين عاما.

أما تقسيم شعوب بلاد تركستان الغربية – دول وسط آسيا- على أيدي القياصرة أولا، ثم على أيدي الاتحاد السوفييتي، فحدث عنه ولا حرج. فقد خططوا لتلك المناطق وقسموها على أساس الفروق اللغوية والقبلية، رغم أنهم شعب واحد. وكانت هناك أكثر من ست وعشرين لغة في تلك الدول تكتب بالحرف العربي، قضى عليها الاتحاد السوفييتي، كما أن الجريدة التي كانت تصدر بالتركية من الأستانة – إستانبول- كان الناس يقرأونها حتى تركستان الشرقية. وقد أقام الاتحاد السوفييتي عوائق أمام اتحاد القازاق والقيرغيز والأزبك، بإبراز الفروق بينهم، ليشعر كل واحد منهم أنه غير الآخر.

---

[1] في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 34-35

من موسكو إلى طشقند ووصف الطائرة الروسية العملاقة:

رافق العبودي خلال السفر من موسكو إلى طشقند كبار المسؤولين في الإدارات الدينية في الاتحاد السوفييتي، وعلى رأسهم الشيخ المفتي طلعت تاج الدين رئيس قسم الإدارة الدينية للقسم الأوروبي وسيبيريا. وهو من البلغار الذين تسميهم الروس التتار. وعاصمة بلادهم تتارستان، هي مدينة قازان. وأشار إلى أنه استفاد كثيرا من صحبة أولئك المسؤولين خلال رحلته، من ناحية المعلومات والإجراءات للسفر.

وذكر العبودي أن السفر بين الجمهوريات داخل الاتحاد السوفييتي ليس مثل السفر بين مناطق دولة واحدة، بل هو مثل السفر بين دول صديقة. ولا بد من حمل الجوازات أو بطاقات تحقيق الهوية خلال السفر من جزء إلى آخر. وذلك كله من أجل الحفاظ على الأمن وضبط الأمور داخل البلاد. وقال إن هذا الأمر يسير بصرامة تامة في الاتحاد السوفييتي.

وأشار العبودي إلى أن الطائرة التي ركبوها من موسكو إلى طشقند كانت ضخمة جدا:

"كأنها القلعة وهي جاثمة على الأرض وتفوق ضخامة البوينج 747 (الجامبو)"، "وليس فيها درجة أولى بل كلها درجة واحدة، ولا أقول سياحية، فهي لا تصل إلى الدرجة السياحية في الطائرات الحديثة من حيث التنضيد والخدمة.... الطائرة من طراز ليوشن-86 وتحمل ثلاثمائة وخمسين راكبا. والذي استرعى انتباهي فيها ارتفاع سقف القاعة الرئيسية التي فيها المقاعد، حتى يساوي ارتفاع قصر من قصور النبلاء القدماء، مع ما يكلفه من نفقة في الوقود نتيجة لزيادة احتكاك الطائرة بالهواء ومقاومته لانسيابها، إلا بزيادة في المحركات واستهلاك الوقود. فلو قلت إن ارتفاعها يصل إلى تسعة أمتار أو ثمانية أمتار كما رأيناه من الداخل لما أبعدت عن الحقيقة".[1]

وكتب العبودي أن الطائرة كانت مليئة رغم أنها ليست الرحلة الأخيرة إلى طشقند. وسبب ذلك يعود إلى كون المسافة بعيدة بين موسكو وطشقند وهي 2930 كلم، واستغراق القطارات والحافلات وقتا طويلا في طي هذه المسافة الطويلة، إضافة إلى رخص أجور السفر بالطائرات إلى مستوى الرواتب، ولذلك يقبل الناس على السفر

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 38-39

بالطائرة؛ لكن هذا الأمر يختلف عن السفر بالطائرة في الصين، حيث يقول العبودي "بخلاف ما رأيت الحال عليه في الصين الشعبية، حيث الدخول متدنية، وأجور الطائرات عالية بالنسبة إلى مستوى الرواتب فيها وإن لم تكن أغلى منها في البلدان المتمتعة بالحرية الاقتصادية".[1] وقد أشار العبودي في رحلة له إلى أن الطائرات الروسية كبيرة وذات محركات كبيرة وقوية؛ لكن لا يواجه الاتحاد السوفييتي أي صعوبة في إدارتها لتوفر الوقود الرخيص لديه.

التدخين والخمر ممنوع في الرحلات الداخلية في الاتحاد السوفييتي:

ومما لفت انتباه العبودي خلال تلك الرحلة أنه رأى علامة عدم التدخين في الطائرة، فسأل مرافقيه، فقالوا إن التدخين ممنوع في الرحلات الداخلية للاتحاد السوفييتي بصرامة، حتى ولو كانت أطول الرحلات التي تستغرق ست ساعات أيضا. وعندما جاءت المضيفة بأكواب صغيرة في بعضها ماء وفي بعضها عصير العنب، فشكك مرة أخرى بأن لا تكون فيها الكحول. فسأل مرافقيه، فضحكا وقالا:"إن الخمرة محرمة في جميع الرحلات الداخلية، ولا يسمح بتناولها حتى ولو أحضرها الراكب بنفسه. وإذا حدث، وتجاسر أحد على حملها على الطائرة، وشربها فيها، فإنه يعاقب. وقد يحرم من ركوب الطائرات فترة من الوقت".[2]

وهنا جاء العبودي بتعليق طريف، حيث يقول إنه لو منع أحد التدخين والخمر في بعض الدول التي يقطنها المسلمون لكن لا يمكن تسميتها دولا إسلامية، لارتفع الأصوات ضد من يمنع التدخين والخمر بحجة أنه متزمت حمله الهوس الديني على اتخاذ هذا القرار، رغم أن الجميع يعرفون أن التدخين مضر من الناحية الصحية، في حين يكفي أن تكون الخمر محرما في الإسلام بالضرورة. ويقول:

"ولا شك في أنهم إذا سمعوا هذا أو عرفوه، فإنهم سيخففون من رمي من يقرر منع ذلك في الطائرات بالتشدد الديني، إن لم يقولوا بالهوس الديني، مع أن الذين حرموها هنا قوم ملحدون لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولكنهم حرموها في الطائرات بدافع المصلحة العامة للوطن والمواطنين. وذلك جزء من محاربة السوفييت لتناول الخمر لما لاحظوه من

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 39-40

[2] انظر، نفس المصدر، ص: 40

ضررها البالغ على الإنسان وجلب الأمراض، وتعطيل المصالح والنقص في أداء الأعمال".[1]

وأضاف أن السوفييت قاموا بإجراءات عديد لوضع حد أمام إكثار شرب الخمر والإدمان عليها في بلادهم.

والأمر الطريف أن العبودي تحدث عن منع التدخين والخمر في الرحلات الداخلية في الاتحاد السوفييتي تحت عنوان "أين أنتم أيها المقلدون؟"، ولعل ذلك بسبب أن المقلدين للاتحاد السوفييتي من المسلمين كانوا يتجاوزون الروس الذين كانوا يقلدونهم في أفكارهم، في محاربة الأحكام الإسلامية. وهذا ما يسمونه "ملكي أكثر من الملك".

لا يجوز الاختلاف مع الحكومة ولو نظريا:

من المعروف أن الاختلاف مع الحكومات في أي نظام سلطوي أو قمعي لا يجوز؛ لأن مثل هذه الأنظمة تقوم بتكميم الأفواه للاستمرار في الحكم، لأن حرية التعبير والرأي تضر بها، وتصيبها بضعف؛ إلا أن إجراءات التكميم وكبت الرأي الآخر كانت أشد في الدول الشيوعية ولاسيما الاتحاد السوفييتي. وهذا ما شاهده العبودي بأم عينيه ونقل لنا مشاهداته قائلا:

"لقد ركبت بين الشيخين الفاضلين شمس الدين بابا خانوف والشيخ طلعت تاج الدين، مما أتاح لي الحصول على ثروة ضخمة من المعلومات التي أثارتها استفساراتي من الأخوين العالمين، وإن كانت بعض الأسئلة محرجة جدا لهما، بحكم وجودهما في بلاد ذات نظام طبيعته القهر والكبت، أو لنقل إذا أردنا التلطيف في العبارة، أن طبيعته هي عدم قبول الاختلاف مع الحكومة، حتى في الناحية النظرية، وهي مجرد الكلام. فلا يسيغ أن ينتقد مواطن من مواطني الاتحاد السوفييتي سياسة حكومته أمام رجل أجنبي. ولذلك لا يحدث ذلك إلا إذا كان سرا، وبعد أن يشعر المواطن السوفيتي أن ذلك الأجنبي ممن يحتفظون بالسر، في بيان مشاعر المواطن السوفييت، سواء في خلال إقامته في الاتحاد السوفييتي أو بعد مغادرته. مع أني لم أكن أطلب من الأخوين أن

[1] في بلاد المسلمين المنسيين، ص:41

ينتقدا حكومتهما عندي، وإن كانت الإجابة في بعض الأحيان تتحاشى معها الخوض في الحقيقة منعا لذلك".[1]

ورغم أن هذا الأمر كان في الاتحاد السوفييتي في الماضي، فإن طبيعة الأنظمة السلطوية لم تتغير حتى بعد سقوط الاتحاد السوفييتي. وقد عانى المسلمون في دول وسط آسيا التي تحررت من الاتحاد السوفييتي عام 1991م، أكثر بعض الأحيان من الاتحاد السوفييتي نفسه، حيث لا تزال بعض الدول تمنع المسلمين من أداء الصلاة علنا، في حين فرضت دولة الحظر على حضور الشباب إلى المساجد إذا كانت أعمارهم تقل عن ثمانية عشرة عاما. وهذا نتيجة التربية الشيوعية التي تربت عليها قيادات تلك الدول.

كلمة "أوف" ودأب العبودي في شرح الكلمات الأجنبية والغريبة من العربية:

من عادة العبودي أنه يشرح في رحلاته الكلمات الغريبة من اللغات الأجنبية، وكذلك الغريبة من اللغة العربية أيضا؛ لأنه من علماء اللغة أيضا، وبذلك يزيد من الثروة اللغوية لدى قرائه. وقد كتب يشرح كلمة "أوف":

"كثيرا ما يعجب الغريب عندما تقرع سمعه الأسماء هنا في هذه البلاد، سواء كانت روسية خالصة مثل اسم رئيس الاتحاد السوفييتي الحالي ميخائيل جورباتشوف وقبله خروتشوف ومالنكوف، لأول وهلة أو حتى أسماء إسلامية، فإنهم يضيفون إليها في الآخر كلمة (أوف) مثل اسم جاري شمس الدين ضياء الدين بابا خانوف، واسم أحد المرافقين وهو الأخ عبد العزيز فتاحوف، ومساعد الطائرة التي نركبها الآن، ذكروا أن اسمه نزاروف.

ولقد سألت عن ذلك في أول وصولي إلى موسكو، فأخبروني أن معنى (أوف) هذه، هو ابن، فمثلا ... جورباتشوف معناه ابن (غرباتش). ولقد تبادرت إلى ذهني الكلمة العامية المصرية التي تسمى السوط (كرباج)، فقلت أهو ابن كرباتشوف، وهل يصل سلطان الكرباج أو السوط في الاتحاد السوفيتي حتى إلى أسماء الزعماء؟ واسم شمس الدين ضياء الدين بابا خانوف أي ابن بابا خان وهكذا.

وعلى ذكر اسم مساعد الطائرة، ذكروا أن قائد هذه الطائرة الضخمة ومساعده كلاهما من أبناء المسلمين الأزبكيين، أحدهما وهو القائد اسمه (نازاروف) أي ابن نازار، وربما

---

[1] نفس المصدر، ص: 42

كانت هي (نزار) العربية الصميمة. وقائده (ذاكروف) وهي (ذاكر) العربية الفصيحة من الذكر، وإن كان بعضهم يبدل ذالها زايا في النطق، فتصبح على لسانه: (زاكروف). وهذا موجود حتى في عامية بعض الأقطار العربية".[1]

وتتجلى من هذه الفقرات رغبة العبودي في معرفة ما لا يعرف، حتى ولو كانت كلمة غريبة. كما أنها تدل على علمه الجم في اللغة العربية ولهجاتها. ولا يبخل في إفادة القراء أبدا.

الحنين إلى الماضي بمجرد استماع أسماء سمر قند وبخارى:

قبل الهبوط بمطار طشقند، أشارت المضيفة إلى عراقة المنطقة التاريخية وقالت إنه يمكن مواصلة السفر من طشقند إلى بخارى وسمر قند. وهنا، رجع الزمان بالعبودي إلى الماضي، ليلقي نظرة على التاريخ العريق المستنير لهذه البلاد. فأبدى شعوره في تلك اللحظة بالكلمات الآتية:

"إن لعبارتها هذه أهمية خاصة بالنسبة لي. ربما كان ذلك أكثر من الركاب الآخرين الذين اكتظت بهم هذه الطائرة العملاقة. ذلك بأن بخارى وسمر قند كانت من مراكز الثقافة الإسلامية في العصور القديمة. ولقد قرع سمعي كل واحد منهما ووقع نظري أيضا عليه في الكتب آلاف المرات. كما كنت قرأت الوقائع التي كانتا مسرحا لها، وتراجم الرجال العظام الذين قد عاشوا فيها في زمن ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في تلك الربوع. وهذا ما أضاف شعورا غريبا في نفسي عند النزول في طشقند، الشعور العام الذي هو مزيج من الفرح والأسف. والأسف هو لكون هذه المنطقة التي كانت عامرة بالحضارة الإسلامية، قد أجدبت منها، بل إن الحضارة الإسلامية قد أسيء إليها، حتى أصبحت في عرف بعض المثقفين من أبنائها تدل على التخلف والجمود العقلي، محتجين بما كانت وصلت إليه أذهان بعض المسلمين من فهم خاطئ للإسلام، حتى أصبحوا يظهرونه بمظهر المقدس للأولياء المتعلق بالقبور والمشاهد".[2]

لقي وفد العبودي حفاوة وترحيبا في مطار طشقند أيضا، حيث استقبلهم أئمة المساجد ومدرسون في معهد الإمام البخاري وعامة المسلمين، بينما انشرح صدر العبودي بالكلام معهم؛ لأن معظمهم كانوا يتحدثون اللغة العربية؛ إلا أن الأمر الوحيد

---

[1] في بلاد المسلمين المنسيين، ص :43-44

[2] في بلاد المسلمين المنسيين، ص: 45

الذي كان يكدر ذلك الصفو، هو على حد قول العبودي، بعض الأسئلة التي كانوا يطرحونها عفويا عن بعض الأمور المتعلقة بالدين،- مثل عدد المساجد في طشقند، وعما إذا كانت لا تزال توجد مساجد لم تُعدها الدولة للمسلمين، بعد أن كانت صادرتها منهم في أول العهد الشيوعي- ولا يجدون لها جوابا من الحاضرين. والسبب لذلك معروف، كما مضى في الحديث مع كبار مسؤولي الإدارات الدينية، وهو أنه لا يجوز الاختلاف مع الحكومة، كما لا يمكن توجيه أي نقد للنظام الشيوعي.[1]

وصف ربيع طشقند:

وكتب العبودي أنهم كانوا يخشون البرد هنا أيضا؛ إلا أن الربيع قد حل قبلهم، حيث يقول:

"فقد كان فصل الربيع حل قبل قدومنا بأيام. ولذلك رأينا أشجار الطريق الذي اخترقها الموكب كلها خضرة، بل نضرة، حتى الزهور رأيناها في الشوارع والميادين منفتحة، كأنما تشارك مستقبلينا من الإخوة المسلمين الكرام وإخوانهم الذين سمعوا بقدومنا فرحهم بهذه المناسبة. بل إنها تبدو تشاركنا نحن أعضاء الوفد فرحنا وسرورنا بوصولنا إلى بلاد المسلمين العريقة في الإسلام هذه. وكانت هناك ريح ربيعية تداعب أوراق الأشجار فتتطاير هذه نشوى، كأنما تشارك في الاستقبال".[2]

وهذه الكلمات اللطيفة إذ تشير من ناحية إلى فرحة العبودي بالوصول إلى تلك المناطق العريقة الإسلامية، فهي تكشف عن موهبته الأدبية أيضا؛ لأن عباراته جاءت لطيفة، جميلة، مصورة لمنظر ربيع البهيج، متسقة، سلسة. وهذا ما نلمس في عبارات العبودي بين فينة وأخرى، عندما نقرأ له. فهو على الرغم من محاولته الكتابة بعبارات سهلة، يحيد إلى الأسلوب الأدبي، من دون إرادته.

استغراب اللباس العربي في طشقند وسبب عدم معرفة الخادمات أي لغة سوى الروسية:

كتب العبودي أنهم التزموا باللباس العربي الكامل في طشقند، وكان ذلك غريبا على المواطنين والسياح الأجانب أيضا على حد سواء؛لأنهم لم يتعودوا على مثل هذا

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص: 46-47

[2] نفس المصدر، ص: 47

اللباس في هذه البلاد، إذ العرب الذين يزورونها، هم أيضا يرتدون اللباس الإفرنجي، كما أنه اللباس المعروف للموظفين والمثقفين هنا. وقال إن السياح كانوا يتبادرون إليهم لالتقاء صورة لهم معهم، والبعض يستأذنهم في ذلك، بينم البعض الآخر يسرع في التقاط الصورة بدون استئذان، مخافة أن تفوته الفرصة.

وفي وصف الفندق الذي نزلوا به في طشقند، أشار إلى أن غرفها كانت صغيرة لكنه حظي بغرفة أكبر، في حين كانت الخدمة أيضا غير جيدة، وتديرها روسيات ثقيلات في منتصف العمر، غليظات حسا ومعنى، لا يعرفن شيئا من الإنكليزية أو أي لغة أخرى. وكان الكلام معهن بالإشارة. ويتأسف العبودي على أنهم لماذا جاؤوا بأولئك الروسيات إلى هذه المنطقة، ولم يعينوا فيها رجالا ونساء من أبناء المنطقة مسلمين، يستأنسون بهم ويحيونهم بتحية الإسلام، ليشعروا بأنهم في بلاد إسلامية. وأورد بيت شعر في وصف أولئك الخادمات الروسيات:

وإن أتوك وقالوا: إنها نصف فإن أطيب نصفها الذي ذهبا

وجاء العبودي بسبب وجيه لاختيار العاملات الروسيات في تلك الفنادق، فكتب:"ولا شك في أن اختيار العاملات من الروسيات الغليظات اللاتي لا يعرفن الإنكليزية، فضلا عن اللغات الأوروبية الأخرى، أمر له معناه. فهو يقطع الطريق أمام الحصول على أية معلومات أو إنشاء أية علاقات غير مرغوب فيها من قبل الدولة ما بين النزيل السائح وبين المواطنين السوفييت".[1]

مائدة الطعام والكافيار الروسي الشهير:

كتب العبودي أن مطعم الفندق الذي نزلوا به في طشقند كان مكتظة بالسياح الساكنين في الفندق، وكان به جناح خاص للمسلمين، وضع على المائدة مقدمات الطعام بسخاء، مثل الموائد في تركستان الشرقية؛ إلا أن الشيء الوحيد الذي لم يكن على موائد تركستان الشرقية، هو البطارخ أو (الكافيار). ويشرح الكافيار قائلا هو بيض نوع خاص من السمك موجود في بحر قزوين دون غيره من بحار الدنيا، و

[1] في بلاد المسلمين المنسيين، ص: 51

"هو المشهور بالكافيار الروسي، مع أنه ليس من بلاد الروس الأصلية، ولا بقرب منها، وإنما يراد بذلك الاتحاد السوفييتي. وهذا الكافيار الأسود اللون، كما هو معروف، وهناك نوع من بيض السمك أيضا أحمر اللون. وقد اعتدنا بعد ذلك على رؤيته في جميع الموائد في هذه البلاد السوفيتية. ويأكلون (البطارخ) بالزبد يضعون عليه. ويضعون الجميع على قطعة الخبز. وهناك أنواع من اللبن ما بين رائب وحليب، وأنواع من الجبن. واللحم أيضا في المقدمة أنواع، وهو بارد بمقادير قليلة، إضافة إلى (النقّل) الذي هو المكسرات".[1]

لا زيارة لبخارى وترمذ في البرنامج:

وكتب العبودي أن المضيفين أطلعوهم على برنامج زيارة طشقند، فلم يجدوا فيها اسم مدينة بخارى ولا ترمذ، ولم يقدموا سببا واضحا لعدم زيارة بخارى، بينما قالوا إن مدينة ترمذ تقع مباشرة على الحدود مع أفغانستان، ولا يمكن زيارتها بسبب الوضع هناك. فاقتنع الوفد بذلك. ومن المعروف أن هذه الرحلة كانت في ربيع 1986م، وكان الغزو الروسي لأفغانستان مستمر؛ لكن سنحت للعبودي فرصة لزيارة بخارى عام 1990م، خلال رحلته الثانية إلى الاتحاد السوفيتي. وسنذكرها فيما بعد.[2]

في مجلس السوفييت الأعلى، واستحالة اعتراف المسؤولين بإسلامهم:

كتب العبودي أن زيارة مجلس السوفييت الأعلى كانت أولى فقرات العمل في طشقند. وأن رئيس هذا المجلس هو من يقوم بتعيين الوزراء في حكومة الجمهورية في الظاهر؛ لكن الأمور تبقى بيد الحزب الشيوعي والمسؤولين الروس. فهم يحركون الوزراء والآخرين من المسؤولين. وعلى الرغم من أنهم يوحون بترشيح المرشحين للمجلس الأعلى، أن المجالس المحلية والشيوعيون في الجمهوريات داخل الاتحاد السوفييتي أحرار في اتخاذ قراراتهم؛ إلا أن الأمر ليس كذلك؛ لأن الحزب هو الحزب الشيوعي فقط، وهو الذي يقوم بترشيح من يرضاه.

وأشار العبودي إلى أنه لا يمكن للمسؤولين الكبار في الحزب الشيوعي من المسلمين، أن يعترفوا بإسلامهم أو القيام بأي شعيرة دينية أو حضور صلاة ومسجد.

---

[1] في بلاد المسلمين المنسيين، ص: 52

[2] انظر، نفس المصدر، ص: 52

فيقول سألت الإخوة عن رئيس مجلس السوفييت الأعلى في أزبكستان هل هو مسلم؟ فلم يجب أحد، فقلت هل هو من أبناء المسلمين؟ فقالوا نعم. وتعليقا على هذا الوضع يقول:

"والسبب في ذلك أن الموظف الكبير في الإدارة السوفيتية لا يستطيع أن يقول: إنه مسلم بمجرد القول؛ لأنه لو فعل ذلك، كان قد فعل ما يتناقض مع دستور البلاد ومع مبادئ الحزب الشيوعي الذي ينتمي إليه، والذي أهم ما فيه مبدأ الإلحاد وإنكار وجود الخالق سبحانه وتعالى. ولذلك صار الدين يتناقض مع هذه المبادئ. وكان هذا يوجب فصله من الحزب وإبعاده عن منصبه في الدولة، إن لم يكن سببا كافيا في إلحاق الأذى به وعقابه على مخالفة دستور الحزب الذي يكون قد أعلن الولاء له وعدم المساس بمبادئه. وعلى سبيل المثال لا يجيز النظام ولا العرف الشيوعي لأعضاء الحزب ولا الذين يشغلون مراكز مهمة في البلاد أن يشهد الشخص منهم صلاة في أي مسجد أو أن يشترك في أداء أية شعيرة من الشعائر الدينية. وإذا حدث ذلك فإنه سيفصل ويعاقب، كما تقدم".[1]

ومع هذا التعامل الشديد مع الدين ولاسيما الإسلام، كتب العبودي أن العارفين بالأمور من الإخوان المسلمين من الاتحاد السوفييتي أخبروهم أن أبناء المسلمين الذين يوجدون في السلطة تحت الحكم الشيوعي، هم على قسمين، قسم يكون شيوعيا ملحدا معتقدا بالشيوعية متحمسا لها، ولذلك يكون معاديا للإسلام. وقسم آخر يتظاهر بالشيوعية والإلحاد؛ لكنه في قرارة نفسه لا يعادي الإسلام؛ لكنه أيضا لا يستطيع إظهار إسلامه.

ويبدو صدق هذا الكلام، إذا نظرنا إلى الوضع الذي حصل في دول وسط آسيا عندما انتقلت السلطة إلى الشيوعيين المحليين من أبناء المسلمين بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، إذ أنهم أبدوا عداءهم للإسلام أكثر من الشيوعيين الروس في بعض الأحيان. ولا تزال الأنظمة في تلك الدول لا تتسامح مع الأحكام الإسلامية حتى بعد مرور أكثر من ثلاثين عاما، وإن لم تعاديها في بعض الأحيان.

---

[1] في بلاد المسلمين المنسيين، ص:54

مساحة السكن للمواطنين في الاتحاد السوفييتي:

مرت قافلة العبودي بطرق حديثة في طشقند، فأخبروه أن تلك الشوارع شقت بعد أن انهدمت المبانئ القديمة في زلزال شديد عام 1967م. وبعد ذلك قامت الحكومة بتنظيف المنطقة وشقت الطرق الحديثة، كما قامت بإنشاء عمارات حديثة لتؤجرها لمن انهدمت بيوتهم والمواطنين الآخرين الذين يحتاجون إلى السكن.

وذكر العبودي هنا أمرا غريبا حول مساحة السكن المستحق للمواطنين في الاتحاد السوفييتي. فكتب أنه من المواطن الأعزب رجلا كان أو امرأة، أن يستأجر غرفة بمساحة تتراوح بين ثماني إلى اثني عشر مترا مربعا لا أكثر من ذلك في المساكن الحكومية، ومتوسط الغرف تكون نحو عشرة أمتار مربعة. وإذا كان الشخص متزوجا وله طفلان، يستحق استئجار الغرف بمساحة أربعين مترا مربعا. ولا تحاسب الحمامات والمطابخ في هذه المساحات، بل هي مساحة الغرف فقط. وصيانة المنازل ما كان منها داخل الغرفة، فهي على النزيل، والخارجية على الحكومة. وأجرة المنازل وخدمات المياه والكهرباء رمزية.[1]

لقاء رئيس مجلس السوفييت لجمهورية أزبكستان والفصل بين الدين والدولة:

كتب العبودي أن رئيس مجلس السوفييت الأعلى لجمهورية أزبكستان "بولاد حبيب الله" استقبلهم في مكتبه بحفاوة. وألقى كلمة مطولة عن وضع أزبكستان، ذكر فيها كل شيء سوى الروح الإسلامية التي كانت ميزة لشعب تركستان. ولخص كلامه أنه قال:

حقق شعب أوزبكستان تقدما وتطورا حضاريا في ميادين الثقافة والاجتماع والصناعة بعد ثورة أكتوبر 1917م – الثورة الشيوعية–، فقبل الثورة كانت نسبة المتعلمين في البلاد 4% من سكان أوزبكستان، والآن أصبح أكثر الشعب الأوزبكي متعلما، وتوجد بها 43 مؤسسة علمية عليا، وأكثر من عشرة آلاف مدرسة، و200 معهد بحوث، والتعليم مجاني في جميع المراحل، والخدمات الطبية مجانية، وهناك المئات من المستشفيات، والصناعات متطورة، وبها الكثير من المصانع، منها لصناعة

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص:56

الطائرات والإليكترونيات والمحركات والغزل والجرارات، وتشتهر أوبكستان بمحاصيلها الزراعية وتنتج خمسة ملايين طن من القطن.

وبالإشارة إلى الحرية الدينية، قال بولاد أن القانون الأساسي للاتحاد السوفييتي يضمن حرية الاعتقاد، والفرد له الحرية في اختيار الدين الذي يرغبه، وله الحرية في عدم الاعتقاد. والدين منفصل عن الدولة والمدرسة في أزبكستان والاتحاد السوفيتي، ولكل مواطن حرية في أن يمارس شعائر دينه. وهناك 300 مسجد في الاتحاد السوفييتي ومنها 72 مسجدا في أزبكستان.[1]

كلمة العبودي في اللقاء مع رئيس أزبكستان:

ردا على كلمة رئيس أزبكستان، ألقى العبودي أيضا كلمة أشار فيه إلى أن المسلمين في العالم ممتنون للعلماء الأجلاء من هذه المناطق مثل الإمام البخاري والإمام الترمذي والعلماء الآخرين الذين قدموا خدمات جليلية للعلوم الإسلامية، وأنهم يتساءلون أيضا عما يقوم به أحفادهم لخدمة الإسلام والمسلمين. كما أن العبودي أشار إلى أن رابطة العالم الإسلامي ليست جهازا حكوميا، بل إنها مؤسسة شعبية تتلقى الدعم من الحكومة السعودية، وأن الخلافات السياسية لا تعيق عملها؛ لأنها تهدف إلى تعزيز الصلات بين الإخوة المسلمين.

وقال إن العلماء العرب القدامى كانوا يأتون إلى هذه البلاد لتحصيل العلم رغم جميع المشاكل والصعوبات، والآن تتم الزيارات بكل سهولة ويسر، وأضاف أنهم يتنمنون أن يروا انتشار الثقافة الإسلامية من جديد من هذه البلاد، وأن يعيد الشباب المسلم الحاضر أمجاد أجداده وآبائه في الثقافة والحضارة الإسلامية. كما أنه أشار إلى الفتوحات الإسلامية التي تمت على أيدي الأتراك العثمانيين، مشيرا أنهم يأملون أن يعيد التاريخ نفسه في هذه البلاد.[2]

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 58-59

[2] انظر، نفس المصدر، ص :61-63

وهنا ينشأ سؤال مهم، وهو لماذا تحدث العبودي عن الإسلام والمسلمين وتاريخهم المجيد مع رجل هو يعرف جيدا أنه شيوعي قد أوضح موقفه من الدين من قبل؟ وقد رد العبودي على هذا السؤال بنفسه، فقال:

"هذا، وقد تعمدت أن أركز على هذه الناحية الإسلامية المهمة في الحديث مع هذا الرجل الذي هو بحكم منصبه الشيوعي يعتبر معاديا للإسلام، وذلك من أجل تذكيره بذلك، عسى أن ينتفع به.... وقد بدا لي أن الرجل قد تأثر ما قلته وبما سمعه بهذه الاستفاضى للمرة الأولى من ضيوف أجانب. ولذلك بدا ممتنا مما ذكرته، أو هذا ما ظهر لنا، والله أعلم بحاله".[1]

وتعليقا على كلامه، قال بولاد حبيب الله إنهم يحترمون العلماء المسلمين السابقين الذين خدموا الثقافة والحضارة الإنسانية، ويفتخرون بهم، وقد أسموا الكثير من الشوارع والميادين بأسمائهم؛ لكنه أضاف أنهم لا يتدخلون في سياسة الآخرين، ولا يسمحون للآخرين بالتدخل في شؤونهم الداخلية.[2]

ويتضح من كلام "بولاد حبيب الله" موقف الاتحاد السوفييتي من الدين، حيث يقولون إن كل واحد حر في اعتناق أي دين والعمل به وأداء شعائره، فلماذا عدد المساجد في الاتحاد السوفييتي يبلغ 300 مسجد فقط؟ رغم أن عدد المسلمين به آنذاك كان يفوق 36 مليون نسمة؟ كما تتجلى من كلمة العبودي في مجلس بولاد حبيب الله، حكمته في الكلام والموعظة الحسنة، إذ أنه ذكر ماضي أزبكستان بأسلوب لا يثير غضب المضيف الشيوعي. ولم يُخف هدف زيارتهم، وأوضح أنهم جاؤوا لتوطيد الصلات بين الإخوة المسلمين.

وأوضح الرئيس بولاد حبيب الله ردا على سؤال لأحد أعضاء الوفد نظام المجالس السوفييتية، وأن مجلس أزبكستان يتكون من 510 عضوا، ينتخبهم الشعب لخمس سنوات، ويتم تقسيم النواب إلى عشرين لجنة، لك لجنة تعالج ناحية من النواحي الأساسية لمتطلبات الشعب. وأن المجلس ينعقد مرتين في العام، وأنه يستقبل

---

[1] في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 63-64

[2] انظر، نفس المصدر، ص: 64

الوفود البرلمانية من الخارج، كما يوفد النواب للمشاركة في الاجتماعات للهيئات البرلمانية.

تقسيم تركستان بين الصين والروس:

من المعروف أن بلاد الترك من آسيا الصغرى إلى الصين، تعرف باسم تركستان. وأشار العبودي إلى أنها "ذات وحدة إنسانية عنصرية وماض ثقافي عريق، هو الماضي الإسلامي العظيم، لكن تكالبت المحن عليها وتقاسمها الطغاة الأقوياء، فصارت للدب الروسي والتنين الصيني. والأدهى من ذلك أن هؤلاء الطغاة الظالمين المستعمرين بل المنتهبين للبلاد والمسيطرين على العباد، قد سعوا جاهدين في محو هويتهم الإسلامية وماضيهم الثقافي العريق، حين يُفهمونهم أن ذلك الماضي كله إنما كان تأخرا من التأخر، بل كان سبة يجب عليهم التخلص منها".[1]

وكتب لدى زيارة "معرض الإنجازات لشعب أوزبكستان"، "هكذا ذكروا اسمه في برنامج الزيارة، وذكروا أنه أشبه ما يكون في المتحف أو المعرض لما أنجزه شعب تركستان الغربية الذي يسمونه شعب (أوزبكستان) ليفرقوا بينه وبين بقية الشعب التركستاني، وإلا فإن الأزبك هم في الحقيقة جزء من شعب تركستان العريق الذي ينتمي جميعه إلى أصول تركية واحدة".[2]

نرى في هذه الفقرات رأي العبودي جليا واضحا حول تقسيم تركستان بين الصين والروس، وأن اختيار كلمات شديدة للتعبير عن مشاعره، يدل على الحب الذي يكنّه لماضي المسلمين في تركستان، إضافة إلى أسفه الشديد الذي أصابه على وضعهم الراهن. ومثل هذه المشاعر لا تنبعث إلا من قلب محترق على أمر لا يستطيع تحمله.

ما لم يجد العبودي في طشقند وما وجد:

قبل زيارة مكتب الإدارة الدينية في طشقند، طاف الموكب بالعبودي ووفده المرافق في شوارع طشقند، معظمها كانت حديثة وجيدة، والأرصفة مشجرة؛ إلا أن العبودي لم يجد بغيته فيها. وهو يقول كان بي شوق عظيم لرؤية الأحياء القديمة في

---

[1] في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 57-58

[2] نفس المصدر، ص: 87

طشقند التي تمثل الأنموذج الحقيقي للبيوت والآثار الإسلامية من بلاد الشاش... جال الموكب في شوارع متعددة من المدينة، ولكنها كلها ذات طابع حديث واحد لا طعم له في أعيننا، ولا أثر فيه للطابع الإسلامي العريق، حتى الناس الذين نراهم في هذه الشوارع لا تظهر الأصالة التركستانية في ملابسهم أو أزيائهم، كما هي ظاهرة في مدن تركستان الشرقية... وتتناثر الأبنية الحديثة ذات الطوابق المتعددة على جوانب هذه الشوارع؛ ولكنها ليست بذات طابع إسلامي مشرق، بل تكاد تكون لا طابع لها، وإنما هي أبنية جديدة تشمل على شقق سكنية صغيرة.[1]

وعلى الرغم من أن العبودي لم يجد بغيته في طشقند خلال اليوم الأول في طشقند؛ لكنه قد مر بأحياء قديمة في طشقند في اليوم التالي. فكتب: انطلق الموكب من الإدارة الدينية إلى منطقة (إيستي شهر) أي المدينة القديمة مع أزقة غير واسعة معظم بيوتها من طابق واحد مبنية بالطين المطلي بطلاء أبيض كالجص يعطي مظهرا جميلا. وأسفل حيطان البيوت الطينية من الفخار من أجل أن يقي الطين من رطوبة الأرض.... وأكثر هذه البيوت غير بهيجة المنظر بسبب استحالة طلائها وعدم العناية بها... ومن المظاهر العجيبة في هذا الحي القديم الذي لم يره العبودي في أي مكان آخر من العالم، هو أن أنابيب الغاز الطبيعي التي تدخل البيوت، هي تشبه أنابيب الماء الضيقة ولكنها ممتدة في الشوارع وداخلة إلى البيوت ظاهرة للعيان، تشوه منظر البيوت لأنها مرفوعة عن الأرض.

ورءاى العبودي في هذا الحي القديم طائفة من النسوة المسلمات تمسكن باللباس الساتر الذي لا بد أن يغطي الشعر، ولكنهن أقل في هذا الأمر من أخواتهن في تركستان الشرقية اللاتي يتمسكن حتى بالحجاب في بعض الأحيان. أما بالنسبة للشابات من النساء فلا حجاب.[2]

وكان سرور العبودي عظيما، عندما زار ريف طشقند وشاهد نساء مسلمات محجبات، ومنطقة ذات طابع أصيل، فكتب:

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص: 66

[2] انظر، نفس المصدر، ص :85-86

"فكان أول ما وصلناه من بيوت هذه المدينة بيوتا من الطين المطلي بالجص أو مادة بيضاء... والأهم من ذلك أننا شاهدنا النسوة في شوارعها وهن البخاريات المتسترات اللائي يضعن على رؤوسهن المناديل التي تغطي الشعور، مما يعطي الانطباع الصحيح بأن هذه المدينة مدينة للمسلمين التركستانيين أهل البلاد الأصلاء، وليست مثل طشقند التي غلب الطابع الحديث على أبنيتها، فأبعد عنها طابعها الإسلامي العريق. وصار الكفار من الروس والأوكرانيين يغالبون على مظهر السكان ليكونوا كطابع البناء لا صلة لهم بالجنس التركي المسلم المجيد. ولكن (أمر الله غالب ولله جنود من مواليد) فالمسلمون هنا يدافعون عن بلادهم بأسلحة أعطاهم السوفييت لشعبهم، فاستعملها المسلمون دونه. ومن أهمها سلاح التكاثر في الإنسان التي أرادوا أن يزيدوا به بلادهم قوة إلى قوة الصناعة والسلاح".[1]

تدل هذه الفقرات إلى رغبة العبودي في الاطلاع على معالم الحضارة الإسلامية في طشقند؛ لأنها تعرف في التاريخ باسم "بلاد الشاش" ولها تاريخ عريق؛ إلا أن مرور الزمن، والنظام الشيوعي، قد أتى على تلك المعالم، ولم يبق منها؛ إلا ما كان بقاؤه ينصب في مصلحة النظام الشيوعي. وهذا ما أشار إليه العبودي عندما زار الأضرحة والمقابر؛ لأن الحكومة الشيوعية تنفق عليها نفقات لترميمها، بسبب كونها مصدرا للدخل، عن طريق السياح الأجانب. كما أنها توحي بذلك للشعب المسلم أنها مهتمة بشؤونهم.

في مكتب الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان:

زار وفد العبودي مكتب الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان. وكتب أن المكتب يقع في بناء قديم بُني قبل أربعة قرون. وهنا قدم شمس الدين بابا خان رئيس الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان، معلومات وافية عن الإدارات الدينية في الاتحاد السوفييتي. وهي أربع إدارات لمختلف المناطق من الاتحاد وأكبرها الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان. وهي تشرف على شؤون المسلمين داخل البلاد، كما أنها تستدعي وفودا من الدول الإسلامية كل عام لزيارة الاتحاد السوفييتي؛ إلا أن جميع نفقاتها تأتي من تبرعات المسلمين. كما أشار بابا خان

[1] في بلاد المسلمين المنسيين، ص: 96

إلى أن الإدارة الدينية قامت بنشر بعض الكتب وطباعة المصاحف، إضافة إلى أنها تقوم بنشر مجلة "المسلمون في الشرق السوفييتي" بأربع لغات.

وردا على كلمة بابا خان، ألقى العبودي أيضا كلمة شكر فيها الإدارة الدينية لتقديم دعوة لهم لزيارة المسلمين، وألقى ضوء على ضرورة تعزيز الصلات بين المسلمين والاطلاع على أوضاعهم. وأعرب عن سروره على أن تتعاون رابطة العالم الإسلامي مع الإدارات الدينية في الاتحاد السوفييتي، من باب الأخوة الإسلامية والتعاون على البر والتقوى، كما أمر الله به المسلمين. وقدم العبودي آلة كاتبة بالعربية وآلة تصوير حديثة لتصوير الكتب والمخطوطات، وهما من البضاعة النادرة في الاتحاد السوفييتي، ولا يمكن شراؤها من السوق. وكتب العبودي أن للإدارة مكتبة بها مصادر قديمة ومخطوطات؛ إلا أنه لم يقدر على الاطلاع عليها بسبب كون مبنى المكتبة تحت الترميم. وذكر أن الرابطة أيضا أهدت إلى المكتبة مصادر ومراجع.[1]

أذان شجي وزهور من شقائق النعمان والرقابة المستمرة:

صلى الوفد صلاة الظهر في مسجد (تلا شيخ) بطشقند. وهو مسجد قديم عريق يقع قرب مكتب الإدارة الدينية. وأعجب العبودي بالأذان هنا، فكتب بأسلوب أدبي رفيع: "وكنا ندخل المسجد والمؤذن يبدأ الأذان، فيؤديه بصوت شجي، خيل إلي أنه النوح بعينه، وأنه يمثل نياحة المسلمين على مجدهم الضائع في هذه البلاد المسلمة العريقة. فأنصتّ للمؤذن الذي كان أذانه فصيحا إلا أنه يخرجه بتأثر بالغ، ربما كان ذلك ما تركته زيارة وفد الحرمين الشريفين في نفسه أو نفس إخوته المسلمين".[2]

وكتب العبودي أنه كان يركز في كلماته خلال تلك الرحلة على الترغيب في أداء مناسك الحج؛ لأن المسلمين في الاتحاد السوفييتي ممنوعين من أداء فريضة الحج، ولا يحج من البلاد كلها إلا وفدا لا يزيد عدده على بضعة عشر رجلا، كلهم من

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 66-75

[2] نفس المصدر، ص: 76

العاملين في الإدارات الدينية أو أئمة المساجد. وأما سائر المسلمين فإنه لا يُسمح لأحد منهم بأداء مناسك الحج.[1]

قدم أحد المسلمين خلال انتقال الوفد من مسجد (تلا شيخ) إلى معهد الإمام البخاري، باقة من زهور شقائق النعمان، قائلا إنه زرعها في منزله، ودعا الوفد لزيارة منزله ولو للحظات قصيرة. وقال إن هذه الزهور تعبير منه للمودة والتقدير للإخوة من بلاد الحرمين الشريفين. وهنا أشار العبودي إلى أنهم لم يكونوا يختلطون بالناس، بل يعتبرون المسلمين الذين يحضرون المساجد ممثلين عن المسلمين ويوجهون كلامهم إليهم. كما أن تلك الاجتماعات المكشوفة أيضا تكو مشهودة من المرافقين المسلمين والروس الذين كانوا معهم ولازموهم طيلة رحلتهم في الاتحاد السوفييتي بصفة وفد إعلامي، ولم يكونوا يفارقونهم إلى أي مكان يذهبون. مما جعلهم يتقيدون فيما يقولون ويسمعون من المضيفين بالآداب التي تفرضها الضيافة ومقتضيات اللباقة، فلا يوجهون من الحديث إلا ما يظنون أنه سيُقبل من المسلمين، ولا يترتب عليه أية نتيجة عكسية للمسلمين.[2]

زيارة معهد الإمام البخاري ولباقة العبودي:

ذكر العبودي أن الوفد زار معهد الإمام البخاري في طشقند. وطلابه كانوا يتحدثون بالعربية. وهو المعهد الوحيد في الاتحاد السوفييتي لتخريج الأئمة والدعاة، وعدد الطلاب بها 58 طالبا فقط، و6 منهم من أفغانستان. وهناك معهد آخر اسمه (مدرسة مير عرب) في بخارى، وهو أقل مستوى من هذا المعهد؛ إلا أن عدد الطلاب به 35 طالبا فقط، رغم أن يفترض أن هذه المعاهد ستخرج الأئمة والدعاة والمفتين يكفون عدد المسلمين في الاتحاد السوفييتي.

وخلال المأدبة في معهد الإمام البخاري، طرح الطلاب أسئلة على العبودي عن رابطة العالم الإسلامي والعلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفييتي والمملكة العربية السعودية، وموقف المملكة من أفغانستان. وهذه الأسئلة كانت محرجة؛ لأن المملكة

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص:77

[2] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص :77-80

العربية السعودية كانت بجانب القوى التي تحارب القوات الروسية في أفغانستان؛ إلا أن ردود العبودي كانت تتحلى بلباقة وإدراك الوضع، فقال:

"وقد أجبتهم عن أعمال الرابطة ونشاطاتها في ميدان الدعوة الإسلامية، وأن الرابطة هيئة إسلامية عالمية، وليست إدارة حكومية وإن كانت حكومة المملكة العربية السعودية تساعدها على أداء أعمالها، كما تساعد غيرها من الجمعيات الإسلامية. وإن الوفد هو من رابطة العالم الإسلامي، وليس من وزارة الخارجية السعودية. وإنما يستطيع الوفد أن يقول إن اختلاف النظام وغياب العلاقات الدبلوماسية لا يعيق الرابطة من ممارسة نشاطاتها الثقافية والدينية. ومثال ذلك أن بعثات الحج السوفييتية تقوم بأداء فريضة الحج سنويا على ضيافة الرابطة. وقلت إن علاقة المملكة لم تكن سيئة مع الشعب الأفغاني حتى تتحسن".[1]

السلام على القفال الشاشي ومعنى طشقند وسمرقند والبدعات على القبور:

ومر الوفد على قبر الإمام القفال الشاشي أحد علماء الشافعية المشهورين. توفي في عام 365هـ ودفن في هذا المكان من بلاد الشاش. وأشار العبودي إلى أن المبتدعين من المتأخرين بنو فوق قبره قبة وزخرفوا داخل القبر. وأضاف أن الجميع جلسوا حول القبر وقرأ أحدهم آيات كريمة عند القبر. وانتهز العبودي تلك الفرصة لبيان المفاسد التي تنشأ عن مخالفة الشرع في البناء على القبور، واتباع المبتدعين في هذا الأمر، وأن الدين الإسلامي بنقائه وصفائه لا يجيز تعظيم القبور أو رفع الأبنية فوقها، فضلا عن التماس النفع والبركة منها؛ لأن صاحب القبر قد انقطع عمله بموته، فأصبح بحاجة إلى من يدعو له ويستغفر له. وصار لا يملك من أمره شيئا، لذلك كيف يطلب منه أن ينفع الأحياء. وربما كانت مثل هذه الكلمات القليلة أول الكلام الذي سمعوه عن هذا الموضوع.[2]

ويظهر من حديث العبودي في مقبرة الإمام القفال الشاشي، أنه لم ينس واجبه الديني والدعوي، بل باح بالحقيقة عندما سنحت له الفرصة. وأوضح الفرق بين السنة والبدعة. ومن المعروف أن البدعات تسري إلى المجتمعات الإسلامية إذا حرمت من

---

[1] نفس المصدر، ص: 83

[2] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص: 85

العلماء الحقيقيين؛ لأن قلة العلم يساعد في انشار الجهل. ومع مرور الوقت تترسخ البدعات وتتلون بصبغة دينية، لانعدام النكير عليها.

وكتب العبودي أن كلمة (طشقند) أو تاشكند بالتركية معناها بلد الشاش، أو بلاد الشاش؛ لأن (تاش) معناها حجر وقند محرفة عن كلمة (كند) التي تعني بلدة أو مدينة... مثلما أن معنى كلمة (سمر قند) يعني بلدة أو بلاد (سمر). وسمر بالتركية القديمة غنية أو سمينة. ويقال: إن كلمة سمر قند محرفة عن لفظ سميز كنت بمعنى البلدة الغنية. وإذا تكون التسمية بطشقند رغم عدم ورودها في كتب أسلافنا العرب، مشتقة من معنى صحيح وهي أنه بلاد الشاش.... والشاش ليست مختصة ببلدة واحدة اسمها الشاش.[1]

معرض الإنجازات لشعب أوزبكستان:

من أهم ما زاره العبودي في طشقند، معرض الإنجازات لشعب أزبكستان. ولذلك المعرض أهمية من ناحية أن المضيفين أدرجوه في فقرات الزيارة، كما أنه يعرض التقدم المادي الذي حرزته أزبكستان بعد الثورة الشيوعية. ومن الغريب أن المرأة المسؤولة عن المعرض اسمها (مبارك)، وذكر العبودي أن سبب ذلك إما أنهم لم يعرفوا الفرق بين اسم الذكر والأنثى، أو أن المراد منه (المولود المبارك) بدون اعتباره ذكرا أو أنثى. وقدمت المديرة معلومات عن أزبكستان، أن مساحتها 448 ألف كلم مربع، وسكانه 18 مليون نسمة، وبها 12 محافظة و جمهورية ذاتية الحكم، وبها 42 معهدا عاليا وثلاث جامعات و250 معهدا صناعيا و9000 مدرسة و36 إكاديمية علمية و1752 مؤسسة صناعية تنتج 180 نوعا من الصناعات الخفيفة والثقيلة، وتنتج أزبكستان 5 ملايين طن من القطن وهو يشكل 65% من محصول القطن على مستوى الاتحاد السوفييتي. كما أنها قدمت معلومات أخرى أيضا. ويقول العبودي بعد سرد هذه المعلومات: " وهذه الإحصاءات التي ذكرتها بالنسبة إلينا أرقام مجردة، لا

---

[1] نفس المصدر، ص : 83-84

نستطيع التأكد منها إلا بدليل آخر، وهو ما لم يتوفر لنا لكوننا لا نستطيع الاختلاط بالشعب ومعرفة الأخبار عن الأوضاع الداخلية ومشاعر السكان تجاهها".[1]

مائة ألف بطلة من بطلات الاتحاد السوفييتي:

وفي المعرض، كانت لوحة لامرأة مسلمة تجلس وسط عدد من الناس أكثرهم من الشبان أو الصغار، وأوضحت (مبارك) أن هذه رقية بنت عثمان، وهي أنجبت للوطن 14 ولدا، وهم يحيطون بها في هذه الصورة، وأضافت أن في أزبكستان مائة ألف بطلة، والبطلة هي المرأة التي تلد عشرة أولاد. فتحوز على لقب بطلة الاتحاد السوفييتي. ويعطيها هذا بعض الميزات في استعمال المرافق العامة كالحافلات والقطارات.[2] وأشار العبودي إلى أن عدد مواليد المسلمين في الاتحاد السوفييتي يتزايد على الروس خمس مرات.

الحرية الدينية في الاتحاد السوفييتي:

ذكر العبودي أن لزيارة المساجد في الاتحاد السوفييتي طعم غير طعم زيارة المساجد في المجتمعات الحرة. ورغم أن المضيفين أشاروا إلى أن الشعب حر في معتقداته وأعماله الدينية؛ إلا أن وضع المساجد يشير إلى عكس ذلك؛ لأن طشقند مدينة مليوني نسمة و30% منهم غير المسلمين، وعدد المساجد المفتوحة بها 15 مسجدا فقط. وبينها مساجد قديمة مصادرة، أعادتها الحكومة إلى المسلمين وأخرى بنوها جديدة. كما ذكر رئيس الإدارات الدينية أن هناك 300 مسجد في الاتحاد السوفييتي ومنها 82 مسجدا في جمهورية أزبكستان. وإذا كانت هذه الحرية في أداء الصلاة التي هي أهم فريضة بعد النطق بالشهادتين، فيمكن قياس الحريات الأخرى على ذلك.

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص :87-89

[2] اتظر، نفس المصدر، ص: 89

وذكر العبودي أنهم زاروا عددا من المساجد وقدموا للأئمة والمصلين بعض الهدايا أيضا، وبينها صور كبيرة للحرمين الشريفين، وهي هدية ذات قيمة كبيرة لهم، إذ أنها غير متوفرة في السوق ولا يجوز إدخالها إلى الاتحاد السوفييتي من الخارج.[1]

كان من اهتمامات العبودي في طشقند زيارة لريف طشقند. فخرجوا إلى مناطق لا تبعد عن طشقند إلا 31 كلم. ووصف العبودي ما شاهد خلال ذلك اليوم من القرى والأبنية والمساجد. وكتب أن المساجد في طشقند وما حولها لها مرافق عديدة من حديقة وغرف للإمام والمؤذن. وفي الماضي كانت تستخدم تلك الغرف لطلاب العلم.

ذكر العبودي أن ريف طشقند منطقة زراعية حقولية. والحقول تنقسم إلى ثلاثة أقسام وهي(أسوخوز)، و(كلو خوز) ومزارع صغيرة. فالأولى للحكومة، والثانية مزارع جماعية والصغيرة للأفراد. يجوز لهم زرعها وبيع من إنتاجها ما يزيد عن حاجتهم، إضافة إلى البناء في جزء منها؛ لكن لا يجوز لهم بيعها، بل تنتقل إلى أولادهم. وزاروا خلال ذلك قرية (قاوون جي) ومعناها (البطيخي). وقُدم للوفد بطيخ من العام الماضي، وهو يحفظ لديهم طول السنة لشدة البرد. وأشار العبودي إلى أنه أكل البطيخ من العام الماضي في تركستان الشرقية أيضا، وهناك يحفظونه في غرف تحت الأرض. ومر الوفد بمحلة (كمالان) أو (كمالان محلة سي). وبها مسجد (خواجا علمدار) ويعود بناؤه الأول إلى عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وتم تجديد البناء عام 1975م. ومروا بقرية (آلتون آباد)، وقرية (بالفانج). وهناك حضروا حفل زواج أيضا، أقيم في صالة كبيرة متصلة بالمسجد. كما شهدوا الصلاة على ميت أيضا في مسجد، وكتب العبودي أنه لا فرق بين الصلاة على الميت هنا، وعندهم. وأثنى العبودي على نظافة المساجد وفرشها؛ لكنه أشار إلى أنها تكون خالية من المصاحف والكتب الإسلامية؛ لأنها توضع في مكتبة المسجد أو في غرفة الإمام.

وحضر الوفد مأدبة العشاء في منزل شمس الدين ضياء الدين بابا خان. وهو منزل كبير واسع، ويسكنه كبار المسؤولين الحكوميين؛ لأن الحكومة هي التي تؤجرها للمواطنين. وأن المسؤولين الكبار ليس لديهم خدم في الاتحاد السوفييتي؛ لأن الجميع

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص: 93

عمال عند الحكومة. وبناء عليه فإن العلماء والمشايخ كانوا يقدمون الطعام على مائدة شمس الدين. وأشار العبودي إلى أن المضيفين كانوا يجلسون المرافقين الروس للوفد على مائدة خاصة.[1]

صعوبة الحديث مع المضيفين والتقاط الصور:

ذكر العبودي أن وفدهم ظل طيلة الزيارة تحت رقابة شديدة، حيث لم يكن المرافقون الإعلاميون الروس يعطون فرصة لهم للحديث مع أحد أو لالتقاط الصور على كيفهم. وبالتالي لم يكن أمامهم سوى التقيد في حدود الحرية الممنوحة لهم، تفاديا لأي ضرر يعود عليهم أو على مضيفيهم. فكتب العبودي:

"وجرى خلال المائدة حديث عن شؤون هذه البلاد التي يسمح بالحديث عنها؛ لأن للحديث حدودا في البلدان الشيوعية لا تجوز مجاوزتها.... وحاولت أن أصور أشياء مما يحيط بنا في القرية أو من مناظر سكانها أو بيوتها الطينية، لكن كانت عيون المرافقين الروس وبخاصة الوفد الإعلامي تلاحقنا بحجة تغطية الرحلة تغطية إعلامية. والأمر كذلك إذا كان المراد به إعلام المسؤولين عندهم، ومن يهمهم الأمر بكل حركة من حركاتنا. فكانوا يلاحقونني بعدسات التلفزة التي تصور كل شيء. ولم أر من اللائق أن أقوم بتصوير ما لا يريدون تصويره، فأعرض نفسي لمخالفة قواعد اللياقة في الضيافة، أو أعرض نفسي لتصرف غير مناسب منهم قد يضطرون إليه".[2]

وكتب في موضع آخر:

"وكانت مائدة مفيدة؛ لأننا سمعنا خلالها أحاديث عديدة استفدنا منها الكثير عن أحوال هذه البلاد، دون أن يصل ذلك إلى الناحية السياسية. وكان الحديث معهم ينقطع عندما يقارب الوصول إلى الأمور السياسية. فيكون عنده ما يكون عند جواب ما يُكره قوله، وهو السكوت".[3]

زيارة معهد الاستشراق في طشقند:

زار وفد العبودي معهد الاستشراق في طشقند. ويسمونه معهد أبي الريحان البيروني للاستشراق. وأفاد مدير المعهد (مظفر خير الله) أنه تم تأسيس هذا المعهد

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 92-105

[2] في بلاد المسلمين المنسيين، ص: 97-98

[3] نفس المصدر، ص: 106

خلال الحرب العالمية الثانية عام 1943م. ومن وظائفه الأساسية دراسة الثقافة الشرقية وتاريخ الدول الشرقية وتاريخ الإسلام. وكتب العبودي أن المعهد به مخطوطات نادرة، وبينها مخطوطات كتب الخوارزمي، و الفارابي، و البيروني. كما أن المعهد قام بطباعة مؤلفات البيروني في سبع مجلدات عام 1980م بمناسبة مرور ألف عام على ميلاده.

والكلمة التي ألقاها العبودي، ردا على كلمة مدير المعهد، سلط ضوء على الأخوة الإسلامية بين المسلمين، وإسهامات علماء هذه البلاد في خدمة علوم الحديث والتفسير والفقه والهيئة والفلك والعلوم الأخرى، ودور رابطة العالم الإسلامي في توطيد الأواصر الإسلامية بين المسلمين، مشيرا إلى مخطوطات في مكتبات عدة في المملكة العربية السعودية. واقترح على المعهد ترجمة فهرس المخطوطات لديها، ليسهل على الباحثين والعلماء من العالم العربي مراجعتها.[1]

الجمعية الأزبكية للصداقة والعلاقات الثقافية مع البلدان الأجنبية:

شملت رحلة العبودي زيارة للجمعية الأزبكية للصداقة والعلاقات الثقافية مع البلدان الأجنبية التي كان يرأسها آنذاك (عبد الفتاح علام). فتم تعريف الجمعية وما تقوم بها من استقدام الوفود الخارجية للزيارات، وزيارات وفودها للخارج. وأشار مدير الجمعية إلى أن الإسلام خلف أثرا قويا على الثقافة الأزبكية ولا تزال النقوش الإسلامية طاغية على الطراز المعماري في هذه البلاد. وألقى العبودي هنا أيضا كلمة وكتب:

> "وكذلك نوهت بسرورنا بأن يتعلم أبناء المسلمين في هذه الديار اللغة العربية في بعض المدارس، وفي قسم الدراسات العربية بجامعة طشقند. وختمت حديثي بأن الإسلام هو دين يحث على العلاقة الصادقة الطيبة، ليس بين المسلمين فحسب، بل مع غير المسلمين في كل ما فيه خدمة الإنسان والبشرية، بل هو دين الرحمة والرأفة مع كل الكائنات الحية".[2]

وكتب العبودي أن ذلك كان يوم الجمعة، فأدوا الجمعة في مسجد (كوكجة محلة سي) أو مسجد زين الدين، وكان عدد المصلين به أكثر من خمسة آلاف مصل. وتلقى الوفد حفاوة وترحيبا. وكان المصلون تشنجوا بالبكاء، عندما ألقى العبودي كلمة

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص : 108-115

[2] في بلاد المسلمين المنسيين، ص: 118

أمامهم، بينما صرح المفتي شمس الدين بابا خان أن الإدارة الدينية في الاتحاد السوفييتي تستضيف الوفود من مختلف أنحاء العالم، كما أن رابطة العالم الإسلامي تستضيف وفود الحج من الاتحاد السوفييتي كل عام؛ إلا أن وفد العبودي أول وفد من الحرمين الشريفين في تاريخ المسلمين في الاتحاد السوفييتي.[1]

ماذا كان الشيوعيون يفعلون بالمساجد؟ وكيف كان المسلمون يبنونها؟

كتب العبودي أن لبناء المساجد في الاتحاد السوفييتي وقع عظيم وأهمية كبرى في قلوب المسلمين؛ لأن الشيوعيين بعد الثورة الشيوعية، صادروا المساجد، ولم يتركوا في منطقة تكون فيها مائة مسجد؛ إلا مسجدا واحدا. ولذلك كان حماس المسلمين شديدا، لبناء المساجد، عندما خفت وطأة الشيوعية قليلا. وكتب العبودي في ذلك:

"وقد بلغ الحماس بالمسلمين أشده في هذا الأمر – بناء المساجد–، لأن الإذن ببناء المسجد في الاتحاد السوفيتي أمر له أهمية بالغة، لما كان المسلمون قد عانوه في السابق من عدم الإذن ببناء المساجد بعد أن كان الشيوعيون قد صادروا المساجد ومنعوا المسلمين من الصلاة فيها؛ إلا عددا لا يكفيهم كالمدينة التي كان فيها قبل الشيوعية مائة مسجد مثلا، فإنهم يبقون مسجدا واحدا مفتوحا للصلاة، وبقية المساجد يغلقونها أو يستعملونها لما ينافي العبادة، كأن يجعلوها مساكن للشبان الشيوعيين أو مخازن لبعض البضائع. وأخبرنا الإخوة هنا أن بعض المسلمين الذين لا يستطيعون التبرع بالنقود لفقرهم وكون النقود التي يحصلون عليها لا تفي بأكثر من حاجاتهم الضرورية، فإنهم يتبرعون بأشياء عينية. وبعض الذين لا يستطيعون التبرع بالنقود ولا بالأشياء العينية، أسهموا بالعمل بأيديهم".[2]

أمور إيجابية وسلبية ونظرة إنصاف:

في نهاية زيارته لطشقند، ألقى العبودي نظرة على نتائج تلك الزيارة، ليبرز أمورا إيجابية. وكتب أنه لا يستطيع القول إنهم قد حصلوا على صورة كاملة عن المسلمين في هذا البلاد وكيفية ممارسة شعائرهم الدينية، بسبب الرقابة الشديدة وتقيد تحركات الوفد؛ لأن ذلك لا يمكن إلا لمن يقوم بزيارة خاصة ويكون لها أصدقاء وأعوان من أهل

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص: 123

[2] في بلاد المسلمين المنسيين، ص: 130

البلاد؛ لكن مع ذلك قدم العبودي للقارئ ما شاهده. وأشار إلى أن بث إذاعة الإسلام باللغة التركستانية من جدة، مسموع هنا؛ لكن المسلمين لا يرضون لغته ومادته المقدمة، ويريدون تحسينه. وتلقى معلومات عن أن بعض الشباب قاموا بترجمة بعض الكتب العربية بلغتهم ويتداولونها بينهم سرا، مضيفا أن الإذاعة الإيرانية تبث برامج هادفة باللغة التركستانية، وذلك ما أثر على المسلمين في هذه البلاد وبدأ التشيع ينتشر في المناطق الجنوبية من تركستان الغربية.

ولم يظلم العبودي في رحلته حتى الروس والنظام الشيوعي أيضا، إذ أنه أشار إلى أمور إيجابية، وبينها منع التدخين في الشوارع والأماكن العامة ومنع تعاطي الخمر في الأماكن العامة وبيعها فقط خلال التاسعة إلى الثانية عشرة ليلا، وإلحاق العقوبة بمن يخالف ذلك. وخص بالذكر أن الشيوعيين يمنون على المسلمين بأن النظام الشيوعي قام بنشر العلم بعد الجهل، وجعل من أبناء المسلمين أطباء ومهندسين وفنيين؛ لكنه في نفس الوقت يشير إلى أن هذه الأمور ليست نتيجة الشيوعية، بل كل من يتخذ الأسباب الصحيحة في العلوم التجريبية، سيصل إلى نتائجها، مبررا بأنه لو كانت الشيوعية السبب الوحيد لهذا التقدم في العلو التجريبية لتقدم الاتحاد السوفييتي على الولايات المتحدة لكن العكس صحيح، وأن الاتحاد السوفييتي يسعى للحصول على بعض التقنيات المتقدمة التي تملكها الولايات المتحدة عن طريق السرقة والجواسيس والعملاء. مع ذلك أكد العبودي أن الأمر المؤسف في هذا الصدد، هو أنه لا يوجد أي قطر من الأقطار الإسلامية، يكون متقدما في العلوم التجريبية مع تمسكه بالإسلام. ويشدد على أن "ذلك كله بسبب عجز بعض المسؤولين في الدول الإسلامية أو تعاجزهم عن الأخذ بالأسباب الموصلة إلى الصناعة الراقية والعلم المادي النافع".[1]

قضى العبودي ووفده المرافق وقتا طويلا في مطار طشقند قبل الإقلاع إلى سمر قند، بسبب المطر؛ لكن العبودي لا يقتنع بهذا السبب ويقول إن مثل هذا الطقس لا يمانع السفر. وقال إن الخدمات في المطار كانت رديئة جدا وأن الحمامات أيضا لا يوجد فيها ماء ولا المناديل للتنشيف. وكل من يريد أن يتطهر يأخذ الأوراق من الخارج.

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 132-137

واستغرب العبودي تربية الشعب في الاتحاد السوفييتي على الصبر، إذ يقول إنهم ظلوا داخل الطائرة لأكثر من ساعة، وليست بها تهوئة، ولا يفتحون بابها، ولا تتحرك. وكاد بعض المسافرين أن يختنق بسبب الحر وانعدام الهواء الطلق؛ لكن لم يجرأ أي أحد من الركاب على السؤال عن سبب التأخير في الرحلة. وعندما ألح العبودي على رئيس الإدارة الدينية للقسم الأوروبي الشيخ (طلعت تاج الدين) الذي كان جالسا بجانبه، أن يسأل عن السبب، فسأل المضيفة بلطف وقال: "أربط الحزام أو نتركه؟ – يشير بذلك إلى السؤال عما إذا كان وقوف الطائرة هكذا سيطول أم يقصر–، فأجابت قائلة باقتضاب وبدون مبالاة من غير أن تتوقف: كما تريدون".[1] ولم ينس العبودي المقارنة بين الطائرة الروسية التي سافر بها من طشقند إلى سمر قند، وبين الطائرة الصينية التي سافر بها من كاشغر إلى (أورومسي) عاصمة تركستان الشرقية.

في سمر قند:

وصل العبودي إلى سمر قند، في وقت متأخر من الليل. ولقي الوفد استقبالا وحفاوة على المطار. ونزل الوفد في فندق سمر قند في الساعة الثالثة قبل الفجر. وكانت غرفة العبودي في الطابق التاسع؛ إلا أن الغرفة لم تكن بحالة جيدة، إذ كتب العبودي أن الصحيح أن كل شيء في تلك الغرفة كانت تحتاج إلى صيانة، فباب الغرفة لا يكاد يغلق، والحمام الخاص في الغرفة تنقط من فوقه نقط من الماء الخفيف لا شك في أنها متسربة من الحمام الذي فوقه، وصنبور الماء لا يمسك الماء إذا أغلق إمساكا كاملا.[2]

وكان شوقه إلى سمر قند عظيما، فكتب عنه بأسلوب أدبي لطيف:

"كان صباح سمر قند أعقب ليلة ليلاء، أو على الأدق كان في أعقاب ليلة من الأحلام المليئة بسمر قند. فكأنني لم أصدق أنني الآن في سمر قند ذات التاريخ العتيق والماضي الإسلامي المجيد، بلاد العلماء الأعلام من أهل الإسلام من المؤرخين والشعراء والفلاسفة والحكماء.

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص : 138-143

[2] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص: 146

وربما كان ذلك أيضا ما جعل نومي متقطعا، وفكري موزعا، حتى أسفرت النافذة خلف الستارة، فأزحتها عن منظر أنيق، وإن كان لا يروق، فأناقته أنه لسمر قند التي كان اسمها يجلجل في خاطري ويلح في ذلك منذ أن دخلنا هذه الأرض أرض بخارى و ما وراء النهر قبل أيام.

وأما كونه لا يروق، فهو أنني تصورت أن عيني ستقع أول ما تقع عليه من مدينة سمرقند من نافذة غرفتي الواقعة في الطابق التاسع من فندق سمر قند، على أبنية بهيجة، وحدائق مزهرة، وأنهار أراها كما تخيلتها من أوصاف المؤرخين، تدخل البيوت فتخرج منها بخبث أهلها لتبعد الخبث عن مدينتهم.

وكان أول مناظر المدينة بيوتا قديمة ذات طلاء متغير وبيوتا منفردة ذات سقوف مسودة مسنمة. وأبنية ترى منها وميض التاريخ على البعد، وهي تبدو شبيهة بالقلاع أو التكايا القديمة من ارتفاع غرفتي. ومنها واحد ذو قبة زرقاء اللون، عرفت بعد ذلك أنها القبة المبنية فوق قبر قثم بن العباس([1]) ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهي الوحيدة القديمة المجددة. فكان طلاؤها الأزرق يلمع، وكأنما ينافس زرقة السماء في هذا اليوم المشرق المشمس الصافي الأديم".[(2)]

ذكر العبودي تاريخ مدينة سمر قند باقتضاب شديد؛ إلا أنه جاء في هذا الإنجاز بمعلومات هامة جدا تلقي الضوء على أهمية سمر قند في تاريخ تركستان الغربية. وأشار إلى أنها مدينة قديمة يعود تاريخها إلى 2500 عام. ولها دور هام في التاريخ الإسلامي منذ أن فتحها العرب المسلمون في عام 56هـ/675م. وكانت عاصمة لعدد من الحكومات الإسلامية، بدء من الدولة السامانية (252-375هـ) حتى الدولة التيمورية (770-906هـ). وازدهرت بسبب اهتمام الملوك بها لكونها عاصمتهم. وبها الكثير من الآثار الإسلامية الرائعة والتي بدونها تكون سمر قند قريبة من

---

[1] قثم بن العباس بن عبد المطلب أخو عبد الله بن العباس وإخوته. أمه أم الفضل. قال ابن السكن وغيره: كان يشبه النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يصح سماعه منه، قال: وقال علي: كان قثم أحدث الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وسلم... وقال ابن حبان: خرج مع سعيد بن عثمان بن عفان إلى سمرقند فاستشهد هناك. وولاه علي لما استخلف مكة، وعزل خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة، قاله خليفة. انظر: العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، 2012م-1433هـ، ص:1214

[2] في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 146-148

القرى المنسية. تلك المباني الجميلة تعكس حضارة الإسلام في هذه المنطقة، وتنظر بحزن وألم لما آل إليه حال المسلمين ويبلغ عدد سكان سمر قند الآن 345 ألف نسمة. وفي عهد تيمور لنك كان سكانها يبلغون 450 ألف نسمة. هبط عددهم إلى أقل من 100 ألف بعد ذلك.[1]

قبر تيمور لنك:

يقع قبر تيمور لنك([2]) في سمر قند. وزاره العبودي. وقدم معلومات مفصلة عن تيمور لنك وقبره. وكتب أن جيوشه غزت أكثر البلدان الإسلامية ومنها الأمصار العربية أيضا. كما أنه غزا حدود روسيا، أمعن في قتل أبناء عمومته من الأتراك وتشريدهم، حتى زعم البعض أن غزوات تيمور لنك تلك البلاد، ربما كانت سببا من أسباب تغلب الروس عليهم، لانقسامهم وضعفهم بعدها. ومن الغريب أن تيمور لنك عزم على غزو الصين أيضا؛ لكنه مات في الطريق وعمره لم يتجاوز 42 عاما، في سنة 807هـ.[3]

وصف العبودي البناء الذي يقع فيه قبر تيمور لنك، أنه بناء شاهق متين، وعليه قبة شاهقة. وهو من بناء تيمور لنك نفسه، وقد دفن فيه هو وأولاده. وتقوم الحكومة بترميمه، وتم استعمال كيلوين ونصف الكيلو من الذهب في عملية إعادة زخارفه عام 1975م. وأشار إلى أمر غريب وهو أن تيمور لنك خدع حتى في قبره؛ لأن القبور تحت القبة مزيفة، والقبور الحقيقية لتيمور وأولاده في طابق أسفل، لم يمكن الكشف عنها إلا عام 1941م. وتذكر العبودي بعد أن شاهد مقبرة تيمور وأولاده، أن إخفاء القبور كان معروفا عند الفراعنة، خوفا من اللصوص، لأنهم كانوا يسرقون ما في قبور

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص:149

[2] تيمور لنك أو تيمور الأعرج (1336-1405م): ملك المغول حفيد جنكيز خان وفاتح شهير. اعتلى العرش 1370م أخضع إيران وآسيا من دلهي إلى بغداد. اجتاح العراق وسورية وفتح دمشق وحلب وغزا روسيا والهند. خرب بغداد 1392م و1402م. انتصر على بايزيد الأول في أنقرة 1402م. اتخذ سمرقند عاصمة له وجمع فيها العمال الماهرين والفنانين والعلماء من كل بلاد فتحها. فازدهرت فيها الفنون والعلوم. انظر: المنجد في الأعلام، ص:189

[3] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 149-150

الفراعنة الذين كانوا يدفنون موتاهم بجميع ما لهم من مال. ويتساءل هل كانت هذه الفكرة معروفة لتيمور أو من في عصره، أو أنها مجرد مصادفة؟[1]

ميدان المدارس في سمر قند:

من أهم معالم مدينة سمر قند ميدان ريكستان. وبه ثلاث مدارس قديمة ذات أبنية فخمة ونقوش إسلامية رائعة. وتسمى تلك النقوش النقوش الإسلامية، لأنها كانت شائعة في العالم الإسلامي في القديم، ولكونها خالية من صور الأحياء من أناس وحيوان. والميدان محاط بالمدارس من ثلاثة جوانب والجانب الرابع مدخل إليه. والمدارس هي مدرسة (أولغ بيك) ومدرسة (شيردر) ومدرسة (تلا قاري) – العمل المذهب–، كما كتب العبودي.[2]

وكتب العبودي أن المكان كان غاصا بالسياح الأجانب، إضافة إلى سياح من أزبكستان والمناطق المتجاورة أيضا. ووصف العبودي النقوش المكتوبة على جدران هذه المدارس بالخط وبالفسيفساء. والفسيفساء هو يشبه السيرامك من قطع صغيرة تكون ملونة بهيجة المنظر. وكان للمسجد هناك قبة كبيرة ارتفاعها من الداخل 27 مترا، وقد صمدت أمام الزلازل التي أصابت هذه المنطقة منذ زمن طويل. وذكر العبودي أنهم كتبوا على باب قاعة للدرس "قال عليه الصلاة والسلام: علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل"، مع أن هذا الحديث ليس من الأحاديث الصحيحة.[3] وهذه الملاحظة على هذا الحديث يشير إلى علم العبودي بعلم الحديث؛ لأنه كان من طلاب العلم الذين استفادوا من كبار الشيوخ في منطقتهم. وكان ملازما لشيخه الشيخ عبد الله بن حميد لفترة طويلة.

في سوق سمر قند:

بعد زيارة ميدان ريكستان، زار العبودي ووفده سوق سمر قند، عسى أن تكون هي أيضا مثل سمر قند القديمة، رغم أن زيارة السوق لم تكن ضمن برنامج الزيارة.

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 153-154

[2] وإذا كان معنى كلمة (تلا قاري) العمل المذهب، فإن كتابته الصحيحة هكذا (طلا كاري)، والطلاء الذهب وكاري العمل، ومعناه العمل الذي استخدم فيه الذهب. (الباحث)

[3] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 156-161

وأشار العبودي إلى فائدة من زيارة السوق، وهي أنها "فرصة ثمينة لرؤية الناس من عامة الشعب على طبيعتهم من غير تكلف واستعداد للقاء الضيوف"، ووصف المارة في السوق أن معظمهم من الأتراك الأصلاء، والنساء المسلمات يغطين رؤوسهن بمناديل، بينما الشابات لا غطاء لهن على الرأس لكن ملابسهم محتشمة وليست متبرجة مثل الأوروبيات الغربيات ومن قلدنهن من نساء البلدان النامية. وتتلخص قراءة العبودي للسوق في هذه الكلمات: "ورأينا الناس من مظاهرهم وما توحي به ألوانهم وأثوابهم على درجة متوسطة من المعيشة. فليس عندهم مظاهر الفقر الموجودة في الهند أو بعض أنحاء أفريقية، ولا على جانب الترف الموجود عند الأوروبيين".[1] كما أشار إلى أن حالة الشارع أيضا وسط والأرصفة أيضا جيدة لا تنحدر إلى درجة رديئة.

وصف العبودي سوق سمر قند وصفا دقيقا بكل ما فيه من الناس والبضائع وأن شوارع السوق عليها عرائش العنب، تتدلى عناقيدها في الصيف. وأشار إلى أمر غريب وهو أن هذه الأسواق ليس فيها باعة ولا مشترون، بل كلهم متسوقون مشترون؛ لأن البائع هي الحكومة فقط؛ إذ هي من تملك الحوانيت. ولا يجوز للمواطن البيع والشراء؛ إلا إذا كان من إنتاجه، ولا يخلط معه أي شيء آخر. ومعظم البائعين في تلك المحلات من النساء. وعلى الرغم من أن بضائع الفلاحين الخاصة غالية؛ لكن يقبل الناس عليها لجودتها مقارنة بالبضائع المعروضة في المحلات الرسمية. أما السلع الضرورية الاستهلاكية كالخبز والأرز والسكر، فهي تباع في المحلات الرسمية بأسعار محددة. والأسعار غالية في سوق سمر قند مقارنة بالأسواق السعودية.[2]

وأشار العبودي إلى أمر لافت في الاتحاد السوفييتي، حيث كتب:

"... ولا يوجد فلاح كبير لأنه لا يجوز في الاتحاد السوفيتي أن يستأجر إنسان إنسانا آخر إلا للحكومة التي يصح أن يقال إنها تستأجر الجميع. والحكومة كما هو واضح هي مجموعة من الأشخاص الذين ينتمون إلى الحزب الشيوعي، أو يطبقون أوامره وينفذون ما يصدره من قوانين، وإن كانوا يقولون إن ذلك من أجل مصلحة الجمهور".[3]

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص : 161-162

[2] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 162-168

[3] نفس المصدر، ص: 166

وأرى أن هذه الفقرة نقد جميل للنظام السوفييي، إضافة إلى بيان الأمر الواقع بأسلوب منطقي. وهو أنه إذا لم يجز للإنسان استئجار إنسان، فكيف يجوز للحكومة استئجار البشر؟، إذ هي أيضا مجموعة من البشر؛ ولأن هذا الأمر أيضا لا يخلو من استئجار إنسان لإنسان أو استخدام إنسان لإنسان.

أشار العبودي إلى أن هناك مسجد قديم جدرانه مثل جدران قلعة قرب سوق الخضار، ويسمونه (بي بي خانم مسجد) إلا أنه خراب لا يصلون فيه، ويعود إلى عهد تيمور لنك؛ إلا أنه لم يعرف هل تهدم المسجد قبل الشيوعيين أو بعد ذلك. ثم زار قبر قثم بن العباس رضيى الله عنه ويسمونه هنا (شاه زندة). وهنا استخدم العبودي كلمة (ضريح) بدلا من القبر للدلالة على القبر والبناء حوله؛ لكنه لم ينس النكير على ذلك، حيث كتب أنه استخدم تلك الكلمة مع "الكراهية الشديدة"؛ لأن كلمة ضريح اشتهرت بالبدع والمنكرات والشركيات، حتى صار بعض الجهلة والمبتدعين يفعلون عند بعض الأضرحة ما كان يفعله أهل الجاهلية عند أوثانهم أو قريبا من ذلك، كتعظيم صاحب القبر والخضوع له والخشوع عنده وعدم القسم به كذبا.كما استنكر رفع القبر من الأرض أكثر من شبر، عندما زار قبر (شادي ملك آغام) أي الملك السعيد والأخ الأكبر.[1]

وكتب العبودي أن مدينة سمر قند أقيمت على أنقاض مدينة (أفراسياب) القديمة، ودمرها جنكيز خان، وأعيد بناؤ ما خُرب منها منذ عهد تيمور لنك. فقاموا بترميم ضريح قثم بن العباس، وأنشأوا أضرحة أخرى لأفراد من أسرة تيمور لنك. وأضاف أن:

"الحكومة ترمم هذه الآثار الآن لغرضين كلاهما غير شرعي، أولهما جذب السياح للحصول على المال من التفرج برؤية هذه الأبنية البديعة، والثاني التمويه على السذج من عامة المسلمين المتدينين الذين يرون أو يتوهمون أن ترميم هذه الأضرحة والقبور هو من الدين، لأنها مقابر لقوم صالحين".[2]

وزاد العبودي النكير على البناء على القبور، فكتب:

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص : 168-172

[2] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 172-173

"فقلت للقوم المرافقين: إذا كان جنكيز خان وقومه من المغول قد هدموا هذه المنطقة التي فيها قبر قثم بن العباس وما حوله عام 617هـ وتركوها خرابا يبابا لسنوات طويلة إلى أن أعاد بناءه أو بناء بعضها تيمور لنك ومن جاءوا من بعده من خلفاء، كيف نحكم بأن هذا القبر هو قبر قثم بن العباس رضي الله عنه. وإذا حكمنا بأنه قبره وعرفناه فإن الأولى بنا أن نزيل عنه كل محدث حوله مما يخالف الدين ونتركه للناس يزورونه الزيارة الشرعية. ويدعون له ويأخذون العبرة والموعظة من اجتهاده في جهاده وطلبه الشهادة في سبيل الله، حتى قتل في هذه البقعة البعيدة النائية عن بلاده". [1]

أضاف العبودي أن المؤرخين ذكروا أن قثم بن العباس رضي الله عنه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم استشهد في معركة سمر قند التي قاد المسلمين فيها سعيد بن عثمان بن عفان رضي الله عنه عام 56هـ.

مرصد أولغ بيك والمتحف:

بعد زيارة (شاه زندة) وصل الوفد إلى مرصد أولغ بك في (كوجاك تبة)، وقد بناه ميرزا أولغ بك حفيد تيمور لنك، وكان عالما وفلكيا كبيرا. وقد رصد من هذا المرصد 1018 نجما. وحسِب السنة الشمسية أنها 365 يوما و6 ساعات و10 دقائق و8 ثوان. وهي أقل من الحساب الجديد فقط بدقيقة واحدة وثانيتين. وكان يعمل معه في المرصد عالم آخر يسمى (علي قوشجي) وهو توفي في إستانبول، بينما اتهم أولغ بك بالإلحاد، وقتل عام 1449م. وتم هدم المرصد. ولم يكشف عنه إلا عام 1928م خلال حفريات. كما زار الوفد المتحف الذي يقع قرب المرصد. ومما لفت انتباه العبودي فيه، هو تمثال جمجمة تيمور لنك وأولغ بك.

إثر زيارة المتحف، توجه الوفد نحو بلدة (خرتنك) التي يقع بها قبر إمام المسلمين في الحديث الإمام محمد بن إسماعيل البخاري. ويسمي أهل المنطقة تلك البلدة (إمام خوجا إسماعيل). وهي تقع على مسافة 30 كلم من سمر قند. ومر الوفد للوصول إليها بقرى وحقول ومزارع كبيرة، وبساتين شاسعة. كما شاهد خلال الرحلة (سرحا) أيضا. والسرح كما أوضح العبودي هي أبقار لأهل القرية يرعاها راع.

---

[1] نفس المصدر، ص: 173

يقع قبر الإمام البخاري في فناء مسجد خرتنك، وهو مسجد كبير لكنه ليس كالمساجد التاريخية الأخرى في ضخامته وتأنقه، حسب رأي العبودي. وفي ساحته أشجار كثيرة أكبرها عمرها أكثر من 500 عام، غرست مع بناء المسجد. وكتب العبودي أنهم حضروا قبر الإمام البخاري للسلام عليه، فدعوا له. وأشار إلى أن قبره أيضا لا يخلو من البناء؛ لكن بناءه ليس مثل الأضرحة الأخرى، مشيرا إلى أن ذلك لا يعني أن هذا البناء يجوز، بل إن بعض الشر أهون من البعض.

تناول الوفد الغداء في غرفة الطعام في محيط المسجد، وشهدوا عقدا للزواج الشرعي. وكتب العبودي أن العقد الشرعي يتم بعد العقد المدني؛ لأن الحكومة لا تعترف بأي شرع ولا دين؛ لكن الزواج الشرعي ضروري لتسجيل الزواج لدى الحكومة.

توجه الوفد من مسجد (خرتنك) إلى سمر قند. وفي الطريق شاهدوا لوحة تشير إلى مدينة بخارى؛ لكن لم يكن لديهم إذن بزيارتها، رغم أنهم طلبوا ذلك من السفارة السوفيتية في عمان، إضافة إلى طلب ذلك من مكتب الإدارات الدينية في الاتحاد السوفييتي.

وقف الوفد في الطريق لزيارة مسجد (خواجا أحرار) – وهو خواجا عبيد الله أحرار، شيخ الطائفة النقشبندية الصوفية–. وهو أيضا مسجد كبير. وله جزءان مسجد للصيف مفتوح ومسجد للشتاء. وأشار العبودي إلى أنهم رأوا في المسجد كتابات وبينها (جراغ مسجد ومحراب ومنبر --- أبوبكر وعمر عثمان وحيدر)[1] ، موضحا أن ذكر أسماء الخلفاء الراشدين أصبح شعارا لأهل السنة في هذه المنطقة في وجه المد الصفوي في إيران، مشيرا إلى ذلك التحدي قد انتهى؛ لكن التقليد لا يزال باقيا.

وذكر العبودي أنه لا يوجد في الاتحاد السوفييتي أي مدرسة إسلامية خاصة صغيرة أو كبيرة، سوى مدرسة مير عرب في بخارى، ومعهد الإمام البخاري في طشقند، وأن عدد طلابهم أيضا يمكن عده على أصابع اليد.

---

[1] هذا بيت بالفارسية ومعناه إن أبا بكر وعمر وعثمان وحيدر، سراج المسجد والمحراب والمنبر. (الباحث)

مؤتمر صحفي في فندق سمر قند:

كان هذا آخر يوم لوفد العبودي في سمر قند. فطلب المضيفون عقد مؤتمر صحفي، للإعراب عن انطباعاته عن زيارته للاتحاد السوفييتي؛ إلا أن العبودي كتب أنه لم يكن "منشرحا" لذلك، بسبب أنه قد يضطر إلى المجاملة أو قول ما لا يريده المضيفون، أو ما يكون له وقع سيئ على المسلمين. وأرى أن التفكير في هذه الأمور يدل على حنكة العبودي ومحاولته تعاملا حذرا مع الصحافة؛ لأن وسائل الإعلام سلاح ذو حدين، فكما أنها تفيد، فكذلك تضر أيضا.

ومن هذا المنطلق كانت ردود العبودي حذرة. وقد أكد ردا على سؤال أن المسلمين في الاتحاد السوفييتي ليسوا كلهم شيوعيين؛ لأن أعضاء الحزب الشيوعي قليل جدا بالنسبة لعدد سكان البلاد. وفي تعليقه علام يتمنى للمسلمين في الاتحاد السوفييتي، قال إنه يتمنى أن يتلقى أبناء المسلمين تربية إسلامية تربطهم بماضيهم الإسلامي، ويتمنى زيادة عدد المسلمين من هذه البلاد في موسم الحج.[1]

وبهذا انتهت رحلة العبودي الأولى إلى تركستان الغربية (أزبكستان) في 20 أبريل عام 1986م، وتوجه الوفد من سمر قند إلى باكو، عاصمة جمهورية آذربيجان السوفييية الاتحادية. وكتب عن تلك الرحلة كتابا آخر؛ إلا أنه ضم رحلته إلى بخارى عام 1990م إلى هذا الكتاب "في بلاد المسلمين المنسيين". ورغم أن هناك فارقا زمنيا بين الرحلتين، تم ضم الرحلة الثانية إلى الرحلة الأولى بمناسبة كون بخارى جزءا من أزبكستان.

إلى بخارى، مدينة الإمام البخاري:

كما كتبت من قبل أن العبودي لم يقدر على زيارة بخارى خلال أول رحلة له إلى الاتحاد السوفييتي عام 1986م، رغم إلحاحه على ذلك؛ إلا أنه تمكن من زيارة بخارى في الرحلة الثانية إلى الاتحاد السوفييتي عام 1990م. وزار عدة مدن ومناطق وبينها مدينة بخارى أيضا. فضم ذكر بخارى إلى كتابه (في بلاد المسلمين المنسيين:

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 174-195

بخارى و ما وراء النهر) رغم أنه دون رحلته الثانية إلى هذه البلاد في كتاب آخر سماه (يوميات آسيا الوسطى).

وذكر العبودي أنه سافر من أوركينج عاصمة خوارزم التاريخية إلى بخارى. وأشار إلى أن الكتب العربية التاريخية تسمي أوركينج، كاركينج. ومن الغريب في هذه البلاد أن درجات الحرارة فيها ترتفع إلى 44 درجة مئوية صيفا، وتهبط إلى 20 درجة تحت الصفر شتاء. وأشار العبودي إلى أن ياقوت الحموي أيضا ذكر شدة البرد في خوارزم وكتب أنه كان لم يقدر على الكتابة بسبب تجمد الدواة في الشتاء، فكان يقربه إلى النار.

وزار في أوركينج مسجد (أخون بابا)، وهو مسجد قديم ومن المساجد المعدودة التي لم يُغلق أيام الشيوعيين أيضا. وأشار العبودي إلى أهمية هذه البلاد في تاريخ المسلمين، وأنها كان مهدا للثقافة والحضارة والعلوم. كما أنه تحدث بالتفصيل عن التضاريس الأرضية لهذه المنطقة، كما شاهدها من فوق الطائرة التي مرت فوق نهر جيحون الذي يسمونه الآن (آمو دريا). وأكد العبودي أن بحيرة أرال، في الحقيقة هي بحيرة (خوارزم)، كما أن كلمة (أرال) تكتب بدون الواو، وليست لها علاقة مع جبال أورال التي تقع بعيدة عنها.

أشاد العبودي بأعمال النظام الشيوعي في شق الأنهار في هذه المنطقة التي تشبه الصحراء؛ لكن في نفس الوقت أشار إلى أن الاتحاد السوفييتي قام بالتجارب النووية في هذه المنطقة، مما تسبب في انتشار أمراض سرطانية وغازات سامة أثرت على البيئة وعلى سكان المنطقة على حد سواء، مشددا على أنه لو حدث مثل هذا الأمر في الدول الغربية الديموقراطية، لكان له شأن؛ لكن لا يمكن رفع أي صوت عنه في الاتحاد السوفييتي.[1]

وتذكر العبودي أبياتا حفظها قبل نحو نصف قرن لشاعر كان في نجد واشتاق إلى خوارزم، بينما كان الأمر عكس ذلك؛ لأن العبودي في خوارزم ويحن إلى نجد؛ إلا أن الحنين واحد. وإليكم تلك الأبيات:

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 199-203

أ أبكاك لما أن بكى في ربى نجد سحاب ضحوك البرق منتحب الرعد

له قطرات كاللآلي في الندى ولي عبرات كالعقيق على خدي

تلفت منها نحو خوارزم والها حزينا ولكن أين خوارزم من نجد [1]

في مدينة بخارى:

قطعت الطائرة المروحية المسافة بين أوركينج وبخارى في ساعة. وكانت الرحلة في أوائل يونيو 1990م. ونال العبودي استقبالا رسميا في مطار بخارى، ومر الوفد بمناطق خضرة نضرة قبل وصوله إلى فندق بخارى. وأشار إلى أن قرى بخارى قرى واسعة وبها أراض زراعية، والأشجار كثيرة؛ إلا أن الجو يبقى صحراوية لكون هذه البلاد بعيدة عن البحار. وكتب أن الفندق كان جيدا لكنه لم يكن كما يتوقعه بأن يكون كل شيء في هذه المدينة يحمل صبغة تاريخية.

جولة في مدينة بخارى:

كتب العبودي أن جدول أعمالهم في بخارى كان حافلا. فخرجوا في جولة على المساجد، بدون أن يأخذوا قسطا من الراحة. وأول ما زاروه هو (مسجد كلان) أي الجامع الكبير أو جامع الإمام البخاري. وهو يسع لتسعين ألف مصل، بينما كان في الماضي أكبر من ذلك. وقد دمرت المغول مدينة بخارى عام 616هـ، فلم يكد يبقى فيها أحد. ومن بقي من سكان المدينة على قيد الحياة، هرب إلى الأرياف والمناطق الأخرى. وكان آخر بناء (مسجد كلان) على أيدي الأمير عبد الله الشيباني من ذرية تيمور لنك. وكان في موضعه في البداية مسجد صغير أسس في عهد قتيبة بن مسلم الباهلي في أواخر القرن الهجري الأول. صادر الشيوعيون الجامع الكبير وحولوه إلى مستودع. واستعاده المسلمون عام 1989م.

وكان الإمام البخاري يحدث الناس فيه. فكان له ثلاثة من المبلغين الذين يتلقفون ما يقوله ويعيدونه ليسمعه الناس الذين لا يجدون مكانا يستطيعون فيه استماع كلامه. ويقال إن الإمام البخاري حدث في هذا الجامع 90 ألف حديث؛ إلا أنه اضطر إلى غادرة بخارى عندما طلب منه أمير بخارى إسماع أولاده الحديث في قصره.

---

[1] في بلاد المسلمين المنسيين، ص: 205

فلم يرض الإمام البخاري بذلك؛ لحرمان عامة الناس من سماع الحديث، فهدده الأمير. فخرج من بخارى مغاضبا إلى سمر قند؛ لكن والي سمر قند أيضا منعه من الإقامة في سمر قند مجاملة لأمير بخارى. فاضطر إلى السفر إلى (خرتنك) لينزل عند بعض أقاربه. فمات هناك عام 256هـ وبلغ من العمر 62 ربيعا.[1]

معالم أخرى لمدينة بخارى:

ومن أهم المعالم الأخرى لمدينة بخارى التي زارها العبودي (منارة كلان) أي المنارة الكبيرة، وهي منارة لرفع الأذان ارتفاعها 48 مترا، وتقع خارج المسجد الكبير. وأصبحت من أهم معالم بخارى في هذا العصر. وبعد زيارة المنارة، ذهبوا إلى (مدرسة مير عرب) أي مدرسة الأمير العربي.وهو أمير عربي كان وزيرا للسلطان عبيد الله الشيباني. وكان رجلا عمرانيا يحب العمارة. ومن مآثره أنه حفر موارد كثيرة في الصحراء ليتزود المسافرون منها الماء. وهي على هيئة سراديب وبرك تحت الأرض، لحفظ مياهها من التبخر وصيانتها من التلوث بالأقذار والأكدار.

و(مدرسة مير عرب) هي المدرسة الثانية في الاتحاد السوفيتي لتعليم أبناء المسلمين. وهي فخمة عظيمة في بنائها. ولها أربع طوابق. وأصبحت من أهم المزارات في بخارى. وذكر العبودي أمرا غريبا شاهد في هذه المدرسة العظيمة، وهو أن "أبواب الغرف منخفضة يحتاج من يدخل منها إلى أن يطأطئ رأسه. ذكروا لنا أن هذا مقصود من أجل أن يتعلم الطالب التواضع، فينخفض رأسه عند الدخول. وهي غرف صغيرة، ذكروا أنها بنيت في الأصل لإقامة الطلبة". وبلغ عدد الطلاب بمدرسة مير عرب نحو 90 طالبا في عام 1990م ولم يزد في السنوات الطويلة الماضية على 30 طالبا. وقد أشار العبودي إلى ذلك في رحلته عام 1986م. وتغير الوضع قليلا عندما زار العبودي بلاد بخارى للمرة الثانية عام 1990م، حيث تم السماح ببناء مساجد جديدة وإنشاء مدارس معها. كما بني معهد ديني كبير في دوشنبة عاصمة تاجكستان.[2]

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 211-214

[2] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص: 223

ومدينة بخارى مدينة عريقة. يقال إن تاريخها يصل إلى ألفي سنة قبل الإسلام. وبلغ عدد سكانها عام 1990م فقط 280 ألف نسمة؛ لكنها كانت قبل ذلك أكثر سكانا. وكان بها 113 مدرسة، ولم تكن بها وقت زيارة العبودي إلا 33 مدرسة فقط.[1]

قلعة آرك ومعالم أخرى:

زار العبودي (قلعة آرك). وكتب أن هذه القلعة ليست قلعة فقط، بل هي مدينة محصنة كان يسكنها حاكم المنطقة مع وزرائه وقواده وقضاته ووجهاء دولته، مضيفا أن العرب القدامى استخدموا لمثل هذه القلعة مسماها الأعجمية وهو (قهندز)؛ لأنهم لم يعرفوا لها مرادفا بالعربية. ثم زار ضريح السامانيين. ورغم أن الكلمة جمع، لكنه قبر واحد للأمير الساماني إسماعيل بن أحمد الساماني. ويعود تاريخ البناء على القبر إلى نحو ألف سنة. وأشار إلى أن الملح تسرب إلى أسافل مبنى الضريح بسبب قناة شقت قريبا منه. والأمر الطريف هو أن الساماني بنى هذا المبنى قبل موته ليدفن فيه.

ومن معالم بخارى (بئر أيوب). وهي بئر تحت الأرض يسقي الناس منها، ويعتقد أهل المدينة أن ماءها دواء لكل داء. وقد اختلفوا حول نسبة (أيوب)، فالعامة والمتعلمون يقولون إنه النبي الصابر أيوب عليه السلام، وأهل التحقيق يرون أن المراد هو طبيب كان اسمه أيوب، وكان يعالج المرضى بهذا الماء وأدوية لكنه كان ينسب الفعل إلى الماء. ويرى آخرون أن المراد منه أيوب السختياني من أهل الحديث.[2]

في ريف بخارى:

بعد زيارة هذه المعالم التاريخية، قام العبودي بزيارة لريف بخارى أيضا. فشاهدها كما هي. وبها أشجار الفواكه كثيرة، وليست مع شوارعها أرصفة، بل قطعات أرض صغيرة، استغلها سكان المنطقة لزراعة الخضروات والبطيخ؛ لأن الحكومة الشيوعية لا تعطي الناس من الأرض إلا مقادير ضيقة. كما أن قلة ذات يد السكان، تدفعهم لاستغلال الأماكن الواقعة أمام بيوتهم.

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص: 221-222

[2] انظر، نفس المصدر، ص : 224-228

زار الوفد قرية "قصر عارفان" أي (قصر العارفين). وكانت تسمى قبل ذلك (قصر هندوان). وتم تغيير اسمها بسبب وجود قبر الشيخ بهاء الدين النقشبندي بها. وسمي (نقش بند) لأنه كان ينقش الأقمشة. وبعد أن اشتهر بالصلاح والتصوف، ذكروا أنه (ينقش القلوب بالمعرفة). ويقع هنا مسجد النقشبندي أيضا. ويسمونه (خانقاه مسجد). والخانقاه أشبه بوحدة سكنية. ففيه 40 غرفة مخصصة لسكن طلبة العلم. وقبر النقشبندي بعيد عن الخانقاه. وذكروا أن القبر كان عليه بناء؛ لكنه انهدم. وهم يفكرون في إعادة بنائه. وهنا أوصى العبودي إمام مسجد النقشبندي بأن يقاوم هذه الفكرة، وإلا سيكون مسؤولا أمام الله.وفي نهاية هذه الزيارة، زار العبودي مسجدا صغيرا آخر يسمونه (مسجد عبد الحكيم)، وهو على صغره فاخر البناء مرتفع السقف، وعلى سقفه نقوش بالذهب. وانتهت الزيارة وأسرع الوفد إلى مطار بخارى.[1]

أردف العبودي (في بلاد المسلمين: بخارى و ما وراء النهر) خاتمة، ذكر فيها معلومات دقيقة مفصلة عن أجزاء مختلفة من تركستان الغربية، وتحقيقا حول كلمة الترك، وتاريخ هذه المنطقة، والفتح الإسلامي لها، وجغرافيتها، وثرواتها المعدنية، ومحاصيلها الزراعية، وموقع تركستان الغربية في اقتصاد الاتحاد السوفييتي. وتاريخ المنطقة منذ دخول الإسلام إليها، ومراحل احتلال الروس لتركستان الغربية، وسياسة التهجير والاستيطان الروسي الذي تعرض لها المسلمون في هذه البلاد، والغزو الثقافي لمحو هوية هذه البلاد الإسلامية، إضافة إلى تسليط ضوء على النظام السياسي في جمهوريات تركستان الغربية.[2]

ولا شك في أن هذه الخاتمة تلخص لنا تاريخ هذه المنطقة، إضافة إلى المضايقات ومحاولات طمس الهوية الإسلامية التي تعرض لها المسلمون فيها. وهي جديرة بالقراءة للاطلاع على الوضع الذي عاشها المسلمون في تركستان الغربية – أزبكستان وتاجكستان وقزاقستان وقيرغيزستان وتركمنستان- على مر العصور؛ لأن فيها عبرة لكل من (ألقى السمع وهو شهيد).

---

[1] انظر، في بلاد المسلمين المنسيين، ص : 231-236

[2] انظر، نفس المصدر، ص : 238-270

المبحث الثاني: يوميات آسيا الوسطى

المدخل:

"يوميات آسيا الوسطى" هو الكتاب الثاني للعبودي الذي سنتناوله بالبحث ضمن رحلاته إلى دول وسط آسيا. وهذا الكتاب يشمل رحلات العبودي إلى جمهورية أزبكستان وإقليمين مهمين يتبعانها من خوارزم ووادي فرغانة، وجمهورية تركمانستان وجمهورية تاجكستان. وهذه الرحلة قام بها العبودي في يونيو عام 1990م. وهي

الرحلة الثانية له إلى بلاد الاتحاد السوفييتي. وكانت الرحلة الأولى عام 1986م، وقد تناولنا تلك الرحلة في المبحث الأول. وقام العبودي بالرحلة الثانية على رأس وفد لرابطة العالم الإسلامي للمشاركة في مؤتمر إسلامي بمدينة (أوفا) عاصمة جمهورية بشقردستان أو بشكيريا.

وتكررت الزيارة لبعض المناطق التي زارها العبودي عام 1986م، خلال رحلته الثانية. وقام بضم أجزاء من الرحلة الثانية إلى الرحلة الأولى لشدة اتصالها مع الرحلة الأولى، مثل ذكر بخارى. كما أن هذا الكتاب يتضمن مقارنات قام بها العبودي لأوضاع المسلمين بين رحلته الأولى والثانية، وأشار إلى ذلك في مقدمة الكتاب. وكتب أن الأوضاع قد شهدت تغيرات، وإذا لم يمكن إطلاق كلمة أنها تحسنت، فيمكن القول إنها قلّت سوءا.

كتب العبودي أن بلاد بخارى و ما وراء النهر من البلاد العريقة في الإسلام. ولها ماض مجيد في الإسلام قلّ أن يوجد له نظير في البلدان الإسلامية، ماعدا الحواضر الإسلامية الشهيرة كمصر والشام. وهذه البلاد أنجبت كبار المحدثين والعلماء والفلكيين والرياضيين والشعراء والأدباء والأطباء من الإمام البخاري والإمام الترمذي والإمام النسائي وأبي بكر الخوارزمي الذي قاس أبعاد الأرض للخليفة المأمون، في وقت كانت فيه أوروبا غارقة في دياجير الجهل والظلام.[1]

وبالنسبة لاسم هذه البلاد، أشار العبودي إلى أنه أسماها تسمية عصرية، وهو (آسيا الوسطى). وهذه تسمية روسية أوروبية لكنها معروفة مشهورة. وكتب "ولسنا ممن يأخذ بالقول المأثور: خطأ مشهور خير من صواب مهجور، فنحن ننشد الصواب ولو كان مغمورا، ونتجنب الخطأ ولو كان مشهورا؛ ولكنني لم أجد اسما قديما عند أسلافنا يجمع تلك البلاد. وإنما كانوا يطلقون على أجزاء منها أسماء مختلفة، مثل بلاد الشاش لمنطقة (طشقند)، و ما وراء النهر لأجزاء من تركستان، وبلاد بخارى لمنطقة بخارى، وبلاد الصغد وطخارستان لأجزاء من جمهوريتي أزبكستان وتاجكستان، إضافة إلى بلاد

---

[1] انظر، العبودي، محمد بن ناصر، يوميات آسيا الوسطى، الطبعة الأولى عام 1415هـ /1995م، ص : 7-8

خوارزم التي هي إقليم منفصل بنفسه، وبلاد التركمان التي كان جزء منها يسمى خراسان".[1] والآن ننتقل إلى محتوى كتاب "يوميات آسيا الوسطى".

جمهورية أزبكستان الاشتراكية السوفييتية والأزبك:

بدء العبودي هذا الكتاب بتعريف لجمهورية أزبكستان وقدم معلومات عن موقعها الجغرافي ومساحتها، وشرح اسمها وأمورا أخرى. فكتب أنها تقع على الحدود مع أفغانستان وتأسست في 27 أكتوبر عام 1924م، ومساحتها 44960 كلم مربع، وعدد سكانها بلغ 15391000 نسمة في إحصاء عام 1979م، ومنهم 88% من المسلمين والنسبة المتبقية من غير المسلمين من الروس والكوريين والأوكرانيين المهجرين إليها.

وأزبكستان معناها بلاد الأزبك، وكلمة (ستان) عرفت في اللغة العربية منذ نهاية القرن الأول الهجري، حيث ورد ذكر (صين استان) أي بلاد الصين في شعر لعبد الرحمن بن جمانة الباهلي، يقول فيه:

وإن لنا قبرين قبر بلنجر وقبرا (بصين استان) يا لك من قبر

فهذا الذي بالصين عمت فتوحه وهذا الذي يسقى به سبل القطر

والأوزبك: منسوبون إلى السلطان محمد أزبك خان من أقوى السلاطين المنحدرين من ذرية جنكيز خان الذين أسلموا وحكموا منطقة نهر إيتل (الفولجا) وسيطروا على أكثر البلاد الروسية وما يعرف الآن بروسيا البيضاء وجمهوريات البلطيق وجزءا من بولندا وأوكرانيا. وشملت ممتلكاته (بلاد ما وراء النهر). فنسب إليه أولئك الأقوام الذين يسكنون في تلك المنطقة أي منطقة ما وراء النهر التي فيها أزبكستان، والمنطقة الواقعة بين أوفا وطشقند. وتوفي السلطان محمد أزبك خان في عام 742هـ. وعلى هذا لا يكون الأزبك قبيلة يفترض أنها منحدرة من جد واحد اسمه (أوزبك)، وإنما هم أقوام نسبوا إلى قوم يقال لهم الأزبك، كانوا من أتباع السلطان (أزبك خان).[2]

---

[1] يوميات آسيا الوسطى، ص : 8-9

[2] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 13-14

من أوفا إلى طشقند:

وصل العبودي إلى أوفا مارّا بموسكو. ورغم أنه لم تكن لديه تأشيرة زيارة مناطق أخرى من الاتحاد السوفييتي؛ إلا أنه حصل عليها في مكتب لأزبكستان في أوفا، بوساطة الشيخ طلعت تاج الدين رئيس الإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي وسيبيريا من الاتحاد السوفييتي. واستفاد أيضا من صحبة الشيخ المفتي محمد صادق رئيس الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان.

أشار العبودي إلى أمر غريب لدى مغادرة أوفا، حيث ذكر أن الساعة كانت التاسعة إلا الربع ليلا؛ لكن هذا حسب الاصطلاح العالمي، وإلا فإنها كانت النهار، ولا تزال الشمس حية بل بيضاء نقية، إذ لا تغرب الشمس في أوفا في الوقت الحاضر – يونيو– إلا بعد العاشرة. ثم وصف الطائرة التي استقلته إلى طشقند، والمسافة بين أوفا وطشقند ساعتان ونصف الساعة، رغم أن الطائرة نفاثة سريعة. وكتب أنه من العادات غير الحميدة في الطائرات الروسية أنها لا تقدم أي شيء سواء ماء معدني في الرحلات الداخلية، ومن العادات الحميدة فيها أنها تحرم التدخين وتعاطي الخمر فيها. ويمنعون تناوله حتى لمن أحضره معه بنفقته.

وذكر العبودي أن البلاد الشاسعة التي تقع بين أوفا وطشقند، هي كانت بلادا مسلمة، وفتحها الإسلام على مراحل. ولم ينس ذكر الأسباب التي آلت إلى الوضع الراهن، فيقول:

> "والمسلم الذي يتأمل في ماضي هذه البلدان المسلمة العريقة في إسلامها، ويؤلمه اختلاف قادة المسلمين وأمرائهم فيها، يأسف أشد الأسف لذلك، وينبغي أن يأخذ العبرة منه للحفاظ على ما تبقى من بلدان المسلمين في العالم، ويعرف أنه يجب على الرؤساء وأولى الأمر فيها الابتعاد عن الاختلاف والشقاق الذي كان سبب هذا الضياع والشقاء". (1)

كتب العبودي أنه عاد إلى مطار طشقند بعد أربعة أعوام؛ لكنه لم يتقدم في شيء، بل هبط إلى الأسفل، وكانت الطائرة تسير على الأرض مثل سير السيارة على أرض غير ملساء. واستقبله في المطار مسؤولون للإدارة الدينية لآسيا الوسطى

---

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 15-19

وقازاقستان، ودخلت سيارات الاستقبال إلى داخل المطار لكون الشيخ محمد صادق معه، إذ أنه عضو لمجلس السوفييت الأعلى ويحمل العبودي جوازا سعوديا سياسيا؛ وإلا لا يُسمح بإدخال السيارات إلى المطار. ونزل العبودي في فندق أزبكستان الذي نزله سابقا أيضا. [1]

رحلة بدون رقيب:

وأشار العبودي إلى فرق كبير بين رحلته الأولى إلى الاتحاد السوفييتي وبين الرحلة الثانية، حيث كتب أنه كان من الطبيعي أن تكون الزيارة الأولى لمكتب الإدارة الدينية لمسلمي وسط آسيا وقازاقستان التي يرأسها الشيخ محمد صادق محمد يوسف الذي كان يرافق العبودي من أوفا. وكان معه طيلة مقامه في الاتحاد السوفييتي للمرة الأولى أيضا؛ إلا أنه لم يكن لوحده، بل معه عشرة آخرين، خمسة منهم من الروس غير المسلمين باسم إعلاميين، وخمسة من أبناء المسلمين. "أما في هذه الرحلة، فإنه لم يكن معنا أحد من المخبرين، ولا من الإعلاميين الذين كان يقصد بهم أن يُعلموا الحكومة بجميع حركاتنا وحتى سكناتنا، ومن يتصل بنا، أو نتصل بهم، بل حتى من يكلمنا أو نكلمه".[2]

لا شك في أن هذه الفقرة تكفي للإشارة إلى تغير الوضع بين عام 1986م وبين عام 1990م. كما أنها تشير إلى الوطأة الشديدة التي كان يعاني منها المواطنون في الاتحاد السوفييتي إبان حكم الحزب الشيوعي الاشتراكي. فإذا كان مدى رقابة الضيوف إلى هذه الدرجة، فيمكن قياس الرقابة التي كان يتعرض لها المواطنون بسهولة.

لقاء في مكتب الإدارة الدينية:

كتب العبودي ما جرى خلال لقائه مع رئيس الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان الشيخ محمد صادق محمد يوسف، بالتفصيل. وأشار إلى أنه تحدث مع الإذاعة الأزبكية حول تاريخ هذه المنطقة وسهم علمائها في العلوم في التاريخ الإسلامي. وقد وصلت إلى طشقند 250 ألف نسخة من المصحف، من

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص: 21

[2] نفس المصدر، ص: 23

أصل 500 ألف نسخة تم الاتفاق على إرسالها. وبحث الجانبان شراء مطبعة خاصة للإدارة الدينية لتمكينها من طباعة المجلات والكتب التي ترغب في طباعتها، مع إجراء بحث حول نشر ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الأزبكية والروسية. وأكد الشيخ محمد صادق خلال اللقاء أنهم في حاجة ماسة إلى الكتب الإسلامية والعربية؛ لأن الحكومة أتلفت الكتب الإسلامية والعربية في العقود الماضية، وما بقيت منها، لا تفي بحاجة المسلمين.

بحث وفد الرابطة قضايا تتعلق بالبث الإذاعي أيضا، وأفاد الشيخ محمد صادق أن الحكومة قد سمحت الآن ببث أحاديث دينية ونقل المناسبات الدينية ونشرها على الإذاعة والتلفزيون، مشيرا إلى أن المسلمين قد استعادوا الكثير من المساجد التي كانت الحكومة صادرتها في الماضي، كما أنهم يقومون بإنشاء مساجد جديدة؛ لكنهم في حاجة إلى الدعم المادي لاستكمال تلك المشاريع.

اقترح وفد الرابطة إيفاد دعاة ومدرسين للغة العربية إلى هذه البلاد، لتعليم اللغة العربية؛ إلا أن الشيخ محمد صادق لم يوافق على ذلك مبررا بأزمة السكن ورفض الحكومة لاستقبال الدعاة والمدرسين في هذه المرحلة؛ لكن تم الاتفاق على تقديم منح دراسية لطلاب سيبعثون إلى الجامعة الإسلامية العالمية في إسلام آباد، بعد موافقة الحكومة السوفيتية.

وأشار الشيخ محمد صادق إلى أن الإدارة الدينية تقوم بإنشاء عدد من المعاهد والمراكز التعليمية، وأنها في حاجة إلى دعم تلك المشاريع أيضا، في حين اقترحت الرابطة إنشاء كلية أو معهد عال لعلوم الحديث، إضافة إلى اقتراح عقد مؤتمر ديني يحضرها 50 شخصية إسلامية من الخارج و250 شخصية من داخل الاتحاد السوفييتي للتعريف بالعلوم الإسلامية وتاريخ هذه البلاد العريقة في الإسلام، تحت رعاية رابطة العالم الإسلامي. وأفاد الشيخ محمد صادق أن الحكومة قد وافقت على إرسال 500 مسلم من دول وسط آسيا لأداء مناسك الحج، وهذا بعد انقطاع دام لنحو

سبعين عاما؛ لأن عدد الحجاج من الاتحاد السوفييتي لم يكن يتجاوز عشرين حاجا.[1]

لقاء مع تلفزيون الاتحاد السوفييتي والحرية التي يحظى بها المسلمون:

كتب العبودي أنه تحدث مع تلفزيون الاتحاد السوفييتي، بعد جولته في مكتب الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان. وتم نشر تلك المقابلة في جميع أنحاء البلاد. وردا على أسئلة المذيع، قال العبودي إن المسلمين في الاتحاد السوفييتي يحظون الآن بقسط من الحرية أكبر مما كانوا عليه في الماضي، ولا سيما من ناحية إنشاء المساجد الجديدة واستعادة المساجد القديمة.

وأشار إلى أهمية الدين في حياة الإنسان وقال إن البشر ليسوا ليأكلوا ويعيشوا ويموتوا مثل الحيوان، بل الإنسان في حاجة إلى غذاء روحي، وهي ما يقدمه الإسلام، والإسلام يأمر بالعدل والإحسان، ويحارب الجريمة، وهو معتقد وعبادات ونظام للحياة. ثم أشار إلى أن رابطة العالم الإسلامي هي منظمة شعبية وأنها تتعاون مع المسلمين، وأنهم بحثوا كيفية تعزيز التعاون مع المسلمين في الاتحاد السوفييتي أيضا.

وكتب العبودي أنه لم يتمكن من الحديث مع تلفزيون جمهورية أزبكستان لضيق الوقت، رغم أن المذيعة فيه كانت تتابع جميع فقرات زيارة وفد الرابطة.

وأفاد مسؤولو الإدارة الدينية أنهم يطبعون مجلات وكتب للدعوة الإسلامية. وكان ذلك الأمر ممنوعا قبل ذلك. ومن المثير في هذا الصدد، أن مجلة (شرقي ديوزي) – نجمة الشرق– التي كانت بوقا للإلحاد ومعارضة الدين في الماضي، بدأت تنشر ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الأزبكية في حلقات متوالية.

الحروف العربية بدلا من الحروف الروسية:

أشار مسؤولو الإدارة الدينية إلى أن حكومة جمهورية أزبكستان بدأت تدرس كتابة اللغة الأزبكية بالحروف العربية –التي كانت تكتب بها قبل الثورة الشيوعية– بدلا من الحروف الروسية. ومما يتبع هذا القرار هو أن اللغة الأزبكية ستكون اللغة الأولى في الجمهورية، بدلا من الروسية.

---

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 24-36

وأكدوا أن الإقبال على تعلم اللغة العربية شديد، وأن عشرات الآلاف من الناس بدأوا يتعلمونها. وأن مدرسة (صبا) التعاونية تضم 45 ألف شخص، يتعلمون اللغة العربية في أوقات متفرقة. كما تم استقبال المصاحف المهداة من جانب المملكة العربية السعودية في مطار طشقند بحفاوة وإكرام. وحضر الاستقبال إلى جانب مسؤولي الإدارة الدينية، مسؤولون شيوعيون أيضا، رغم أنهم لم يكونوا يفعلون ذلك في الماضي. ويرى العبودي أنهم إما حضروا الاستقبال بدافع وطني، أو من أجل مجاملة الناخبين؛ لأن الناس صاروا أحرارا في التصويت لمن شاؤوا، بعد إطلاق حركة (بيريسترويكا) – إعادة البناء– عام 1985م.[1]

لا بد من الإشارة إلى أن اللغة الأزبكية كانت تكتب بالحروف العربية تاريخيا وحتى قبل الثورة الشيوعية التي ضمت أزبكستان إلى الاتحاد السوفييتي عام 1924م. ورغم الحديث عن استبدال الحروف الروسية للخط الأزبكي، لم يتم ذلك، بل تم استبدالها فيما بعد بالحروف اللاتينية. ولا تزال الأزبكية تُكتب بالحروف اللاتينية. وبذلك تم التحول من الحروف الروسية، لكن لم تعد اللغة الأزبكية إلى حروفها الأصلية. ومما لا يمكن غض البصر عنه، هو أن تغيير رسم أي لغة، يقطعها من تراثها الماضي؛ لأن الجيل الذي يتعلمها بالحروف الجديدة، قلما يقدر على قراءتها بالحروف القديمة. وهكذا يكفي تغيير رسم الخط لمحو هوية أي لغة. وهذا ما جرى مع اللغة التركية في تركيا أيضا، حيث ألغي الخط العربي الذي كانت تكتب بها، مع فرض الحروف اللاتينية. وقد بدأت الحكومة التركية منذ سنوات جهودا لإحياء التراث التركي القديم الذي يسمونه الآن بالعثماني، بتعليم الخط العربي للغة التركية.

جولة على المساجد:

مثل تجواله على المساجد في طشقند، خلال رحلته الأولى، قام العبودي بزيارة عدد من المساجد خلال رحلته الثانية أيضا؛ لأن ذلك من مهام عمله؛ لكن قبل الخروج في تلك الجولة، تغدى الوفد في مكتب الإدارة الدينية. ووصف العبودي سقف الغرفة وصفا دقيقا؛ لأنه رءاه غريبا. فكتب:

---

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 38-44

"وكانت الغرابة في سقف الغرفة، إذ بناؤها قديم من الآجر الخالي من الحديد بطبيعة الحال، إذ كان قبل معرفة البناء المسلح؛ ولكنه كان معقودا بالآجر المتقن، بحيث كان السقف كله ومداخله ومماراته خاليا من الخشب، وإنما هو عقود بالآجر على هيئة قباب صغيرة متصل بعضها ببعض. وقد طليت بطلاء أخضر، وزينت بنقوش إسلامية عريقة من الداخل".([1])

وذكر العبودي أن الوفد زار معهد الإمام البخاري أيضا. وقد ارتفع عدد الطلاب فيه إلى أكثر من 100 طالب، رغم أن عدد الطلاب بها خلال الرحلة الأولى كان 52 فقط، وإن كان هذا المعهد هو أكبر معهد ديني في الاتحاد السوفييتي.

وصلى الوفد في مسجد (تلا شيخ)، واسترعى هناك انتباهه، وصول عدد من الأزواج لعقد الزواج الشرعي بعد إكمال العقد المدني. وكانوا يدخلون على الإمام زوجا زوجا بالترتيب، والأمر الثاني هو أن عددا من الأطفال تتراوح أعمارهم بين سبع سنوات وثانية عشر سنة كانوا يتعلمون القرآن الكريم تلاوة وحفظا. وهذا الأمر كان جديدا؛ لأن تعليم القرآن الكريم كان محرما إبان الطغيان الشيوعي الإلحادي.

وزار الوفد مسجد (تختة باي)، في محلة (ساقجي مان). وهو مسجد قديم بني عام 1890م، وصادره الشيوعيون واستخدموه مستودعا للمشروبات، واستعاده المسلمون عام 1989م. وبه مدرسة يتعلم فيها أكثر من مائة من أبناء المسلمين الذكور ومائة وخمسين من الإناث. ثم زار الوفد (مسجد يونس آباد)، ومسجد (كلال تورغان). وهذا المسجد أيضا صادرته الحكومة الشيوعية قبل أربعين عاما واستعملته مدرسة للأطفال. واستعاده المسلمون عام 1988م. وقدم الوفد دعما ماليا لهذه المساجد من جانب رابطة العالم الإسلامي. ([2])

ريف طشقند وهدية الشيوعيين للإدارة الدينية:

قام وفد العبودي بزيارة لريف طشقند هذه المرة أيضا. وذلك لزيارة أرض بمساحة 84 هكتارا للإدارة الدينية للإعمار. وأشار العبودي إلى أنه أعجب بالأشجار المثمرة التي غرسها أهل طشقند في الأماكن الضيقة بين الأرصفة وبيوتهم، موضحا أن

---

[1] يوميات آسيا الوسطى، ص: 46

[2] انظر، نفس المصدر، ص : 44-58

الأرض الزراعية في الاتحاد السوفييتي تكون ملكا للدولة. ولأجل ذلك يستغل أهالي المنطقة هذه الأراضي الضيقة لأنفسهم.

أما الأراضي الزراعية، فإن الحكومة تعطيها للجمعيات التعاونية أو الكلخوزات أي المجمعات الزراعية. وهذه المزارع تهدف إلى أن يعيش العاملون فيها مع أسرهم على غلة المزرعة، إضافة إلى تقديم جزء من الغلة للحكومة، وأداء قروض الدولة أو قيمة الآلات التي يأخذون منها لإعمار الأرض؛ لكن تجربة الكلخوزات لم تنجح، إذ المزارع الصغيرة الخاصة تنتج أكثر من تلك المزارع، إضافة إلى ضياع قروض الدولة والآلات التي تقدمها.

وفي هذا الإطار قدمت الحكومة تلك القطعة الواسعة من الأرض إلى الإدارة الدينية لتستغلها وتستخدم ريعها في المشاريع الإسلامية. ويرى العبودي أن ذلك حصل من أجل تحقيق هدفين: كسب ود الأهالي استعدادا للانتخابات، والتخلص من مشروع فاشل غير منتج؛ لأن الحكومة بسبب معرفتها بفشل المشروع قدمت 826 ألف روبل للإدارة الدينية لإعمارها. وقد تحسن وضع المزرعة بعد تحويلها إلى الإدارة الدينية. وقدمت الرابطة 50 ألف دولار قرضا للإدارة الدينية من جانب هيئة الإغاثة الإسلامية، بدون أي أرباح، على أن تعيده الإدارة الدينية من غلة الأرض على أقساط مريحة.[1]

وزار الوفد مسجد محلة (أون غورقان) أي القلاع العشر. وهو مسجد جديد، أي ليس من المساجد المصادرة والمعادة إلى المسلمين. ومن الغريب أن الشيوعيين من أبناء المسلمين قدموا هكتارا من الأرض لهذا المسجد بالمجان. وكانوا هم من لا يقبلون وجود المساجد في الماضي ويصرون على هدمها. ويقول العبودي هذا من عجيب صنع الله وهو على كل شيء قدير. **(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)** [2]

وأمر آخر ملحوظ في طشقند في ذلك الزمان، هو أن الروس كانوا يقيمون في البنايات الكبيرة التي كانت الحكومة تنشئها. ولم يكونوا في العادة يملكون بيوتا منفردة

---

[1] يس:82، انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 55-58

[2] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 58-59

لهم مثل أهالي المنطقة الذين يرثونها من آبائهم؛ لأنهم موظفون وفنيون يعملون في المصانع والدوائر الحكومية. ومن هذا المنطلق قد يسهل مغادرتهم لهذه البلاد، إذا تغيرت الأوضاع.[1]

إلى خوارزم واعتراف بحقيقة:

أصبحت منطقة خوارزم التاريخية جزءا من جمهورية أزبكستان. فهي إقليم منها وعاصمته (أوركنج). وكتب العبودي أنه كان يشتاق إلى زيارة تلك البلاد منذ أن قرأ في طفولته كتب الأئمة الأعلام من هذه البلاد، وعندما وصل إلى مطار طشقند للتوجه إلى (خوارزم)، أحس بشعور عجيب لشدة شوقه إلى تلك البلاد، من ضمن البلاد المعروفة في التاريخ من بخارى وسمر قند وطشقند وخوقند والشاش. وقد تسبب الزحف المغولي بخراب بعض تلك البلاد، وحتى محو بعضها.

ذكر العبودي أن الشيخ محمد صادق رئيس الإدارة الدينية لآسيا الوسطى وقازاقستان أبى إلا أن يرافقه خلال تجواله في هذه البلاد. وذكر له في مطار طشقند أن الطائرات الروسية نقلت المصاحف من المملكة العربية السعودية إلى هنا. وكانت المملكة استأجرتها لكونها هي الوحيدة التي يسمح لها بالهبوط في مطارات عواصم الجمهوريات السوفييتية. فسأله العبودي عن انطباع الطيارين الروس عن السعودية. فقال الشيخ إن الطيارين الروس قالوا "إنهم عوملوا معاملة أقل مجاملة مع الطيارين والعاملين المسلمين، أما المعاملة المعتادة فإنها جيدة". ولم يعلق العبودي على هذا الموضوع، مما يدل على أنه يرى أن الطيارين الروس ذكروا الحقيقة. وأرى أن الفرق في التعامل مع المسلمين والروس، في تلك الآونة، ليس فيه أي غرابة؛ لأن المسلم يطمئن إلى المسلم أكثر بسبب الصلة الدينية، كما أن الأجواء في ذلك الزمان كانت مشحونة ضد الشيوعيين بسبب الغزو السوفييتي لأفغانستان.

كتب العبودي أن طشقند مدينة واسعة وحولها أرض واسعة شاسعة صالحة للزراعة؛ لكن مع هذا يستوردون القمح، مشيرا إلى أن سبب ذلك يعود إلى النظام الشيوعي الذي يحد من التصرف الشخصي، وهو ما حد من الإنتاج الزراعي.

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص: 62

وقدم العبودي صورة قلمية للتضاريس الأرضية التي كانت طائرته تطير فوقها. وهو يصف أرض طشقند بكل خضرتها ونضرتها، ثم يلقي ضوءا على نهر جيحون (آمو دريا)، فيكتب عن تضاريس الأرض في خوارزم، ويرى أنها تشبه الصحراء التي تقع وسط أستراليا أو صحراء غوبي التي شاهدها في الصين. ويمدح العبودي الطائرات الروسية النفاثة حيث كتب: " وما رأيت أهدأ من الطائرات السوفيتية النفاثة، إذا استوت في الجو. فهي أهدأ من الطائرات الأمريكية ومن الطائرات الأوروبية (أير باص)".

وأشار العبودي إلى أنه انتابه الغبطة والذهول خلال زيارة خوارزم. الغبطة من أنه يرى نهر (جيحون) يجري تحته، والذهول من تصاريف الأيام، حيث كان أكبر رجل من رجال العلم في هذه البلاد – وهو رئيس الإدارة الدينية– يرافقه في رحلته لتيسير الأمور له؛ لكنه لم يقل إن كل ذلك جرى بسبب شخصيته، بل أعاد سببه إلى المعونة التي يتلقاها المسلمون من حكومة المملكة العربية السعودية.

أشار العبودي إلى أن مطار أوركنج يشبه مطار القصيم في طبيعته الصحراوية، مشيرا إلى أنه تلقى حفاوة وترحيبا من الإخوة المسلمين في مطار أوركنج.[1]

الخبز رمز الضيافة:

يُعرف المسلمون في بلاد وسط آسيا بكرمهم وضيافتهم. وقد نقل العبودي في كتبه مشاهد من هذه الضيافة. وخص بالذكر عادة من عادات الضيافة لدى أهل خوارزم. فكتب:

"جلسنا مع هؤلاء وغيرهم من المستقبلين في قاعة كبار الزوار في المطار. وكان استقبالهم حارا، وترحيبهم نابعا من قلوبهم. فهذه أول مرة يستقبلون فيها وفدا إسلاميا من بلاد الحرمين الشريفين، فيما أخبرونا به. وقدموا الضيافة شأيا كالصيني بدون سكر، وخبزا غليظا صاروا يقطعونه ويضعونه أمام الحاضرين. وذكروا أن الخبز عندهم هو رمز الضيافة، حتى إن الرجل منهم إذا زاره زائر في بيته، تلقّاه بالخبز يخرجه معه من البيت ليقطعه أمام الضيف، ويقدمه له. وقد صارت هذه عادة متبعة إلى الآن، حتى وإن علم صاحب البيت أن زائره لن يدخل بيته ولن يطعم من هذا الخبز؛ إلا أنه جرت العادة عندهم ألا يرفض

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 67-73

الضيف أكل الخبز، ولو كان بغير حاجة إليه. فيأخذ منه حتى بقدر رأس الأصبع فيأكله".[1]

وقارن العبودي هذه العادة عند الخوارزميين، مع عادة القهوة عند السعوديين؛ لأن القهوة عندهم رمز للضيافة. فقال:

"وهذه عادة يقابلها عندنا تقديم القهوة للضيف بحيث صارت عادة متبعة؛ إلا أننا لا نخرج بالقهوة إلى الضيف الذي لا يريد دخول المنزل، لسبب من الأسباب، مع أن القهوة أولى بأن تقدم كذلك، لكونها تُشرب حتى مع الشبع، وهي منشطة للجسم، طاردة للتعب".[2]

في مدينة أوركنج:

ذكر العبودي أن مدينة أوركنج عاصمة إقليم خوارزم. واسمها المذكور في الكتب العربية القديمة هو (كركنج). وهنا جاء بنكتة لطيفة حول اسم أوركنج، فأشار إلى أنه يمكن أن يكون مرور الزمان هو ما غير الحرف الأول من الكاف إلى الهمزة أو أن الأسلاف الذين ألفوا الكتب العربية، هم من استبدلوا الكاف همزة لسهولتها، مضيفا أن الاحتمال الأول أرجح. كما أشار إلى أن أوركنج الحالية ليست في موضع أوركنج القديمة التي يسمونها (كوهنا أوركنج)، التي أصابها الخراب بسب فيضان مياه نهر جيحون عليها. وأمر آخر هو أن بعض المؤرخين القدامى سمى (كوركنج) الجرجانية بسبب استثقال كلمة (كوركنج).

وصل العبودي إلى منزل الشيخ أحمد جان سعيد في أوركنج. وهو المضيف في أوركنج. وذكر العبودي أن المرافقين خلعوا نعالهم خارج باب المنزل. "وفهمت من ذلك أن شوارعهم وأسواقهم غير نظيفة ولا جافة، وإلا لما اعتادوا على ذلك"؛ إلا أنه وجد بيت الشيخ نظيفا جدا ومرتبا.[3]

---

[1] يوميات آسيا الوسطى، ص: 75

[2] نفس المصدر، ص: 76

[3] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 76-78

مائدة خوارزمية:

وصف العبودي مائدة خوارزم بكل التفاصيل، وقدم صورة قلمية واضحة إلى درجة يشعر القارئ وكأنه جالس عليها بجانبه. فكتب:

"ووجدنا في ركن منه – البيت- مفتوح إلى جهة بستان ملحق، به مائدة مرفوعة قليلا عن الأرض بموائد خشبية متطامنة كالتي يأكل عليها أهل المغرب. ويحيط بها الحشايا التي فرشت فوق سجاد من صنع محلي ثمين. ووجدنا المائدة مغطاة بقماش رقيق. ما لبثنا أن عرفنا السبب في ذلك، وهو كثرة الذبان التي أقبلت جيوشا مجيشة ... وعلى المائدة أنواع منوعة من الفواكه المحلية الطازجة، منها المشمش والكرز والتوت الأبيض اللذيذ. وذكروا أنه قطع لتوه من شجره؛ لأنه إذا مضى عليه يوم بعد قطعه، فسد ولم يصلح للأكل. والفاكهة التي نسميها بخارى – على لفظ اسم (بخارى) بلدة الإمام البخاري- وهو أخضر أملس الجلد، لذيذ الطعم. ومع ذلك خيار جيد، وفستق وجوز، وخبز كبير مستدير... ومعه الطعام المعروف عندنا بالبخاري الذي يسمى (منتو)، وهو الذي يشبه السمبوسك؛ إلا أنه يطبخ، ويكون من الدقيق الأملس الناعم. ومع ذلك اللبن... جاؤوا بلحم الغنم الطازج الكثير والدجاج المحمر. ولحمهم لذيذ يشبه لحم الغنم النجدية... ثم جاءت الأواني المنفردة بالحساء التركستاني الشهير – وهو الشوربة عند عوامنا- وهذه تكون من الشعيرية وقطع من لحم الغنم الدسم. وتقدم حارة لكل شخص سلطانية خاصة به".[1]

ماذا فعلت الشيوعية بخوارزم؟

كتب العبودي أن الشيوعية حاولت طمس الهوية الإسلامية لهذه البلاد العريقة في الإسلام، حتى إن السلام كان ممنوعا بدون أي قانون. وكانوا يقذفون كل من يلقي بتحية الإسلام بالرجعية ومعاداة الشيوعية. وقد يتسبب ذلك في إصابة سوء له. وبالتالي بدأ الناس يتجنبون النطق بـ (السلام عليكم)؛ إلا أن الوضع شهد تغيرا بعد (بيريسترويكا). وأشار العبودي إلى أنه لم تكن في أركنج إلا ثلاثة جوامع، نحو عام 1987م، وبلغ عددها عام 1990م إلى اثني عشر جامعا.

---

[1] نفس المصدر، ص : 78-79

ولم تكن في مدينة أوركنج لافتات الطرق إلا بالروسية، فكأنما لا توجد بها أي لغة أخرى، رغم أن الأزبكية لغة مئات الآلاف من الناس في تلك المنطقة، إضافة إلى مناطق أخرى. والأمرّ من ذلك هو التاريخ الذي يدرسه الشيوعيون في المدارس، حيث يعيدون كل الفضل إلى الثورة الشيوعية، ولا يذكرون فيه شيئا من أمجاد هذه البلاد في التاريخ الإسلامي.[1]

وأشار العبودي إلى أنه سأل عن مدينة (مرو)، فقالوا إن اسمها أصبح الآن (مرا) بدلا من مرو، وهي تقع على مسافة خمسمائة كلم جنوبا، مشيرا إلى أن هذه المنطقة تزرع بأنهار تم شقها من نهر جيحون، وهي كثيرة الزراعة والفواكه. والأمكنة التي لا تصل إليها الأنهار، فهناك آبار للري؛ لأنه لو انعدم الماء في هذه المنطقة، فإنها ستتحول إلى صحراء بطبيعتها.[2]

مدينة خيوة:

كتب العبودي أن مدينة (خيوة) لا تبعد عن أوركنج إلا بـ 30 كلم، ولذلك وصلوا إليها بسرعة، مارين بمناطق خضراء، ووقفوا أمام باب قلعة (خيوة)، مضيفا أن المضيفين لو عرفوا ما يريده، لجالوا به في المدينة التي تشمل أحياء قديمة لم يغير الزمن منها إلا قليلا؛ لكنهم كانوا وفدا رسميا، فلم يتمكنوا من ذلك. وقلعة خيوة مبنية فوق أرض مرتفعة، يقصدها السياح الأجانب. وكتب العبودي أن القلعة أو القهندز، في هذه المناطق لم تكن قلاعا دفاعية فحسب، بل إنها كانت مثل مدينة صغيرة يسكنها حاكم المنطقة مع حاشيته وكبار الشخصيات في الدولة. وبها جميع مرافق الحياة.

ونقل العبودي عن الدليل السياحي في قلعة خيوة، أن تاريخ خيوة يعود إلى 2400 سنة، وكانت في بلاد خوارزم 106 مدينة مثل خيوة؛ إلا أنها اندثرت ولم تبق منها إلا خيوة الحالية، مشيرا إلى أن قلعة خيوة بناها سام بن النبي نوح عليه السلام بعد الطوفان. وأبدى العبودي إعجابه بهذه القلعة ووصفها وصفا دقيقا. وقال إن الدليل قال إن الملوك الذين جاؤوا بعد نوح، أضافوا إلى هذه القلعة. وهنا كتب العبودي أنه بذكر

---

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 76-83

[2] انظر، نفس المصدر، ص : 82-83

الملك نوح، تذكر أن نوح بن سامان أحد ملوك السامانيين الذين حكموا هذه المنطقة، أو هو نصر بن نوح الساماني؛ إلا أن الأمر اختلط على الدليل، فجعل سام بن نوح باني القلعة، وجعلوا بناءه بعد الطوفان.

وأشار العبودي إلى أن اسم خيوة كان معروفا لدى العرب، وقد ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان بقوله (خيوق)، مشيرا إلى أنه بلدة من نواحي خوارزم، وأهل خوارزم يقولون: خيوة. وبالنسبة إلى معنى اسم (خيوة)، كتب العبودي أنه كان يرغب في السؤال عن معنى (خيوة) لكن قبل أن يسأل، وقف الدليل على بئر في فناء القلعة، وقال إن هذا البئر حفره النبي نوح عليه السلام بعد الطوفان، وعندما شرب من مائه، أعجبه، فقال (آخ)، وبذلك سميت المدينة (خيوة)، وقال أحد الواقفين على البئر، إن الأمر ليس كذلك، بل (خيوة) اسم امرأة، فسميت المدينة باسمها؛ لكنه لم يعرف أكثر من ذلك، بينما قال شخص آخر إن خيوة اسم امرأة كانت متوجهة في قافلة إلى أحد البلدان العربية، فوجدت هذه البئر، فسميت باسمها.[1]

مبان في قلعة خيوة:

كتب العبودي أن قلعة خيوة، مثل مدينة صغيرة، وأول ما وقفوا عنده داخل القلعة، هو بناء مدرسة محمد أمين. وهو بناء مرتفع حيث يبلغ سقف مدخلها 35 مترا يعلوه قوس مربع معقود من الآجر. وهي من أشهر مدارس آسيا الوسطى. وذكر العبودي أن الدليل أفاد أن مساحة القلعة تبلغ 260 ألف متر مربع؛ لكن العبودي يرى أنها أكثر من ذلك، مضيفا أن القلعة أشبه ما تكون ببلدة صغيرة محصنة مكملة بالمرافق العامة، من مدارس، ومستشفيات ومساجد ومساكن فاخرة، يسكن فيها الحاكم وأعيان دولته من وزراء وكبراء وقضاة وأطباء. يأتي إليها المدرسون والدارسون. ويمنع منها الغوغاء والعامة من الناس. فهي محصنة عنهم وعن غيرهم من الأعداء في حالات الخوف. وأفاد الدليل أنه كان هناك ثلاثا وثلاثين مدرسة في هذه القلعة، ولكن جميع هذه المدارس لا تُستعمل الآن.

---

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 86-93

وبعد مدرسة محمد أمين، هناك سجن بالقلعة يسمونه (منجك)، وقد مثلوا فيها سجناء في عهد القياصرة الروس وقد ربطوا بأخشاب وسلاسل ثقيلة؛ لكنهم نسوا ما كان يفعله الشيوعيون بخصومهم في عهد ستالين. كما تضم القلعة القصر الملكي، – رغم أن كل القلعة مخصصة للحاكم–، وتختلف الأبنية في القلعة عن بعضها البعض في طراز بنائها؛ لأنها بُنيت في عصور مختلفة.

وبجانب القصر مسجد خاص للحاكم وحاشيته، وهو مزين بالآيات القرآنية لم يفسد الزمان منه شيئا؛ لكنها أزيلت إبان الحكم الشيوعي. ولا تزال الكتابات باقية في محرابه، حيث كتبوا عليه (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، ومن جانبيه أسماء الخلفاء الراشدين كشعار لأهل السنة. وارتفاع سقف المسجد عشرون مترا. وهناك مسجد آخر للملك شتوي؛ لأن المسجد الأول مفتوح أحد حوائطه، وهو صيفي؛ لأن درجات الحرارة في هذه البلاد تهبط إلى أدنى من 25 درجة مئوية تحت الصفر في الشتاء. وهناك قاعة خاصة كان يجلس فيها الملك أو حاكم المنطقة. وفي القلعة آثار لاثنين وثلاثين مسجدا آخر؛ لكنها مساجد صغيرة، رغم أن بناءها فاخر وقببها عالية.[1]

إبل خوارزم:

بعد ذكر أهل خوارزم، انتقل العبودي إلى الحديث عن إبل خوارزم أيضا. وكتب أن إبل خوارزم قصير القوائم كثير الوبر، لكنها ذات السنام الواحد وليست ذات السنامين، وأن البيئة صحراوية ملائمة لمعيشة الإبل؛ إلا أن شتاء خوارزم قارس، فلا بد أن تختبئ الإبل أيضا في مكان تقي نفسها من البرد. وبذكر إبل خوارزم، انتقل العبودي إلى ذكر الإبل في المناطق الأخرى من العالم، فكتب:

"وعندما رأيت بعيرهم تذكرت أباعرة الصين الشعبية التي تعيش في مقاطعة كانسو في الشمال الغربي من الصين، وكذلك إبل تركستان الشرقية والإبل المغولية في منغوليا، إذ كان مثلها قصير القوائم، كثير الوبر، رثا بعيدا عن الرشاقة بالنسبة إلى إبلنا العربية والإبل التي تعيش في الصحاري الأخرى، كالصحراء الأفريقية الكبرى وصحراء كلاهاري في

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 89-94

جنوب غرب أفريقية، وقد رأيتها كلها. وقلت في نفسي، لو كانت إبل هذه البلدان الباردة بل الثالجة في الشتاء مثل إبلنا طويلة القوائم قصيرة الوبر، لماتت من شدة البرد".[1]

واستغرب العبودي ركوب السياح على الإبل بسلم مزدوج، فكتب: "ورأيتهم هنا فعلوا شيئا أثار في خاطري ذكرى أليمة، وهو سلم مزدوج يضعونه على الأرض بجانب البعير، وهو هنا جمل لا ناقة، فيصعد عليه الراكب السائح، ثم ينتقل منه إلى ظهر الجمل".[2] صحيح أن ركوب الإبل بالسلم، أمر غريب بالنسبة إلى العبودي الذي ينحدر من بيئة صحراوية تعتبر الإبل جزء منها؛ لكن السياح الأجانب الذين يقدمون من أوروبا، لا يستطيعون ركوب الإبل مثل العربي العائش في الصحراء. ثم ذكر العبودي "الذكرى الأليمة" التي تذكرها برؤية الإبل في خوارزم. وهي كما يلي:

".... عندما كنت في صحراء المغول في منغوليا، أردت أن أركب بعيرا من إبلهم ذات السنامين، ولم يكونوا وضعوا ذلك في أذهانهم، وكنت ضيفا على الحكومة. فلما عرفوا برغبتي بحثوا عن بعير فلم يجدوا متيسرا إلا قعودا صعبا غير مذلل. فجاؤوا به من دون أن يخبروني بحاله، ومعه سلم مثل هذا. فصعدت عليه وركبت البعير ذا السنامين. وسرت عليه مسافة قصيرة، وهو يرغو. وكأنما يتعود ويتهدد. ولم أبال بذلك، ولكنني عند النزول منه، وكان صاحبه ممسكا به يمنعه إن أراد أن يشرد. وعندما كانت إحدى رجلي على ظهر البعير والأخرى على السلم، جمح البعير، رغم إمساك صاحبه به وشرد. فوقعت على رقبتي. وذكرت ذلك بعنوان (وقعة الجمل) من كتاب: (مهد المغول)".[3]

ضريح الشيخ بهلوان وأبياته:

مر العبودي مع الدليل ومرافقيه على ضريح قالوا إنه ضريح السيد علاؤ الدين، أحد الدراويش، أستاذ الصوفي بهلوان محمود. وقال الدليل إن هذا المكان من أقدم آثار خيوة. وتوفي بهلوان عام 1326م، وقيل إنه لم يُهزم في أي مبارزة قط، ويكنونه (أبو خوارزم)، وأنه ساعد في نشر الإسلام. ونُقش على باب ضريحه أبياتا له، ذكر العبودي ترجمتها بالعربية وهي: "لإزالة ثلاثة وثمانين جبلا من جبال القاف قاف، وحفر

---

[1] يوميات آسيا الوسطى، ص: 95

[2] نفس المصدر، ص: 95

[3] نفس المصدر، ص: 96

خندق في مكانها، ولبث مائة سنة في السجن، أهون من صحبة جاهل لدقيقة واحدة".[1]

نـهايـة الجولة في قلعة خوارزم:

ذكر العبودي أن زيارة جامع القلعة كان مسك الختام للجولة في قلعة خوارزم، وهو جامع عظيم البناء، وحوله الشيوعيون إلى مستودع للغلال عام 1920م، واستعاده المسلمون عام 1970م وأعجب ما فيه أعمدته الضخمة التي يبلغ عددها 216 عمودا، والأغرب من ذلك أن هذا العدد الهائل من الأعمدة لا يمنع رؤية الإمام على المنبر من أي جانب في المسجد. وذكر العبودي أن المسجد كان تحت الترميم، وأن وزن أحد الأعمدة الساقطة منه يبلغ 1200 كلغم؛ لكن العبودي كتب أنه لم يستغرب ذلك لضخامته وصلابته. وهذه الأعمدة من أخشاب أشجار يسميها أهل خوارزم (كرمان) و(نروان).[2]

جامع شاليكار والشاعر آقاهي:

بعد الخروج من القلعة زار العبودي مسجد (شاليكار)، وشاليكار، كما ذكر العبودي، معناها طباخ الأرز. وهو جامع عظيم معه مدرسة كبيرة. وسأل العبودي أنه كيف تمكن طباخ للأرز من إنشاء هذا الجامع والمدرسة الكبيرة؟ فقالوا إن (شاليكار) هي اسم لعائلة مؤسس الجامع، ولم يكن يعمل طباخا للأرز، بل دليلا للقوافل. فوجد موميا أي ميتا من أموات الأقدمين محنطا وبجانبه إناء فيه ذهب. فأخبر الملك بذلك. فشكر له أمانته ورأى أن لا يأخذه منه إعجابا بأمانته وتورعا من أكله. فبنى به هذا المسجد والمدرسة عام 1251هـ. وصلى العبودي الظهر في هذا المسجد، وألقى به كلمة مطولة، ذكر فيها أمجاد المسلمين من أهل هذه البلاد. فأجهش الحضور بالبكاء. كما أشار العبودي إلى أن معظم المصلين من كبار السن وعليهم ملابس بخارية ثقيلة ولحاهم غير مهذبة. [3]

---

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 96-98

[2] انظر، نفس المصدر، ص : 98-99

[3] انظر، نفس المصدر، ص : 99-100

وبعد ذلك زاروا منزل الشاعر (محمد رضا آكاهي) وهو من أهل خيوة وأعظم شعراء هذه البلدة الذين نظموا بالأزبكية في العصور المتأخرة. وشعره في الآداب والأخلاق والنصائح. وأعادوا بناء بيته على الطراز القديم وحولوه إلى متحف، مع الحفاظ على شجرة للتوت في فناء البيت عمرها أكثر من مائتي عام. وقد غرسها الشاعر بيده. وإلى هنا، انتهت رحلة العبودي إلى خوارزم. [1]

من خيوة إلى جمهورية تركمانستان الاشتراكية السوفييتية:

سافر العبودي من خيوة إلى تركمنستان بالسيارة. وتبعد حدود تركمنستان عن خيوة 60 كلم فقط. وعاصمتها (عشق آباد) وتأسست جمهورية تركمنستان عام 1924م، ومساحتها 488000كلم مربع، ويبلغ عدد سكانها 2759000 نسمة، وفق إحصاء عام 1979م. ومن أهم مدنها مرو وبيهق وسرخس ونسا وشهرستان وآمل. وجميع هذه المدن لها تاريخ إسلامي مجيد وإليها ينتمي علماء ومحدثون وشعراء وفلاسفة وفقهاء.

ذكر العبودي أن ريف خوارزم كان جميلا به مزارع كبيرة، وقناة تماشي الطريق شقوها من نهر جيحون. وعندما تقربوا إلى حدود تركمنستان، غابت تلك الخضرة والنضرة، وبدت للعيان صحراء كصحراء نجد تهتز بها أفنان الغضا، والأرض تحولت إلى قصائم أي الرمال التي فيها أشجار الغضا. ومنها أخذ اسم القصيم. فطلب العبودي من الرفاق أن يتوقفوا قليلا. فتوقفوا وعجبوا من طلبه ذلك، وسألوا عن السبب، فقال: "إن هذه قطعة من بلادي هاجرت إلى بلادكم عندما كانت عامرة بالعلم والعلماء. يهاجر إليها العلماء والشعراء وحتى طلاب التجارة والمال".[2] وكلمات العبودي في بيان صحراء تركمنستان وشدة حنينه إلى الوقوف بها، تذكرنا بقصيدة امرء القيس الذي يقول في مطلعها: "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل"

وكتب العبودي أن القنوات التي شقت من نهر جيحون، في النهاية تنصب في بحيرة (أرال) – أي بحيرة خوارزم- وهي تقع على مسافة نحو 400 كلم من خوارزم.

---

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 102-104

[2] انظر، نفس المصدر، ص: 107-108

وبها ينتهي نهر جيحون وسيحون – آمو دريا وسير دريا-؛ إلا أن مياه البحيرة أصبحت قليلة بسبب كثرة القنوات المشقوقة من جيحون وسيحون، كما أن مياهها أصبحت ملوثة بسبب انصباب فضلات المصانع والمزارع التي تقع في مياهها.

وذكر العبودي أنه لا يصح وصف الجمهوريات السوفييتية بمستقلة؛ لأنها جمهوريات رمزية ليست لها ناقة ولا جمل من الأمور إلا استقلالا في أمور داخلية تافهة، بينما تبقى مقاليد الحكم في يد موسكو، تديرها كما تشاء. وهي كما قال طرفة بن العبد في الموت:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى وثنياه باليد [1]

أول وفد إسلامي في "تاش حوض"

كانت "تاش حوض" – ومعناها الحوض الحجري- أول محطة حل بها العبودي في تركمنستان. وهي عاصمة منطقة (تاش حوض). وعدد سكانها وقت الزيارة 110 ألف نسمة، 70% منهم مسلمون، بينما يشكل الروس والأوكرانيون والأرمن وأقليات أخرى النسبة المتبقية. ومن هذه الناحية فإن تاش حوض بلدة مسلمة، بينما يشكل المسلمون أقلية في (عشق آباد) عاصمة تركمنستان، حيث تشكل الطوائف الأخرى الأغلبية فيها، رغم أن هذه البلاد من البلاد الإسلامية العريقة. وكتب العبودي أنهم كانوا أول وفد إسلامي في تاريخ المنطقة في تاش حوض، حسبما يذكره أهالي المنطقة.[2]

وأول الضيافة التي لقوه في (تاش حوض) هو خبز حار طازج قدم لهم من تنور كانت النساء يخبزن فيه. وكتب العبودي أنهم تناولوا منه شيئا بدون حاجة إليه؛ لأن العادة عندهم أن يأكل الضيف من الخبز ولو مثل أنملة. ويقارن العبودي بين سحن الخوارزميين والتركمان، فيقول إن هناك فرقا في وجوههم، واختلاف في ألوانهم؛ لأن الخوارزميين فيهم أعراق فارسية. وأشار العبودي إلى أن تلك المنطقة منطقة ريفية والبيوت فيها من الطين، كما لا توجد بها الشوارع والطريق المعبدة والبيوت متفرقة.

---

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 108-113

[2] انظر، نفس المصدر، ص: 119

وأضاف أنه رآى النساء يستقين من البئر، وعرف من ذلك أن الماء غير موجود في بيوتهم.[1]

جولة على المساجد وانعدام العلماء:

قام العبودي بزيارة للمساجد. أولها مسجد (الله برقان إيشان). ومعنى اسمه مسجد عطاء الله الصوفي. وهو مسجد جديد أنشأه أهالي المنطقة على أرض منحتهم الحكومة. ووصف بناء المسجد وصفا دقيقا، أشار فيه إلى أنه مبني من الطين وسقفه من الخشب، وحتى العمود الذي في الوسط، هو أيضا من الخشب.

ثم ذهبوا لزيارة محلة (أمير قلعة). ويقول العبودي أن اسم هذه القرية بلفظتيه عربي، يعني "أمير القلعة" [2] وفيه مسجد يسمونه (مسجد أمير قلعة) – أقول معناه مسجد قلعة الأمير وليس مسجد أمير القلعة-. وهذا المسجد كان مسجدا قديما صادره الشيوعيون، وهدموه. واستعاده المسلمون حديثا، وبدأوا يعيدون بناءه بالإسمنت المسلح.

وكتب العبودي أنهم ذكروا "أن هذا المسجد قبل هدمه، كان فيه أربعة من القراء، ما بين إمام ومعلم للقرآن. ولكنهم ماتوا ولم يجدوا من يخلفهم في مكانهم لانقراض العلماء، بسبب انعدام التعليم الديني الإسلامي. كما ذكروا أن هذا المسجد بقي سنوات طويلة بعد الحكم الشيوعي سليما لم يهدم".[3]

ومن هنا يتذكر المرء ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم عن انقراض العلم، بانقراض العلماء، حيث ورد عنه عليه الصلاة والسلام: (عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال :سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:إنَّ اللهَ لاَ

---

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص: 113-114

[2] لا شك في أن الكلمتين كلتاهما عربية؛ لكن التركيب ليس التركيب العربي أي أمير القلعة، بل هو مقلوب ومعناه (قلعة الأمير)؛ لأن هذا التركيب مستخدم على نطاق واسع في اللغة التركية والفارسية، حيث يقدم المضاف إليه على المضاف. وقد قدم العبودي دليلا على ذلك عندما ترجم كلمة (الله برقان) بـ عطاء الله. فهنا أيضا تم تقديم المضاف إليه على المضاف. (الباحث)

[3] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص: 117

يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعهُ مِنَ النَّاسِ، وَلكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتوا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا) متفق عليه([1]).

وفيه عبرة لكل من يرى أنه يمكن بقاء الدين بدون العلماء. والتجربة الشيوعية كانت تجربة مريرة في تاريخ البشرية من حيث العمل بالدين؛ لأن الشيوعية سعت لإسقاط كل ما له علاقة بالدين، ولاسيما الدين الإسلامي.

عدد المساجد في تركمنستان والطاقية التركمانية :

ذكر العبودي، أنه على الرغم من أن أغلبية سكان تركمنستان من المسلمين؛ لكن لم يكن بها إلا أربعة مساجد فقط بعد الثورة الشيوعية وقبل بدء حركة "إعادة البناء" –بيريسترويكا– التي قدمت متنفسا لسكان الاتحاد السوفييتي، حيث قل بطش الشيوعيين. ولا توجد بالعاصمة التركمانية عشق آباد سوى مسجد واحد، على سعة العاصمة. وبلغ عدد المساجد وقت زيارة العبودي لتركمنستان أربعين مسجدا، أي بنيى ست وثلاثين مسجدا جديدا؛ لكن الكثير منها تحت الإنشاء.[2]

ولم ينس العبودي ذكر الطاقية التركمانية التقليدية الكبيرة. حيث ذكر أن أحد التركمان وضع تلك القلنسوة على رأسه مهديا إياها له؛ إلا أنه أعادها إليه شاكرا، مضيفا أن رأسه كان ينوء بها. وتذكر العبودي من هذه القلنسوة، قلانس لمناطق أخرى. فكتب أن قلنسوة أهل داغستان أيضا كبيرة غليظة، وتهدف إلى اتقاء البرد، بينما ترمي القلنسوة التركمانية إلى اتقاء البرد والحر معا؛ لأن درجات الحرارة في تركمانستان ترتفع إلى 45 درجة مئوية صيفا، وتهبط إلى 25 درجة تحت الصفر شتاء، إلا أن القلنسوة الأزبكية المربعة التي رآها على رؤس الأطفال، فهي خفيفة.[3]

أرض نجد في تركمنستان:

عندما وصل العبودي وسط مدينة (تاش حوض)، رآى أرضا ذكرته بأرض بلاده، فكتب :

---

[1] صحيح البخاري، كتاب العلم: 100

[2] انظر، نفس المصدر، ص: 121

[3] انظر، نفس المصدر، ص: 123

"فوقعنا في أرض ذكرتني بأرض نجد. كما كان قد ذكرني غضا خوارزم بغضا القصيم. وذلك أننا رأينا أرضا بعد المزارع متروكة، وفيها أشجار من أشجار الحمض التي نعرفها بالقصيم. وفيها إبل ترعى كما ترعى إبلنا النجدية؛ إلا أنها لا تماثل إبلنا في الرشاقة، وخفة الحركة. فهذه ضخمة الأجسام، كثة الأوبار، قصيرة القوائم. وربما صح القول بأنها ثقيلة الدم، لولا أنني لم أزن دماءها".[1]

ضيافة واستقبال كاستقبال الملوك والرؤساء:

زار العبودي مسجد (محلة دوست ليك) في تاش حوض. و"دوست ليك" معناها الصداقة. وهذا المسجد أيضا جديد، لم يزل تحت الإنشاء حين زيارة العبودي. وذكر أن الحكومة أعطت أرضا كبيرة للمسلمين لبناء هذا المسجد؛ إلا أن غير المسلمين من أهل الحي عارضوا ذلك، مبررين بأن الحي محتاج إلى حديقة للأطفال. فاقتطعت الحكومة قطعا من تلك الأرض وخصصتها لحديقة الأطفال.

وكتب العبودي أن أهل الحي عرفوا بمقدمهم قبل وصولهم. ففرشوا الممر من المسجد إلى الشارع العام بفرش أبيض، كما يُفعل في استقبال الملوك ورؤساء الدول ومن في معناهم في المطارات ونحوها حين يفرش لهم فراش أحمر، تكريما لهم. وهكذا فعل بهم أهل الحي واشتروا ذلك الفراش بالتبرعات تكريما وحبا لإخوانهم القادمين من الديار المقدسة.

وألقى العبودي كلمة أمام الجمهور في هذا المسجد، ذكرهم فيها بضرورة تعليم الأطفال وتربيتهم تربية إسلامية، لئلا يكونوا مسؤولين أمام الله عن ضياعهم، يوم القيامة. وأخبر أهل الحي باعتزاز أن تركمنستان كلها كان فيها أربعة مساجد، والآن في تاش حوض وحدها صارت أربعة مساجد. وذكر العبودي أنهم عندما وقفوا في الشارع أمام منزل مرافقه الشيخ نصر الله بن عباد الله، دعاهم لدخول البيت لكنهم اعتذروا بضيق الوقت. فخرجت من بيته بُنيّة معها خبز. فقدم الشيخ الخبز إليهم في الشارع رمزا للضيافة والتكريم، حسب التقليد المعروف لديهم. فأخذ كل واحد بقدر رأس الأصبع منه.[2]

---

[1] يوميات آسيا الوسطى، ص: 125

[2] انظر، نفس المصدر، ص : 124-127

العودة إلى خوارزم ونـزهة في جيحون:

عاد العبودي من (تاش حوض) إلى خوارزم، ولم يزر أي مناطق أخرى من تركمنستان. وأخذوا في العودة طريقا غير طريق خيوة. ومر الطريق بحقول خضراء وأشجار باسقة. وأشار العبودي إلى أن تلك المنطقة كانت ريفية. ورأوا في الطريق أن خمسا وعشرين رجلا يعملون لإنشاء بيت من الطين. وتذكر العبودي بذلك الوضع عندهم في نجد، عندما كان الناس يبنون بيوتهم من الطين، ويساعدهم أقاربهم وأصدقاؤهم في البناء، ولاسيما إذا كان صاحب البيت من الناس الذين لا يستطيعون استئجار من يبني لهم.

وتوقف الوفد في قرية (قراوول قشلاق) قبل الوصول إلى أوركنج، وزاروا مسجد خواجا شمس الدين. والمسجد تحت الإنشاء. وتبرع شيخ من أهل القرية للمسجد أرضا ورثها من أبيه. ومن الغريب أن عمره 78 سنة، لكنه في صحة جيدة ويشرف على بناء المسجد وله خمسة عشر ولدا من زوجة واحدة.[1]

وذكر العبودي أن الجو كان حارا، ورآى في الطريق الأطفال خففوا من الملابس اتقاء للحر وليس عليهم سوى السروال القصير، بينما الصغار جدا منهم، ليس عليهم أي لباس أصلا. وبرؤية هذا المشهد، انتقل ذهن العبودي إلى وضع مثيل في دول أفريقية؛ لكنه ذكر أن الفارق بينهم وبين الأفارقة، أن لون الخوارزميين أبيض.

من أوركنج، ذهب العبودي لنزهة في نهر جيحون (آمو دريا). فوصلوا إلى ميناء جيحون، وكتب العبودي عنه أنه لا يوجد به أي مرافق تذكر؛ إلا أن القائم على الميناء رجل خبير في شؤون المياه. وهو ذكر له أن مياه جيحون قد انتقصت لعدة أسباب. وأنها كانت أكثر من عشرة آلاف متر مكعب في الدقيقة قبل فترة، لكنها انخفضت إلى ألف وخمسمائة متر مكعب في الدقيقة وقت زيارة العبودي عام 1990م. [2]

إصرار العبودي على ذكر (آمو دريا) باسمه القديم:

وكتب العبودي:

---

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص :135-137

[2] انظر، نفس المصدر، ص :129-132لت

"لا أستطيع أن أغفل التسمية العربية القديمة (جيحون) لهذا النهر العظيم المسمى الآن (آمو دريا)، ولولا الخوف من الالتباس، لم أذكره إلا بهذا الاسم العربي الأصيل، لأنه ورد في الحديث، سواء أكان الحديث صحيحا أم غير صحيح، فإن ورود اللفظ فيه واضح. إضافة إلى أن علماءنا الأوائل قد سجلوا اسمه هذا ووصفوه عندما رأوه أو ركبوه بحسب حالته التي تختلف في الشتاء عن الصيف، كما قال ياقوت الحموي رحمه الله عن تجربته الشخصية في هذا النهر في فصل الشتاء. قال: وقد شاهدت (جيحون) وركبت فيه، ورأيته جامدا. وكيفية جموده أنه إذا اشتد البرد، وقوي كلبه، جمد أولا قطعا. ثم تسري تلك القطع على وجه الماء. فكلما ماسّت واحدة الأخرى، التصقت بها. ولا تزال تعظم، حتى يعود (جيحون) كله قطعة واحدة. ولا يزال ذلك الجامد يثخن حتى يصير ثخنه نحو خمسة أشبار، وباقي الماء تحته جارٍ. فيحفر أهل خوارزم فيه آبارا بالمعاول حتى يخرقوه إلى الماء الجاري. ثم يستقوا منه الماء لشربهم. ويحملوه في الجرار إلى منازلهم. فلا يصل إلى المنزل إلا وقد جمد نصفه في باطن الجرة". [1]

وكان حاكم خوارزم ونائبه في توديع العبودي من أوركنج إلى بخارى. فانتهز العبودي تلك الفرصة لتذكيرهم بتاريخ خوارزم المجيد، مع لفت الانتباه إلى تصحيح التاريخ الذي يُدرس عندهم عنها؛ لأنه وعلى الرغم من الاعتراف بأن خوارزم له تاريخ يعود إلى أكثر من ألفي عام؛ لكن المادة المقدمة عنها هي لا تشمل إلا الفترة المؤخرة.[2]

قام العبودي بجولة أخرى في مدينة بخارى مدينة الإمام البخاري، وأشار إلى تغير الوضع هناك مقارنة بما شاهده عام 1986م. ومن أهمها تيسير الأمور الدينية على المسلمين، وتعاون الحكومة في إعادة بناء المساجد القديمة وإنشاء مساجد جديدة، إضافة إلى تسهيل التعليم الديني للأطفال. وهو أمر كان ممنوعا قبل (بيريسترويكا). وكتب العبودي:

"ذكر الشيخ نصر الله أنه يدرس الآن عددا محدودا من أبناء المسلمين علنا في المسجد، لا يخافون إلا من الله. أما في أزمات الشدة – كما قال- ويريد بذلك زمن الطغيان الشيوعي، فإن تدريس الدين وتلقين مبادئه على الأصح، كان يتم خفية، وعلى

---

[1] يوميات آسيا الوسطى، ص: 133

[2] انظر، نفس المصدر، ص : 142-144

خيفة في البيوت وبالدور، بحيث أن المدرس يأتي إلى بيت ويجتمع فيه خمسة فقط أو ستة من أبناء المسلمين في يوم معين، ثم ينتقل بعد ذلك إلى عدد قليل غيرهم في وقت معين آخر. وذلك حذرا أن يكتشف أمرهم، إذ أنه إذا عرف أنهم يدرسون الدين، فإن المعلم والطلاب يعاقبون عقوبة شديدة، أهونها السجن لمدد معينة، لكونهم خالفوا القانون الإلحادي الشيوعي الذي يحظر تدريس الدين". [1]

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 147-168

المبحث الثالث: إلى تاجكستان وفرغانة

سافر العبودي من طشقند إلى (دوشنبة) عاصمة جمهورية تاجكستان الاشتراكية الفدرالية في 12 يونيو 1990م. تقع تاجكستان على الحدود مع أفغانستان. وكانت جزءا من أزبكستان بعد الثورة الشيوعية؛ لكن تم فصلها تماما عن أزبكستان في 5 ديسمبر 1929م. وتبلغ مساحتها 14300 كلم مربع، وعدد سكانها وفق إحصائية عام 1979م يبلغ 4801000 نسمة، والمسلمون يشكلون 86% من سكانها، بينما تشمل النسبة المتبقية أتباع الأديان الأخرى. وهي بلاد جبلية، ذات أودية كثيرة، وجبال متوجة بالثلوج. والجبال تشكل 93% من مساحتها، بينما نسبة الأرض المطئنة 7% فقط، وفق الإحصاءات الرسمية.

وكتب العبودي أنه تعرض لحرارة شديدة خلال الرحلة بين طشقند ودوشنبة التي استغرقت 45 دقيقة فقط؛ لأن الطائرة كانت مكتظة بالركاب، ولا يوجد مكيف للهواء ولا فتحات التهوئة، وحتى لا يوجد أي ستار على النوافذ. فزادت أشعة الشمس من الحرارة وأصبح زجاج النافذة لا يمكن مسه. وبرر العبودي لذلك، بأن هذه البلاد شديدة البرد، فلذلك فإن الطائرات مهيئة لمقاومة البرد، بدون منح أي رعاية للحرارة.

قدم العبودي صورة قلمية لما شاهد من الجو خلال تلك الرحلة، من الجبال والوديان والقمم العالية المجللة بالثلج والقرى المتناثرة، والأنهار والنهيرات المنحدرة من الجبال، مشيرا إلى أن تاجكستان مجموعة من أودية وشعاب جبلية، معظمها خضراء وبعضاء جرداء من الخضرة. وأن الثلوج على قممها لا تذوب تماما حتى يأتي موسم الثلج المقبل. وهي تمد الأنهار بمياه دائمة. والجو في تاجكستان بارد قارس، والثلج يبقى لثلاثة أشهر. والبيوت سقوفها مسنمة لتيسير انزلاق الثلج منها.[1]

واستقبله في مطار دوشنبة الشيخ الحاج أكبر جان تورة زادة عبد القهار، قاضي جمهورية تاجكستان برفقة عدد من الشخصيات والعلماء. وذكر العبودي أنه رأى

---

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 172-179

طائرات حربية كثيرة في مطار دوشنبة، وذلك بسبب الحرب في أفغانستان؛ لأن الحكومة السوفييتية تقف إلى جانب الحكومة الأفغانية الشيوعية، وتمدها بما تحتاج إليه.

وعندما أراد المضيفون الانتقال إلى قصر الضيافة – وهي دار ضيافة رسمية تساوي فندق من الدرجة الأولى–، للاستراحة، اقترح العبودي عليهم القيام بنزهة في دوشنبة بدلا من الاستراحة؛ لأن الوقت فيه سعة لذلك. فخرجوا في نزهة خارج دوشنبة. ومروا على قرية (القلعة)، فتوقفوا فيها لأداء صلاة الظهر؛ إلا أن المصلى كان قائما في منزل ذات ثلاث غرف، ليس عليه أي علامة للمسجد. فسأل العبودي عن سبب ذلك، فأفادوه بأن أهل القرية حصلوا على هذا المنزل باسم مقهى أو (شاي خانة) بلغتهم؛ لأن إقامة المساجد ممنوع. فكانوا يجتمعون فيه. ويصلون في غرفة منه. فإذا زاد العدد فتحوا الغرف الأخرى أيضا. كما أن الشيوعيين إذا عرفوا بشيخ يعلم الدين، فينفونه إلى سيبيريا أو يدبرون لقتله. وبذلك أصبح أهل القرية قليلي الفهم لأمور الدين. وأخبر أهل القرية أن هذا الأمر كان في السبعينات من القرن العشرين؛ لكن الوضع يختلف الآن إلى الأحسن.[1]

وتأثر العبودي كثيرا من منظر النهر الذي يصب في الوادي. فكتب عنه:

"وقفنا في مكان متسع قليلا على ضفة نهر (وارزاب) للتمتع بمرأى النهر هو يغذ السير بل الانحدار. ولمياهه خرير جميل يجلب النعاس لرتابته وتوازن وقعه. وقد انتصبت الحيطان الجبلية التي تكاد تخنق وادي النهر بأيدٍ خضر، ولكن النهر يبادر فيغسل أقدامها دون أن يصل هامها.... ومع جمال المنطقة وتدافع مياه النهر الذي ارتدت صفحته المضطربة ثيابا بيضا من شدة الاضطراب، فإن مجرد رؤية الجبال المنتصبة التي تكاد تغلق النظر دون الأفق القريب، بل إنها تغلقه بالفعل؛ لأن الوادي ينحرف بعد أن يتجاوزنا هي، مما لا يشعر المرء معه بالارتياح، إذا تصور أنه سيقيم على سبيل الافتراض – بين هذه الجبال".

---

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 182-183

"وجدت القرية مهملة من العناية في المرافق العامة وهي نفسها صغيرى تتعلق بيوتها بأهداب الشعب الجبلي الذي تقع على قدمه. بيوتها من الآجر والخشب وبعضها من الطين الذي بنيت أساساته من الحجارة. ... وكان المشهد مشهدا ممتعا قلما يحلم به المرء، وهو أن يرى قرية منزوية في شعب من شعاب الجبال التاجيكية. ويحيط به قوم من الإخوة المسلمين من أهل هذه البلاد من العريقين في الإسلام. وإن كانت حصيلتهم من المعرفة بالإسلام قد قلت الآن، أو كادت تعدم، إذا نظرنا إليهم أفرادا من العامة".[1]

تفكير حماري:

لا تخلو كتابات العبودي من خفة الروح بعض الأحيان، إذ أنه يذكر بعض الأشياء بأسلوب ساخر يكون سببا في إضافة التبسم إلى شفاه القارئ في بيئة جادة. ولننظر إلى هذا النص الذي ورد في خضم حديثه عن ضياع المسلمين في تاجكستان، حيث كتب:

"ولم أر حيوانا في القرية إلا خيلا وحميرا. وأذكر أن حمارا منها كان يقف في الطريق الضيق. فحاول سائق سيارة الشرطة التي أمام موكبنا أن يبعده بإطلاق بوق سيارته المزعج المميز. فلم يكترث بذلك. وإنما واصل الإيماء برأسه، وهو يخفضه، كأنما يتحدى. فلم يكن إلا التلطف به حتى مرت السيارات بجانبه دون أن تصدمه ولم تكد تمر. ولا شك أن من أسباب ذلك أنه لم يتعود على أصوات السيارات. وربما ظن ذهنه (الحماري) أنها مثل أصوات الرعود التي تحدث في السماء، ولا تحتاج منه إلى الابتعاد عن موضعه عندما تسير. أو ظن أنها مثل صوت مياه النهر التي لا تفتأ تهدر هذا الهدير الرئيسي، أو هكذا توهم، بفهمه الحماري الكثيف".[2]

جامع (سرِ آسيا) والحديث عن الإسلام:

عاد الوفد في المساء إلى قصر الضيافة. وصلى المغرب في مسجد (سري آسيا) – رأس الطاحونة-. وبعد الصلاة قدم الشيخ محمد صادق رئيس الإدارة الدينية لمسلمي وسط آسيا وقازاقستان الوفد، ثم نهض العبودي ليلقي كلمة مطولة عن الصلة الدينية بين المسلمين وتاريخ هذه البلاد المجيد. دعا فيها الناس إلى استغلال الوضع

---

[1] يوميات آسيا الوسطى، ص : 180-183

[2] نفس المصدر، ص: 184

الحالي لصالح الدين؛ لأنهم لم يكونوا حتى يحلمون قبل حركة "إعادة البناء" التي بدأها الرئيس غورباتشوف بالحريات الدينية ولاسيما إنشاء المساجد وتعليم الأطفال الدين وتلاوة القرآن الكريم. فكان تأثر المصلين شديدا من رؤية أول وفد إسلامي من مكة المكرمة. وزاد فرحهم بوصول الخبر عن السماح لهم بأداء مناسك الحج، بعد أن كان ذلك الأمر محظورا لأكثر من 73 عاما.[1]

وكان تأثر العبودي من زيارة تلك المنطقة أشد، حيث يكتب:

"... ولم أنم كثيرا رغم الحاجة إلى النوم من أجل الاستعداد لعمل الغد. وذلك لاستغراقي في التفكير السار الذي أحسست به وأنا أصل إلى هذه الديار المسلمة وأرى إخواني المسلمين فيها، مما لم أكن أحلم به في الماضي. وزاد السرور بهذا اللقاء أنه يجيء في ظرف حسنت فيه أحوال المسلمين الدينية. وزادت آمالهم في أن يستعيدوا حريتهم في معتقدهم وأن يربوا أولادهم التربية الإسلامية".[2]

تسمية دوشنبة والحديقة الغناء وسيد الطعام والأرقام العربية:

كما أسلفنا، أن العبودي متعود على شرح الكلمات الغريبة وبيان معاني الكلمات الجديدة. فمن هذا الباب شرح كلمات كثيرة في طيات رحلته إلى تاجكستان. وبينها شرح أسماء القرى والأماكن أيضا. وأوضح أن (دوشنبة) معناه يوم الاثنين. وسميت هذه المدينة بـ دوشنبة بسبب سوق كانت تقام هناك يوم الاثنين من كل أسبوع. وهي العاصمة الجديدة لتاجكستان، بينما العاصمة القديمة هي "حصار".[3]

وأعرب العبودي عن إعجابه الشديد بالحديقة التي كانت بقصر الضيافة، فنزل إليها، رغم ضيق الوقت. وكتب بأسلوب أدبي رصين:

"ولم أستطع مقاومة الإغراء في النزول إلى الحديقة، رغم قصر الوقت. فنزلت أتمشى في الحديقة في هذا الصباح الذي خيل إلي أنه كان يبتسم لي أو لأهل هذه المدينة، بعد عبوس طويل ران عليها لأدهار، حتى أصبح الكبار من أهلها لا يذكرون من زمانهم غير

---

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 184-189

[2] نفس المصدر، ص : 188-189

[3] انظر، نفس المصدر، ص: 189

العبوس. وكان الصباح باردا بردا ربيعيا لذيذا ما لبث أن خف مع ارتفاع الشمس. فكان كغضب الحبيب ما يلبث أن يزول، بل ما يلبث أن يتحول إلى حب لذيذ أو أمل في حب لذيذ".[1]

وكانت الفقرة الأولى من اليوم الثاني في دوشنبة، زيارة (محلة المعرفة) – محلهء معرفت– للاطلاع على مسجد (قاضي عبد الرشيد). وأشار العبودي إلى أن الطريق إلى ذلك المكان كان ريفيا جميلا. واستقبلهم أهالي الحي استقبالا حافلا. وأقيمت لهم مائدة في غرفة طويلة في سرادق. وكانت حافلة مثل موائد تركستان المعروفة.

وذكر العبودي أنه تجنب الأكل بسبب تغيّر شعر به في بطنه؛ لكنه أخذ لقمات من "سيد الطعام". وهو عند أهل تاجكستان أرز يطبخ باللبن وينثر عليه سمن البقرة. فقال إنه بعد أن غرف غرفة بملعقة كانت بيده، أخذ الشيخ محمد صادق رئيس الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان، تلك الملعقة وغرف من إنائه. وهكذا فعل كل من جلس على المائدة، اعتقادا منهم بأن يكون فيه بركة لأنه من بقايا طعام شخص جاء من جوار بيت الله الحرام.وهذا من محبتهم لدين الله.[2]

وذكر العبودي أنهم رأوا أحد المسلمين يقدم تبرعا للمسجد، فقام الإمام بعده أمام الجميع، وهو عشرون روبلا، ويساوي ربع راتب الفراش للشهر. وذكر أنه قدم لهم مبلغا جيدا من جانب رابطة العالم الإسلامي لإكمال بناء المسجد.

حصار، العاصمة القديمة لتاجكستان:

أبدى العبودي رغبة في الاطلاع على ناحية أخرى من ريف تاجكستان. فذهبوا إلى (حصار) عاصمة تاجكستان القديمة، عندما كانت جزءا من إمارة بخارى. وذكر العبودي جمال ريف تاجكستان الذي شاهده خلال خروجهم من دوشنبة. وأشار إلى أن مليون أزبكي أيضا يقيمون بتاجكستان التي يبلغ عدد سكانها نحو خمسة ملايين نسمة. وعدد الروس في دوشنبة يتراوح بين 37-40%. ومعظمهم من العمال في

---

[1] نفس المصدر، ص: 190

[2] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 191-192

القطاع الحكومي، ويعملون في القطاعات الصناعية التي لا يستطيع أهالي المنطقة القيام بأعمالها.

وذكر العبودي أن لافتات الطرق هنا أيضا باللغة الروسية، وهي تستخدم الأرقام العربية المعروفة في الغرب والمغرب العربي، مضيفا أن العرب يسمونها (الأرقام الإفرنجية)، بينما يسميها الأفرنج (الأرقام العربية). وذكر أن هذه الأرقاما موجودة في اللغات التي تختلف حروفها عن الحروف اللاتينية والعربية، بل ربما صح القول أنها ليس فيها حروف، مثل اللغة الصينية. والروس ليست عندهم أرقام غير الأرقام العربية. [1]

قرية (قلعة حصار):

تقع قلعة كبيرة فوق قرية (قلعة حصار)، وهي عظيمة لكنها خربة. ويسمونها (آراك)، تشبه قلعة بخارى و خوارزم. ووقف الموكب عند أقدام القلعة، وقد تهدمت أكثر مبانيها. وبينها مدرسة ومسجد قديم. وبنيت المدرسة في القرن السادس عشر الميلادي؛ لكنها والمسجد والبيوت التي تقع قربها، كلها خربة، لا تُستخدم. وذكر العبودي أنه لم يجد أحدا يمده بمعلومات عن تلك الآثار التاريخية العظيمة.

وقرب هذا المكان تقع عين يسمونها (ششمه ماهيان) – أي عين السمك–، وهي عين على شفيرها شجرة عظيمة من (جنار) معمرة لا يقل عمرها عن قرنين. والمعروف عندهم أن بعض المشايخ والصوفية كانوا يكتفون بمائها وسمكها. لذلك فهم يتبركون بها. كما أن بعض "طلاب العلم" حاولوا حرق الشجرة للقضاء عليها؛ لكن لم يتمكنوا من ذلك، رغم أن أثر الحرق موجود.

وذكر العبودي أنهم كانوا يبنون مسجدا قريبا من تلك العين؛ لكن لا علاقة لها بالعين، مشيرا إلى أنهم شاهدوا في هذه الناحية الريفية من دوشنبة، ما لم يروه من الجهة الجبلية. وتمتعوا بالمناظر الريفية الخلابة. وعادوا إلى دوشنبة من طريق غير الطريق الذي سلكوه في الذهاب. ويسمونه طريق (فيتوفسكي)، وهو أحد القادة الروس الذين أخضعوا هذه البلاد لحكم الروس. وهو من قام بإنشاء المخابرات الأجنبية في دوشنبة؛ لكنهم يرغبون في تغيير ذلك الاسم ليسموه (طريق الشهداء). والشهداء هم المسلمون

---

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 194-196

من أهل البلاد الذين سقطوا برصاصات السلطات الحكومية الشيوعية في فبراير 1990م، عندما خرجوا متظاهرين رافضين الحكم الشيوعي، وداعين إلى تطبيق حكم المشايخ الذين يحكمون بالإسلام. واندلعت تلك المظاهرات بسبب وصول 24 ألف نسمة من الأرمن الذين تم نقلهم من آذربيجان إلى هناك، بسبب تشجنات بين الآذريين والأرمن؛ إلا أن خطة استيطانهم في تاجكستان باءت بالفشل.[1]

جولة في دوشنبة وحولها:

قام العبودي خلال رحلته لتاجكستان بجولة داخل عاصمتها دوشنبة، إضافة إلى قرى قريبة منها، قبل عودته إلى طشقند. وكانت المحطة الأولى من تلك الجولة جامع وسط دوشنبة، حيث يقع مكتب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي والدوائر الرسمية. وأنشأوا ذلك الجامع على أن يكون معلما لدوشنبة وطلبوا المعماريين من سمرقند وبخارى من الماهرين في فن البناء القديم.

وتنشئ الحكومة التاجكية في محيط الجامع معهدا إسلاميا هو أول معهد إسلامي منذ استيلاء الشيوعيين على مقاليد الحكم في هذه البلاد. وهو يتكون من ثلاثة طوابق. ويتم بناؤه بتبرعات المسلمين. وعرف العبودي أن المسلمين الأثرياء يتبرعون بالمال، والذين لا يستطيعون ذلك، يقدمون تبرعات عينية. ومن لا يقدر على ذلك أيضا يقوم بالعمل بنفسه. وذكر العبودي أنه شاهد هذا الأمر شائعا في هذه البلاد، حيث يقوم المسلمون ببناء المساجد بكل حماس، بعد أن حرموا منها لفترة طويلة من الزمن.

إضافة إلى المعهد والجامع، سيحتوي هذا المكان مكتب الإدارة الدينية، التي تشرف على شؤون المسلمين في هذه البلاد. وعندما ذكر القائمون على بناء المعهد أوضاعهم، شكرهم العبودي على أنهم قاموا بإنشاء ذلك المعهد نيابة عن المسلمين جميعا، ليكون صرحا علميا للأجيال القادمة. كما أعلن أن رابطة العالم الإسلامي ستقوم بتأثيث المعهد بعد اكتمال بنائه، إضافة إلى تأمين الحاجات التي لا تتوفر في

---

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 197-207

هذه البلاد أو لا يمكن شراؤها من السوق، من آلات كاتبة بالعربية وطابعات وآلات التصوير.[1]

بعد زيارة المعهد العالي الإسلامي، انطلق موكب العبودي إلى قرية (كلستان) لزيارة جامع الشيخ يعقوب التشرخي. وأنشئ ذلك الجامع قبل 400 عام. وفي فنائه يقع قبر الشيخ يعقوب بن عثمان التشرخي الغزنوي. وقرب ذلك القبر يوجد قبر الشيخ محمد جان الهندستاني الذي قام بتفسير القرآن الكريم باللغة الأزبكية وتوفي عام 1989م.

انطلق الموكب إلى قرية (نيكان) –كلمة فارسية معناها بالعربية الأبرار-. وهذه القرية تقع في واد خصب بعيد عن العاصمة دوشنبة. وفي الطريق مروا بقرية (تبه سمرقند) – تلة سمر قند- وذكروا أن بها مسجد صادره الشيوعيون ولم يتم إعادته إلى المسلمين بعد. كما مر الموكب من أمام قاعدة عسكرية فوق تلة ذات أبنية مميزة. وذكروا أنها قاعدة لإطلاق الصواريخ، لقربها من الحدود الصينية والأفغانية.

ولقي الوفد استقبالا حافلا في قرية (نيكان)، حيث اجتمع الناس رجالا ونساء. فجلسوا في رواق قديم من المسجد بني قبل مئتي عام. واستخدمه الشيوعيون بعد مصادرته لتربية دود القز، واستعاده المسلمون عام 1979م. وذكر العبودي أنهم عندما خرجوا من المسجد، رأوا جمعا من الأطفال أيضا. وذكر أهل القرية أنهم يحفظون القرآن الكريم؛ إلا أنهم هربوا عندما طلب منهم أهل القرية الاقتراب من الوفد. وأخيرا مسكوا بطفل عمره نحو عشر سنوات. فتلا عليهم آيات من سورة الملك، قراءة تسر القلوب والآذان، حسب تعبير العبودي. وهذا الأمر كان جديدا في هذه البلاد التي حرمت من تعليم القرآن الكريم لفترة طويلة تحت النظام الشيوعي. [2]

عادة عجيبة للضيافة في دول آسيا الوسطى:

ذكر العبودي أنه عندما جلسوا في مسجد الشيخ التشرخي، رأوا أن بعض الأشخاص من القرية وغالبا ما يكون النساء، يأتون بأوان مغطاة، ويكشف عنها

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص : 208-210

[2] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 210-217

المسؤولون عن المسجد. وعرف أنهم يأتون بالطعام ولاسيما الخبز، بأنفسهم بدون طلب من أحد، وبمجرد علمهم بوجود ضيف أو مسافر في القرية. وكتب العبودي أن هذه العادة شائعة في هذه البلاد.[1]

العبودي السائح في قرية تاجكية:

لا شك في أن العبودي، قام برحلاته في معظم الأحيان لأداء مهام عمله، كأمين عام للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة أو الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي؛ إلا السائح الذي كان بداخله، لم يكن يهدأ أبدا، إذ كانت لديه رغبة شديدة في معرفة كل جديد، والاطلاع على البلاد والعباد، ومعرفة الأوضاع بدون أي واسطة. وبناء عليه نراه في كثير من الأحيان يحاول الخروج من مسار "الزيارة الرسمية"، ليضيف إلى رحلاته لونا غير الألوان المعتادة التي تفرض عليه طبيعة الزيارة الرسمية.

وهذا ما نرى جليا واضحا في الفقرة التالية:

"وقد انتهزت فرصة الفراغ من شرب الشأي، فذهبت وحدي لم يتبعني إلا أحد الإخوة المرافقين، لأصور زقاقا من الأزقة الضيقة المتعرجة في هذه القرية الطينية ذات الطراز القديم. فما كان من إحدى النساء وقد وقفت على باب بيتها تحمل خبزا، إلا أن أخذت توجه كلامها إلي بما لا أعرفه. وهي تقدم رجلا وتؤخر أخرى يمنعها حياؤها وخفرها من أن تتقدم مني أكثر من ذلك. وأسرع المرافق يقول: إنها تقدم إليكم الخبز، وتطلب أن تأخذه معك. فشكرتها واعتذرت بما لم تفهمه من كلامي؛ ولكن الأخ المرافق قال: إنه لا بد من أخذ الخبز، وإلا فإن ذلك سيؤثر في نفسها. فأخذه وحمله معه. وأعطيتها نقدا صغيرا، فرفضته؛ إلا أن المرافق، وهو يحسن العربية، قال لي: إنني قلت: إن هذا النقد فيه بركة؛ لأن صاحبه قادم من مكة المكرمة. وقال إن الناس لم يتعودوا على أخذ النقود مقابل الطعام. فقلت هذا صحيح، ولكن هذه بمثابة الهدية.... وكنت أود أن أتعمق فيها ولكن الرفاق لحقوا بي. فخرجت بُنية من بيت من بيوت القرية، معها صحن فيه شيء مغطى وملفوف بمنديل، كشفوه لنا. فإذا به طعام كالأرز يقدمه أهل البيت للضيوف. وهذا من الإكرام للضيوف في آسيا الوسطى الذي عرفته عنهم، والذي قل أن يوجد له نظير في مكان آخر، سواء بالنسبة إلى ما يقدم للضيوف

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص: 218

من طعام وافر منوع، أو بالنسبة لما يقدمه الناس للضيف الغريب. حتى وإن لم يعرف أهل البيت من هو، ولا مكانته. وإنما يقدمونه لمجرد كونه ضيفا غريبا على المكان".[1]

قرية (قرا تيجين) ومسجد حافظ شيرازي:

توجه موكب العبودي من قرية "الأبرار" إلى قرية (قرا تيجين). وذكر العبودي أن بيوتها كلها من الطين. ورغم أنها قرية مسلمة، لا يوجد فيها أي مسجد، ولم يكن يُسمح بإنشاء المساجد. وقد قام أهل القرية باستصدار إذن لإنشاء (مقهى) – شاي خانة– ليتخذوه مصلى لهم. ومثل هذه المساجد المقامة في المقاهي كانت شائعة في هذه المنطقة؛ لأن النظام الشيوعي لم يكن يسمح بإنشاء المساجد أو مؤسسات لتعليم الدين وممارسة التقاليد الدينية.

بعد سلوك طريق وعر غير معبد بسبب خطأ الدليل، وصل الموكب إلى مسجد (حافظ شيرازي) في قرية (كانير). وهو تحت الإنشاء؛ إلا أن أهل القرية يصلون فيه. وفي هذا المسجد حدث أمر طريف مع العبودي، حيث لصق به أحد المسلمين ووضع في كفه نقدا صغيرا مع حرصه على أن لا يلاحظ ذلك أحد. فأخذه العبودي وأعطاه لأحد ليتصدق، لئلا ينكسر خاطر ذلك الأخ، الذي ظن أن الصدقة أو الإحسان بالمال جائز لمثله. [2]

عاد الوفد من مسجد (حافظ شيرازي) إلى دوشنبة؛ لكنه لم يدخل وسط المدينة بل توقف في قرية بضواحيها لزيارة مسجد (قرا مير شكار). وصلوا فيها الظهر، ثم تناولوا الغداء على عجل، بسبب قرب موعد إقلاع الطائرة. وقد احتشد في المسجد عدد كبير من المسلمين.

وحضر مندوب القسم العربي في إذاعة دوشنبة إلى المسجد؛ لإجراء مقابلة مع العبودي حول زيارته لتاجكستان؛ إلا أنه لم يكن في الوقت متسع للجلوس معه. فركب معه السيارة وهو متوجه إلى المطار. فجرى السفر والمقابلة معا. وأقلعت الرحلة إلى طشقند. فنزل العبودي ورفاقه في غرفهم المحجوزة في فندق أزبكستان. وقد حجز

---

[1] يوميات آسيا الوسطى، ص: 218-219

[2] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 220-223

المضيفون تلك الغرف لهم طيلة بقائهم في تلك المنطقة، ولم لم يبيتوا بها؛ لأن الأجرة ليست كثيرة، لكن الإجراءات لحجز الغرف مطولة. [1]

إلى وادي فرغانة:

بدأ العبودي الحديث عن فرغانة بتعريف "فرغانة" في الكتب العربية القديمة. فنقل تعريف ياقوت الحموي لفرغانة:

"فرغانة: بالفتح ثم السكون، وغين معجمة، وبعد الألف نون. مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر، متاخمة لبلاد تركستان، في زاوية من ناحية هَيطل من جهة مطلع الشمس، على يمين القاصد لبلاد الترك، كثيرة الخير واسعة الرستاق. يقال كان بها أربعون منبرا. بينها وبين سمر قند خمسون فرسخا. ومن ولايتها خُجندة. وبفرغانة في الجبال الممتدة بين الترك وبينها الأعناب والجوز والتفاح وسائر الفواكه والورد والبنفسج وأنواع الرياحين، مباح ذلك كله لا مالك له ولا مانع يمنع الآخذ منه. وكذلك في جبالها وجبال كثيرة مما وراء النهر من الفستق المباح ما ليس ببلدة غيره".[2]

وأضاف إليه تعريف فرغانة من مصادر أخرى أيضا مثل الأصطخري والحميري وآخرين.

وأشار العبودي إلى أنه كان يتمنى زيارة هذه المنطقة. وخاف أن تضيع فرصة زيارتها، بسبب نشوب اضطرابات بين القيرغيز والأزبك في مدينة أوش قبيل وصولهم؛ إلا أنها هدأت. وتقررت الزيارة برفقة الشيخ المفتي محمد صادق محمد يوسف رئيس الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان.

وغادروا إلى فرغانة من مطار طشقند في طائرة مروحية صغيرة تسع لثلاثة وثلاثين راكبا. وتقطع الطائرة المسافة بين طشقند وفرغانة في خمسين دقيقة فقط. وشاهد العبودي المناظر البهيجة من الطائرة، ولاسيما مناظر نهر سيحون شقيق نهر جيحون. وكتب أن مناظر المزارع كانت بهيجة جدا. وأنه رأى طائرات صغيرة كثيرة في

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص : 224-225

[2] يوميات آسيا الوسطى، ص: 229

مطار فرغانة تسافر إلى القرى النائية. والزراعة في هذه البلاد تعتمد على قنوات كثيرة شقوها من نهر سيحون. ولقي وفده استقبالا حافلا في مطار فرغانة. [1]

فرغانة المنطقة والمدينة ومسجد يبنيه شيوعي:

كتب العبودي أن الأقدمين كانوا يسمون المنطقة (فرغانة) ويسمون قاعدتها أيضا (فرغانة)، في حين يسمى المحدثون المنطقة بفرغانة أو وادي فرغانة، وقاعدته أيضا فرغانة؛ لكن هناك فرق بين التسمية القديمة والحديثة؛ لأن المدينة التي يسمونها (فرغانه) الآن، هي مدينة حديثة أنشأها الروس بعد احتلال هذه البلاد، بينما (فرغانة) القديمة، فإن الظاهر أن اسمها الآن (مرغلان). وهي معروفة منذ ثمانية قرون باسم (مرغنان). [2]

قام العبودي بجولة في مدينة (فرغانة) وكتب أن عدد الروس كثير في فرغانة. وأن معظمهم يعملون في المصانع والمعامل والمشاريع الهندسية، بينما يشكل المسلمون معظم الفلاحين. وقام وفد العبودي بزيارة مسجد (ينكي جيك). وهو مسجد قديم بني عام 1912م. ولم تمتد إليه يد الشيوعيين. وكان المسجد الوحيد المفتوح في وقت من الأوقات، في مدينة فرغانة. وكانوا يوسعون المسجد وقت الزيارة، بمساعدة الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان.

وخرج الوفد إلى ريف فرغانة. وكتب العبودي أن ريف فرغانة منطقة خصبة وبها أنواع من المحاصيل الزراعية، والقنوات تروي المزارع. ومرورا بتلك المناطق الجميلة وصل الوفد إلى مدينة (توساي) التي تقع على بعد 24 كلم من فرغانة، لزيارة جامع كبير. واستغرب العبودي بناء المسجد بتبرعات ضئيلة من المسلمين، لكونه كبيرا جدا، مساحته هكتارا ونصف الهكتار. كما أنه وصف المسجد وصفا دقيقا. فكتب:

"ولما رأيت ضخامة البناء وسعة المسجد، لم أصدق أنه يمكن أن تقوم به جماعة تجمع ما يحتاج إليه من المال بالدرهم والدرهمين، وعلى الأدق بالروبل والروبلين. وكان الغريب بل الأغرب في أمر هذا المسجد العظيم أن القائم على بنائه هو سكرتير الحزب الشيوعي (شهرت أحمد). قال الإخوة هنا: إن قيامه على بناء المسجد، يدل على أنه مسلم يكتم

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص : 229-235

[2] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 236-237

إيمانه. فلما تهيأت الفرصة له لخدمة دينه، قام بذلك، كما هي عليه الحال عند بعض الشيوعيين".[1]

بعد مدينة (توساي)، انتقل الوفد إلى بلدة أخرى يسمونها (وليك). وهناك اجتمع الوفد مع المصلين بعد صلاة الظهر. وألقى العبودي كلمة أمام الحضور، يحثهم فيها على تربية أولادهم تربية إسلامية وتحمل مسؤولية التربية لئلا تضيع الأجيال القادمة. وعاد الوفد في المساء إلى الفندق. ولم يمكن للعبودي مرافقة مرافقيه في سلسلة من الزيارات شملت عدة مساجد، بسبب إصابته بإسهال.[2]

من فرغانة إلى أنديجان:

بعد جولة في مدينة فرغانة، خرج موكب العبودي في رحلة إلى مدن أخرى من وادي فرغانة؛ لأنهم يريدون العودة إلى طشقند من مدينة (نمنكان). وأشار العبودي إلى أن ولاية فرغانة أسست عام 1938م كولاية مستقلة ذات وحدة إدارية. مساحتها 4447 كلم مربع، وعدد سكانها يبلغ 2.2 مليون نسمة، 70% منهم مسلمون، والنسبة المتبقية متوزعة على أديان أخرى. وبها عدد قليل من اليهود أيضا، في حين يشكل الأزبك 60% من المسلمين، والتاجك والقرغيز 40% منهم. وتعتبر مدينة (مرغنان) أقدم مدينة في وادي فرغانة أسست قبل أكثر من ألفي عام.

وانتهز العبودي الفرصة لمعرفة النسبة الحقيقية للمسلمين المتدينين في وادي فرغانة، عندما ركب معه الخبير في شؤون المسلمين في فرغانة (حاتم كوش). وقال إن كلمة "المسلمون" يطلق على كل من يولد في أسرة مسلمة أو من أبوين مسلمين؛ إلا أن نسبة المسلمين المتمسكين بدينهم لا تقل عن 70%. وبينهم حتى من يعملون في الحزب الشيوعي. كما أن بعض الروس أيضا أسلموا. ومنهم من يخفي إسلامه. وأخبر (حاتم كوش) أن جمهورية أزبكستان أدخلت تعلم الحروف العربية إجباريا من السنة الدراسية الحالية – 1990-.[3]

---

[1] نفس المصدر، ص: 242

[2] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 244-246

[3] انظر، نفس المصدر، ص : 248-252

توقف موكب العبودي في بلدة (كوّة) لزيارة مسجد. فلقي استقبالا حارا وحفاوة من أهل البلدة. وهذه البلدة التي يبلغ عدد سكانها 50 ألف نسمة، ممن سارعوا في تعليم أبنائهم الحروف العربية. وأشار العبودي إلى كثرة الأشجار المثمرة واعتناء أهل المنطقة بها، حيث يغرسونها أمام بيوتهم، مضيفا أن أزبكستان تنتج 20 ألف طن من الحرير الطبيعي سنويا، و25% منه يأتي من وادي فرغانة، كما أن فرغانة غنية بالنفط أيضا وبها مصانع كثيرة.

كتب العبودي أن هذا الوادي الخصب تطل عليها تلال جرداء، وأن خصبها بفضل القنوات التي ترويها. ومن بين هذه القنوات (قناة فرغانة الكبيرة) التي شقت عام 1939. وشقها 120 ألف شخص في 45 يوما، رغم أن طولها يبلغ 200 كلم. وهي تروي بمتعرجاتها مساحات تبلغ نحو 300 كلم. وهنا تذكر العبودي مدينة تنبكتو في مالي، حيث قال إن أهاليها يستقون من آبار لا يصلح ماؤها للشرب، رغم أن نهر النيجر يمر على بعد تسعة كلومترات منها. ومر الموكب ببلدة (نياز باتر)، وهي بلدة صغيرة. ثم وقف وقفة خفيفة ببلدة (أخفيكان). وهي مسقط رأس كبير الأسرة المغولية (بابر) الذي أنشأ الدولة المغولية في الهند.[1]

إلى أنديجان ونمنكان:

كتب العبودي أنهم وصلوا إلى مدخل (أنديجان)، فوجدوه كثير الشاحنات والحافلات والدراجات وقليل السيارات الخاصة. وقد وضعوا عوارض إسمنتية عند المدخل كإجراء أمني بعد الاضطرابات التي حصلت في أوش. وتعتبر أنديجان أكبر مدينة في وادي فرغانة. ويبلغ عدد سكانها 300 ألف نسمة، 80% منهم مسلمون و20% منهم من الروس واليهود والأرمن. وذكر المرافقون للعبودي أن أنديجان فيها مساجد كثيرة عامرة، فلا يمكن زيارة كلها. فقرروا زيارة المساجد التي تحت الإنشاء. وأشار العبودي إلى أن سكان أنديجان يختلفون من سكان المدن القريبة الأخرى. وخيل إليه كأنهم يشبهون الأفغان والعرب أكثر من شبههم بالأزبك.[2]

---

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص :252-257

[2] انظر، نفس المصدر ص : 261-262

وأول مسجد زاروه في (أنديجان) هو مسجد (آق قور)، وهو مسجد قديم. صادره الشيوعيون وحولوه إلى مستوصف. واستعاده المسلمون عام 1990م. وكانوا يعملون وقت الزيارة لإنشاء مسجد ومدرسة. وبه 150 طالبا يدرسون القرآن الكريم. وكتب العبودي أن أنديجان أكثر كثافة من الناحية السكانية. وعلى الرغم من أنه لا يجوز تعدد الزوجات حسب القانون، فإن هناك الكثير من "بطلات الاتحاد السوفييتي" في أنديجان. وهن الأمهات اللاتي يلدن عشرة أولاد.

ومر الوفد بجسر فوق (قارا دريا)، وهو أحد أصلي نهر سيحون (سير دريا)؛ لأن سيحون يتكون من (قارا دريا) – النهر الأسود- و(ناران). وأشار العبودي إلى أن البيوت في هذه المنطقة كلها من الطين. وبمشاهدة هذا المنظر، تذكر كيف كانوا يبنون بيوتهم في نجد، قبل الطفرة النفطية. فكتب:

"ورأيت بيوتا من الطين تبنى الآن. فرأيت اللبن من الطين غير المفخور صغيرا بالنسبة إلى لبن الطين الذي كنا نبني بها بيوتنا الطينية قبل التطور الاقتصادي الأخير في بلادنا.ولكنني رأيتهم يضعون بين هذا اللبن من الطين عيدانا واقفة أشبه بأغصان الأشجار الدقيقة لكي تجعله يتماسك، ولم نكن نفعل ذلك. وبعض البيوت يطلونها بطين جيد فوق اللبن مثلما كنا نفعل بالضبط".[1]

وصل الوفد إلى قرية (جوزاق) في منطقة (تشوامة). وكان هناك مسجد تحت الإنشاء باسم (عمر بن الخطاب). وتأثر العبودي بالمنظر الذي شاهده هناك، حيث وجد الشيوخ قد شدوا أحزمتهم ويعملون في المسجد. وبدأوا يبكون من التأثر عندما شاهدوا وفد العبودي، وجعلوهم أيضا يبكون من هذا المنظر المهيب. وعلق العبودي على ذلك قائلا:

"ولا أظن أن الزمن – ولو طال- يمكنه أن يمحي من ذاكرتي هذا المنظر العجيب، بل المهيب الذي يدل على عظمة هذا الدين. وهو أن الشيوعي الملحد المتعصب للإلحاد، المحارب بطبيعته للدين الإسلامي الحنيف، ومع ذلك لم تستطع الشيوعية بسلطتها وجبروتها وهيمنتها على كل شيء في البلاد، واحتكارها للتربية والتعليم وللدعاية والإعلام، وتجريمها تعلم أي شيء من الإسلام، بل حتى ذكره في غير المسجد، مع أن المساجد

---

[1] يوميات آسيا الوسطى، ص: 267

التي أبقوها في أيدي المسلمين، هي قليلة العدد، مراقبة من الشرطة، بحيث يتعرض من يدخلها للمضايقات. وإذا كان موظفا في الحزب الشيوعي أو الإدارة الحكومية، فإن مصيره كان الفصل والطرد. وظل الإسلام قويا في النفوس، متمكنا من القلوب، حتى إذا خف الضغط، وانحسر التعصب، ظهر على حقيقته التي ظن الملحدون أنهم قد طمسوها، فإذا به النور الوضاء الذي يعمر القلوب، وينير البصائر. ويسارع الصغار والكبار للعودة إليه والاغتراف من معينه".[1]

ثم مر الوفد بقرية (تين تاك ساي). ووقف ببلدة (بختة آباد). وزاروا فيها مسجد (عثمان بن عفان) وهو أيضا تحت الإنشاء على أرض واسعة منحتها الحكومة للمسلمين. ومعه مدرسة أيضا. وذكر المرافقون أن هناك 51 مسجدا جامعا في أنديجان والمساجد الصغيرة كثيرة. وذكر العبودي أن هذه المنطقة كلها عامرة بالزراعة والفواكه ولا يخلو فيها مكان من الخضرة والنضرة. وبعد (بختة آباد) زار الوفد (مسجد ذي النورين) بقرية (باي توغ). وبه يعمل الشيوخ والكهول والشبان والأطفال بتناسق عجيب، حيث يناولون مواد البناء يدا بيد. وكلهم يعملون في بناء المسجد تبرعا.

وللتعليق على خيرات هذه البلاد من المزروعات المزدهرة والأنهار المتدفقة والمياه السارحة، تصور العبودي صحراء العرب الجرداء التي كان يأتي على أهلها زمان يأكلون فيه القد –الجلد غير المدبوغ–، واستعار أبيات الراعي النميري:

إلى ضوء ناري يشتوي القدّ أهلُها وقد يكرم الأضياف والقد يشتوي

وأبيات لشاعر من بني تميم:

لكسرى كان أعقل من تميم ليالي فر من أرض الضِباب

فأسكن قومه ببلاد ريف وجنات وأنهار عذاب

فلا رحم الإله صدى تميم فقد أزرى بنا في كل باب [2]

كانت مدينة (نمنكان) آخر محطة في رحلة العبودي إلى وادي فرغانة. وهي تبعد عن أنديجان 94 كلم. وفي مدخل ولاية نمنكان، تم نقل أمن الوفد من شرطة فرغانة إلى شرطة (نمنكان). وكان اليوم يوم الجمعة. فمر الوفد بقرية (تشين آباد)

---

[1] يوميات آسيا الوسطى، ص:269

[2] انظر، نفس المصدر، ص : 267-275

و(بالقي تشي). وقطعوا نهر (ناران) وهو الحد بين أنديجان ونمنكان. وهنا ذكر العبودي نهر (سيحون)، ووجه نقدا إلى المثقفين المحدثين من العرب على عدم ذكرهم (سيحون) باسمه الذي ذكره العرب من قبل.

وأشار العبودي إلى أنه لأول مرة شاهد في نمنكان لوحة عليها علامة (الشوكة والسكين) التي تدل على مطعم يقدم الأطعمة لكسب ربح؛ لأن المطاعم في الاتحاد السوفييتي للحكومة والعمال فيها يعملون لأداء وظيفتهم وليس لخدمة الزبائن. كما كتب أن أرض نمنكان أشبه بالصحراء، بدلا من أرض فرغانة الخصبة.

وفي الظهر وصل الوفد إلى جامع الإمام أبي حنيفة في حي (نور آباد) لأداء صلاة الجمعة. وقد ذكر المرافقون للعبودي أنهم تفادوا دخول مدينة نمنكان؛ لأنهم لو دخلوها، لم يتمكنوا من الخروج منها لازدحام الناس عليهم، ولفاتتهم الرحلة إلى طشقند. وبعد صلاة الجمعة، ألقى العبودي كلمة مرتجلة أمام الحضور، ذكرهم فيها بمسؤولياتهم تجاه الإسلام وأجيالهم القادمة. كما ذكر العبودي أن الغريب في هذا الجامع هو أن المصلين ليسوا من كبار السن فقط، بل فيهم الشباب والصغار أيضا. وهنا التقى العبودي بشيخ قراء نمنكان، وهو شيخ مسن بلغ عمره 90 عاما. وبعد ذلك توجه الوفد إلى مطار نمنكان ليطير منه إلى طشقند التي تقع على مسافة 45 دقيقة من نمنكان جوا.[1]

وبذلك انتهت رحلة العبودي إلى وادي فرغانة. وأضاف في نهاية (يوميات آسيا الوسطى) تقريرا شاملا عن المعلومات المهمة عن المناطق التي زارها خلال هذه الرحلة، لتقوم رابطة العالم الإسلامي باتخاذ الإجراءات في ضوئه.

****

[1] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 575-296

تحليل أسلوب العبودي في كتاباته وأهم ملامح رحلاته:

من دأب العبودي في رحلاته أنه يدون يومياته، ثم يجمعها في مكان واحد ليصبح كتابا عن أي كتلة أو منطقة يزورها. ويلتزم فيها الكتابة وفق التاريخ والتسلسل الزمني. ولذلك نجد أنه يكتب عن شيء، فيعلق عليه بما يراه مناسبا. وهذه التعليقات عادة تكون انطباعاته الخاصة ومشاعره التي تنبعث في قلبه بعد مشاهدة منظر أو أي شيء؛ إلا أنه يعود إلى الأول إذا أراد كتابة شيء يتعلق به. وبذلك تصبح كتاباته متسلسلة، وكل سلسلة لها حلقات من أنواع مختلفة، إذ أنه يتذكر شيئا بشيء، ويربط بعضها مع البعض. ومن الممكن تلخيص أسلوب العبودي في رحلاته في النقاط التالية:

1. **وصف الطرق:** يصف العبودي الطرق التي يمر بها في أي مكان، ويذكر ضيقها وسعتها، إضافة إلى كونها جيدة أو رديئة من ناحية أسلوب بنائها. ويقارن بينها وبين الطرق في أي مكان آخر، يرى أن فيها شبها.
2. **وصف الفنادق:** كلما ينزل العبودي في فندق في أي مدينة، يفحص الفندق جيدا. ويذكر ما فيه من المثالب والمحامد. ويصفه وصفا دقيقا، حتى إنه ذكر عن فندق أزبكستان الذي نزل فيه أول مرة في طشقند، أن حمامه لم يكن جيدا وأن الماء يتقطر من سقفه.
3. **وصف المطارات:** من المعروف أن المطار في أي مكان يكون أول محطة لكل من يسافر جوا. ومن عادة العبودي أنه يصف المطارات وصفا دقيقا. ويذكر ما فيها من الطائرات بمختلف أحجامها، إضافة إلى قاعات كبار الزوار، والخدمات المقدمة للزوار، وتعامل المضيفين مع الزوار. كما أنه يقوم بمقارنة الخدمات بين مطار ومطار. وذلك ما نرى خلال رحلاته إلى الاتحاد السوفييتي.
4. **وصف الطائرات:** رغم أن المسافر المعتاد على السفر جوا، في العادة قلما ينتبه إلى الفروق بين الطائرات التي يسافر بها، إلا أن العبودي لا ينسى وصف الطائرات التي سافر بها، ولو كانت رحلته متكررة. ويذكر نوعها وسعتها وعدد المسافرين فيها، إضافة إلى الخدمات المقدمة داخل الطائرة، وسلوك المضيفين والمضيفات مع الركاب،

وأنواع الأطعمة والأشربة المقدمة خلال الرحلة. ولا تنفلت من لسان قلمه أي شيء يذكر.

5. **شرح الكلمات وترجمتها**: من المعروف أن العبودي لم يكن سائحا عاديا، بل عالما للعلوم الإسلامية والأدب العربي، إضافة إلى علوم أخرى. ولذلك، تنال الكلمات الغريبة اهتماما وافرا منه. فهو يشرح الكلمات العربية الصعبة لتقريبها إلى أذهان القراء، لأنه يحرص على استخدام الكلمات العربية حتى للكلمات الأعجمية الشائعة في العربية. كما أنه يترجم ويشرح الكلمات الأعجمية من الأسامي أيضا. وهذا ما يمكن الاطلاع عليه في رحلاته إلى الاتحاد السوفييتي ورحلاته الأخرى أيضا.

6. **المقارنات**: إن المقارنات بين الأشياء والأحداث والأمور المتشابهة في أمكنة مختلفة، من ميزات رحلات العبودي. لأنه يذكر شيئا بشيء، ومكانا بمكان، وحادثة بحادثة. فتجده يقارن بين تركستان الشرقية والغربية، وبين خوارزم ونجد، وبين عادات الناس في مختلف أنحاء العالم، ووضع الناس في مدن مختلفة. وهذه المقارنات المتنوعة تفتح أمام القارئ نافذة إلى رحلاته الأخرى، وتزيد من شوق الاطلاع عليها.

7. **وضع الناس وطرق حياتهم**: يحرص العبودي تقديم صورة حقيقية لسكان أي منطقة يزورها. وهذه الصورة تنعكس مشاهداته في الأسواق، والأماكن العامة، واحتكاكاته مع الناس، إضافة إلى أسئلته الكثيرة التي يطرحها على الآخرين لمعرفة الحقيقة؛ إلا أنه وجد نفسه أمام صعوبة كبيرة في معرفة الوضع الحقيقي للشعب في دول وسط آسيا، خلال رحلته الأولى عام 1986م، بسبب شدة الرقابة الرسمية لأي تعامل بين الأجانب والسكان المحليين. كما أن الزيارات الرسمية تكون محددة الوقت والأماكن، فلا يمكن للزائر الخروج عن المسار المحدد من قبل.

8. **فكرة دعوية والنكير على البدعات**: قام العبودي بمعظم رحلاته إلى العالم إما كالأمين العام للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، أو كالأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي. وكانت تلك الزيارات في المقام الأول رحلات دعوية وتعاونية ولتعزيز العلاقات بين المسلمين. ولأجل ذلك نرى العبودي لا ينسى في رحلاته العمل الدعوي. وينكر الأمور التي يراها معارضة للشريعة الإسلامية الغراء. وهذا الأمر ينجلي في رحلاته

المختلفة. ويمكن الاطلاع عليه في رحلاته إلى الاتحاد السوفييتي بوضوح عندما يتحدث عن زيارة الأضرحة والقبور، والأماكن التاريخية التي يشاهد فيها أمورا معارضة للدين.

9. **تبادل الهدايا:** تفتح الهدايا قلوب الناس بعضهم لبعض. والهدية في طبيعتها تختلف من شخص إلى آخر؛ لكن الأمر المشترك في الهدية هو أنها تعبر عن تقدير المهدي للمهدى إليه. ومن هذا المنطلق يذكر العبودي الهدايات التي يقدمها لمضيفيه، مع ذكر الهدايا المقدمة له.

10. **تقصي الحقائق ودقة النظر:** يسعى العبودي لتقصي الحقائق أثناء رحلاته. ولا يستنكف عن طرح الأسئلة؛ لأن الامتناع عن السؤال يؤدي إلى الحرمان من المعلومة التي يمكن معرفتها. ولأجل ذلك يقال حسن السؤال نصف العلم. وهذا الأمر مشهود في رحلات العبودي، إذ هو يكثر الأسئلة لاستقاء المعلومات؛ لكنه أشار إلى وجوب الصمت في كثير من الأحيان خلال رحلاته إلى الاتحاد السوفييتي؛ لأن لكلام الناس في الاتحاد السوفييتي حد. وقد كتب العبودي أنه لم يتمكن من الحصول على الرد للكثير من أسئلته، جراء الرقابة الرسمية الشديدة.

11. **تعريف بالمرافقين والمضيفين:** في بداية كل رحلة، يعرف العبودي بزملائه ومرافقيه في تلك الرحلة بجميع ألقابهم ومناصبهم. كما يقوم بتعريف مضيفيه أيضا بكل تفصيل. وأسلوبه في تعريفه بهم، يشير إلى الاحترام الذي يكنّه لهم.

12. **التقاليد والأمور الجديدة:** يولي العبودي اهتماما خاصا للتقاليد المحلية لأي مكان يزوره. ويذكر تلك التقاليد مفصلة في رحلاته. ويتجلى ذلك في رحلاته إلى الاتحاد السوفييتي عندما يتحدث عن تقاليد الزواج، والضيافة وتقاليد أخرى لها علاقة مع حياة الناس. وهذه الأمور لا تتأتى إلا لمن له رغبة في معرفة دقيقة للأوضاع؛ لأن التقاليد العامة تحدد ملامح أي مجتمع، ومعارضتها توقع في الحرج.

13. **التعامل المحنّك مع الصحافة:** نلاحظ في رحلات العبودي إلى الاتحاد السوفييتي أنه تحدث مع الصحافة المرئية والمقروءة أكثر من مرة. وكانت تلك المقابلات مراقبة من جانب السلطات. وطُرح عليه أسئلة صعبة خلالها؛ لكن ردوده

عليها، تدل على لباقته وحنكته في التعامل مع الصحافة؛ لأنه لم يُرد في ردوده أي شيء يكون سببا في التضييق على المسلمين، كما أنه أبى أن يدلي بأي تصريح معارض للحقيقة من باب المجاملة. وتقدم مقابلته مع تلفزيون الاتحاد السوفييتي الرسمي – المذكورة في كتابه (في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى و ما وراء النهر)، صورة واضحة لهذه الفكرة.

14. **نظام المياه في بخارى:** ألقى العبودي ضوءا على نظام المياه والري في بخارى. ومن عادته أنه كلما يشاهد أي شيء يلفت انتباهه، يذكره في رحلاته عسى أن يكون نافعا للآخرين. ومن المعروف أن نظر الرحالة عادة تقع على كل جديد بسبب رغبته الشديدة في معرفة الجديد.

15. **السجع في الأسماء:** على الرغم من أن العبودي لا يتكلف السجع في كتاباته، ويكتب بعبارة سهلة مستساغة سلسة؛ إلا أنه يراعي السجع في عناوين كتبه. مثلا "في نيبال بلاد الجبال"، و"مقال عن بلاد البنغال"، و"بين الأرغواي والبارغواي"، و"الاعتبار في السفر إلى ماليبار" و"الحل والرحيل في بلاد البرازيل"، وعناوين أخرى كثيرة.

16. **تاريخ البلاد:** يذكر العبودي خلاصة لتاريخ البلاد التي يزورها. ويوسع في ذكر التاريخ عندما تكون الزيارة أو الرحلة لأي بلد إسلامي قديم، ترغيبا للقراء في معرفة تاريخه، إضافة إلى ذكر أمجاد ذلك البلد في التاريخ. وهذا ما نلاحظه بكل وضوح في رحلات العبودي إلى بلاد ما وراء النهر من بخارى وطشقند وسمر قند و خوارزم وخيوة ومدن أخرى. وقد كتب العبودي أن النظام الشيوعي سعى لعقود من الزمن طمس الهوية الإسلامية لتلك البلاد لقطع صلات شعبها مع ماضيه المجيد.

17. **وصف الأطعمة:** يصف العبودي الموائد والأطعمة التي يتناولها خلال رحلاته، حتى إنه يذكر بعض الأحيان كيفية طبخها وإعدادها أيضا، مع ذكر ما أعجبه من تلك الأطعمة والأشربة، إضافة إلى التعليق على طعمها.

18. هذا وذكر "توصيف أحمد بت" أن السهولة والبساطة والنقد الأدبي، والاستشهاد بأقوال العلماء والمؤرخين، والاستشهاد بالأبيات الشعرية والميل إلى المقارنات، من أهم ميزات أسلوب العبودي في كتابة الرحلات.([1])

[1] بت، توصيف أحمد، رحلات محمد بن ناصر العبودي إلى شمال شبه القارة الهندية (دراسة وصفية تحليلية)، بحث تكميلي لنيل درجة ماجستير الفلسفة في الأدب العربي، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، العام الدراسي 2019م/ 1440هـ، ص: 100-114

الفصل الثاني:
رحلات الشيخ محمد تقي العثماني إلى دول وسط آسيا و روسيا

المدخل:

قام الشيخ محمد تقي العثماني أيضا برحلات كثيرة في مختلف أنحاء العالم. وقد كتب أنه قد زار أماكن عديدة في القارات الست من الكرة المعمورة. وكتب الرحلات عنها أيضا. وذكر في مقدمة مجموعته الثالثة للرحلات (سفر در سفر) – رحلة في رحلة– أنه يختار لكتابة الرحلات الأماكن التي تنتمي إليها شخصيات إسلامية عظيمة في التاريخ الإسلامي، أو أن تكون الرحلة سببا في تقديم معلومات مفيدة إلى القراء. وأضاف أنه لم يجد حافزا لكتابة أي رحلة من أجل ذكر ما جرى لنفسه فقط. واعترف أنه لم يتمكن من كتابة رحلاته إلى بعض الأماكن، رغم رغبته الشديدة في ذلك.[1]

وتتضمن هذه المجموعة الثالثة لرحلات العثماني، رحلاته إلى سوريا، وإيران وقيرغزستان وتاجكستان وألبانيا و روسيا واليابان ونيو زيلاندا و فيجي وأير لندا والهند؛ إلا أننا سنركز على رحلاته إلى روسيا ودول وآسيا فقط، من أجل مقارنتها برحلات الشيخ محمد بن ناصر العبودي إليها؛ لأنها متشابهة ببعضها البعض.

قام العثماني بأربع رحلات إلى تلك البلاد بين عام 1992م و2009م. وكانت أولى رحلاته إلى دول وسط آسيا إلى أزبكستان عام 1992م؛ إلا أنه لم يتمكن من كتابة رحلته بعد تلك الزيارة. وقد أشار إلى ذلك في مقدمة (سفر در سفر). والرحلة الثانية كانت إلى قيرغيزستان في أغسطس 2006م، والثالثة إلى روسيا في نوفمبر 2006م، حيث زار موسكو وداغستان وتتارستان ومناطق أخرى. والرحلة الرابعة هي

---

[1] انظر، عثماني، محمد تقي، سفر در سفر، كراتشي، مكتبة معارف القرآن، الطبع الجديد، 1432هـ /2011م، مقدمة

رحلته إلى تاجكستان وقام بها في أكتوبر 2009م. وتضمنت هذه الرحلة، زيارة لمدن من قيرغيزستان أيضا. ويمكن إطلاق وصف "الرحلة الثانية" إلى قيرغيزستان عليها.

ويتضح من مواعيد رحلات العثماني أن جميعها كانت بعد سقوط النظام الشيوعي في الاتحاد السوفييتي واستقلال دول وسط آسيا عنه عام 1991م. وقد أشار إلى أن منطقة وسط آسيا تنقسم الآن إلى أزبكستان وتاجكستان وقيرغيزستان وقزاقستان وتركمنستان. وفي الماضي كانت تجمعها تسمية (تركمنستان). وهي كلها دول مستقلة الآن. وكانت هذه المنطقة مهدا لقامات إسلامية عظيمة في التاريخ الإسلامي من العلماء والصلحاء والمفكرين.

وكتب العثماني أن ما جرى مع العلماء في هذه البلاد إبان الطغيان الشيوعي، قد لا نعرف عنه الكثير في المستقبل أيضا، كما كانت هذه المناطق مقطوعة عن العالم الخارجي خلال السبعين عاما من الحكم الشيوعي. ولم يكن يتأتى لأحد من الخارج أو الداخل زيارتها بسهولة، وحتى لم يكن يمكن الاطلاع على أوضاعهم بالمراسلة أيضا.

ورحلات العثماني إلى تلك الدول تفتح نافذة أمام القارئ ليطل منها على تاريخ هذه البلاد العريقة، وأن يتعرف على قامات إسلامية كبيرة من العلماء والصلحاء عاشت فيها ونشرت العلم وخلفت إرثا علميا لا يعوض؛ لكنهم أصبحوا غير معروفين في عقر دارهم بسبب التعصب والإلحاد الذي ساد تلك الدول لفترة طويلة.

وتشير رحلات العثماني إلى المأساة التي عاشتها هذه الدول والويلات التي أذاقها النظام الشيوعي المسلمين فيها. كما أنه يقدم صورة واضحة لتلك الدول كما شاهدها بأم عينيها، مع ذكر خلاصة ما قاله خلال المناسبات التي حضرها في تلك الدول. ومع أنه لم ينس الإشارة إلى التقدم المادي والتقني الذي حصلت عليها تلك الدول، إبان النظام الشيوعي، سعى جاهدا للفت انتباه القراء إلى الوضع الذي يعيشه أهل تلك البلاد من الناحية الدينية.

ومن دأب العثماني في رحلاته أنه يلقي الضوء على تاريخ البلاد التي يزورها، إضافة إلى تقديم الشخصيات الإسلامية التي يزور آثارها، ويذكر انطباعاته عن رحلاته. كما أن المرافق التي يستفيد منها خلال الرحلات من المطارات والفنادق والسيارات

والمآكل والمشارب، أيضا تلفت انتباهه. فيكتب عنها بأسلوب أدبي رصين غير متكلف.

وسندرس رحلات الشيخ محمد تقي العثماني إلى دول وسط آسيا و روسيا في ثلاثة مباحث كما يلي:

المبحث الأول: رحلات العثماني إلى قيرغيزستان

كتب العثماني رحلته إلى قيرغيزستان تحت عنوان (كرغيزستان كا سفر) – رحلة قيرغيزستان-. وكانت تلك الرحلة في رجب 1427هـ (أغسطس 2006)، وجاءت تلبية لإلحاح أحد أعضاء جماعة التبليغ واسمه (جاويد هزاروي) وبدعوة من مفتي قيرغيزستان (مراد علي جمانوف). ورافقه خلال تلك الرحلة (جاويد هزاروي) والحافظ فيروز الدين.

أشار العثماني إلى أن الدول التي استقلت من الاتحاد السوفييتي بعد أكثر من سبعين عاما، هي تسمى الآن أزبكستان وتاجكستان وقزاقستان وقيرغيزستان وتركمنستان. وكانت تعرف باسم (تركمنستان) في التاريخ.([1])

ذكر العثماني أن الأوضاع التي عاشها العلماء والصلحاء في هذه البلاد تحت النظام الشيوعي، لعلها لن يمكن الاطلاع عليها بالتفصيل؛ لأن هذه البلاد كانت مقطوعة عن العالم خلال تلك الفترة. ولم يمكن لأحد من الخارج زيارتها بسهولة. كما لم يكن يمكن الاطلاع على أوضاعها حتى بالمراسلة أيضا. وكانت أزبكستان منها مهدا لمراكز علمية وشخصيات إسلامية كبيرة. وكانت مدنها من بخارى وسمر قند وترمذ وفرغانة، تحتل مركزا مرموقا في العالم الإسلامي. وكتب العثماني أنه سنحت له رحلة إلى أزبكستان عام 1992م – بعد نحو عام من سقوط النظام الشيوعي- برفقة

[1] لعله يقصد بذلك تركستان؛ لأن البلاد والمناطق التي ضمتها الروسية القيصرية إليها كانت تسمى تركستان الغربية على سبيل الإجمال، بينما كان يطلق اسم تركستان الشرقية على بلاد المسلمين التي احتلتها الصين، وتعرف باسم (شين جيانغ) الآن. (الباحث)

مجموعة من العلماء؛ لكنه لم يتمكن من كتابته رحلته لتلك الزيارة، رغم رغبته الشديدة في ذلك.[1]

رغم قرب الموقع الجغرافي لدول آسيا الوسطى من باكستان، لم يمكن إنشاء اتصالا جويا مباشرا معها. وإن قامت باكستان باعتراف رسمي بتلك الدول مباشرة بعد إعلانها الاستقلال عام 1991م. وقد أشار إلى ذلك العثماني، حيث كتب أنه لو كانت هناك رحلة مباشرة بين كراتشي وقيرغيزستان، لقطعت هذه المسافة خلال نحو أربع ساعات ونصف الساعة؛ لكنها لا توجد. وبالتالي يضطر من يريد زيارتها إلى السفر إليها عن طريق دبي أو إستانبول؛ إلا أن الأمر قد تسهّل على العثماني، حيث سافر من كراتشي إلى إسلام آباد. ومن هناك طار في طائرة خاصة لأحد التجار من قيرغيزستان. وكان التاجر يحضر بها إلى باكستان لنقل البضائع. وكتب العثماني أن تلك الطائرة كانت روسية قديمة، ولم يكن فيها نظام التهوئة أيضا؛ إلا أنهم وصلوا على متنها إلى بشكيك عاصمة قيرغيزستان بسهولة في ثلاث ساعات.

واستقبله في مطار بشكيك نائب مفتي قيرغيزستان. وقدم اعتذارا عن مفتي قيرغيزستان لعدم تمكنه من الحضور إلى المطار. وذكر العثماني أن المفتي في هذه البلاد بمثابة وزير الشؤون الدينية. ولقي العثماني استقبالا رسميا، حيث تقدمت موكبه سيارة للشرطة. وأنزله أحد كبار تجار قيرغيزستان في منزله. حيث اجتمع عدد كبير من العلماء والقامات الهامة. وبعد مجلس طويل معهم، أوى العثماني إلى الفراش.[2]

محاضرة في جامع بشكيك ووضع العلماء:

ألقى العثماني محاضرة في جامع بشكيك. وفي محيطها مكاتب الإدارة الدينية التي يسمونها "مفتيات" وهي التي تشرف على الشؤون الدينية للمسلمين. وأشار العثماني إلى أن هذه البلاد تتبع المذهب الحنفي منذ البداية؛ إلا أن الأمور اضطربت بعد الثورة الشيوعية. فتم قتل العلماء الأجلاء، ومن بقيهم منهم نفوهم إلى سيبيريا حيث ماتوا في أوضاع مأساوية. وخلت الساحة عن العلماء؛ لأن النظام الشيوعي حظر تعليم

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص : 133-134

[2] انظر، سفر در سفر، ص : 134-136

الدين. فلم يكن أمام من كان لديه علم من الدين، أن يدرس بعض أبناء المسلمين في بيته بعد الثالثة ليلا، أو أن يدرس في الحقول والمزارع؛ إلا أن هذا الوضع لا يكفل بما يكفي من التعليم الديني، بل إنه قد يقتصر على العلم الأساسي والضروري فقط. وبناء عليه لا يمكن توقع العلم الراسخ الشامل من العلماء الذين عاشوا تلك الفترة.

وهذا ما أدى إلى التجمد في المسائل الدينية ونشوء الخلافات. وزاد الطين بلة وصول بعض أهل المذاهب الأخرى إلى المنطقة بعد سقوط الشيوعية، وزادوا في الخلافات والاختلافات. وكتب العثماني أنه شدد في خطبته أمام العلماء والعوام في جامع بشكيك على أن يركزوا على المسائل الأساسية المتفق عليها في الدين، بدلا من إثارة الجدل حول القضايا الخلافية. وأضاف أنه رد على أسئلة الحضور أيضا، مضيفا أن البعض ذكر له أنهم جاؤوا بأربعين أسئلة، وقد حصلوا على الرد على معظمهما خلال المحاضرة، وانتهت الكثير من الخلافات أيضا. وتعهدوا بأنهم سيولون اهتمامهم للقضايا الأساسية، ولن يركزوا على المسائل الفرعية.[1]

لقاء مع تلميذ وجولة في بشكيك:

بعد المحاضرة في جامع بشكيك، زار العثماني مدرسة أنشأها عالم تخرج في دار العلوم كراتشي[2]، وكتب أنه عندما يرى أحدا من المتخرجين في دار العلوم كراتشي، وهو يعمل في حقل الدين، تقر العيون برؤيته. وبعد ذلك خرجوا في جولة في مدينة بشكيك. وكتب العثماني عن بشكيك:"هي مدينة جميلة. طرقها واسعة، بها من البنايات الحديثة الرائعة، البيئة خضراء نضرة، مزدحمة لكنها هادئة. وحول المدينة جبال شامخة، تجلل الثلوج ذراها في هذا الوقت أيضا، وفي سفوحها تجري أنهار صافية".[3]

لقاء مع سفير باكستان وحديث في الجامع المركزي:

ذكر العثماني أنه كان في برنامجه لقاء مع السفير الباكستاني لدى قيرغيزستان واسمه (عالم بروهي). وهو من قام بمساعدة الحكومة الباكستانية بطباعة المصحف

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص :136-138

[2] دار العلوم كراتشي، من أكبر المدارس الإسلامية في باكستان. أسسها الشيخ المفتي محمد شفيع والد الشيخ محمد تقي العثماني. ويرأسها حاليا الشيخ محمد تقي العثماني. (الباحث)

[3] انظر، سفر در سفر، ص: 138، وترجمة النص للباحث.

الشريف بالترجمة القيرغيزية وتوزيع آلاف النسخ منه في قيرغيزستان. وبعد صلاة المغرب ألقى العثماني خطبة أمام الجماهير في الجامع المركزي في بشكيك. سلط فيها ضوءا على الوضع الراهن، داعيا الجماهير إلى التمسك بالدين، مشيرا إلى أن العمل مع جماعة التبليغ [1] أهم وسيلة للتربية الدينية للمسلمين في هذه البلاد.

وذكر العثماني أنه زار مدرسة عبد الله بن عباس في بشكيك. وهي مدرسة إسلامية تقوم جماعة التبليغ عليها، مضيفا أن نظامه أعجبه. وهي أول مدرسة إسلامية تقام في قيرغيزستان بعد استقلالها من الاتحاد السوفييتي.[2]

رحلة إلى مدينة (قارا بالتا) ولقاء مع عالم درس في حقول القطن:

زار العثماني مدينة (قارا بالتا)، وهي تبعد عن بشكيك 70 كلم، لافتتاح أول مسجد في قرية (كالاك). فألقى أمام الحضور كلمة. فأخبره أحد العلماء أن في القرية عالما جليلا مسنا، لا يقدر على المشي. فقرر العثماني زيارته في بيته. وكتب عنه، أنهم زاروا الشيخ (دا ملا محمد سفر) في منزله. وليس منزله سوى غرفة مثل عريشة، يقضي حياته فيه كنموذج لـ "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل". ووجهه كان مستنيرا يلمع عليه التقوى والخشية. وقد سُر بزيارتنا له.

وذكر العثماني أنهم عندما سألوه عن كيفية تحصيله، أخبرهم أنه ذهب إلى تاجكستان بعد الثورة الشيوعية. وهناك درس بعض الكتب على شيخ في حقل للقطن خفية. وبعد ذلك قام بالتدريس للتلاميذ على نفس المنوال. وكتب العثماني في انطباعاته عن هذه اللقاء:

"والحقيقة أنه يمكن برؤية مثل هؤلاء الشيوخ تخمين التضحيات التي قدموها لحماية الدين. ونحن الذين شرفهم الله تعالى بثروة الإيمان بدون أي جهد، ولم تشكنا شوكة في

---

[1] جماعة التبليغ أو الدعوة، أسسها الشيخ محمد إلياس في الهند. وهي ليست جماعة منظمة من حيث نظام الجماعات، لكن لها نظام خاص، حيث يتم تشكيل جماعات لأيام وأشهر، تقوم بالنشاط الدعوي في المساجد. وأكبر مراكزها في دلهي – الهند– والمركز الثاني في باكستان. وهي تدعو كل مسلم إلى الخروج في سبيل الله، لتعلم الدين ونشره. وكل من يخرج من بيته، يتحمل جميع مصاريفه. (الباحث)

[2] انظر، سفر در سفر، ص : 138-140

هذه السبيل، كيف لهم أن يخمنوا حلاوة الإيمان التي حصل عليها مثل هؤلاء الشيوخ بالمخاطرة بأنفسهم. واللقاء للحظات مع هذا الشيخ قد خلف أثرا كبيرا على القلب".[1]

العثماني الأديب يصور منظرا لبشكيك:

ولقي العثماني استقبالا حارا وحفاوة عندما وصل إلى جامع (قارا بالتا) لأداء صلاة المغرب. وعادوا إلى بشكيك في جنح الظلام. وكان المضيفون هيأوا منزلا واسعا لإقامة العثماني في ضاحية من بشكيك. وكتب العثماني الأديب عندما شاهد المنظر البهيج بعد الفجر:

"جب نماز فجر کے بعد ہم چہل قدمی کے لئے نکلے تو یہ نہایت حسین منظر تھا۔ایک سر بفلک پہاڑ کے دامن میں پتھروں سے ٹکراتی ہوئی ایک پر شور ندی بہہ رہی تھی اور اس کے کنارے دور تک پھلوں کے باغات چلے گئے تھے جن کے درخت سیب، ناشپاتی اور آلوچوں سے لدے ہوئے تھے۔ مرکزی ندی سے کئی چھوٹی چھوٹی شاخیں اطراف میں پھیلی ہوئی تھیں۔ان کا پانی بہت ٹھنڈا، میٹھا، شفاف اور نشاط انگیز تھا۔ کرغیزستان کا اسی فیصد سے زائد علاقہ پہاڑوں سے بھرا ہوا ہے اور انہوں نے ملک کے قدرتی حسن کو دوبالا کر دیا ہے۔ یہاں کے تمام پھل نہایت شیریں اور لذیذ ہیں۔ یہاں ہر دستر خوان پر جو گرما نظر آیا، وہ اتنا رسیلا اور شیریں تھا کہ میں نے کہیں اور ایسا گرما نہیں دیکھا۔اس کے علاوہ تربوز، ناشپاتی، انجیر اور شفتالو بھی غیر معمولی طور پر لذیذ اور رسیلے ہیں اور یہاں رواج یہ ہے کہ ہر کھانے کا آغاز پھلوں سے کیا جاتا ہے۔ بادام، پستہ اور کاجو بھی وافر مقدار میں پایا جاتا ہے اور ان میں سے ہر چیز اعلیٰ نسل کی ہے"۔[2]

ويمكن تلخيص هذا النص كالآتي، رغم أنه سيفقده جماله الأدبي الذي يوجد في الأردية:

"عندما ذهبنا في نزهة بعد صلاة الفجر، كان المشهد جميلًا للغاية. عند سفح الجبل، كان هناك نهر صاخب يتضارب الصخور، وبعيدًا على ضفافه كانت سلسلة طويلة من البساتين، أشجارها مثقلة بالتفاح والكمثرى والكرز. من النهر الرئيس، انتشر العديد من الفروع الصغيرة على الجانبين. كانت مياهها باردة جدًا وحلوة وشفافة ومنشطة. وأكثر من 80 ٪ من أراضي قيرغيزستان مغطاة بالجبال. وقد عززت هذه الجبال الجمال الطبيعي للبلاد. جميع الفواكه هنا حلوة للغاية ولذيذة. والشمام الذي رأيناه هنا على كل مائدة، كان كثير العصير ولطيفًا لدرجة أنني لم أر مثله في أي مكان آخر. بالإضافة إلى ذلك، فإن البطيخ والكمثرى والتين والدراق هي أيضًا لذيذة ومليئة

---

[1] نفس المصدر، ص: 141، وترجمة النص للباحث.

[2] سفر در سفر، ص: 142

بالعصير بشكل استثنائي. ومن المعتاد هنا أن تبدأ كل وجبة بالفواكه. يوجد أيضًا اللوز والفستق والكاجو بكثرة، وكلها ذات جودة عالية".([1])

من بشكيك إلى أوش:

في الفقرة الثانية من رحلته إلى قيرغيزستان، وصل العثماني من بشكيك إلى مدينة أوش التي تقع على مسافة ألف كلو متر من بشكيك. وقطعت تلك المسافة طائرة روسية ذات مراوح في ساعة واحدة. وكتب العثماني أن مدينة أوش، مدينة تاريخية عريقة. وكانت مهدا لعلماء أجلاء. وعلى بعد عشر كلو مترات من أوش، تقع حدود أزبكستان. وأقرب المدن إليها من مدن أزبكستان أنديجان وفرغانة.

وعلى مسافة سبعين كلو مترا من (أوش) تقع مدينة (أوزجند) القيرغيزية. وهي مدينة العلامة قاضى خان العالم الحنفي المعروف. وذكر العثماني أن ياقوت الحموي أيضا كتب عن تلك المدينة التاريخية. وأضاف أن أوزجند هي المدينة التي ألف فيها الإمام السرخسي كتابه المعروف بـ "المبسوط".

ومر العثماني بجبل بعد الخروج من مطار أوش. فأخبروه أن هذا الجبل يعرف باسم جبل سليمان. والمعروف هنا أن النبي سليمان عليه السلام مر بهذا الجبل. وفوق الجبل يقع بيت تاريخي قديم، يقال إنه بيت بناها مؤسس الأسرة الحاكمة المغولية ظهير الدين بابر، قبل هجومه على الهند. وأن الحكومة القيرغيزية أنشأت متحفا في ذلك الجبل لتحفظ به تاريخ البلاد الممتد على ثلاثة آلاف عام.[(2)]

ألقى العثماني كلمة في جامع في أوش أمام الجماهير. وهنا جاء مفتي قيرغيزستان (مراد علي جمانوف) للقائه. وأخبره أنه جاء من حدود تاجكستان من أجل لقائه فقط وأنه سيعود إليها على الفور. كما جمع العثماني لقاء مع الشيخ (دا ملا عبد الستار) الذي يعتبر أكبر العلماء في هذه المنطقة. وأخبره الشيخ عبد الستار أنه انتقل إلى تاجكستان بعد الثورة الشيوعية. وتتلمذ على شيخ اسمه (الشيخ رشيد). فكان

---

[1] ترجمة النص للباحث.

[2] انظر، سفر در سفر، ص :143

يدرسهم بعد الثالثة ليلا، وتنتهي الدروس مع بزوغ الفجر. وذلك لإخفاء أمر التعليم؛ لأن التعليم الديني كان ممنوعا منعا باتا في العهد الشيوعي.

ودرس الملا عبد الستار مشكاة المصابيح في الحديث بعد الفقه. ولم يتمكن من دراسة الصحاح الستة. وله أتباع وتلاميذ كثر في المنطقة. وأنشأ مدرسة له بعد استقلال قيرغيزستان ويدرس بها أكثر من سبعين طالبا. كما أنه كان يقوم بالتدريس سرا قبل ذلك.

لم يمكن للعثماني زيارة قزاقستان لكنه زار إيسيك كول:

كتب العثماني أنه كان يريد زيارة لقزاقستان أيضا ليومين، إذ أن نائب مفتي قزاقستان قدم له دعوة لذلك – وهو أيضا ممن درسوا بدار العلوم كراتشي-؛ لكن طالت إجراءات التأشير لقزاقستان. ولم يمكن له زيارتها. فجاء نائب مفتي قزاقستان الشيخ محمد حسين للقاء العثماني في بشكيك. وأطلعه على النشاطات الدينية التي يقوم بها هو في قزاقستان فسُر العثماني بذلك كثيرا.

عاد العثماني إلى بشكيك. فزارته جماعة من علماء أوش هناك، وبحثوا معه قضايا مختلفة ومسائل. واقترح عليه رفاقه زيارة بحيرة (إيسيك كول) التي تقع على مسافة ثلاث ساعات والنصف من بشكيك. فوافق العثماني على ذلك. وانطلقوا إلى (إيسيك كول) بعد الظهر. وتوقفوا لبرهة من الزمن بمدينة (بالك جي).

وكتب العثماني أن بحيرة (إيسيك كول) من أشهر البحيرات من نوعها في العالم. ويبلغ طولها 300 كلم ومتوسط عرضها 80 كلم. وهي تقع بين جبال زادت منظرها جمالا وأضافت إليها بهاء. وذكر أن ماء البحيرة ليس عذبا فراتا مثل الأنهار، وليس ملحا أجاجا كماء البحار، بل ماؤه ملح خفيف. ويقال إن الاستحمام فيها مفيد للصحة.

بات العثماني ليلة على ضفاف (إيسيك كول) وعاد من اليوم التالي إلى بشكيك، ليطير منها إلى طشقند على متن رحلة للخطوط الأزبكية. ومن هناك استقل رحلة أخرى إلى لاهور، تلتها رحلة ثالثة إلى كراتشي. وبذلك انتهت رحلة العثماني الأولى إلى قيرغيزستان.

الرحلة الثانية للعثماني إلى قيرغيزستان:

في أكتوبر عام 2009م، أي بعد نحو ثلاث سنوات من رحلته الأولى إلى قيرغيزستان، قام الشيخ العثماني برحلة إلى تاجكستان للمشاركة في مؤتمر دولي عن الإمام أبي حنيفة. وكتب أن تاجكستان أقرب إلى باكستان من قيرغيزستان ويمكن الوصول إليها من إسلام آباد في نحو ساعة ونصف الساعة؛ لكن لا توجد أي رحلات مباشرة بين باكستان وتاجكستان أيضا. وبناء عليه، لا بد من السفر من إسلام آباد إلى (بشكيك) قبل دوشنبة. وتربط بين إسلام آباد و بشكيك رحلة واحدة أسبوعيا.

وكان العثماني يتمنى زيارة مدينة (أوزجند) في قيرغيزستان؛ لأنه لم يتمكن من زيارة تلك المدينة التاريخية خلال رحلته الأولى إلى قيرغيزستان، بسبب اضطرابات في المنطقة دفعت السلطات إلى قطع طريقها. فقرر مضيفو العثماني في قيرغيزستان أن يزور أوزجند هذه المرة؛ لكن من قدر الله أنه أصيب بوعكة في دوشنبة، فألغى ذلك البرنامج؛ لكن تحسن وضعه الصحي قبل ركوب الطائرة من دوشنبة إلى بشكيك.

وعندما وصل إلى بشكيك، عادت البشاشة إلى وجهه، حيث كتب: "الطقس في بشكيك كان جميلا جدا، والسماء متغيمة، وفي الفضاء برودة من نوع البرودة التي دائما تعجبني. وكان وضعي الصحي قد شهد تحسنا في دوشنبة، إلا أن الطقس هنا، وإخلاص المضيفين وحبهم، زاده تحسنا. وعندما شاهد المضيف النشاط في مزاجي، قال إنه يمكن ترتيب الزيارة إلى أوزجند الآن أيضا. وهو أن تستريح اليوم استراحة كاملة، وتسافر بالطائرة إلى أوش غدا في الثامنة، ومن هناك تذهب إلى أوزجند وتعود إلى بشكيك قبل إقلاع الطائرة. وهكذا تقضي أمنيتك، وسيُسر العلماء والشخصيات التي أصابهم الحزن بسبب إلغاء زيارتك إلى أوزجند".[1]

أعجب العثماني هذا الاقتراح، فوافق على ذلك. كما أن مضيفه رتب الأمور لراحته على أحسن وجه. وبعد أخذ قسط وافر من الراحة، خرج العثماني مع مضيفه لافتتاح مسجد بناه المضيف في ضواحي بشكيك وينوي إنشاء مدرسة معه أيضا. فسعد بذلك. وكتب العثماني أن قيرغيزستان هي الدولة الوحيدة في وسط آسيا التي لا

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص :288-290 وترجمة النص تعود إلى الباحث.

توجد فيها أي حظر على إنشاء المساجد والمدارس.[1] وبهذه الجملة، لعله يريد الإشارة إلى القيودات المفروضة في الدول الوسط آسيوية الأخرى؛ لأن تاجكستان وقازاقستان وأزبكستان قامت بإجراءات تحد من حرية المسلمين.

إلى أوش:

وحسب البرنامج المتفق عليه، غادر العثماني إلى أوش بالطائرة، بينما مضيفوه في بشكيك لم يجدوا لهم مقاعد فيها. فأخبروا مستقبليه في أوش بقدومه. وكتب العثماني أن المسافة بين بشكيك وأوش نحو 600 كلم. وقطعتها الطائرة في خمسين دقيقة فقط، مضيفا أنه قد زار أوش عام 2006م وكتب عنها أيضا؛ إلا أن الأمر الجديد عنها هو أنه عرف أن أوش هي مسقط رأس الشيخ خواجا قطب الدين بختيار كاكي([2]) وموطنه.[3]

في أوزجند:

خرج العثماني من مطار أوش، متوجها إلى أوزجند. وهي تبعد عن أوش 45 كلو مترا فقط؛ إلا أن السيارة قطعت تلك المسافة في أقل من نصف الساعة لأن الطريق كان جيدا. ووقف السائق في أوزجند أمام مئذنة عظيمة تاريخية قديمة. وجاء والي أوزجند إلى ذلك المكان برفقة خبير في الآثار القديمة. وذكروا أن هذه المئذنة قد تكون لمدرسة أو مسجد العلامة قاضي خان. وذكر الوالي أنهم لم يكونوا يعرفون عن

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص:290

[2] الشيخ الإمام العارف الكبير الزاهد المجاهد: قطب الدين بن كمال الدين الكعكي الأوشي. كان من كبار الأولياء. ولد بـ أوش في حدود ما وراء النهر. توفي والده وفي الربيع الثاني من عمره. وتتلمذ على الشيخ أبي حفص المعلم الأوشي. ثم رحل إلى بغداد، وسعد بملازمة الشيخ الكبير معين الدين حسن السجزي الأجميري في مسجد الفقيه أبي الليث السمرقندي. فلبس منه الخرقة بحضور مشايخ كبار. وفاز بالخلافة وله عشرون سنة. وانتقل إلى الهند وأدرك الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني ومشايخ آخرين. ثم قدم إلى دهلي فأكرمه السلطان شمس الدين الإيلتمش غاية الإكرام. فتوطن بها. وكان من الأولياء السالكين المرتاضين، يقوم الليل ويصوم النهار ويشتغل بالذكر والفكر على الدوام. وانتفع به خلق كثير. وانتقل إلى رحمة الله في 630هـ. انظر: الحسني، العلامة الشريف عبد الحي بن فخر الدين، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، بيروت، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 1420هـ/1999م، ج 1/114-115

[3] انظر، سفر در سفر، ص:291

الشخصيات العظيمة في التاريخ الإسلامي من قاضي خان والعلامة السرخسي. وعندما عرفوا عنهم قاموا بحفريات قرب المئذنة فوجدوا آثارا لمدرسة كبيرة.

وذكر الوالي أن فريقا ألمانيا للآثار أيضا قام بحفريات ووضعت على المكان سياجا لحمايته. وأعرب عن رغبته في الحفاظ على تلك الآثار وإنشاء مدرسة إسلامية هناك تذكارا للتاريخ المجيد لهذه المنطقة، إذا قامت الدول الإسلامية بتقديم يد العون في هذا الصدد.

وذكر العثماني أن العلامة قاضي خان، واسمه حسن بن منصور الأوزجندي ولقبه فخر الدين. وكتابه المسمى بفتاوى قاضي خان من أهم المراجع الفقهية للمذهب الحنفي. ودرس قاضي خان من جده محمود بن عبد العزيز الأوزجندي الذي كان تلميذا للعلامة السرخسي[1]. وخلف قاضي خان كتبا عديدة غير الفتاوى، وبينها شرحه للجامع الصغير للإمام محمد بن الحسن الشيباني وشرح كتاب أدب القضاء للعلامة الخصاف. كما أن قاضي خان تتلمذ على العلامة ظهير الدين المرغيناني أيضا. ومرغينان هو موطن صاحب كتاب الهداية في الفقه الحنفي. وتقع الآن في ولاية فرغانة التي تتبع أزبكستان.[2]

ويتضح مما كتب العثماني كيف تم تجهيل التاريخ العريق لهذه البلاد العريقة في الإسلام، وكيف تم إسدال ستار على الشخصيات التاريخية التي كانت مفخرة لهذه البلاد، خلال العهد الشيوعي. وهذا ما أشار إليه الشيخ محمد بن ناصر العبودي أيضا، في رحلته إلى أزبكستان، حيث كتب أن النظام الشيوعي تلاعب بتاريخ البلاد،

---

[1] شمس الأئمة محمد بن أحمد بن أبي سهل السَّرَخْسِيّ الخزرجي الأنصاري (ت.490هـ فقيه أصولي حنفي من سرخس (تركمانستان)، بلدة قديمة من بلاد خراسان .أخذ الفقه والأصول عن عبد العزيز الحلواني والسغدي، وعده ابن كمال باشا من المجتهدين. وكان عالماً عاملاً ناصحاً للحكام، سجنه الخاقان بسبب نصحه له. وكتب كتاب المبسوط وهو سجين، وهو أكبر كتاب في الفقة الحنفي مطبوع في ثلاثين جزء. كما كتب شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني، وله شرح مختصر الطحاوي، وله في أصول الفقه كتاب من أكبر كتب الأصول عند الحنفية، ويعرف بأصول السرخسي. ومازال ضريحه شاخصاً في مدينة **أوزجند** بقرغيزستان.

[2] انظر، سفر در سفر، ص : 291-293

وأصبحت مناهج المدرسة لا تذكر إلا الأمجاد التي حدثت بعد الثورة الشيوعية، إذا صح إطلاق وصف الأمجاد على التقدم التقني الحديث.

وأرى – الباحث- أن استبدال الخط العربي أو الحروف العربية للغات المسلمين في وسط آسيا، بالحروف الروسية، قد قضى على تراث المسلمين المكتوب بالحروف العربية؛ لأن تعليم الحروف العربية بات ممنوعا، مع إجبار الجيل الجديد على التحصيل وفق المناهج التي وضعها النظام الشيوعي، فأدى ذلك إلى نشوء فراغ علمي وتاريخي. وقطع الصلات مع الماضي المجيد.

في حي الإمام السرخسي والنصح بعدم إنشاء أي بناء على قبره:

كتب العثماني أنهم قاموا بجولة في الأحياء القديمة لأوزجند، إلى أن وصلوا في حي كثيف العمران وسط تلك الأحياء. فقالوا إن هذا هو حي الإمام السرخسي وبه قبره. وانضم بعض المسؤولين الرسميين إليه في ذلك المكان. وذكروا أنه كان على قبر الإمام السرخسي شاهد قديم مكتوب عليه اسمه بالعربية. وقد نقله مسؤولو الآثار القديمة إلى روسيا.

وأفادوا أنهم عندما عرفوا أهمية هذا المكان، وعظمة الإمام السرخسي، قررت الحكومة إنشاء جامع ومدرسة في هذا المكان ليكون تذكارا لذلك العالم الجليل. وقالوا إن أهل الحي رفضوا في البداية إخلاء المكان؛ لكنهم في نهاية المطاف رضوا بإخلاء بيوتهم ببدل مادي مناسب. وقد علقوا في المكان خريطة للبناء المقترح.

وذكر العثماني أن الخريطة كانت تشمل بناء على قبر الإمام السرخسي أيضا، إضافة إلى المسجد والمدرسة. فذكر لهم أن البناء على القبور لا يجوز، وأن الإمام السرخسي نفسه لم يكن ليرضى بذلك. واقترح عليهم أن يعدلوا الخريطة، ولا يبنوا على القبر أي بناء، فوافقوا على ذلك؛ لكن العثماني يقول إنه لا يدري مدى تمكنّهم بالعمل بذلك الاقتراح. [1]

تشير هذه الفقرة إلى أن العثماني، رغم أنه كان ضيفا، لم ينس واجبه الديني، وذكّر المسؤولين بأنه لا يجوز البناء على القبر. وهذا هو دأب العلماء الحقيقيين الذين

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص: 293

لا يمنعهم خوف أو حرص من أداء واجبهم الديني والبوح بالحق. وأنهم لا يعرفون المجاملات المزيفة عندما تتعلق الأمور بالدين.

ذكر الإمام السرخسي وكتابه "المبسوط":

كتب العثماني مفصلا عن شمس الأئمة السرخسي، صاحب كتاب "المبسوط" في الفقه الحنفي. وقال إن الإمام السرخسي من العلماء الأجلاء الذين يمكن إطلاق كلمة "آية من آيات الله" عليهم. وحبسه حاكم ذلك الوقت في بئر، بسبب فتوى أصدرها ضد هوى الحاكم أو قال له كلمة نصح لم تعجبه. وأشار العثماني إلى أنه لا يوجد ما ينص على السبب الحقيقي لحبسه، رغم أن البعض أشار إلى أن الحاكم حبسه بعد أفتى السرخسي بحرمة نكاح وصيفة له بعد إعتاقها قبل انقضاء عدتها.

وذكر العثماني أنه مهما كان سبب الحبس، فإن السرخسي كان يرغب في شرح كتاب "الكافي" للإمام حاكم الشهيد. وطلب تلاميذه إليه أن يملي عليهم وهم يحضرون على شفير البئر التي هو محبوس فيها. فوافق على ذلك وبدأ بالإملاء. وأصبحت تلك الإملاءات كتاب "المبسوط" الذي أضحى من أهم مصادر الفقه الحنفي. وكتب العثماني أن الذين كتبوا سيرة الإمام السرخسي، كتبوا أن إملاءه كان عن ظهر قلب، ولم يكن لديه أي مصادر وقت الإملاء. ويقال إنه قيل للإمام السرخسي في أحد مجالس العلم، إن الإمام الشافعي كان يحفظ ثلاث مائة كراسة، فقال "حفظ الشافعي زكاة محفوظي". وهذا يعني أنه كان يحفظ أربعين ضعفا من العلم من علم الإمام الشافعي. ويعلق العثماني على هذا قائلا "انہوں نے جس حالت میں جس طرح مبسوط لکھوائی ہے، اس کے پیش نظر یہ بات کچھ زیادہ بعید معلوم نہیں ہوتی"، أي أن الوضع الذي كتب فيه المبسوط، والطريقة التي أملى بها، لا يُستبعد بناء عليها، هذا الكلام كثيرا.[1]

ونقل العثماني عبارات للإمام السرخسي، وردت في محطات هامة من كتابه "المبسوط" يتوجع بها على ما لاقاه في الحبس في البئر. وقد قضى في الحبس خمسة عشر عاما. وفيما يلي بعض تلك العبارات:

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص : 294-296

كتب الإمام السرخسي في مقدمة المبسوط: "فرأيت الصواب في تأليف شرح المختصر لا أزيد على المعنى المؤثر في بيان كل مسألة اكتفاء بما هو المعتمد في كل باب. وقد انضم إلى ذلك سؤال بعض الخواص من أصحابي زمن حبسي حين ساعدوني لأنسى أن أملي عليهم ذلك، فأجبتهم إليه". وكتب في نهاية كتاب الحج: "هذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني وأوجز العبارات. أملاه المحبوس عن الجمع والجماعات، مصليا على سيد السادات، محمد المبعوث بالرسالات، وعلى أهله من المؤمنين والمؤمنات. تم كتاب المناسك ولله المنة وله الحمد الدائم الذي لا يفنى أمده ولا ينقضي عدده".

وكتب في نهاية كتاب النكاح: "هذا آخر شرح كتاب النكاح بالمأثور من المعاني والآثار الصحاح. أملاه المنتظر للفرج والفلاح، مصليا على المبعوث بالحق بالسيوف والرماح. وعلى آله وأصحابه أهل التقى والصلاح، الذين مهدوا قواعد الحق وسلكوا طريق النجاح". وفي خاتمة كتاب الولاء كتب: "انتهى شرح كتاب الولاء بطريق الإملاء، من الممتحن بأنواع البلاء، يسأل من الله تعالى تبديل البلاء والجلاء بالعز والعلاء، فإن ذلك يسير وهو على ما يشاء قدير. صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطاهرين". وفي نهاية كتاب الجهاد والسير وردت الفقرة التالية: "انتهى شرح السير الصغير، المشتمل عل معنى أثير، بإملاء المتكلم بالحق المنير، المحصور لأجله شبه الأسير، المنتظر للفرج من العالم القدير السميع البصير، المصلي على البشير الشفيع لأمته النذير، وعلى كل صاحب له ووزير، والله هو اللطيف الخبير".

وفي نهاية كتاب الإقرار، وردت هذه العبارة في بعض النسخ: "انتهى شرح كتاب الإقرار، المشتمل من المعاني ما هو سر الأسرار. أملاه المحبوس في موضع الأشرار، مصليا على النبي المختار". وأشار العثماني إلى أن حاجي خليفة جلبي ذكر في "كشف الظنون" أن الإمام السرخسي كتب في نهاية كتابه "شرح السير الكبير" هذه العبارة: "انتهى إملاء العبد الفقير، المبتلى بالهجرة غير المحبوس من جهة السلطان

الخطير، بإغراء كل زنديق حقير. وكان الافتتاح بـ أوزجند في آخر أيام المحنة، والتمام عند ذهاب الظلام بمرغينان، في جمادى الأولى، سنة ثمانين وأربعمائة".[1]

تعليق العثماني على زيارة مدينة الإمام السرخسي:

وكتب العثماني تعليقا على زيار مدينة الإمام السرخسي أوزجند:

"شمس الائمہ سرخسی رحمہ اللہ تعالی کی یہ عظمت تو اس وقت سے دل میں تھی جب سے بچپن میں اپنے والد ماجد قدس سرہ سے مبسوط کی تالیف کا حال سنا تھا۔ لیکن آج میں ان کے اس شہر میں کھڑا تھا جہاں انہوں نے یہ محیر العقول کارنامہ سرانجام دیا تھا جسے نبی کریم صلی اللہ علیہ وسلم کے دین کا معجزہ ہی کہا جاسکتا ہے۔ آج نہ اس گڑھے کا کوئی نام ونشان موجود ہے جہاں انہوں نے سالہا سال انتہائی صبر آزما وقت گزارا، نہ اس حاکم سے کوئی واقف ہے جس نے تکبر اور رعونت کے عالم میں ایسے مقدس شخص کو اتنی بربریت کے ساتھ قید کیا، لیکن سرخسی رحمۃ اللہ علیہ کا نام زندہ وپائندہ ہے اور ان شاء اللہ قیامت تک اسے خراج تحسین پیش کیا جاتا رہے گا اور لوگ ان کے لئے رحمت کی دعائیں کرتے رہیں گے۔ رحمہ اللہ تعالی وجزاہ عن الامۃ الاسلامیۃ احسن الجزاء".[2]

يقول العثماني:

إن هذا الاحترام لشمس الأئمة السرخسي رحمه الله كان في قلبي، منذ أن سمعت عن تأليف كتاب المبسوط من والدي الماجد قدس سره، في طفولتي. لكنني اليوم كنت واقفا في مدينته، التي أنجز فيها هذا العمل الجليل المحير للعقول، الذي لا يمكن القول عنه سوى وصفه بأنه معجزة لدين النبي الكريم صلى الله عليه وسلم. واليوم لا يوجد اسم أو علامة للحفرة التي أمضى فيها سنوات من المحنة، ولا يوجد من يعرف الحاكم الذي سجن مثل هذه الشخصية القدسية، بهذه الوحشية في وضع التكبر والغطرسة؛ لكن اسم السرخسي رحمه الله، حي خالد. وإن شاء الله سيظل تكريمه متواصلا حتى يوم الدين. وسيسترحم له الناس ويواصلون الدعاء له. رحمه الله تعالى وجزاه عن الأمة الإسلامية أحسن الجزاء.([3])

من أوزجند إلى إسلام آباد:

كانت رحلة العثماني من بشكيك إلى أوش، والعودة إلى بشكيك، ثم الركوب إلى إسلام آباد، رحلة عاصفية. إذ غادر بشكيك إلى أوش في الساعة الثامنة صباحا.

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص : 296-302

[2] سفر در سفر، ص: 304

[3] ترجمة النص للباحث.

ثم زار أوزجند. وسلم على الإمام السرخسي في قبره. وبعد ذلك قضى وقتا في منزل مضيفه. وإثر ذلك ألقى كلمة مختصرة أمام المصلين في جامع أوزجند. وغادر أوزجند إلى أوش بعد الظهر. وسلك به السائق طريقا أطول إلى مطار أوش تفاديا للزحام في مدينة أوش.

ووصل إلى مطار أوش قبل ربع الساعة من إقلاع الطائرة والمضيفون قد أنهوا الإجراءات اللازمة قبل وصوله. فتوجه من قاعة كبار الزوار إلى الطائرة مباشرة. وعاد إلى بشكيك في الساعة الثالثة. وبذلك قطع مسافة تزيد على 1300 كلم، في سبع ساعات ونصف الساعة. والعثماني يقول إن قطع هذه المسافة الطويلة في هذا الوقت القصير، وهذه الرحلة الجميلة، بدت له كحلم.

وفي الساعة السابعة والنصف مساء بعد أخذ قسط من الراحة مع مضيفيه، ركب العثماني من مطار بشكيك الرحلة المتوجهة إلى إسلام آباد. ووصل إلى هناك بعد ساعتين ونصف الساعة. وبذلك انتهت رحلته الثانية إلى قيرغيزستان.

يتضح من محتوى هذه الرحلة حب العثماني للعلم والعلماء وشغفه بالتاريخ الإسلامي، إضافة إلى احترامه الشديد للعلماء القدامى، رغم أنه يُعدّ من العلماء الأجلاء المعدودين في العالم. كما نرى فيها أن الأديب الذي يعيش بداخله، لا يفارقه في أي وقت. ويظهر للعيان كلما سنحت له فرصة للإعراب عن نفسه. والأمر الملحوظ في كتاباته هو أنه ينبغي لعلماء الدين أن يكونوا مُثلا يقتدى بهم في المجتمع، وأن يكونوا على دراية بما يجري في المجتمع والبيئة التي يعيشونها. وتشير هذه الرحلة إلى أنه يجوز للإنسان أن يستمتع بالنعم التي أغدقها الله تعالى عليها في حدود الشريعة الغراء وأن يشكره على ذلك.

المبحث الثاني: رحلة العثماني إلى جمهورية تاجكستان:

ذكر العثماني أنه تلقى دعوة رسمية من السفارة التاجكية في باكستان في شوال 1430هـ (أكتوبر 2009) لحضور مؤتمر دولي عن الإمام الأعظم أبي حنيفة رحمه الله تعالى في دوشنبة. وأشار إلى أنه يعتذر عن الحضور في مثل هذه المؤتمرات. وكان قبل ذلك نسق لزيارة لبنغلاديش؛ إلا أن الطلاب التاجك في دار العلوم ألحوا عليه لحضور المؤتمر. كما تلقى اتصالات من الطلاب التاجك الذين قد تخرجوا في دار العلوم كراتشي من قبل. فأزمع على حضور ذلك المؤتمر أولا لأنه أول مؤتمر ديني تقوم الحكومة التاجكية بتنظيمه، وثانيا لأن زيارة العلماء من باكستان لتاجكستان أمر صعب، بينما كان من المتوقع أن يكون لذلك الحضور أثر طيب.

أشار العثماني إلى أنه قد زار من دول وسط آسيا أزبكستان وقيزغيزستان من قبل؛ لكن رحلته إلى تاجكستان كانت الأولى. وقد كتب رحلة عن قيرغيزستان لكنه لم يتمكن من كتابة رحلته إلى أزبكستان، رغم أنها حدثت قبل الرحلة إلى قيرغيزستان بسنوات.[1]

نبذة عن تاجكستان:

ألقى العثماني ضوءا على جغرافية تاجكستان وتاريخها وقدم نبذة مختصرة عنها تكفي لتقديم صورة واضحة عن هذه الدولة. فكتب أن تاجكستان دولة في وسط آسيا

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص: 271

وتمتد على 55250 كلم مربع، وتشارك حدودها مع كل من الصين وأزبكستان وقيرغيزستان وأفغانستان. ومعظم أراضيها جبلية. وبين تلك الجبال سلسلة جبال بامير التي تظل ذراها متوجة بالثلوج طول العام. وعاصمتها دوشنبة، بينما تعتبر مدينة خوجند ثاني أكبر مدينة لها. ولغتها الرسمية فارسية لكنها تكتب بالحروف الروسية منذ استيلاء الروس عليها.

من الناحية التاريخية، تعتبر تاجكستان جزءا من بلاد ما وراء النهر. والمراد من النهر هنا نهر جيحون الذي يسمونه الآن (آمو دريا). وكانت البلاد التي تقع وراءه، تسمى بـ بلاد ماوارء النهر. وهي تشمل أزبكستان وقيرغيزستان وتاجكستان والمناطق المجاورة لها. والمسلمون فتحوا هذه البلاد في القرن الثاني الهجري. وأن المنطقة التي تنقسم الآن إلى عدة دول، كانت تعتبر إقليما واحدا من الدولة الإسلامية.

وكانت تاجكستان جزءا من إمارة بخارى في العصر الأخير. وفي القرن الثامن عشر تم ضم المناطق الجنوب غربية من نهر جيحون إلى أفغانستان وبينها منطقة بلخ أيضا. ويوجد بها عدد كبير من التاجك. وبدأ القيصر الروسي الاستيلاء على إمارات وسط آسيا في 1860م. وقاومت إمارة بخارى لفترة؛ لكن روسيا استولت على المنطقة كلها عام 1868م.

وبدأ الشيوعيون حملات للاستيلاء على هذه المناطق كلها بعد الثورة الشيوعية عام 1917م. وسقطت دوشنبة بيدهم عام 1921م. واستمرت المقاومة بقيادة إبراهيم بك من بخارى، حتى عام 1931م؛ إلا أن الاتحاد السوفييتي نجح في فرض حكمه عليها. وتم القرار على أن تكون تاجكستان الجمهورية الخامسة عشر من الاتحاد السوفييتي وسموها جمهورية تاجكستان الاشتراكية.[1]

الظلم الذي تعرض له المسلمون إبان العهد الشيوعي:

كتب العثماني أن المسلمين كانوا يعانون من ظلم القياصرة الروس؛ لكن الاضطهاد بلغ ذروته إبان العهد الشيوعي، حيث تم القضاء على المساجد، وفرض حظرا على أداء الصلوات. وحدث عن التعليم الديني ولا حرج، حيث لم يكن يسمح

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص : 272-273

بتعليم الدين فحسب، بل أصبح الحفاظ على نسخة من المصحف جريمة لا تغتفر. والعلماء الذين أبدوا مقاومة لهذا الظلم، تعرضوا للموت بأساليب بشعة. واستمر هذا الوضع لأربع وسبعين عاما.

وأشاد العثماني بالعلماء الذين تمسكوا بالدين حتى خلال هذه الفترة الحالكة أيضا، وقدموا تضحيات هائلة للحفاظ على العلوم الدينية. فكانوا يصلون خفية، ويتدارسون الدين بعد منتصف الليل عندما يغرق الروس في الاستراحة. فتحول تعليم الدين إلى السرادق والغرف، وينتهي قبل بزوغ الفجر. ونتج ذلك أن المسلمين قد تمكنوا من الحفاظ على دينهم رغم تعرضهم لذلك الظلم والاضطهاد. وعندما سقط الاتحاد السوفييتي وتمزق، خرج معظم الناس منه مسلمين حقيقيين.[1]

وضع تاجكستان بعد سقوط الاتحاد السوفييتي:

ذكر العثماني أن بعض المسلمين المتحمسين، حاولوا إنشاء دولة إسلامية خالصة بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، وبدأوا حركة مسلحة، مما أوقع تاجكستان في حرب أهلية لسنوات بعد استقلالها. وفي نهاية المطاف حاول الرئيس الحالي إمام علي عبد الرحمن الوصول إلى مصالحة. وكان الشيخ عبد الله نوري يقود الحركة المسلحة، فهو أيضا شعر بأن أضرار الحرب الأهلية أكثر، فاقتنع بضرورة المصالحة. وهكذا انتهت الحرب الأهلية. وتم الاتفاق بين الجانبين على أن جماعة عبد الله نوري ستشارك في السياسية باسم "الحزب الإسلامي".

وبدأت القيادات التي تقود الحركة المسلحة، جهودا لإحداث التغيير في البلاد عن الطريقة الديموقراطية السلمية للحصول على أهدافهم عن طريق البرلمان. وكانت في البداية لهم تمثيل مؤثر في البرلمان؛ لكن عدد نوابهم بدأ في الانخفاض لأسباب غير معروفة، ولم تبق لديهم في النهاية سوى مقاعد معدودة؛ لكن مع ذلك هذا التمثيل البرلماني يسمح لهم بتوجيه نقد إلى السياسات الرسمية ولو كان جزئيا. ويظهر لذلك أثر أيضا.

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص: 273

أضاف العثماني أن الحكومة تخشى من أن تتمكن القوى الدينية من إنشاء مشاكل لها مرة أخرى. وبناء عليه لم تسمح حتى الآن بإنشاء مدارس إسلامية خاصة. وعلى الرغم من أن المساجد باتت مفتوحة؛ لكن فرصة القيام بالعمل الإسلامي فيها ضئيل جدا. ومع أن الوضع الإجمالي للبلاد قد تحسن مقارنة بالحكم الشيوعي لكن العراقيل أمام العمل الإسلامي لا تزال قائمة.

وكتب العثماني أن الأوساط الإسلامية في تاجكستان، على الرغم من خلافاتها مع الحكومة، أشادت بقرار الحكومة بعقد مؤتمر دولي عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله. وبناء عليه ألحت عليه بأن يشارك فيه.[1]

من كراتشي إلى دوشنبة:

في 12 أكتوبر 2009م انطلق العثماني من كراتشي متوجها إلى تاجكستان. فكانت إسلام آباد أول محطة له. وركب منها الخطوط القرغيزية ليصل إلى بشكيك في وقت متأخر من الليل، لكن مع ذلك كان محبّوه من قيرغيزستان في استقباله. فأنزلوه قاعة كبار الزوار. فجرى ما يجري بين الأصدقاء والأحباء ما يجري بعد طول فراق. فودعوه إلى دوشنبة على متن رحلة للخطوط التاجكية بعد الثامنة صباحا.

وبما أن السفر بين إسلام آباد وبشكيك كان ليلا، لم يعلق العثماني على المناظر خارج الطائرة؛ لكن الرحلة إلى دوشنبة في وضح النهار أيقظ الأديب الذي يسكن داخله، فكتب:

"ولم تكن الطائرة تطير في ارتفاع كثير، فكان منظر قمم بامير المتوجة بالثلوج، وتعرجات الوديان رائعا جدا. والله سبحانه وتعالى قد حفظ هذه الكمية الهائلة من المياه للإنسان، في قمم هذه الجبال بعد جعلها ثلاجات. ومن هناك تتحول إلى أنهار بعد ذوبان الثلوج رويدا رويدا وفق الحاجة. والله يدبر بذلك تروية البشر. وقد لفت القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بهذه الكلمات (وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ)[2]

وكتب العثماني أنه ذكر في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص :273-274

[2] المؤمنون:23

"معناه، أنه لو تم تخويل المسؤولية إليكم بعد إنزال الماء من السماء، بأن تقوموا بأنفسكم بادخاره، لم يسعكم هذا الأمر. فقد أنزلنا هذا الماء على الجبال وجمدناه بشكل الثلج، الذي يذوب رويدا رويدا ويتحول إلى الأنهار، وله جذور ممدودة في الأرض وتتكون منها الآبار. وهكذا يحفظ الماء تحت الأرض". [1]

الاستقبال في مطار دوشنبة:

ذكر العثماني أن منظمي المؤتمر استقبلوهم على سلم الطائرة. وعندما خرجوا من المطار بعد إنجاز الإجراءات الرسمية، وجدوا جمعا كثيرا من الناس ينتظرونه في صفوف، وبينهم علماء تخرجوا في دار العلوم كراتشي، ومحبون آخرون للعثماني. وأضاف أن هذه كان أول مرة حيث يقوم أحد (من العلماء) من شبه القارة الهندية بزيارة لتاجكستان بعد فترة تزيد عن قرن، فلأجل ذلك كان يمكن رؤية الدموع في عيون المستقبلين؛ إلا أنه لم يمكن الجلوس معهم لوقت أطول، بسبب الترتيبات التي قام بها منظمو المؤتمر. فاكتفى بالسلام عليهم ومصافحتهم.

وبعد وصولهم إلى فندق (أوستا) في دوشنبة، تم إخبارهم بأن الضيوف سيذهبون لزيارة قلعة "حصار"[2] التاريخية، بعد الظهر؛ إلا أن العثماني اعتذر عن تلك الزيارة ليأخذ قسطا من الراحة. وقد تجمع كثير من الناس خارج الفندق للقائه، إذ لم يُسمح لهم بدخول الفندق بسبب الإجراءات الأمنية. فأرسل إليهم أنه سيلتقيهم في المسجد.

وأخذ طريق جميل واسع على طرفيه أشجار باسقة، العثماني إلى المسجد في جو بارد جميل. فاستقبله جموع الناس خارج المسجد. وكتب العثماني أن محيط المسجد كان يضم المدرسة الإسلامية الوحيدة في تاجكستان، مضيفا أنه قد تم القضاء على معظم المساجد والمدارس إبان العهد الشيوعي؛ إلا أنهم حافظوا في كل جمهورية على إدارة باسم مفتيات" – الإدارة الدينية- ويسمون رئيسها المفتي، وهي تشبه في أموره وزارة الشؤون الدينية. وكان من مسؤولياتها الإشراف على الشؤون الدينية، أكثر من

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص : 274-276، ترجمة النص للباحث.

[2] وقد قام الشيخ محمد بن ناصر العبودي بزيارة مفصلة لهذه القلعة. ويمكن الاطلاع عليه في رحلاته.

إصدار الفتاوي. وتحت إشرافها كان يتم التعليم الديني على نطاق ضيق. ونفس هذا الترتيب قائم بعد استقلال هذه الدول من النظام الشيوعي أيضا. وهي تقوم على المساجد. والأساتذة الذين تقوم الإدارة الدينية بتعيينهم، يحظون بحرية أكثر في الشؤون الدينية.[1]

صلى العثماني صلاة المغرب في مسجد "يعقوب التشرخي". وذكر أن المسجد يشبه في بنائه قلعة، وتدل مئذنته العالية وبناؤه المزخرف على عظمته. وأضاف أنه سمي باسم الصوفي الشهير الشيخ يعقوب التشرخي، رغم أن قبره في مكان آخر. وأن إمام المسجد الذي كان يقدر على التحدث بالعربية إلى درجة ما، قدم معلومات عن المسجد. وكان الناس في انتظار أن يجلس العثماني معهم بعد الصلاة ويلقي كلمة؛ إلا أن منظمي المؤتمر حالوا دون ذلك، وقالوا إن للضيوف برنامجا آخر. فنقلوا الضيوف إلى مطعم أقيم فيه حفل عشاء على شرفهم.[2]

يبدو من هذه الفقرة أن الشيخ العثماني كان يرغب في لقاء الناس وإلقاء كلمة بينهم؛ إلا أن ترتيبات منظمي المؤتمر، لم تسمح له بذلك. ومن الممكن أن يكون البرنامج هكذا بدون مراعاة أي أمر خارج إطاره. وكذلك لا يستبعد أن يكون ذلك خطة مدروسة لمنظمي المؤتمر للحلول دون لقاءات الضيوف مع الناس مباشرة. وقد أشار إلى هذا الأمر الشيخ العبودي في رحلاته أكثر من مرة، موضحا أن الزيارات الرسمية تجري في إطارها الخاص محددة الوقت والأمكنة. وبالتالي لا يمكن لأحد الاطلاع على الأوضاع حسب رغبته.

مرض ينتاب العثماني في دوشنبة :

كتب العثماني أنه كان لديه فراغ يوم قبل بداية المؤتمر. وكان يريد استغلال ذلك اليوم في لقاء الأصدقاء والمعارف من تاجكستان للاطلاع على أوضاعهم، والسعي لتقديم أي دعم لهم، إضافة إلى زيارة الأمكنة الهامة في دوشنبة؛ إلا أن الله قدر ما شاء. فبدأت كليته توجعه. وازداد الألم قبل نهاية الليل. فاضطر المضيفون إلى

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص :277-278

[2] انظر، سفر در سفر، ص: 278

نقله إلى المستشفى بعد عدم نفع العلاج الذي تلقاه في الفندق. وذكر العثماني أن المضيفين لم يألوا جهدا في علاجه، حتى إن نائب وزير الصحة هو من نقله إلى المستشفى. وخصصوا له غرفة. كما سمحوا لبعض معارفه بالبقاء في غرفة أخرى في المستشفى، بينما قام السفير الباكستاني لدى تاجكستان بتجهيز الطعام في بيته لثلاثة أيام وفق إجراءات الحمية.

وكتب العثماني أن الكثير من الناس احتشدوا للاطمئنان على صحته خارج المستشفى. وكان بينهم من جاء بقطع مسافة مئات الأميال، ولم يدر من أخبرهم بقدومه إلى تاجكستان. وذكر العثماني أن المرض في بلد يزوره المرأ لأول مرة، يكون له وقع شديد؛ لكن الله تعالى قد وفر أسبابا كثيرة لإزالة الشعور بالغربة. ورغم أن اليوم التالي كان أول يوم للمؤتمر وكانت للعثماني كلمة في الجلسة الافتتاحية؛ إلا أن رسولا لرئيس الدولة، نقل إليه رسالة له وقال إن صحته مقدمة على الأمور الأخرى. وبناء عليه، إذا تحسن الوضع، وأذن الأطباء، فليحضر للمؤتمر، ويلقي كلمة، إذا رغب فيها، وإلا فليسترح.

ومع أن الأطباء أذنوا له بمغادرة المستشفى اليوم التالي؛ لكنه لم يتمكن من حضور الجلسة الافتتاحية بسبب الضعف. وحضر في المؤتمر مساء لوقت. [1]

مؤتمر الإمام الأعظم أبي حنيفة رحمه الله:

حضر العثماني المؤتمر في اليوم الثاني وألقى كلمة مختصرة بالعربية أشار فيها إلى أهم ميزات الفقه الحنفي، حيث قال إن الفقه الحنفي أول فقه بين المذاهب الأربعة، الذي تم تدوينه بالتشاور. والإمام الأعظم أبو حنيفة هو فقيه اهتم بالتشاور في الفقه. والميزة الثانية لهذا الفقه هو أنه ظل مطبقا كقانون للدولة والقضاء لفترة طويلة في معظم أنحاء العالم الإسلامي. والميزة الثالثة هي أن التفاصيل التي توجد في هذا المذهب عن القوانين والتعاملات الدولية، لا توجد في أي مذهب فقهي آخر. وأن كتاب السير الكبير للإمام محمد وشرح السرخسي خير دليل على ذلك.[2]

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص : 278-280

[2] انظر، نفس المصدر، ص : 280-281

العثماني يوضح معنى أصحاب الرأي:

أشار العثماني إلى أن مؤتمر الإمام الأعظم، كانت أول تجربة من نوعه في تاجكستان. وعلى الرغم من أن الحكومة التاجكية قد استدعت شخصيات كثيرة من مختلف أنحاء العالم وبينهم شيخ الأزهر، والأمين العام لمجمع الفقه الإسلامي وعلماء آخرون؛ لكن قلما يوجد فيهم من له علاقة خاصة بالإمام أبي حنيفة رحمه الله.

وذكر أن بعض الشركاء في المؤتمر قد فسروا معنى كون الحنفية أصحاب "الرأي"، أنهم "كانوا يفسرون النصوص حسب رأيهم وفي مصلحة الوقت". وقال إنه رد على ذلك بالتفصيل وقال:

"رای کا لفظ اس دور میں ایک مخصوص اصطلاح کے طور پر استعمال ہوتا تھا اور جن حضرات نے اپنا خصوصی مشغلہ حفظ حدیث کی بجائے فقہی مسائل کے استنباط کو بنایا تھا، ان کو اصحاب الرای کہا جاتا تھا۔ چنانچہ شروع میں یہ لفظ مالکی فقہاء کے لئے استعمال ہوا جیسا کہ امام ابن عبد البر رحمۃ اللہ علیہ کی کتاب "الاستذکار لما تضمنہ المؤطا من معانی الرای والآثار" کے نام سے ظاہر ہوتا ہے۔ البتہ بعد میں چونکہ فقہ کو خصوصی مشغلہ بنانے میں فقہاء کوفہ اور بالخصوص فقہاء حنفیہ نمایاں رہے، اس لئے یہ لقب ان کے لئے زیادہ استعمال ہوا۔ اس کا یہ مطلب ہر گز نہیں کہ انہوں نے اپنی ذاتی رائے کو نصوص پر ترجیح دی، یا نصوص کی تشریح مسلم اصولوں کی بجائے محض اپنی مصلحت پسندانہ رائے سے کی"۔ (1)

وقد استُخدمت كلمة " أصحاب الرأي" كمصطلح خاص في تلك الفترة، وكان العلماء الذين تخصصوا في استنباط المسائل الفقهية بدلًا من حفظ الحديث فقط، يسمون أصحاب الرأي. فكان في البداية استخدمت هذه الكلمة للفقهاء المالكية، كما هو موضح في اسم كتاب الإمام ابن عبد البر، "الاستذكار لما تضمنه المؤطأ من معاني الرأي والآثار"، لكن فيما بعد اشتهر فقهاء الكوفة ولاسيما الفقهاء الأحناف، بالاشتغال بالفقه، فذاع استخدام هذا اللقب لهم. ولا يعني هذا على الإطلاق أنهم فضلوا رأيهم على النصوص، أو أنهم قاموا بتفسير النصوص على أساس رأيهم حسب المصلحة، بدلا من تفسيرها وفق الأصول المعروفة.([2])

ومن هذه الفقرة يمكن الاطلاع على موقف العثماني حول الفقه الحنفي. ولا غرابة في ذلك؛ لأنه من كبار الفقهاء في هذا العصر وعضو في مجمع الفقه الإسلامي،

---

[1] سفر در سفر، ص: 280

[2] ترجمة النص للباحث.

كما أنه من العلماء القلة الذين لهم باع في مسائل البيوع الحديثة. والأمر الأخر الملحوظ هنا، هو إحقاق الحق أو بيان الحق، بدون أي مجاملة. وهذا من دأب العلماء الأوائل الذين كانوا لا يبالون بلومة لائم في الصدح بالحق.

وبارك العثماني لحكومة تاجكستان على عقد المؤتمر عن الإمام أبي حنيفة؛ لكنه لم ينس أن يشير إلى أن الحب والاحترام للإمام أبي حنيفة يقتضي أن يستفيد العالم الإسلامي في سن قوانينه من الفقه الذي دونه الإمام أبو حنيفة بعد بذل تلك الجهود الهائلة، مضيفا أنه يمكن أن يُستمتع علميا وفكريا من ذكر سيرة الإمام أبي حنيفة وحياته الطيبة؛ لكن هناك حاجة إلى عزم وتصميم في الحياة العملية للاستفادة من آرائه وليس إلى مثل هذا المؤتمر. وهذا الأمر مفقود في معظم بلاد المسملين.[1]

جولة في دوشنبة والبحث عن صغانيان:

قام العثماني بجولة في "دوشنبة" – ومعناها يوم الاثنين- حيث زار المناطق المهمة منها، في سيارة. ثم ألقوا نظرة على دوشنبة من فوق تلة عالية. وذكر العثماني أنه لا يوجد أي ذكر لـ دوشنبة في الكتب القديمة. وكان الروس شكلوا هذه المدينة من ثلاثة أجزاء، أحدها "دوشنبة". وكانوا يسمونها "ستالين آباد"، لكن تمت إعادة اسمه القديم دوشنبة إليها بعد الاستقلال من النظام الشيوعي. ودوشنبة كانت منطقة تقام بها سوق كل اثنين.

أشار العثماني إلى أنه يرى أن دوشنبة تقع في موقع تذكره الكتب القديمة باسم "جغانيان" أو "صغانيان". وينتمي إليه الكثير من العلماء. ويستدل على رأيه بكون قبر الشيخ يعقوب التشرخي في دوشنبة، مضيفا أنه مكتوب في سيرته أنه كان يسكن "صغانيان"؛ إلا أنه ذكر أنه عندما سأل الكثير من التاجك عن "صغانيان"، قالوا إنهم لا يعرفون أي مدينة بهذا الاسم. وكتب أن ما ورد في تعريف صغانيان في الكتب القديمة، هو أيضا يدل على أن "صغانيان" قد تكون من البلدات الثلاث التي أنشئت "دوشنبة" بعد ضمها معا.[2]

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص : 281-282

[2] انظر، سفر در سفر، ص : 282-283

على ضفاف نهر "ورزوب" [1]:

كتب العثماني أن مدينة دوشنبة تقع على ضفتي نهر "ورزاب" والنهر يجري وسطها مثل نهر سوات في باكستان. وتحيط الجبال المدينة من جانبين. وقد أنشأ الرئيس التاجكي قصرا له على ضفة ورزاب على مسافة ثلاثين كلومترا من دوشنبة. وأقيم حفل غداء على شرف ضيوف المؤتمر هناك. ورغم أن العثماني كان لا يجد في نفسه رغبة في زيارة ذلك المكان بسبب وضعه الصحي؛ إلا أن رفاقه منّوه بأن المناظر البهيجة قد تخلف أثرا جميلا على صحته. فانطلق معهم.

وذكر أن الطريق كان جميلا جدا، والوجهة كانت فعلا منطقة رائعة. وكانت تشبه شيئا ما بمنطقة "بحرين" في سوات. وقد أنشئ القصر الرئاسي في قلب ذلك المنتجع السياحي، وتحيطه بساتين وأزهار، مضيفا أنه لا بد أن يطبع مثل هذا المنظر البهيج أثرا في النفس، في عامة الأحوال؛ لكنه كان يشعر بضعف شديد والمرض قد أثر عليه. فكان تفكيره معلق بالعودة إلى دوشنبة بدلا من الاستمتاع بتلك المناظر الخلابة. وهنا أشار إلى أن الله سبحانه وتعالى قد أسبغ علينا نعما لا تحصى ولا تعد؛ لكن بهجة القلب هي النعمة التي لا يمكن شراؤها بصرف أي كمية من المال. وكتب أن هذه النعمة تحصل لنا عادة بالمجان؛ لكن الإنسان بدلا من أن يشكر الله عليها، يبقى غافلا حتى عن الاعتراف بوجودها أيضا.[2]

زيارة مسجد التشرخي ولقاء مع علماء:

كتب العثماني أنه زار قبر الشيخ يعقوب التشرخي قرب دوشنبة. ودعا له. ثم عرّفه قائلا إنه كان من منطقة "تشرخي" في غزنة – أفغانستان- ومن هناك جاء إلى هنا وسكن في صغانيان. وهو من كبار المشايخ في السلسلة النقشبندية، بل له فرع خاص في السلسلة أيضا.

---

[1] أصل هذه الكلمة "ورزاب" وليس "ورزوب"، وقد تحولت الألف في ورزاب إلى الواو، بسبب اللهجة التاجكية للغة الفارسية؛ لأن التاجك ينطقون الألف مفخما، حتى كلمة تاجكستان، ينطقونها "توجكستون". وهذه الألف المتحولة إلى الواو، يكتبونها بالرسم الروسي بحرف أو، وليس آ. (الباحث)

[2] انظر، سفر در سفر، ص : 283-284

وذكر أنهم طلبوا إلى منظمي المؤتمر بأن يكون لهم يوما خارج برامجهم وترتيباتهم للقاء الطلاب الذين قد درسوا في دار العلوم كراتشي أو المدارس الأخرى. وكتب أنهم كانوا اطلعوا على أوضاع العلماء إلى حد ما؛ لكن الأمور اتضحت أكثر بعد الجلوس معهم في مكتب لتاجر تاجكي. وأشار إلى أن العلماء المتخرجين من المدارس الباكستانية يواجهون المشاكل من جانب الحكومة التاجكية والعلماء القدامى معا، موضحا أن الحكومة تشك فيهم بسبب الانطباع السائد عن باكستان أنها دولة إرهابية، وهذا الانطباع ناشئ من سياسات باكستان الخاطئة. ورغم أن العلماء القدامى لهم الفضل في الحفاظ على الدين في أحلك الأيام؛ لكن قد نشأت لديهم أمور بسبب انقطاعهم عن المراكز الإسلامية لتلك الفترة الطويلة. والعلماء الجدد لا يستطيعون التأقلم بتلك الأمور، وبالتالي يصبحون موضع شك العلماء القدامى أيضا.

والأمر الثالث المهم هو أنه لا يوجد في تاجكستان أي نظام خاص للتعليم الإسلامي، يسمح للعلماء بالانخراط فيه لخدمة الدين. وبالتالي تم نصحهم بأن يختاروا لهم أي عمل لكسب لقمة العيش، وأن يقوموا بخدمة الدين في نطاق قدرتهم بالحكمة. كما تم بحث مشاكل أخرى تواجههم. وكتب العثماني أن السفير الباكستاني لدى دوشنبة يقوم بأداء مهامه بأسلوب ممتاز، وأنه قال لهم إنه سيسعى لتسهيل أمور التأشير للطلاب التاجك الراغبين في التعلم في باكستان.[1]

وانتهت بذلك رحلة العثماني إلى تاجكستان. وغادر إلى بشكيك ليعود إلى باكستان. وقد قام خلال بقائه في قيرغيزستان بزيارة مدينة أوش وأوزجند، وقد ضممنا ذلك الفصل من رحلته إلى رحلته إلى قيرغيزستان في المبحث الأول.

---

[1] انظر، سفر در سفر، 286-288

المبحث الثالث: رحلة العثماني إلى روسيا

قام الشيخ العثماني برحلة إلى روسيا في شوال 1427هـ/ نوفمبر 2006م ودونها تحت عنوان "نو دن روس ميں" (تسعة أيام في روسيا). وهدفت تلك الرحلة لتفقد أحوال المسلمين في روسيا، إذ أشار العثماني إلى أن أحد التجار من موسكو جاء إلى كراتشي مع جماعة التبليغ، فالتقاه. وأخبره أن هناك عددا كبيرا من المسلمين في جميع أقاليم روسيا. وهم يحظون بنوع من الحرية الدينية أيضا بعد سقوط النظام الشيوعي؛ إلا أن عدد العلماء قليل جدا، ولا يكفون حاجة المسلمين. وبناء على ذلك تلح الحاجة إلى معرفة الوضع على أرض الواقع، من أجل القيام بترتيب لتلبية هذه الحاجة الدينية على أسس منتظمة دائمة. ودعاه لزيارة روسيا لمشاهدة الوضع وتقديم المشورة.

ويبدو من المستحسن الإشارة إلى رحلة لـ "رشاد بك" قام بها من مصر إلى روسيا أوائل القرن العشرين أي قبل الثورة الشيوعية وفي عهد الحكم القيصري في روسيا. وهذه الرحلة تقدم صورة قلمية لمدن روسيا في ذاك الزمان.([1]) وتعتبر رسالة ابن فضلان من أقدم رحلات المسلمين إلى بلاد الروس. وهي تصف بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة قبل أكثر من ألف عام.([2])

من دبي إلى موسكو:

طار العثماني إلى موسكو من دبي، برفقة اثنين من رفاقه. وهبطوا في مطار موسكو في مطلع نوفمبر 2006م بعد رحلة استغرقت خمس ساعات. وقد بدأ النهار في التقاصر والثلج في الهطول. والبرد في موسكو معروف. وأشار العثماني إلى أن عدد المسلمين في موسكو يتراوح بين 1.2 مليون و1.5 مليون نسمة. ومعظمهم من الشيشان والتتر، إضافة إلى إيرانيين وأفغان وباكستانيين وهنود. وإضافة إلى أعداد للمسلمين في جميع أقاليم روسيا، يشكل المسلمون نحو 90% من سكان داغستان

---

[1] راجع، رشاد بك، سياحة في الروسيا، وندسور، مؤسسة هنداوي، 2015م، وكان هذا الكتاب طبع لأول مرة عام 1914م.

[2] راجع، أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، رسالة ابن فضلان، دمشق، المجمع العلمي العربي، 1389هـ/1959م

ونحو 52% من سكان تتارستان. وتم القرار على أن الرحلة تبدأ من داغستان، وأن يزوروا بعدها تتارستان، وتنتهي بموسكو.[1]

موسكو والإدارة الدينية:

كانت في موسكو وقت زيارة العثماني لها، خمسة مساجد كبيرة، إضافة إلى مصلات يقيم المسلمون فيها الصلوات. وأكبر تلك المساجد "مسجد براسبكت ميرا" – براسبكت ميرا، معناها الشارع الكبير–. ويعرف هذا المسجد بهذا الاسم لوقوعه على الطريق العام. وفي محيطه مكاتب الإدارة الدينية [2] وأمانة المفتي العام لروسيا. وكتب العثماني أن الدول التي عاشت تحت النظام الشيوعي، كانت فيها النشاطات الدينية محظورة على سبيل العموم؛ إلا أنهم حافظوا بناء على مصلحة على مدرسة واحدة مفتوحة في بخارى. وكانوا يدرسون فيها بعض الأشخاص المعتمدين العلوم العربية الإسلامية ويعينونهم في منصب المفتي. وعلى الرغم من أن "الإدارة الدينية" تحت النظام الشيوعي كانت رمزية؛ لكنها ظلت قائمة بعد سقوط النظام الشيوعي أيضا. وأنها بالفعل تعمل للدين الآن. وأصبحت مثل وزارة الشؤون الدينية في الدول الإسلامية.

النشاط الإسلامي في ظل الإدارة الدينية:

كتب العثماني أن الإدارة الدينية تقوم بإدارة المساجد، وتساعد المسلمين في عقود النكاح والطلاق، وتحدد النشاطات الدينية تحت مظلة الإدارة الدينية. ومع أن روسيا فيها الحرية الدينية؛ إلا الشكوك والشبهات التي أثيرت عن المسلمين الملتزمين في هذا الزمان في جميع أنحاء العالم، تتسبب في إثارة الشكوك عن أي نشاط ديني يحدث بدون موافقة الإدارة الدينية. كما أن الأشخاص الذين لا ينتمون إلى الإدارة الدينية ويقومون بأي نشاط ديني، يتعرضون لتحقيق شديد. ويؤول الأمر بعض الأحيان إلى الزج بهم السجن.

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص : 165-166

[2] قد تم إلقاء ضوء على "الإدارة الدينية" في روسيا ودول وسط آسيا، خلال استعراض رحلات الشيخ العبودي، في الفصل الأول من هذا الباب. فليراجع. (الباحث)

وكان المفتي عين الدين يرأس الإدارة الدينية على مستوى روسيا. وتم الحصول على التأشيرة للعثماني عن طريقه. ومن أقسام التأشيرة لروسيا، التأشيرة الدينية. وهي تسمح بالقيام بأي نشاط ديني وبينها إلقاء محاضرات وخطب دينية في الناس أيضا. كما أن المفتي العام كتب كتابا خاصا لهم أشار فيه إلى أنهم ضيوف الإدارة الدينية. وهذا ما سهل عليهم أمرهم. ورغم أن المفتي لم يكن موجودا في موسكو، استقبلهم مسؤولو الإدارة الدينية بحفاوة. وذكر العثماني أن عددا كبيرا من المسلمين استشهدوا زمن النظام الشيوعي على أبواب مسجد (براسبكت ميرا) في مقاومة محاولات النظام الشيوعي لإغلاقه.بعد صلاة المغرب، ألقى العثماني خطبة أمام الناس في مسجد "براسبكت ميرا" بالعربية وترجمها إلى الروسية شيخ من سيبيريا درس في جامعة الزيتونة في تونس.[1]

من موسكو إلى محاج قلعة:

في 3 نوفمبر 2006، انطلق العثماني إلى داغستان على متن رحلة للخطوط السيبيرية. ووصل بعد ساعتين ونصف الساعة إلى محاج قلعة (مخاج قلعة) عاصمة داغستان. وأشار إلى جغرافية داغستان كاتبا أنها منطقة شاسعة تقع في جنوب موسكو بين بحيرة قزوين وسلسلة جبال القفقاز. وأن معظم هذه المنطقة فتحت في عهد الصحابة رضي الله عنهم. وظلت تحت إمارات إسلامية مختلفة لأكثر من ألف عام. وقد حكمتها الخلافة العثمانية والصفويون والقاجاريون أيضا لفترة.

وبعد ذلك استمرت غزوات القياصرة الروس لهذه البلاد. وفي القرن الثالث عشر الهجري، تمكن الشيخ شامل الداغستاني الذي كان عالما جليلا وشيخا للسلسلة النقشبندية بإنشاء حكومة له في هذه المنطقة بعد جهاد دام طويلا. وقام بتطبيق الشريعة والعدل في عهده؛ إلا أن الروس لم يزالوا يلاحقونه. وفي نهاية المطاف حاصرته القوات الروسية وعددها أكثر من عشرين ألف جندي، بينما لم يكن معه سوى نحو ثلاثمائة شخص من رفاقه. فطلب منه الروس إلقاء السلاح على أن لا يوذوا أحدا. فألقى الإمام شامل السلاح عام 1276هـ (1860م).

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص : 166-168

واستقبله القيصر باحترام. وبعد أن قضى فترة في موسكو، طلب منه الإذن ليقوم بحج بيت الله الحرام. فوافق على ذلك. فغادر الشيخ شامل إلى إستانبول، حيث لقي حفاوة وترحيبا من السلطان عبد العزيز([1]). ثم انطلق إلى الحجاز. واستقر به المقام في المدينة المنورة. فتوفي هناك وووري الثوى في البقيع.[2]

داغستان بعد الثورة الشيوعية:

استولى الروس على داغستان بعد استسلام الإمام شامل؛ لكن نهض الشيخ نجم الدين أفندي ضد الثورة الشيوعية. واستمر في كفاحه، وقدم تضحيات هائلة؛ لأنه يرى أن وضع المسلمين تحت النظام الشيوعي سيكون أسوأ منه تحت نظام القياصرة. وتمكن من منع الشيوعيين من الدخول إلى داغستان لفترة؛ إلا أن الشيوعيين طلبوا من العلماء الآخرين إقناعه بإنهاء حركته على أن تبقى لهم نفس الحرية التي كانوا يحظون بها إبان الحكم القيصري؛ لكنه لم يقتنع بوعود الشيوعيين وقال إنه يعرفهم جيدا. وفي نهاية المطاف وقع أسيرا بيد الشيوعيين، ولا يعلم مصيره أحد غير الله. [3]

وأشار العثماني إلى أن داغستان كان مركزا للعلماء. وأن علماء هذه البلاد قد حافظوا على العلوم الدينية بتقديم تضحيات كبيرة، مضيفا أن تعليم الدين خلال الحكم الشيوعي كان مدعاة لأشد العقوبات؛ لكن العلماء واصلوا تعليم الدين في سراديب بيوتهم. وبالتالي فإن أكثر من 90% من سكان هذه البلاد مسلمون وهناك عدد كبير من العلماء الذين درسوا في تلك السراديب.[4]

استقبال في محاج قلعة وشهادة على ظلم الشيوعيين:

استقبل الشيخ العثماني في محاج قلعة عدد من العلماء والمسلمين بقيادة الشيخ يحيى. وهو كان على معرفة بالشيخ العثماني غيابيا، حيث قرأ له فتاوى ومقالات

---

[1] عبد العزيز (1830-1876م): سلطان عثماني – تولى العرش 1861م-، تابع "تنظيمات" أخيه عبد المجيد. على أيامه انسلخت رومانيا والصرب والبلغار ومصر عن الإمبراطورية. اعتزل وأغتيل. انظر: المنجد في الأعلام، ص:366

[2] انظر، سفر در سفر، ص : 168-169

[3] انظر، نفس المصدر، ص : 169-170

[4] انظر، نفس المصدر، ص: 170

عديدة. وعلى طلبه ألقى العثماني كلمة أمام الحضور في مسجد المطار، وردّ على أسئلة المستمعين. وكان الشيخ يحيى هو من رتب برنامج الزيارة لداغستان.

انطلق الموكب قبل المغرب إلى مدينة (حسيوت) على بعد مائة كلم من محاج قلعة. وقد ذكر الشيخ يحيى الكثير عن تاريخ داغستان، وعن علمائها وعن التقاليد والأمور الأخرى. وذكر أن جده – والد أمه– كان عالما كبيرا. وكان جمع الكتب الإسلامية في بيته، وأخفاها في سرداب بيته؛ إلا أنه أراد بعد فترة أن ينفض عنها الغبار؛ لئلا تصبح غذاء للأرضة. وعند ذلك أخبر جاسوس – وكان مسلما في الظاهر– الشرطة الروسية بذلك. فجاءت الشرطة وحاصرت البيت. وداهمت المكتبة. فمزقت الكتب كلها وداست عليها، ثم أضرمت فيها النار. واعتقلت جده. وحاولت والدته التي كانت طفلة، وجدّته التي كانت شابة في ذاك الزمان، منع اعتقاله، وظلتا تذرفان الدموع، لكن بدون أي جدوى. ولم يمكن لهما رؤية جدي بعد ذلك أبدا. ولا يعرف أحد مصيره.

وعلق العثماني بعد ذكر هذه القصة أن "العهد الشيوعي مليء بمثل هذه الوقائع، والظلم الذي وقع خلال تلك الفترة، أرى أنه لن يمكن تدوين تاريخ صحيح له أبدا".[1]

ونقل العثماني عن مضيفه أن أتباع جميع الأديان يحظون بحرية في ظل الحكومة الحالية. والدستور الجديد للبلاد ينص على حرية المعتقد والعمل به والترويج له لأتباع جميع الأديان، مضيفا أنه على الرغم من أن داغستان كانت مركزا للعلم والعلماء، لم تكن فيها سوى أربع وعشرين مسجدا في عهد الحكم الشيوعي، وهي أيضا لم تكن عامرة، والآن قد تجاوز عدد المساجد في داغستان ألفين وخمسمائة مسجد. ولا تزال داغستان معقلا للعلماء وبها ثلاثمائة من كبار العلماء. منهم من درس في السراديب إبان العهد الشيوعي، ومنهم من درس في الشام ومصر والمملكة العربية

[1] انظر، سفر در سفر، ص :170–172 وترجمة النص للباحث.

السعودية بعد سقوط النظام الشيوعي. ويعتبر الشيخ محمد رمضان سماخي أكبر العلماء وأكبر شيخ للطريق النقشبندية في هذه المنطقة. [1]

وزار العثماني "جامعة الإمام أبي الحسن الأشعري" في حسيوت. وذكر أنه أكبر المدارس الإسلامية في داغستان وبها أكثر من ثلاثمائة طالب، ولها فروع في مختلف أنحاء داغستان، ومحادثته مع أساتذتها وطلابها أشارت إلى أن التعليم فيها أيضا جيد.

زيارة "در بند" وسد ذي القرنين:

أبدى العثماني رغبة في زيارة مدينة دربند أو باب الأبواب، التي فتحها الصحابة رضي الله عنهم، وبها قبور أربعين صحابيا. فقام الشيخ يحيى بتحضير للسفر إلى (در بند) بكل رغبة وسرور. وانضم إلى الزوار عدد من العلماء المحليين أيضا. فخرج العثماني في موكب كبير من حسيوت، متوجها إلى دربند، راكبا سيارة فخمة لأحد النواب في مجلس داغستان والنائب بنفسه يسوق السيارة. وفي الطريق مروا بمخافر عديدة للشرطة؛ لأن المنطقة قريبة من حدود الشيشان التي تشهد حركة للتحرير. ووصل الموكب إلى دربند بعد أداء صلاة الظهر في مسجد صغير قديم. وكتب العثماني انطباعه الناشئ من زيارة قلعة دربند بأسلوب أدبي شيق كالتالي:

"ہم یہاں ظہر کے وقت پہنچے اور نماز اسی مسجد میں ادا کی اور اس کے بعد دربند شہر کی طرف روانہ ہوئے جو ایک پہاڑ کے دامن میں واقع ہے اور پہاڑ کے اوپر دربند کا مشہور تاریخی قلعہ ہے جو صدیاں گزر جانے کے باوجود اب بھی شان و شکوہ کی تصویر ہے۔ قلعے کے برج سے گرد و پیش کا دلآویز منظر ناقابل فراموش تھا۔ پہاڑ کے دامن میں دور تک پھیلا ہوا دربند شہر، اس کے پیچھے افق تک بحیرہء خزر کا نیلگوں پانی اور قلعے کے دائیں بائیں سرسبز پہاڑ اور وادیاں! دیر تک ہمارے رفقاء اس منظر سے لطف اندوز ہوتے رہے۔"[2]

"وصلنا إلى هنا ظهرا. وصلينا الصلاة في نفس المسجد. ثم انتقلنا إلى مدينة دربند التي تقع عند سفح جبل وعلى قمة الجبل قلعة دربند التاريخية الشهيرة التي لا تزال مهيبة رغم مرور القرون. وهي لوحة لعظمتها السابقة. والمنظر الخلاب من برج الحصن، مشهد لا يُنسى. المدينة عند سفح الجبل ممتدة إلى مسافة بعيدة، ووراءها المياه الزرقاء لبحر

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص : 172-173

[2] سفر در سفر، ص: 174

قزوين حتى الأفق خلفها، والجبال والوديان الخضراء على يمين الحصن ويساره! لفترة طويلة استمر رفاقنا في الاستمتاع بهذا المشهد".([1])

تحقيق في سد ذي القرنين :

وذكر العثماني أن من أحد أسباب زيارته مدينة دربند، هو أن بعض العلماء المعاصرين قد أشاروا إلى أن سد ذي القرنين الذي ذكره القرآن الكريم، لمنع فساد يأجوج و مأجوج، هو في دربند، وأنهم يقولون إن بعض أجزائه لا تزال في دربند قائمة. وقال إنه عندما سأل العلماء وهم وقوف على برج قلعة دربند، عن آثار السد، فأشاروا إلى سور مكسور تحت القلعة؛ لكن لا يوجد فيه أي قرينة تدل على أنه سد ذي القرنين؛ لأن هذا السور يبدأ من سفح الجبل ويمتد إلى البحر مارا بمنطقة سهلة من دربند. ولا يقع بين الجبال، بينما يوضح القرآن الكريم أن ذلك السد كان بين جبلين لإغلاق معبر بينهما. ويقع البرج الذي وقفوا عليه، في جانب من القلعة، وهناك جبلان على مسافة، وبينهما معبر أيضا؛ إلا أنه لا يوجد لأي سور أثر فيه.

والأمر الثاني أن هذه الجبال ليست مرتفعة إلى درجة يعجز مخلوق مثل يأجوج ومأجوج([2]) عن عبورها. وبالتالي يستبعد منع يأجوج ومأجوج من عبور هذه الجبال، ولو تم إنشاء جدار بينهما.

والأمر الثالث أن السور الذي يمتد في سهل مدينة دربند، فالتاريخ يشير إلى أن الملك نوشيروان بناه لمنع هجمات الغزاة من الجانب الآخر. وكتب أنه بعد الوصول إلى هنا، يبدو من شبه المؤكد، أنه لا يصح إطلاق وصف سد ذي القرنين على هذا السور، بأي طريق.[3]

---

1 ترجمة النص للباحث.

2 يأجوج ومأجوج: اسمان أعجميان بدليل منع الصرف، وقرئا: مهموزتين، وقرأ رؤبة:أجوج وماجوج. وهما من ولد يافث. وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم. راجع:الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، بيروت، دار المعرفة، الطبعة الثالثة، 1430هـ/2009م ص:629

3 انظر، سفر در سفر، ص : 174-175

مقبرة الصحابة في دربند:

ذكر العثماني أنه زار مقبرة كبيرة في دربند. وبداخلها مقبرة صغيرة يحيطها سور. وبها أربعون قبرا. ويقال إنها قبور الصحابة الذين استشهدوا خلال فتح دربند. ثم أشار إلى تاريخ الفتح الإسلامي لهذه البلاد. وكتب أنه شهد في المقبرة الكبيرة "تجددا" لم يره في أي مكان آخر، وهو أنه تم نقش صور المتوفين على شهود قبورهم. وقيل له إن الناس يصرفون مئات الآلاف لإنشاء مثل هذه الشهود. واستنكر ذلك العثماني، وأعرب عن أسفه على ذلك.[1]

ليلة في جبال القفقاز :

كتب العثماني أنهم انطلقوا إلى بلدة (بك دل) على مسافة نحو مائة كلومتر من دربند. وهي بلدة تقع فوق قمة من قمم جبال القفقاز التي تقوم شامخة على الجانب الغربي من داغستان. وأشار إلى جمال هذه المنطقة الطبيعي والبشري، وقال إنه جمال فائق. ولم ينس ذكر القصص الخرافية التي تحكى في شبه القارة الهندية عن جبال القفقاز، ويتم تصويرها كأنها بلاد الجن والمخلوقات الأساطيرية؛ إلا أنه أيضا لم يعرف سبب عزو تلك القصص الخيالية إلى جبال القفقاز.

ذكر العثماني أن المنظر كان جميلا جدا عندما وصلوا إلى (بك دل) على قمة الجبل، حيث كان البدر ينير الوادي والجبال بنوره الفضي. وقد شارف الوقت على صلاة العشاء. فصلوا العشاء في مسجد جميل هناك. وقد احتشد الناس هناك من قبل وبينهم عدد كبير من العلماء. وعلى الرغم من أن المضيفين، أجّلوا خطابه أمام الناس إلى الغد بسبب التعب الذي أصابه من السفر الطويل؛ لكن المصلين لم يبرحوا في مكانهم. فألقى كلمة فيهم. وأشار إلى أن العلماء ذكروا أن (بك دل) مركز للعلم والعلماء منذ القدم. وقد أحضر بعض العلماء معهم كتبا دينية حافظ عليها سلفهم رغم اضطهاد النظام الشيوعي.[2]

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص :176-177

[2] انظر، نفس المصدر، ص : 177-179

أمر مؤسف ناشئ عن قلة الحنكة:

وأشار العثماني إلى أنه عرف أن بعض الشباب من مختلف أنحاء روسيا، درسوا في المملكة العربية السعودية، فعادوا إلى بلادهم قبل إنجاز الدراسة أو بعد إنجازها، ك "سلفيين متحمسين جدا". وبما أن معظم أهالي داغستان من الشافعية وبها سلاسل الطرق الصوفية أيضا منذ زمن بعيد، كما يوجد نوع من التوسع حول البدعات في المذهب الشافعي، لم يحبذ أولئك الشباب هذه الأمور. فتبنوا أسلوبا متشددا، وأخذوا في معارضة اتباع الإمام الشافعي، وذهب البعض أبعد من ذلك حيث شرعوا في اتهام العلماء القدامى بالشرك أيضا. وهذا ما يثير بلبلة في صفوف المسلمين هنا.

وكتب العثماني أن حديثه دار حول تكييف سلوك المسلمين في الوضع الناشئ من تحررهم من استبداد النظام الشيوعي. وشدد على أن للعلماء القدامى منة؛ لأنهم حافظوا على الشعائر الإسلامية، وخاطروا بأنفسهم للحفاظ على الدين في تلك الأوضاع الحالكة، فعلى الشباب أن يدركوا قدرهم. كما أنه أشار إلى أن الخلافات الفرعية كانت موجودة في المجتمعات الإسلامية، وستبقى قائمة؛ لكن التكفير والتفسيق بناء على تلك الخلافات، لا تنصب إلا في مصلحة أعداء الإسلام فقط. وأكد على أن المحاولات التي جرت إبان الحكم الشيوعي، قد أدت إلى تجهيل المسلمين حتى المبادئ الأساسية من الدين أيضا. وهذا ما يفرض إطلاعهم على المبادئ الأساسية، ولا حاجة في هذه البيئة إلى إثارة مسائل مثل التقليد وعدم التقليد والاستواء على العرش وغيرها، داعيا إياهم إلى حل الخلافات والمشاكل بينهم بالتفاهم.

ومن الغريب، أن العثماني ذكر أن عددا من العلماء اجتمعوا لديه اليوم التالي. وطرح بعضهم أسئلة كثيرة عليه. ويشير العثماني إلى أنه خيل إليه كأنهم يريدون بتلك الأسئلة معرفة عقيدته ومسلكه، وأن لا يكون سببا في نشر أي ضلالة بينهم، مبررا بأن هذا الأمر كان طبيعيا في ضوء الأوضاع التي يعيشونها؛ إلا أنهم سُروا أيما سرور وفرحوا أيما فرح، عندما اطمأنوا إلى أجوبته.

وكتب العثماني أن السلوك المتشدد لبعض الشباب قد أثار مشاكل لجماعة التبليغ أيضا، رغم أنه يرى أن عملها مفيد جدا لعامة المسلمين. وذكر أنه سعى لإزالة

بعض الأخطاء في هذا الصدد، وذكر الأصول الأساسية لجماعة التبليغ، موضحا أنه لا مكان للتشدد في تلك الأصول. كما أنه لفت انتباه العلماء إلى التزام قراءة بعض الأدعية والسور قبل الصلاة وبعدها. وأوضح لهم أن هذه الأمور فيها ثواب، وهي جيدة؛ لكن الالتزام الشديد بها يوحي وكأنها جزء من الصلاة. ودعاهم إلى التفكير في مراجعة هذا الأمر. فرحب العلماء بهذه الفكرة واقتنعوا بما قال.[1]

في "كيس بسك" قبيل مغادرة داغستان:

من "بك دل" توجه موكب العثماني إلى بلدة (كيس بسك) التي تقع قرب مطار مخاج قلعة. وكان في انتظاره جمع غفير من علماء المنطقة في الجامع المركزي الجميل لكيس بسك. فجلس معهم العثماني لنحو ساعتين يجيب على أسئلتهم. وانتهى المجلس بغداء في مبنى قرب المسجد. وأُخبر أن ذلك المبنى كان مقرا لشيخ زمن الشيوعيين وكان يدرس فيه الناس خفية.

وصف العثماني مدينة كيس بسك بأسلوب أدبي رائع، مشيرا إلى أن تلك البلدة تقع على ضفة بحر قزوين، ثم ذكر أسماء هذا البحر بأنه يُعرف باسم بحر خزر أيضا، ولعل التسمية الحديثة وهي (كاسبيان) قد تكون متغيرة من (قزوين). وذكر أن هذا أكبر بحر محاط بالبر في العالم، إذ لا يتصل بأي بحر، وأن مساحته تبلغ 300 ألف كلو متر مربع، بينما يبلغ طوله 1200 كلم، ومتوسط عرضه 320كلم. ويعتبر 80% منه لروسيا والنسبة المتبقية تعود لإيران. وأن مدينة قزوين الإيرانية تقع عليه.

أشار العثماني إلى أن هناك حديقة للتنزه على ضفة بحر قزوين جميلة جدا؛ إلا أنهم لم يتمكنوا من الاستمتاع بمناظرها الخلابة بسبب الرياح الثلجية والسماء المتغيمة وترشح من المطر. وودعه جمع كبير من العلماء من مطار محاج قلعة. ولم ينفكوا يطرحون عليه الأسئلة إلى حين ركوب الطائرة. [2]

---

[1] انظر، سفر در سفر، 180-182

[2] انظر، نفس المصدر، ص : 182-184

إلى تتارستان:

كتب العثماني أنه كان من المقرر أن يغادروا إلى تتارستان بعد داغستان؛ لكن لم توجد أي رحلة بين مخاج قلعة وقازان. فعادوا إلى موسكو، ليركبوا منها قطارا إلى تتارستان. وصلوا إلى موسكو خلال ساعتين ونصف الساعة. ومن المطار مباشرة توجهوا إلى محطة للقطارات وركبوا قطارا طويلا متوجها إلى قازان، عاصمة تتارستان. وقد غطى الثلج موسكو، ودرجة الحرارة هبطت إلى الثلاثة تحت الصفر. وذكر العثماني أن القطار مرت بغابات بعد خروجه من موسكو، وهي أيضا مكسوة بالثلج، والمنظر يزداد بهجة بسبب أنوار البدر في ليلة شاتية مثلجة صاحية.

وكان يرافقهم من موسكو الشيخ ذاكر أحد سكان سيبيريا. وقد درس في تونس. وذكر العثماني أن سيبيريا منطقة شاسعة في شمال روسيا، وهي تمتد من أوروبا إلى اليابان وبها عدة أقاليم. وهناك عدد كبير من المسلمين في تلك الأقاليم؛ إلا أن الشيخ ذاكر ذكر أنه لا يوجد أي عالم في تلك البلاد الشاسعة. وأشار العثماني إلى أن تتارستان إقليم كبير من أقاليم روسيا. ولا علاقة لسكانها مع سلالة جنكيز خان أو هولاكو خان المعروف بالتتر؛ لأنهم في الأصل من البلغار. وأضاف أن منطقتهم أيضا لم تنج من غزو التتر. وبعدها استمرت حروب بينهم وبين الروس. فبدأ الروس يسمونهم "التتر" – بمعنى الوحشي- فكانوا لا يحبذون هذه التسمية في البداية؛ لكن مع مرور الوقت استقرت تلك التسمية، وهم يسمون أنفسهم الآن تتارا وبلادهم تتارستان. وعاصمتها قازان ثالث أكبر مدن روسيا بعد موسكو وسانت بيترسبرغ.[1]

لقاء مع مفتي تتارستان:

وصل العثماني إلى قازان في الصباح الباكر. وكان له لقاء مقرر مع مفتي تتارستان الشيخ عثمان في مكتبه الذي يقع في محيط مسجد المرجاني في منطقة أثرية من قازان. وتعود نسبة المسجد إلى الشيخ الفقيه العلامة شهاب الدين هارون المرجاني، أحد كبار العلماء في القرن الثالث عشر الهجري. وله عدة كتب في الفقه، كما أشار إليها العثماني. وذكر أنه استفاد من كتبه خلال تأليف "تكملة فتح الملهم".

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص : 184-186

وذكر أن المفتي الشيخ عثمان يتحدث العربية بطلاقة، ويتميز بخفة الروح. وذكر له أن المسلمين في تتارستان بدأوا يعودون إلى الدين بسرعة بعد سقوط النظام الشيوعي، مشيرا إلى أنه لم يكن أكثر من ثلاثة عشر مسجدا في تتارستان كلها، إبان النظام الشيوعي، وهي أيضا خربة؛ لكن الحمد الله، قد تجاوز عدد المساجد الآن ألف وثلاثمائة مسجد في تتارستان، ولا يمضي أسبوع بدون افتتاح مسجد جديد. كما أنه أنشأ مدرسة لتعليم العلوم الدينية في محيط مسجد المرجاني.[1]

في الجامعة الإسلامية، قازان:

كانت زيارة الجامعة الإسلامية بقازان، وإلقاء كلمة هناك، إحدى فقرات برنامج العثماني خلال يومه الأول في قازان. وهي جامعة إسلامية رسمية. وذكر العثماني أنه زار شعبا مختلفة من الجامعة. وألقى كلمة في القاعة المركزية للجامعة. وكتب أنه أشار في خطابه إلى هوية الدين وما هو مقتضاه ومتطلباته، مضيفا أن العلوم الإسلامية في الجامعات الرسمية، تصبح علوما فلسفية مثل العلوم الأخرى، بينما يتطلب الدين منا العمل بما نتعلم، ومن المطلوب أن تنعكس العلوم الدينية في حياتنا العملية. كما أشار إلى أن الجامعة كانت تحت إدارة المفتي عثمان أولا؛ لكن تم تحويلها إلى رئيس آخر، واختصاصه في علوم أخرى غير العلوم الإسلامية. وتسببت الخلافات حول كيفية الإدارة في استقالة اثني عشر أستاذا للجامعة، ما دفعها إلى أزمة. وكتب العثماني أنه أشار على رئيس الجامعة أن يتفاهم مع الأساتذة في مصلحة الجامعة.[2]

توضح هذه الفقرة حنكة العثماني في التعامل مع القضايا الشائكة. ورغم أننا لا نعرف هل كان أساتذة الجامعة أيضا موجودين عندما نصح رئيس الجامعة بإصلاح الأمور بالتفاوض، لكن ما نعرف هو أنه أوصاه بحل تلك المشكلة بالحوار البناء؛ لأن الخلافات بين الكوادر التعليمية في أي مؤسسة تعليمية، تعتبر سما قاتلا لها؛ لأنها أكثر احتياجا إلى الكوادر التعليمية منها إلى الكوادر الإدارية، في أداء وظيفتها.

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص : 187-188

[2] انظر، نفس المصدر، ص : 188-189

جولة في قازان وتشاور في "قل شريف" وجلسة في"بلوناني":

وصف العثماني مدينة قازان وصفا جميلا، حيث أشار إلى أنها مدينة جميلة، مرتبة، ذات أناقة، والجمال الطبيعي يزيدها بهاء؛ لأنها تقع على ضفاف نهر فولغا المشهور. وهي تتميز بغاباتها وبحيراتها في مختلف أنحائها. كما أنها مدينة صناعية توجد بها جميع الصناعات اعتبارا من صناعة صنع الورق والصابون نهاية إلى مصانع لتكرير النفط. والأهم من ذلك أنه تؤوي جامعة هي من أشهر الجامعات على مستوى روسيا. وبها درس بعض كبار الروس من أمثال تولستائي ولينين أيضا؛ إلا أن لينين طرد منها بسبب إثارة شغب بين الطلاب.

وفوق تلة في هذه المدينة الجميلة، تقع قلعة قديمة، كانت حارستها حتى عام 1552م عندما استولى الروس عليها بعد حملات دامت لفترة طويلة. وفي هذه القلعة يقع مسجد "قل شريف"، وهو مسجد متميز بين المساجد في العالم كلها، بسبب تصميمه الفريد وأناقته وحسن بنائه، كما ذكر العثماني. وأضاف أن "قل شريف" كان اسم لقائد مسلم، دافع عن مدينة قازان لفترة طويلة. وكان في هذا الموقع مسجد قديم باسمه. وقام المسلمون بإنشاء هذا المسجد الجديد مكانه، وسموه بنفس اسمه القديم. صلى العثماني في هذا المسجد المغرب. وبعد الصلاة حضر جلسة تشاورية مع عدد من العلماء في مكتب إمام المسجد، حول كيفية القيام بالعمل الديني في هذه البلاد. وأعجبه منظر المدينة من نوافذ كبيرة من مكتب الإمام.

وخطب العثماني أمام الجماهير في جامع "بلوناني" بعد صلاة العشاء. وهذا الجامع مركز جماعة التبليغ في قازان. وذكر العثماني أنه دعا الجماهير إلى الانخراط في نشاطات جماعة التبليغ. فطرح عليه البعض أسئلة حول الجماعة. وأضاف أنهم اطمأنوا بعد الاستماع إلى رده. [1]

نزهة في قازان وجلسة حول النظام المالي الربوي:

ذكر العثماني أنه من عادته النزهة الصباحية؛ إلا أنه حرم من ذلك خلال مكوثه في داغستان وسفره إلى تتارستان. ووجد فرصة لها صباح اليوم الثاني في قازان.

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص : 189-191

فكتب أن نُزُلهم كان في منطقة منعشة. وكانت غابة ذات أشجار عالية وراء الطريق أمامه. وفيه طرق منظمة للمشاة. فتمشوا فيها بعد الفجر ودرجة الحرارة تحت الصفر، والغابة مغطاة بالثلج الذي هطل ليلا.

بعد ذلك وصلوا إلى مسجد المرجاني، من أجل لقاء تشاوري مع تجار وخبراء، حول التمويل غير الربوي. وذكر العثماني أنه بحث معهم التفاصيل، والطرق الممكنة للتمويل غير الربوي في النظام المالي الروسي الربوي. وقدم ردودا على أسئلة جهزها الخبراء من قبل. وفي نهاية المطاف تم الاتفاق على طريق لذلك، وأبدى الخبراء رغبتهم في اتباع ذلك الطريق.

إثر هذه الجلسة المفيدة، أقام مفتي تتارستان حفل غداء على شرفه في مطعم حلال خلف مسجد المرجاني. وكتب العثماني أن المائدة كانت عامرة بأطعمة تتارستان المتنوعة، مضيفا أنه تم تعريف طرق عجيبة وغريبة لتجهيز لحم الخروف، وكانت لذيذة إلى درجة لا تنسى. كما أن جلسة الطعام أيضا لم تخل من الأسئلة حول التمويل غير الربوي.

وأشار العثماني إلى أنه كان ألغى زيارته إلى مدينة أخرى تقع على مسافة مائة كلم من قازان، من أجل الجلسة التشاورية حول التمويل غير الربوي؛ لكن عندما حضر إلى مقر إقامته، جاء شخص من تلك المدينة للقائه، وقطع المسافة في خمس ساعات بسبب الثلوج. فكتب العثماني أنه كان من حقه أن يفرغ له وقتا. فعاد ذلك الشخص مطمئنا بعد تلقي الرد على أسئلة كانت عنده؛ إلا أن العثماني أشار إلى أنه بدأ يفكر في أنه سيصل إلى بيته بعد خمس ساعات بل أكثر.

ومن الغريب أن العثماني ذكر أنه وجد وقتا في مقر إقامته، فاستغله في ترجمة معاني القرآن الكريم. ووصل مع رفاقه إلى محطة للقطار ليركب نفس "تتارستان أيكسبريس" الذي جاء به إلى قازان، للعودة إلى موسكو. وانتهت زيارته إلى تتارستان.[1]

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص : 191-192

جولة في موسكو ومعنى "الكريملين":

مضى الليل في السفر من قازان إلى موسكو بالقطار. وفي الصباح وصل الشيخ العثماني مع رفاقه إلى موسكو، حيث استقبله تاجر باكستاني يسكن في موسكو. وكان من المقرر لقاء مع مفتي روسيا الشيخ عين الدين، بعد الظهر. فقرروا استغلال الوقت في جولة في مدينة موسكو. وكتب العثماني أن موسكو مدينة كبيرة. ورغم أن عدد سكانها أكثر من 15 مليون نسمة، إلا أنها تبدو واسعة هادئة؛ لأن طرقها واسعة جدا، حتى فيها طرق ذات اثني عشر مسارا أيضا.

وأشار العثماني إلى أن التقشف كان يسود موسكو زمن الشيوعية؛ لكنها قد تغيرت كثيرا الآن، حيث أنها تعلمت جميع عادات الدول الرأسمالية، وأن جميع الماركات العالمية قد وصلت إلى موسكو. وأشهر مكان في موسكو هو "الكريملين". وأوضح العثماني أن الكريملين ليست مدينة، بل هو مصطلح روسي يعني المنطقة القديمة من أي مدينة تقع داخل قلعة. وهناك الكثير من "الكريملينات" في روسيا؛ إلا أن كريملين موسكو أشهرها؛ لأنها كريملين العاصمة. وهنا أيضا قلعة قديمة حمراء كانت مسكن القياصرة. ويقع قربها ميدان واسع، يسمونه "الميدان الأحمر". وفي هذا الميدان كان ستالين ولينين يلقيان الخطب أمام مئات الآلاف من الجماهير.

وهناك مبان أخرى هامة وعظيمة حول هذا الميدان. وقد حفظوا على جثة لينين في أحدها بعد تحنيطها. وكان هذا المكان يحظى باحترام شديد خلال الحكم الشيوعي؛ لكن مع سقوط النظام الشيوعي، تغيرت الأوضاع. وهناك إشاعات أن الحكومة الحالية ترغب في تحويل جثة لينين إلى متحف بقيمة. وعلق العثماني على هذا قائلا: إن الشخص الذي حكم الملايين بنير القوة، هذا حاله بعد وفاته. وكانوا يسمون هذه المدينة "لينين غراد"؛ إلا أن المحكومين قد تخلصوا من ذلك الاسم أيضا، مضيفا "أن الحياة بعد المماة، التي كان يعتبرها أسطورة، من يقدر على معرفتها سوى الله؟"

وخلف مبنى لينين وفي ظل سور القلعة، تقع مقابر القيادات الشيوعية من ستالين وآخرين، بينما تم تحويل جزء من القلعة إلى متحف. وأمام الميدان الأحمر حوانيت مزدانة، والمنطقة كلها مكتظة بالسياح.[1]

صلاة في المسجد القديم ولقاء مع المفتي عين الدين:

كتب العثماني أنهم ذهبوا إلى المسجد التاريخي أو "القديم" عن طريق مترو. وذكر أن لموسكو نظاما ممتازا للقطارات تحت الأرض. والمحطات في طوابق، ونظام النظافة والترتيبات الأخرى أيضا أفضل من المدن الأخرى. وأضاف أن المسجد "القديم" أنشئ عام 1782م، وتم تجديده عام 1823م. ونقل عن أحد رفاقه أنهم جاؤوا إلى هنا مع جماعة التبليغ لكن لم يُسمح لهم بدخول المسجد، فقضوا خمسا وعشرين يوما في البرد الشديد في حاوية أمام المسجد. وعلق العثماني على ذلك قائلا إن تلك التضحيات أعطت ثمارها وقد فتحت الطريق أمام الدعوة.[2]

بعد الظهر، وصلوا إلى أمانة الإدارة الدينية التي تقع في محيط مسجد "براسبكت ميرا"، -حيث كان ألقى الشيخ العثماني خطبة بعد وصوله إلى موسكو، فلقوا استقبالا حارا من مفتي روسيا رئيس الإدارة الدينية الشيخ عين الدين. والمفتي يشرف على جميع النشاطات الدينية في طول البلاد وعرضها. وذكر المفتي عين الدين أنه لم تكن سوى مائة مسجد مفتوح في هذه البلاد الشاسعة إبان الحكم الشيوعي؛ لكن الأمور قد تغيرت بعد عام 1991م في عهد النظام الديموقراطي، والآن هناك أكثر من ستة آلاف مسجد. وأن المسلمين يسكنون موسكو منذ ألف عام، وعددهم قد تجاوز المليون نسمة. وبالتالي لا تفي المساجد الخمسة الموجودة في موسكو بحاجتهم، وأن المشاريع تستمر لتوسيع المساجد القديمة وإنشاء مساجد جديدة. كما أن الإدارة الدينية تسعى لإنشاء نظام لتعليم الأطفال في المساجد تحت رعاية الإدارة الدينية التي قد تمكنت من إنشاء علاقات مع عدد من الدول الإسلامية. وأن المملكة العربية السعودية والكويت ودولا أخرى تساعد في الوفاء بحاجات المسلمين.

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص : 193-195

[2] انظر، سفر در سفر، ص: 195

ومن جهته عرض العثماني عليه التعاون، مشيرا إلى أنه يمكن لهم إرسال الدعاة، والكتب لخدمة المسلمين في روسيا. كما يمكن للطلاب من روسيا أن يدرسوا عندهم بالطريقة القانونية؛ لكن هذا الأمر يتطلب تعاونا قويا من جانب الإدارة الدينية لتسهيل أمور التأشيرة لهم. فأكد المفتي تقديم كل الدعم الممكن في هذا الصدد.[1]

آخر يوم في روسيا:

خلال اليوم الأخير من زيارته الأولى إلى روسيا، قام العثماني بزيارة للسفارة الباكستانية في موسكو، وتحدث مع المسؤولين حول التأشيرات للطلاب الروس الراغبين في التعلم في باكستان، وإيصال الكتب الدينية إلى روسيا. كما أنه زار الحديقة التذكارية التي أقيمت تذكارا للحرب العالمية الثانية في الموقع الذي تمكنت فيه القوات الروسية من صد القوات الألمانية. وقد وضعوا فيها دبابات وقنابل، في حين قامت الحكومة الجديدة بعد سقوط الشيوعية، بإنشاء كنيسة للمسيحيين ومعبد لليهود ومسجد جميل للمسلمين في الحديقة، للتدليل على علمانيتها.

انطباعات العثماني عن رحلته لروسيا:

أردف العثماني رحلته إلى روسيا، انطباعات لخص فيها تجاربه خلال تلك الرحلة التي دامت تسعة أيام. وأشار إلى أنه على الرغم من أنها كانت أول رحلة له إلى روسيا، وكانت مفعمة بالأعمال ومتعبة؛ إلا أنها كانت مفيدة جدا ومثيرة من مختلف النواحي. وقال إنه لو لم يشاهد بأم عينيه، لما كان ليتيقن أن هذا العدد الهائل من المسلمين في روسيا وهم يسعون للحفاظ على هويتهم.

وكتب أنهم عندما كانوا يسمعون عن الاضطهاد الذي كان المسلمون يتعرضون له في الدول الاشتراكية، وتُرفع الأصوات ضده، كانت الأوساط الاشتراكية في باكستان، تصف تلك المعلومات بدعاية أمريكية؛ لكن بعد ما استمع عن تلك الأوضاع من المسلمين في روسيا بنفسه، بدا أن ما سمعوه قبل ذلك، لم يكن حتى غيض من فيض.

ذكر العثماني أن رحلته إلى روسيا حدثت بعد أن طويت صفحة النظام الشيوعي، وقد مضى سبعة عشر عاما على النظام الديموقراطي الجديد أيضا. وبالتالي

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص : 195-196

سنحت له فرصة للقاء والاستماع إلى أناس عاشوا النظام الشيوعي، وشاهدوا النظام الجديد أيضا، وهم أقدر على مقارنة الأوضاع. كما أنه شاهد التغيرات التي حدثت بعد سقوط النظام الشيوعي بنفسه.

أشار العثماني إلى أن روسيا كانت دولة متقشفة زمن النظام الشيوعي رغم تقدمها التقني؛ إلا أن الوضع قد تغير وأن روسيا الحديثة قد تعلمت جميع عادات أوروبا الحسنة والسيئة معا، وأن الشركات والماركات الدولية التي لم يكن لها وجود في النظام الشيوعي، قد رسخت أقدامها جيدا في موسكو الآن.

وكتب العثماني أن النظام الشيوعي كان رد الفعل الشديد على الظلم والاضطهاد الذي كان يتعرض له الفقراء والطبقات الدنيا من المجتمع الروسي في عهد القياصرة. وبالتالي فإنه قضى على جميع أنواع الحريات الشخصية بذريعة إنشاء التساوي، وحول البلاد إلى سجن كبير. وعاش الناس ذلك النظام لسبعين عاما على مضض، لكن عندما حصلوا على متنفس بعد سقوط الشيوعية، تجاوزوا جميع الحدود المعقولة. وقد داسوا على القيم الأخلاقية والدينية بدون أن يلقوا لها بالا.

ويرى العثماني أنه لم يكن في المجتمع الشيوعي سباق اقتصادي بسبب استيلاء الحكومة على الموارد والملكية المحدودة للمواطنين؛ إلا أن الوضع قد تغير الآن وزاد الفساد والارتشاء والإباحية في المجتمع. وهذا يعني كما أن هذه البلاد أصبحت مختبرا للنظام الشيوعي، فهي الآن تشهد النظام الرأسمالي يرسخ أقدامه فيها. وبالنسبة لكبار السن من المواطنين، فإنهم يرغبون في العودة إلى النظام الشيوعي؛ لأنهم كانوا يتلقون معاشا من الحكومة؛ لكن الجيل الجديد لا يحب العودة إلى ذلك النظام؛ لأنه وجد الحرية لإكمال أهوائه.

أما المسلمون، فكتب العثماني عنهم، أنهم سعداء على سبيل العموم، بسبب حرية المعتقد والعبادة التي كانت مرفوضة في النظام الشيوعي. وأنهم وجدوا فرصة لإنشاء المساجد والمدارس، وإنشاء الصلات مع الدول الإسلامية؛ لكن مع ذلك، فإن المسلمين الملتزمين لا يزالون يواجهون مشاكل بسبب حركة التحرير في الشيشان، لأنهم لا يغيبون عن رادارات الأجهزة الأمنية في أي وقت. وأنهم لا يزالون يحتاجون إلى

موافقة المفتين المعتمدين لدى الدولة للقيام بأي نشاط ديني. وأشار إلى أن رحلته كانت تهدف إلى معرفة ما يمكن القيام به في هذا المجال. وكتب العثماني أنه نشأ لديه شعور قوي جدا، بأن العالم الإسلامي في حاجة إلى التركيز على هذه البلاد؛ لأنه لا يعرف عن أوضاعها وحاجاتها.

وذكر أن هذه البلاد تتطلب جهودا في المجال الديني أكثر من الجهود المبذولة في الغرب والولايات المتحدة. وهناك حاجة إلى إنشاء المدارس الإسلامية وطباعة كتب إسلامية باللغة الروسية. وأن أحد العلماء من تتارستان قد قام بترجمة بعض الكتب الإسلامية إلى الروسية لكنها لا تفي بحاجة المسلمين. وفي النهاية كتب أن رحلته تهدف إلى أن الإخوة الذين لا يعرفون أوضاع تلك البلاد، عليهم أن يطلعوا عليها وأن لا يألوا جهدا يقدرون على بذله في مجال خدمة الدين. [1]

وفي نهاية اليوم انطلقوا من السفارة الباكستانية مباشرة إلى المطار. ووصل العثماني إلى كراتشي في اليوم التالي مارا بدبي. وانتهت زيارته لروسيا. [2]

هذا وأرى من المستحسن الإشارة إلى أن الرحلات إلى روسيا باللغة الأردية كثيرة. بعضها وقعت إبان الحكم الشيوعي وبعضها بعد سقوطه. والرحلات التي حصلت أيام الحكم السوفييتي، عادة من بنات أفكار الكتاب الشيوعيين الذين كانوا يزورن الاتحاد السوفييتي كضيوف على الحزب الشيوعي، ثم يسعون لنشر أفكاره، في حين تختلف الرحلات التي حصلت بعد سقوط الاتحاد السوفييتي في أسلوبها والأفكار الواردة فيها. ومن الرحلات الحديثة رحلة لـ "كوكب خواجة" إلى أزبكستان وروسيا.([3])

تحليل أسلوب رحلات العثماني وأهم ما ورد فيها:

لا شك في أن الشيخ محمد تقي العثماني من العلماء الموسوعيين في شبه القارة الهندية؛ لأنه يحظى بموقع مرموق في عدة مجالات. وهو معروف في الأوساط

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص : 198-202

[2] انظر، نفس المصدر، ص ص: 197-198

[3] راجع "بنت بطوطہ کے سفرنامے" (رحلات بنت بطوطة)، إسلام آباد، نیشنل بک فاؤنڈیشن، 2017م

العملية الإسلامية على المستوى الدولي كفقيه ومحدث. ولا تقل شهرته في علم الاقتصاد عن شهرته في علم الفقه والحديث. وبناء عليه تم ضمه إلى مجامع علمية وفقهية على مستوى العالم.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، إنه أديب بارع باللغة الأردية. وله ديوان شعر مطبوع. ورحالة عظيم جال في أرجاء القارات الست. وله رحلات مطبوعة بالأردية. ويتميز بأسلوبه الأدبي السلس والسهل؛ لأنه لا يقحم الكلمات الإنجليزية في كتاباته كما يفعل الكتاب المحدثون؛ لكن مع ذلك فإن لغة كتاباته جميلة رائعة. وفيما يلي نلقي نظرة على ملامح رحلاته التي درسنا خلال هذا البحث:

1. **تاريخ البلاد:** من أهم ملامح رحلات العثماني أنه دأب على ذكر تاريخ البلاد التي يزورها، ولو باختصار. وهذا يهدف إلى ربط ماضي تلك البلاد بحاضرها لتقريبها إلى فهم القارئ. وهذا ما شاهدنا في رحلاته إلى داغستان وتتارستان وتاجكستان واضحا.

2. **الشخصيات البارزة:** لا ينسى العثماني ذكر الشخصيات التاريخية الإسلامية في رحلاته عندما يمر على بلاد أحدهم. وهذا أحد أهم أهداف رحلاته، إذ أشار في مقدمة "سفر در سفر" أن الكتابة عن الشخصيات الإسلامية وتقديم المعلومات المفيدة من أهداف رحلاته، وأنه لا يريد كتابة الرحلات من أجل تدوين أوضاعه الخاصة فقط.

3. **وصف الرفاق:** يقدم العثماني رفاقه في السفر إلى القارئ. ويذكر أسماءهم مع ذكر المهنة التي يمتهنونها أو المنصب الذي يتولونه. وهذا الأمر جزء من جميع رحلاته. وهو إذ يدل من ناحية على الأهمية التي يوليها العثماني لرفاقه، فمن ناحية أخرى يشير إلى الحب الذي يكّن رفاقه للعثماني. كما أن هذا الأمر ذو أهمية لدى جميع الرحالين؛ لأن الرفيق قبل الطريق.

4. **وصف مرافق السفر:** يقدم العثماني عادة صورة للمرافق التي يستفيد منها خلال رحلاته، من الفنادق والمطارات ووسائل النقل المستخدمة خلال الرحلات.

ويعلق عليها أيضا، إذ يذكر جودتها ورداءتها أيضا؛ لكنه لا يتوغل في تقديم هذه المعلومات.

5. **شرح الأسماء والكلمات الغريبة:** من دأب العثماني في رحلاته أنه يشرح الكلمات الغريبة والأسماء بعض الأحيان. وهي عادة تقدم معلومة إضافية، تزيد الرحلة بهاء. وهذا الأمر ملموس في رحلاته؛ إلا أنه لا يتعرض لكل كلمة غريبة. وهذا الأسلوب، يدل على علمه الجم من ناحية، ومن ناحية أخرى يدفع القارئ إلى قراءة متأنية لما يكتبه.

6. **وصف المناظر البهيجة:** من المعروف أن العثماني من كبار العلماء، وأن رحلاته وزياراته عادة تكون في إطار محدد، وترتيب محدود؛ لكن مع ذلك فإنه لا يُفوّت أي فرصة تسنح له لزيارة المناظر البهيجة. وتشير كتاباته إلى أنه يستمتع بتلك المناظر. وينقلها إلى القارئ بقلمه السيال، بأسلوب يجذب القارئ إليها. ويقدم صورة قلمية واضحة لأي منظر يعجبه. وهذا الأمر بائن في رحلته إلى تاجكستان وتتارستان وداغستان، حيث قدم صورا قلمية جميلاة لمناظر خلابة شاهدها.

7. **ذكر الموائد والأطعمة:** لا تخلو رحلات العثماني من ذكر الموائد والأطعمة أيضا. فهو يذكر ما يعجبه منها، إضافة إلى جلسائه على المائدة. وقد أشار إلى ذلك أكثر من مرة في رحلته إلى روسيا وداغستان. كما خص بالشكر أسرة السفير الباكستاني في دوشنبة على تأمين الطعام له وفق الحمية. وأعرب عن إعجابه لأنواع منوعة من طبخات لحم الخروف في قازان.

8. **تعريف بالمباني والمدن:** إن وصف المعالم الهامة التي يشاهدها أي رحالة خلال رحلاته، يعتبر جزء من الرحلة. وهذا الأمر نجده في رحلات العثماني أيضا، إذ يصف المباني التي يزورها أو يشاهدها. ويطول ذكرها إذا كانت من المعالم الإسلامية أو التاريخية. وهذا ما يتضح من رحلته إلى داغستان، حيث وصف قلعة دربند وصفا شاملا. ونالت موسكو أيضا حصة من الوصف.

9. **الانطبعات والمشاعر:** من المعروف أن انطباعات الرحلة عن أي مكان، ذات أهمية كبيرة؛ لأن السياح والرحالة ليس جغرافيا أو مؤرخا؛ لكنه يبدي آراءه في انطباعاته

ومشاعره التي تنبعث في قلبه بعد زيارة أي مكان أو لقاء أي شخصية. ونرى أن رحلات العثماني مفعمة بهذا الأمر. ولا تخلو أي رحلة عن تلك الانطباعات والمشاعر. ويمكن تقديم الانطباعات التي كتبها في نهاية رحلته إلى روسيا كدليل على ذلك.

10. **رفض المنكر**: كما أسلفنا في ترجمة الشيخ محمد تقي العثماني أن اختصاصه هو في علوم الفقه والحديث، والعالم يعرفه كفقيه ومحدث قبل أن يعرفه كرحالة وأديب؛ إلا أننا نرى أن العثماني عندما يتقمص لباس الأديب والرحالة أيضا، فإنه لا ينسى واجبه الأساسي، وهو التذكير بأمور الدين واستنكار المنكرات. وفي هذا المجال هو صريح واضح؛ لكن استنكاره لأي شيء لا يعني تحقير أحد أو صب جام الغضب فقط، بل يقدم النصح بأسلوب حكيم رصين يكون مدعاة للاقتناع؛ لئلا يتسبب في نفور المستمعين.

11. **التعامل المحنك**: نرى في رحلات العثماني تعاملا محنكا مع مختلف الظروف والمواقف. ويبدو أنه يحظى بمرونة كبيرة في طبعه. وهذه المرونة يستغلها في مختلف الأحيان. فهو يوافق على تغيير برنامج سابق بدون أي تذمر، كما يقبل أي إضافة جديدة في برنامجه، إذا كانت لها سعة، بدون أي رفض. والأهم من ذلك أنه يعرف من أين تؤكل الكتف، خلال التعامل مع الظروف والمواقف الطارئة. وقد نرى لمحة من هذه الحنكة في رحلته إلى داغستان، حيث اضطر إلى الجلوس والحديث مع علماء لا يعرفهم من قبل، وهم حسب رأيه، يريدون معرفة عقيدته بأسئلة يطرحونها عليه.

12. **الالتزام بالمواعيد**: الالتزام بالمواعيد في الحياة العملية وفي الرحلات، مما اعتاد عليه العثماني. فهو يراعي وضعه ووضع الآخرين خلال الرحلات لتيسير الأمور عليه وعلى الآخرين في آن واحد. وهذه السمة تبدو واضحة في رحلاته، عندما يذكر برامجه وزياراته، إذ يذكر كل زيارة بموعده؛ لكن مع ذلك نجد لديه مراعاة الظروف الطارئة أيضا؛ لأن الالتزام المتزمت بالمواعيد، يسلب المرونة.

13. **التوازن في العمل والراحة**: يلتزم العثماني بتوازن في العمل والراحة، حتى خلال الرحلات أيضا. وقد أشار إلى ذلك في رحلته إلى تتارستان، حيث خرج للنزهة

الصباحية في غابة مغطاة بالثلج؛ لأن النزهة فاتته لأيام بسبب انشغالات أخرى. وكتب عن أوقات الراحة أيضا. وهذا التوازن بين العمل والراحة يزيد من النشاط في العمل؛ لأن الإنسان لا يقدر على أداء أي عمل على أكمل وجه إذا كان متعبا مرهقا من قبل.

14. **تقديم المشورات المناسبة:** من دأب العثماني في رحلاته أنه يقدم المشورات المناسبة لكل من يريدها منه. ويبدو من كتاباته عندما يتحدث عن تلك المشورات، أنه يقدم النصيحة أو الوصية كواجب ديني، بكل إخلاص. وهذا ما نشاهد في رحلته إلى تتارستان، عندما ألغى زيارة إلى مدينة أخرى خارج قازان، ليحضر جلسة استشارية حول النظام المالي غير الربوي في قازان، إضافة إلى مجالسه مع العلماء في داغستان وتاجكستان.

15. **التحقيق والتدقيق فيما يتعلق بما هو مذكور في القرآن الكريم:** لا يفوّت العثماني فرصة للتحقيق خلال رحلاته. فهو يحقق في الأمور التي لها صلة مع ما ورد في القرآن الكريم. فكما نجده يتحدث عن أصحاب الكهف وكهفهم خلال رحلته إلى الأردن، نراه يرغب في زيارة "در بند" من أجل التحقيق حول "سد ذي القرنين". وكتب بعد زيارته لمدينة "باب الأبواب" (در بند)، ومشاهدته ما بقي من سور دربند، أنه متأكد أن هذا السور لا يمكن أن يكون السد الذي بناه ذو القرنين لمنع يأجوج و مأجوج من الفساد في الأرض.

16. **استغلال الوقت:** من المعروف أن العثماني من العلماء المكثرين في الكتابة، وهو شخصية موسوعية، لا تنحصر كتاباته في علم واحد. ولعل سبب كل تلك الإنجازات يعود إلى استغلاله الوقت. فهو يستغل كل لحظة من وقته. وقد كتب في موضع أنه يدع الأمور السهلة من الكتابة لرحلاته، وينجزها خلال السفر جوا أو برا. وهذا ما وردت إليه إشارة في رحلته إلى تتارستان، حيث ذكر أنه بدأ يكتب ترجمة معاني القرآن الكريم وإيضاحها، عندما وجد متسعا من الوقت، قبل انطلاقه إلى محطة القطار مساء.

17. **الصور الشمسية:** كما هو العادة المعروفة لدى الرحالين، أنهم يردفون كتاباتهم في الرحلات الصور الشمسية. وهذا الدأب معروف منذ زمن بعيد. ولا تخلو رحلات

العثماني أيضا من الصور؛ إلا أنه يتحاشى من نشر صوره وصور الكائنات الحية. ولعل ذلك بسبب موقفه الشرعي عن الصورة، إذ يرى أنه لا بأس بالتقاط الصور وحفظها بالوسائل الإليكترونية؛ لكنها تصبح الصورة الممنوعة في الشريعة وفق الأحاديث النبوية، عندما يتم طباعتها على الورق. ولا يجوز ذلك إلا لضرورة. وبناء عليه نجد في رحلاته صورا جميلة لمناظر بهيجة طبيعية ومبان تاريخية أو حديثة؛ لكنها تخلو من صور الإنسان والحيوان.

وهذه بعض أهم ميزات رحلات العثماني التي تمكنت من الاطلاع عليه، خلال دراسة رحلاته إلى دول وسط آسيا و روسيا. وأرى أن هذا غيض من فيض، ومن الممكن لمن يقوم بدراسة أوسع لرحلاته الأخرى، أن يطلع على ميزات أخرى أيضا. والله أعلم وعلمه أتم. (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) ([1])

****

[1] سورة يوسف: 76

الباب الثالث: المقارنة بين رحلات الشيخ العبودي والشيخ العثماني

المدخل: مقارنة بين شخصية الشيخ العبودي والشيخ العثماني

قبل أن نبدأ المقارنة بين رحلات الشيخ العبودي والشيخ العثماني، يبدو من الضروري أن نلقي نظرة مقارنة على حياتهما أيضا، إذ توجد قواسم مشتركة كثيرة بين شخصياتهما من عدة نواح. وهذه القواسم المشتركة لها أثر واضح في كتاباتهما ورحلاتهما أيضا. وخلال دراسة رحلاتهما، يبدو بعض الأحيان أن هناك توافقا جليا في آرائهما. وذلك بسبب ثقافتهما الإسلامية، وسعيهما لما فيه خير المسلمين.

وفيما يلي بعض القواسم المشتركة بينهما وبعض الأمور التي تختلف فيها شخصياتهما. وأرى أن الاطلاع على هذه الميزات ستساعدنا في فهم أوجه الشبه والخلاف في رحلاتهما، وإن كانت أوجه الشبه هي الغالبة، وأوجه الخلاف هي القلة.

أولا: ولد كل من العبودي والعثماني في بيئات مختلفة. فمسقط رأس العبودي منطقة بريدة في المملكة العربية السعودية، وهي كما أشار إليه العبودي، أنها لم تكن منطقة غنية، وكانت تعيش وضعا صعبا في صباه، من عدة نواح. وكان الفقر سائدا، بينما لم تكن بها سيارات ولا طرق، بينما ولد العثماني في بلدة "ديوبند" في الهند قبل انقسامها إلى الهند الحالية وباكستان. وكانت تلك البلدة أيضا قرية بعيدة عن المدن، وإن كانت تؤوي دار العلوم ديوبند، أكبر المدارس الإسلامية في زمنها في الهند. وهذا يعني أن كل واحد منهما ينحدر من بيئة قروية.

ثانيا: هناك فرق واضح في الخلفية الأسرية للعبودي والعثماني، إذ كتب العبودي أن والده كان أميا لا يكتب ولا يقرأ، ولم يكن في أسرته علماء؛ لكن والدته كانت قارئة للقرآن الكريم والكتب، بينما العثماني ينحدر من أسرة كانت معروفة بالعلم والفضل والأدب. فكان بين أجداده علماء، ووالده عالم مفت أديب، وإخوته بينهم شعراء وأدباء. ولهذا البيئة الأسرية كان أثرا على ثقافة العثماني. كما أشرنا إلى ذلك في ترجمته. وهذه البيئة العلمية والأدبية ساعدت العثماني على النشوء نشأة علمية أدبية.

أما العبودي، فقد شق طريقه في سبيل العلم بنفسه، رغم المصاعب والمشاكل التي واجهها. فدرس على علماء نابغين في عصره. ولازمهم لفترات طويلة. ودرس علوم

الحديث والفقه والعلوم العربية. وبرع فيها. وإرثه العلمي من الكتب الأدبية وكتب الأنساب والمعاجم والرحلات خير دليل على شخصيته الموسوعية وعلمه الجم.

ثالثا: هناك شبه تام في بين العبودي والعثماني من ناحية طلبهم للعلم، فكل واحد منهما بدأ بالعلوم الإسلامية والعربية وتخرج فيها؛ إلا أن هناك فرقا في التحصيل من ناحية أن العثماني درس القانون وحصل على شهادة الليسانس في الحقوق، إضافة إلى شهادة الماجستير في اللغة العربية من جامعة البنجاب، في حين لم يذكر العبودي أي شهادة حصل عليها. ومع ذلك فإن العلم الذي كان العبودي يحويه بين جوانحه أهّله ليكون مديرا للمدرسة الثانية في بريدة، ثم مديرا لثاني معهد علمي في المملكة العربية السعودية، وبعد ذلك ليصبح أمينا عاما للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وينتهي به المطاف كأمين عام مساعد لرابطة العالم الإسلامي.

رابعا: انخرط كل من العبودي والعثماني في سلك التدريس في سن الثامنة عشرة سنة. فكان العبودي بدأ التدريس في تلك السن المبكرة في المدرسة الابتدائية الأولى في بريدة، بينما أخذ العثماني يدرس في دار العلوم كراتشي بعد تخرجه فيها. وذكر العثماني أنه بدأ التدريس ولم تنبت له لحية. وكان نحيفا، وطلابه أكبر منه، فكان يلبس "شيرواني" – المعطف الهندي الذي يعتبر جزءا من هندام الشخصيات المحترمة في الهند وباكستان–، ليبدو كبيرا أمامهم.

خامسا: تعلم كل واحد من العبودي والعثماني اللغة الإنجليزية بعد انخراطهما في الحياة العملية؛ إلا أن العبودي اكتفى بمبادئ تلك اللغة واستفاد منها في الحياة العملية، بينما العثماني برع في تلك اللغة أيضا، ودرس الاقتصاد والحقوق بالإنجليزية. كما أنه يؤلف بالإنجليزية أيضا، إضافة إلى اللغة العربية والأردية.

سادسا: من المصادفات أن كلا من العبودي والعثماني شاعر، إذ كان العبودي يقرض الشعر أيضا إلى جانب الكتابة المنثورة؛ لكن لم أعرف عنه إذا كان له ديوان شعر مطبوع أم لا، في حين طبع للعثماني ديوان شعر بالأردية. ويوجد به جميع أصناف الشعر المنظوم بالأردية.

سابعا: عمل العبودي في القطاع الحكومي لسبعين عاما؛ لكن العثماني لم ينفك عن التدريس في حياته. وإضافة إلى عمله كمدرس في دار العلوم كراتشي، تولى منصب القاضي في المحكمة الشرعية لسنوات. كما أسندت إليه مناصب في المؤسسات المالية في القطاع الخاص أيضا؛ لكن مع ذلك ظل مدرسا للعلوم الإسلامية والحديث الشريف، وأثرى المكتبة الإسلامية بكتب قيمة في الفقه والحديث.

ثامنا: يتميز كل من الشيخ العبودي والعثماني بدقة النظر، وإدراك الوضع. والتعامل مع الأوضاع الصعبة بالحصافة والحنكة. وهو ما نراه واضحا جليا في كتاباتهما.

تاسعا: من أهم ميزات شخصية العبودي والعثماني، أنهما يستغلان الوقت أيما استغلال. ولا يضيعان الوقت الذي يعتبر أثمن شيء في حياة الإنسان؛ لكن قلما نجد من يعتني به. كما قال ابن الهبيرة:

والوقت أثمن ما عنيت بحفظه وأراه أسهل ما عليك يضيع

وبالإشارة إلى أهمية الوقت في حياته، ذكر العبودي أنه عادة كان يلقي الكلمات بمناسبات مختلفة مرتجلا، ولم يكن يكتبها لتوفير الوقت واستغلاله في كتابة أشياء أخرى. كما أن العثماني أيضا معروف بتنظيم أوقاته. وقد أشار إلى أنه يظل يكتب في عدة مواضيع، ويقوم بأسهلها خلال تحركاته وأسفاره برا وجوا.

عاشرا: أثرى كل من العبودي والعثماني المكتبة الإسلامية بمؤلفات مفيدة في شتى العلوم والمواضيع. والعبودي بدون أي شك أكبر رحالة في التاريخ الإسلامي، من ناحية رحلاته إلى نحو كل بقعة معمورة من كوكب الأرض، وعدد كتبه في الرحلات، وهي أكثر من 160 كتابا. ولم يؤلف أحد هذا العدد من الكتب باللغة العربية في هذا الموضوع.

ومقارنة بهذا، فإن عدد كتب العثماني في الرحلات أقل من كتب العبودي، لكن مع ذلك، فإنها تستوعب أجزاء من القارات الست المأهولة. وتفوق مؤلفات العثماني على مؤلفات العبودي من ناحية أن العبودي كان يكتب باللغة العربية فقط، بينما يكتب العثماني بثلاث لغات وهي العربية والأردية والإنجليزية.

الفصل الأول: أوجه التشابه بين رحلات العبودي والعثماني

قد ذكرنا من قبل أن هناك تشابها كبيرا بين شخصيات الشيخ العبودي والشيخ العثماني، لأسباب عدة، أشرنا إليها في بداية هذا الباب. وهذا التشابه ينعكس في كتاباتهم أيضا؛ لأن التشابه في التفكير تسبب في التشابه في الكتابة أيضا؛ إلا أن أسلوب كل واحد منهما في التعبير يختلف عن الآخر. وهو أمر معقول بسبب الاختلاف في البيئة التي يعيشانها واللغة التي ينطقان بها والمهمات التي يتوليانها. ومن هذا المنطلق فإن أهم أوجه التشابه بين رحلات الشيخ محمد بن ناصر العبودي والشيخ محمد تقي العثماني، هي كما يلي:

1: التفاصيل عن بداية الرحلة:

دأب كل واحد من الشيخين على بيان سبب الرحلة، في بداية الرحلة. وهذه التفاصيل تلقي ضوء على خلفية الرحلة وأهدافها، والأشخاص الذين يرافقونهما في السفر، إضافة إلى الخطوط أو الطريق الذي سيسلكانه للوصول إلى وجهتهما المطلوبة. وتوجد معلومات أخرى ضمن هذه المعلومات الظاهرة؛ لأن القارئ أيضا يفهم أمورا لم تُذكر بالصراحة.

ويكتب العبودي في مقدمة "في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى و ما وراء النهر " لبيان رغبته في زيارة بخارى و ما وراء النهر:

"أما بعد، فإن كلمة (بخارى) و ما وراء النهر كانت تقرع سمعي منذ نعومة أظفاري عندما كنت مبتدءا في قراءة كتب الثقافة العربية الأصيلة، وكانت حببت إلي قراءة كتب التاريخ والرجال. فكنت أسمع كثيرا بأن إماما من أئمة الحديث الكبار رحل إلى بخارى و ما وراء النهر ، فسمع بسمر قند وترمذ وبلاد الشاش مثلا.

بل لقد قرأت سير العلماء الأعلام وأئمة الإسلام الذين أنجبتهم تلك البلاد وكيف كان باعهم طويلا، وصبرهم جميلا على ما لاقوه من العناء والتعب في الرحلة لطلب العلم والسهر على التحصيل، ثم إفادة الطلاب عندما يتم التحصيل ويعجز البدن عن الرحيل. فكانت تلك البلاد في ذهني كما هي في

الواقع في ذلك الحين مراكز للعلوم الإسلامية وجامعات حافلة بكبار الأساتذة، في سائر العلوم والجهابذة – خاصة في علوم الحديث والأثر. وحتى الأدباء المناطيق والشعراء المفاليق الذين أغنوا العربية بأشعارهم وآثارهم. كان لها منهم النصيب الكبير بل الخطير. وناهيك بما نقله عنهم الثعالبي وحده في يتيمة الدهر وفي غيرها من كتبه. فكنت أشتاق إلى رؤيتها حتى في الأحلام، ولقد تحققت هذه الرغبة في المنام".[1]

وبعد إبداء هذه الرغبة الشديدة في زيارة بلاد ما وراء النهر من بخارى والمدن التاريخية الأخرى، أشار العبودي إلى بداية رحلته إلى تلك المناطق هكذا:

"غادرنا مطار عمان في الساعة الثالثة إلا عشر دقائق ظهرا بتوقيت الأردن، على طائرة تابعة لشركة (أيروفلوت) السوفيتية، ويسمونها هنا الروسية. وكان في الوداع عدد من الإخوة الكرام، منهم الشيخ عبد الله حسن جبر مدير مكتب رابطة العالم الإسلامي، والأستاذ سعد الحصين الملحق الديني بالسفارة السعودية في عمان.

والطائرة من طراز ليوشن-154 ذات محركات ثلاثة، كلها في مؤخرتها، وتشبه مظهرها الطائرة الأمريكية د س 9 أو بوينج 727. وفي هذه الطائرة درجة أولى تتألف من صفين فيهما ثمانية مقاعد. والباقي من مقاعد الطائرة مقسم إلى قسمين: أحدهما قبل الآخر، ولا أدري بم يسمونها.

وقد شغلنا نحن ستة مقاعد الدرجة الأولى، وبقي اثنان. شغل أحدهما رجل روسي والآخر شغله أخ عراقي كبير القدر. لذلك كان الكلام كله في هذه الدرجة الأولى المتجهة إلى موسكو عربيا. ولا تسمع فيها غير العربية شيئا؛ لأن الشخص الروسي الموجود فيها لم يتكلم مع أحد".[2]

---

[1] العبودي، محمد بن ناصر، في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر، الطبعة الأولى، 1412هـ/1991م، ص: 9

[2] نفس المصدر، ص : 17-18

ويقدم العبودي تفاصيل أدق من هذه المعلومات التي قدمها هنا. مثلا نجده يكتب عن الضيافة في الطائرة وحتى حمام الطائرة، في نفس "في بلاد المسلمين المنسيين" على النحو التالي:

"قامت الطائرة من مطار (لارنكا) قاصدة موسكو في الساعة الخامسة والنصف عصرا. وأعلنت مضيفة جديدة فيها أن المسافة إلى موسكو هي ألفان تسعمائة كيلو متر ستقطعها الطائرة في ثلاث ساعات ونصف. وكان الإعلان باللغة الروسية والإنجليزية. أما الضيافة فكانت صحنا صغيرا من السلطة، وآخر فيه بعض الخضروات المطبوخة وقليل من البطارخ وهو الكافيار الروسي الشهير الذي هو بيض سمك خاص يوجد في بحر قزوين. وصحن آخر فيه لحم بقري غير طازج، وقليل من الأرز، ثم الجبن والفاكهة التي أخذوها من قبرص. .... ودخلت حمّام الطائرة الذي هو خاص للدرجة الأولى. فوجدته في مستوى الحمام في بيت الفلاح الجيد أو الحضري الفقير. فالحوض من المعدن غير اللامع، والمرحاض خشن نوعا ما، والورق قاسي اللمس. وهناك فوطة معلقة بجانب الحوض ليمسح فيها الركاب أيديهم بصورة جماعية. أي كل من دخل الحمام، مسح يده فيها. وليست هناك مناديل ورقية منفردة كما يكون عليه الأمر في الطائرات العالمية التي تكون فيها تلك المناديل حتى في حمامات الدرجة السياحية".[1]

ونقارن هذا الآن بما كتبه العثماني عن رحلته إلى قيرغيزستان:

"إن دول وسط آسيا الإسلامية التي ظلت تحت نظام الاتحاد السوفييتي لسبعين سنة، واستقلت بعد تمزق الاتحاد السوفييتي، هي تحولت إلى دول مستقلة باسم أزبكستان وتاجكستان وقيرغيزستان وقزاقستان وتركمنستان. وهذه المنطقة كلها كانت تعرف باسم تركمنستان في زمن ما. وكانت مركزا للعلم، حيث نشأت فيها الشخصيات الإسلامية اللامعة التي يستفيد من علومها العالم الإسلامي كله الآن. والقيامة التي قامت على العلماء

[1] في بلاد المسلمين المنسيين، ص:25

والصلحاء في هذه البلاد، خلال عهد الحكم الشيوعي، لعل التفاصيل عنها لن تبرز على السطح في أي وقت. وكانت صلة تلك البلاد مقطوعة عن العالم الإسلامي، بل العالم كله، حيث لم يكن يمكن لأحد من الخارج أن يزورهم، ولا يمكن لهم الخروج، بل لم يكن الاتصال يمكن بالمراسلة أيضا.

وقد انفتحت الطرق إلى هذه البلاد بعد استقلالها وقد أمكن الذهاب والإياب إليها. وإن أزبكستان من بين تلك البلاد، هي البلاد التي كانت بها أكبر مراكز للعلم في بخارى وسمر قند وترمذ وفرغانة. وقد سافرت إلى هناك عام 1992م برفقة مجموعة من العلماء؛ لكن للأسف لم أتمكن تدوين الرحلة إليها، رغم الرغبة في كتابتها".[1]

وكتب العثماني في بيان سبب الرحلة إلى قيرغيزستان:

"الحمد لله! قد تمكنت جماعة التبليغ من بسط نشاطها بجهد وحكمة. وقد قام أحد نشطاء الجماعة النشطين السيد جاويد الهزاروي بإنشاء مدرسة إسلامية بتعاون من بعض أصدقائه. وكان يلح علي منذ سنة ونصف السنة أن أقوم بزيارة لقيرغيزستان. وهو قد قام برحلات كثيرة في هذه الدول، وعلى إدراك جيد بأوضاعها. وقد ذكر لنا، وقد تأكد ذلك فيما بعد أيضا، أن قيرغيزستان هي الدولة التي بيئتها أكثر ملائمة للدعوة إلى الدين والتعليم الديني، مقارنة بالدول الأخرى. وبناء عليه هناك حاجة إلى العمل من نواح مختلفة، وترجى منها فائدة عظيمة أيضا.

وهذا العام، عندما انتهى العام الدراسي في دار العلوم كراتشي، عزمت على الرحلة إلى قيرغيزستان. وكان يرافقني في تلك الرحلة السيد الحافظ فيروز الدين إضافة إلى السيد جاويد الهزاروي، وإن لم يزر فيروز الدين قيرغيزستان؛ لكنه كان يساهم في أعمال الدعوة والتعليم من هنا".[2]

---

[1] سفر در سفر، ص : 133-134، وترجمة النص الأردي للباحث.

[2] نفس المصدر، ص:134، وترجمة النص الأردي للباحث.

ونجد في هذه الفقرات من رحلات العبودي والعثماني، أن هناك فكرة واحدة سارية فيها، وهي أن كل واحد منهما يرغب في زيارة دول وسط آسيا أو جمهوريات وسط آسيا؛ لأنها كانت مراكز للعلوم الإسلامية. وهذه الفكرة نابعة عن ثقافتهما الإسلامية التي تربيا عليها؛ لأنهما أكثر شوقا إلى زيارة تلك المراكز العلمية التاريخية، بدلا من زيارة التقدم التقني الذي حدث في تلك البلاد، إبان العهد الشيوعي.

2: ذكر تاريخ البلاد:

ونجد كلا من الشيخ العبودي والعثماني يذكر نبذة عن تاريخ البلاد التي يزورها. وعلى الرغم من أن سهم التاريخ في رحلاتهم ليس كبيرا؛ لكن مع ذلك فإنه يكفي لفهم حاضر تلك البلاد مربوطا بتاريخها. على سبيل المثال، كتب العبودي خلال رحلته إلى داغستان، عن تاريخ داغستان. ويمكن تلخيصه فيما يلي:

استوطن البشر بلاد الداغستان منذ فجر التاريخ. وكانت الجبال والأودية في داغستان تؤمن لهم الحماية والأمان، بينما كان سكانها يشتغلون بالصيد ورعي الأغنام. وتوجد في داغستان آثار الشعوب التي قطنتها أو مرت بها منذ العصر البرونزي إلى العصر الحديدي. وتمثل داغستان بقايا شعوب كثيرة متباينة كانت تسكن بقاعا شتى من أوروبا وآسيا. وهناك صلات قوية بين سكان القفقاس واليونانيين القدامى. كما كان لشعوب داغستان دور كبير في تاريخ الساسانيين في إيران والبيزنطيين في آسيا الصغرى.

شهدت داغستان المعركة التي وقعت بين قوروش ملك الفرس وتومريس ملك الإسكيذ عام 529 ق. م. وفي عام 65 ق. م. احتلتها الرومان بعد هزيمة الألبانيين السكان القدماء لداغستان. واستعاد الألبانيون قوتهم مرة أخرى ودخلوا إيران عام 73م؛ لكن استمرت الحروب بينهم وبين الأرمن حتى عام 377م.

دخلت قبائل الهون وسابير التركية بلاد الداغستان في القرن الرابع الميلادي. وأقاموا دولة مترامية الأطراف عاصمتها مدينة "سمندر" في القرن السادس الميلادي. ثم ظهر الآفار على المسرح وهزموا أتراك سابير عام 558م لكن احتلها الساسانيون بعد ذلك. وصل المسلمون إلى مدينة دربند عام 22هـ/643م وكانت بها حامية من الفرس.

الإسلام في داغستان:

توجه سراقة بن عمرو إلى داغستان عبر آذربيجان بعد أن فتح المسلمون العرب إيران ووصل إلى "دربند" التي سماها العرب باب الأبواب. وفتحها عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي عام 22هـ/643م. واستمرت المعارك مع الخزر في كر وفر حتى عام 35هـ/656م. واستشهد عدد من الصحابة الكرام رضي الله عنهم في منطقة "هايداك".

استقر الحكم الإسلامي في داغستان إبان عهد الأمويين وتولى مروان بن محمد أمر القفقاس عام 117هـ/724م ونقل سبعة آلاف أسرة من عرب الشام والجزيرة والموصل إلى ضواحي مدينة دربند.

زار الخليفة العباسي هارون الرشيد دربند برفقة زوجته السيدة زبيدة عام 173هـ/739م. واستقل هيثم بن خالد الشيباني بولاية شروان عام 247هـ/861م بعد مقتل الخليفة المتوكل، كما استقل هاشم بن سراقة السلمي بولاية دربند عام 255هـ/868م.

غزت قبائل السلجوق داغستان بقيادة فراتكين عام 459هـ/1066م، ثم غزتها قوات المغول بقيادة سوبوتاي عام 620هـ/1223م واحتلتها. ووقعت داغستان ضمن دولة "ألتون أوردة" عندما قسم جنكيز خان دولته الشاسعة.

في عام 784هـ/1382م ولّى سكان مدينة شروان ودربند الشيخ إبراهيم عليهم. فتأسست دولة دربندية استمر حكمها حتى 1551م. تعرضت القفقاس وبينها داغستان أيضا لغزوات توقتاميش ملك دولة ألتون أوردة عام 789هـ/1387م. وقام تيمور لنك بصد تلك الغزوات. ووقعت داغستان بيد تيمور لنك عام 797هـ/1394م. فغزاها قرا يوسف ملك دولة قرا قويونلو في آذربيجان عام 814هـ/1411م.

سقطت داغستان بيد الصفويين في إيران عام 904هـ/1500م. فقاموا بمجازر في بلاد القفقاس لإجبارهم على التشيع، مما دفع سكان البلاد السنة للاتصال بالدولة العثمانية للتدخل. فدخلت القوات العثمانية إلى القفقاس عام 986هـ/1578م. فدارت معارك بين الجانبين بين نصر وهزيمة. وتسبب ذلك في خراب داغستان وإشعال فتنة دينية بين المسلمين.

دفع هذا الوضع الأمراء وشيوخ القبائل إلى إشعال ثورة ضد الصفويين. فاجتمع ثلاثون ألف مسلم من عرقيات مختلفة بدعوة من جولاق تورخاي أمير القوموق وأحمد خان أمير الهايداك، تحت راية الشيخ حاجي داود. فقتلوا أمير الصفويين في كوبا وعاملهم على مدينة شروان، واستعادوا شروان من الصفويين عام 1712م.

الاحتلال الروسي لداغستان:

قدم انهيار دولة ألتون أوردة فرصة للروس لبسط سيادتهم على الخانيات الصغيرة المتنافرة. فاحتلوا أستراخان عام 1556م ووصلوا إلى مشارف القفقاس. وفي عام 1557م تزوج القيصر إيفان المرعب أمازين بنت تيموروك أحد أمراء الشركس، وأقام حصنا عسكريا على نهر سونج، واحتلوا دربند عام 1722م؛ لكن انسحبوا منها.

بنى الروس قلعة فيلادي قفقاس عام 1784م، وتوطدت علاقاتهم مع الشعوب الأرمن والكرج المسيحيين، وزودوهم بالأسلحة. فبدأ الشيخ منصور حركة الجهاد لمقاومة الغزو الروسي وتحصن في قلعة (أقاما) ودافع عنها أربعة عشر يوما؛ إلا أنه وقع أسيرا في أيدي الروس عام 1791م وأعدم عام 1794م، فاحتل الروس خانية دربند عام 1796م.

تم إلحاق جورجيا إلى الإمبراطورية الروسية عام 1800م، وبعد ذلك سقطت مدن خانيات القفقاس واحدة تلو الأخرى بيد الروس، حتى وقعت الإمبراطورية الروسية اتفاقية مع إيران في 22 فبراير 1828م لتحكيم قبضتها على القفقاس وأصبح نهر (أراس) حدا فاصلا بين إيران و روسيا .[1]

وكتب العثماني عن تاريخ داغستان خلال رحلته إلى داغستان، كما يلي:

إن داغستان منطقة شاسعة تقع في جنوب موسكو بين بحيرة قزوين وسلسلة جبال القفقاز. وأن معظم هذه المنطقة فتحت في عهد الصحابة رضي الله عنهم. وظلت تحت إمارات إسلامية مختلفة لأكثر من ألف عام. وقد حكمتها الخلافة العثمانية والصفويون والقاجاريون أيضا لفترة.

---

[1] العبودي، محمد بن ناصر، بلاد الداغستان، الطبعة الأولى، 1413هـ، ص: 14-28

وبعد ذلك استمرت غزوات القياصرة الروس لهذه البلاد. وفي القرن الثالث عشر الهجري، تمكن الشيخ شامل الداغستاني الذي كان عالما جليلا وشيخا للسلسلة النقشبندية بإنشاء حكومة له في هذه المنطقة بعد جهاد دام طويلا. وقام بتطبيق الشريعة والعدل في عهده؛ إلا أن الروس لم يزالوا يلاحقونه. وفي نهاية المطاف حاصرته القوات الروسية وعددها أكثر من عشرين ألف جندي، بينما لم يكن معه سوى نحو ثلاثمائة شخص من رفاقه. فطلب منه الروس إلقاء السلاح على أن لا يوذوا أحدا. فألقى الإمام شامل السلاح عام 1276هـ.

واستقبله القيصر باحترام. وبعد أن قضى فترة في موسكو، طلب منه الإذن ليقوم بحج بيت الله الحرام. فوافق على ذلك. فغادر الشيخ شامل إلى إستانبول، حيث لقي حفاوة وترحيبا من السلطان عبد العزيز. ثم انطلق إلى الحجاز. واستقر به المقام في المدينة المنورة. فتوفي هناك ووري الثرى في البقيع.[1]

داغستان بعد الثورة الشيوعية:

استولى الروس على داغستان بعد استسلام الإمام شامل؛ لكن نهض الشيخ نجم الدين أفندي ضد الثورة الشيوعية. واستمر في كفاحه، وقدم تضحيات هائلة؛ لأنه كان يرى أن وضع المسلمين تحت النظام الشيوعي سيكون أسوأ منه تحت نظام القياصرة. وتمكن من منع الشيوعيين من الدخول إلى داغستان لفترة؛ إلا أن الشيوعيين طلبوا من العلماء الآخرين إقناعه بإنهاء حركته على أن تبقى لهم نفس الحرية التي كانوا يحظون بها إبان الحكم القيصري؛ لكنه لم يقتنع بوعود الشيوعيين وقال إنه يعرفهم جيدا. وفي نهاية المطاف وقع أسيرا بيد الشيوعيين، ولا يعلم مصيره أحد غير الله. [2]

كانت داغستان مركزا للعلماء. وأن علماء هذه البلاد قد حافظوا على العلوم الدينية بتقديم تضحيات كبيرة، إذ أن تعليم الدين خلال الحكم الشيوعي كان مدعاة لأشد العقوبات؛ لكن العلماء واصلوا تعليم الدين في سراديب بيوتهم. وبالتالي فإن أكثر

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص : 168-169

[2] انظر، نفس المصدر، ص : 169-170

من 90% من سكان هذه البلاد مسلمون وهناك عدد كبير من العلماء الذين درسوا في تلك السراديب.[1]

وفي هذه الفقرات أيضا نجد الشبه بين رحلة العبودي ورحلة العثماني واضحا؛ إلا أن العبودي قدم تفاصيل أكثر؛ لأنه خص كتابا بداغستان وحدها، بينما مر بها العثماني لأيام، فكتب ما يفتح للقارئ نافذة إلى تاريخ داغستان.

3. ذكر الشخصيات البارزة في التاريخ:

كتبت من قبل أن العبودي والعثماني من العلماء، وبالتالي فإن الشخصيات الإسلامية التاريخية، تبقى محط أنظارهما في أي بلد يزورونها. ولتلك الشخصيات حظ وافر من بيانهما. ونذكر على سبيل المثال وليس الحصر، زيارة العبودي لقرية (كلستان) في تاجكستان، حيث يقع قبر الشيخ يعقوب التشرخي، فكتب:

"واتجهنا إلى ضاحية خارج المدينة اسمها (قلستان) ومعناها: البستان. وهذا هو معناها الفقهي، وإلا فإن معناها الحرفي: مكان الزهر. وقد يسميها بعضهم قرية مولانا التشرخي. وتبعد هذه الضاحية 18 كيلو مترا عن قلب العاصمة دوشنبة. وذلك لزيارة مسجد الشيخ يعقوب بن عثمان التشرخي. وهو من الزهاد العباد الأوائل الذين أصبحوا ممن يقتدي بهم الصوفية المتأخرون فيقلدونهم. ويقولون إن الشيخ يعقوب التشرخي هو تلميذ علاء الدين العطار. وعلاء الدين العطار هو تلميذ بهاء الدين النقشبندي، الذي تنسب إليه النقشبندية. وهو المدفون في ضاحية من ضواحي بخارى. وذكرت ما شاهدته عند مسجده ومقبرته هناك في كتاب (في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى و ما وراء النهر). وقد توفي الشيخ يعقوب التشرخي في عام 851هـ".[2]

وكتب العبودي في (في بلاد المسلمين المنسيين) ما يلي:

" وصلنا منطقة تسمى (قصر عارفان) أي (قصر العارفين). وكانت تسمى قبل ذلك (قصر هندوان). وتم تغيير اسمها بسبب وجود قبر الشيخ بهاء الدين النقشبندي بها. ويسمونه النقشبندي البخاري. ومعنى النقشبندي: صانع النقش أو النقاش؛ لأن بند

---

[1] انظر، نفس المصدر، ص: 170

[2] انظر، يوميات آسيا الوسطى، ص : 211-212

عمل، ونقش هي كلمة النقش بالعربية. قيل سمي بذلك لأنه كان ينقش الأقمشة، ولكن بعد أن اشتهر بصلاحه وعرف بتصوفه، ذكروا أنه كان ينقش القلوب بالمعرفة التي هي عند الصوفية معرفة الإنسان بربه ومحبته له. ويراد من ذلك ترك العوائق الدنيوية والانقطاع إلى الله تعالى..." [1]

وورد في رحلة العثماني إلى تاجكستان عن الشيخ التشرخي ما يلي:

"في الأصل ينتسب الشيخ يعقوب التشرخي رحمة الله عليه إلى ضاحية "جرخ" قربة غزنة. وكان من أصحاب مؤسس الطريقة النقشبندية الشيخ بهاء الدين النقشبند رحمة الله عليه؛ لكنه حوله إلى خليفته الشيخ علاء الدين رحمة الله عليه، الذي كان يقيم بصغانيان. وبالتالي هو أيضا جاء إلى هنا، وأصبح في عداد أصحابه. وكانت له مرتبة عالية بين الصوفية. وكان الشيخ عبيد الله أحرار رحمة الله عليه خليفة له. ومنه بدأ فرع مستقل للسلسلة النقشبندية. وقد ذكره الشيخ عبد الرحمن الجامي رحمة الله عليه في كتابه (نفحات الأنس) والشيخ هاشم الكشمي رحمة الله عليه، في كتابه (نسمات القدس)". [2]

ونجد ذكر الشخصيات الإسلامية التاريخية منثورا هنا وهناك في رحلات العبودي والعثماني على حد سواء. فهما يكتبان عنهم لتعريفهم إلى القراء، وتشجيعهم على القراءة عنهم.

4. النصح والتذكير بأمور الدين والنكير على ما لا يرونه جائزا:

لا شك في أن الأفكار التي يؤمن بها الإنسان، لا بد وأن يكون لها أثر في حياته؛ لأن الأفكار والمعتقدات هي التي تصنع شخصية أي إنسان. والمعتقدات هي أغلى شيء في حياة الإنسان حتى من نفسه أيضا. والإنسان قد يضحي بنفسه للحفاظ على عقيدته.

ومن هذا المنطلق نجد الشيخ العبودي والشيخ العثماني، لا يقبلان أي مساومة أو مداهنة على عقائدهما وما يريانه صحيحا وفق علمهما. ويأمران بالمعروف وينهيان عن المنكر، حسب قدرتهما، ولا يمتنعان عن ذلك حتى خلال رحلاتهما أيضا. وكل

---

[1] في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر، ص: 233

[2] سفر در سفر، ص: 285، وترجمة النص الأردي للباحث.

من يقرأ كتبهم في الرحلات سيجدهما ينكران على أي منكر يريانه، وينصحان بحكمة لإزالة ذلك المنكر.

على سبيل المثال نجد العبودي ينكر على رفع القبور أكثر من شبر عن الأرض أكثر من مرة، في "في بلاد المسلمين المنسيين"، حتى إنه ينصح بعدم إنشاء أي بناء على قبر الشيخ بهاء الدين النقشبندي. وكتب في ذلك:

"ليس في الجامع ولا الخانقاه قبر. وإنما قبر النقشبندي في مكان منفصل عنه تفصله مسافة ليست قليلة، وإن كانت تضم الجميع منطقة واحدة؛ إلا أنها عدة أماكن، من أبنية مكشوفة فيها الأشجار الباسقة، وفيها عدة أشياء مهمة مثل بركة للماء، ومكان لماء الشرب، وصحون مفروشة بالرخام من الأحجار المهذبة أو من الآجر المرصوف بعناية وإحكام.

وفيه أيضا القبر – قبر الشيخ بهاء الدين النقشبندي- ليس عليه بناء. وإنما يرتفع عن الأرض بحوالي المتر أو نحوه. وهو منفصل عن جميع الأشياء الموجودة في المنطقة. وقد أخبرونا أنه كان عليه بناء، ولكنه هدم كله. ولم يبق منه إلا حوالي المتر والربع. وقد قيل لنا إن هناك فكرة لإعادة البناء على القبر. فأشرت على الشيخ عبد الغفور أن يقاوم ذلك، ولا يتحمل أمام الله وزر هذه البدعة المنهي عنها، وهي البناء على القبور، فذكر أنه يعرف ذلك".[1]

ومن الطريف أن مثل هذا الأمر تعرض له الشيخ العثماني أيضا عندما زار قبر الإمام السرخسي رحمه الله في مدينة أوزجند بقرغيزستان. فكتب عن ذلك:

إنهم قاموا بجولة في الأحياء القديمة لأوزجند، إلى أن وصلوا في حي كثيف العمران وسط تلك الأحياء. فقالوا إن هذا هو حي الإمام السرخسي وبه قبره. وانضم بعض المسؤولين الرسميين إلينا في ذلك المكان. وذكروا أنه كان على قبر الإمام السرخسي شاهد قديم مكتوب عليه اسمه بالعربية. وقد نقله مسؤولو الآثار القديمة إلى روسيا.

---

[1] في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر، ص: 234

وأفادوا أنهم عندما عرفوا أهمية هذا المكان، وعظمة الإمام السرخسي، قررت الحكومة إنشاء جامع ومدرسة في هذا المكان ليكون تذكارا لذلك العالم الجليل. وقالوا إن أهل الحي رفضوا في البداية إخلاء المكان؛ لكنهم في نهاية المطاف رضوا بإخلاء بيوتهم ببدل مادي مناسب. وقد علقوا في المكان خريطة للبناء المقترح.

والخريطة كانت تشمل بناء على قبر الإمام السرخسي أيضا، إضافة إلى المسجد والمدرسة. فذكر العثماني لهم أن البناء على القبور لا يجوز، وأن الإمام السرخسي نفسه لم يكن ليرضى بذلك. واقترح عليهم أن يعدلوا الخريطة، ولا يبنوا على القبر بناء، فوافقوا على ذلك؛ لكن العثماني يقول إنه لا يدري مدى تمكنّهم من العمل بذلك الاقتراح. [1]

5. تلخيص المحاضرات والخطب التي يلقيانها:

يلخص كل من العبودي والعثماني كلماتهما وخطبهما التي يلقونها بأي مناسبة، خلال رحلاتهم. وقد قام العبودي بنقل بعض كلمات لمضيفيه في جمهوريات آسيا الوسطى بكاملها في رحلاته، بينما من ديدنه، أنه يلخص الكلمة التي يلقيها في أي مكان. وهذا الأمر شائع في كتبه. مثلا، كتب في "يوميات آسيا الوسطى":

"ثم ألقيت فيهم كلمة أبلغتهم فيها تحيات إخوانهم من جوار بيت الله الحرام في مكة المكرمة. وأوصيتهم فيها بتقوى الله ومراقبته وبخاصة فيما يتعلق بتربية أولادهم تربية إسلامية؛ لأنهم مسؤولون عنهم أمام الله سبحانه وتعالى، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" إلى أن قال "والرجل راع في بيته وهو مسؤول عن رعيته". وذكرتهم بالأمجاد الإسلامية الغابرة لهذه البلاد وأهلها ومن أخرجته للعالم من علماء خدموا اللغة العربية والدين الإسلامي في العلوم الإسلامية على اختلاف فروعها.

وقلت إنكم إذا ربيتم أولادكم تربية إسلامية، فإن بلادكم قد تنجب علماء أجلاء يصلون ما انقطع من علم إسلامي نافع في هذه البلاد. ويكونون فخرا لكم وللمسلمين

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص: 293، نقل الباحث معنى النص إلى العربية.

عموما على مدى الأجيال. ودعوت لهم بالتوفيق والصلاح. وأعلنت لهم تبرع رابطة العالم الإسلامي بألفي دولار أمريكي تصرف في مصالح المسجد".[1]

وفي سياق زيارته لمدينة (بك دل) في داغستان، كتب العثماني عن تعاملاته مع العلماء من تلك المنطقة، وأشار إلى أنهم في حاجة إلى نبذ الخلافات الفرعية وحشد المسلمين على المبادئ الأساسية للإسلام التي نسوها تحت ظل النظام الشيوعي. وفيما يلي خلاصة ما قاله:

وأشار العثماني إلى أنه عرف أن بعض الشباب من مختلف أنحاء روسيا، درسوا في المملكة العربية السعودية، فعادوا إلى بلادهم قبل إنجاز الدراسة أو بعد إنجازها، ك "سلفيين متحمسين جدا". وبما أن معظم أهالي داغستان من الشافعية وبها سلاسل الطرق الصوفية أيضا منذ زمن بعيد، كما يوجد نوع من التوسع حول البدعات في المذهب الشافعي، لم يحبذ أولئك الشباب هذه الأمور. فتبنوا أسلوبا متشددا، وأخذوا في معارضة اتباع الإمام الشافعي، وذهب البعض أبعد من ذلك حيث شرعوا في اتهام العلماء القدامى بالشرك أيضا. وهذا ما يثير بلبلة في صفوف المسلمين هنا.

وكتب العثماني أن حديثه دار حول تكييف سلوك المسلمين في الوضع الناشئ من تحررهم من استبداد النظام الشيوعي. وشدد على أن للعلماء القدامى منة؛ لأنهم حافظوا على الشعائر الإسلامية، وخاطروا بأنفسهم للحفاظ على الدين في تلك الأوضاع الحالكة، فعلى الشباب أن يدركوا قدرهم. كما أنه أشار إلى أن الخلافات الفرعية كانت موجودة في المجتمعات الإسلامية، وستبقى قائمة؛ لكن التكفير والتفسيق بناء على تلك الخلافات، لا تنصب إلا في مصلحة أعداء الإسلام فقط. وأكد على أن المحاولات التي جرت إبان الحكم الشيوعي، قد أدت إلى تجهيل المسلمين حتى المبادئ الأساسية من الدين أيضا. وهذا ما يفرض إطلاعهم على المبادئ الأساسية، ولا حاجة في هذه البيئة إلى إثارة مسائل مثل التقليد وعدم التقليد والاستواء على العرش وغيرها، داعيا إياهم إلى حل الخلافات والمشاكل بينهم بالتفاهم.[2]

---

[1] يوميات آسيا الوسطى، ص: 245

[2] سفر در سفر، ص: 182-184، الباحث قام بنقل المعنى إلى العربية.

6. ذكر المناظر البهيجة بأسلوب أدبي:

لا تخلو رحلات العبودي والعثماني من النكهة الأدبية؛ لأن كل واحد منهم أديب ورحالة. ولهما القدرة على استخدام الأساليب المختلفة للكتابة. وتخلف أقلامهما عبارات أدبية بديعة في أسلوبها ومحتواها. وإذا كتبا على سجيتهما، فإنهما ينشآن نصوصا أدبية جميلة. ومن الجدير بالذكر أن العبودي من الأدباء الذين أنشأوا المقامات أيضا. ومقاماته معروفة بعنوان "المقامات الصحراوية".

ومن جهته فإن الشيخ العثماني معروف بأسلوبه السلس المستساغ باللغة الأردية. فعباراته تأتي بدون أي تكلف، وتخلو من الكلمات الغربية والهجينة على حد سواء. فلا توجد في كتاباته الكلمات الإنجليزية، كما هو شائع بين أدباء اللغة الأردية في هذا العصر. ومن هذه الناحية للكتابة، فهناك توافق طريف بين كتابات العبودي والعثماني؛ لأن العبودي أيضا لا يحبذ استخدام الكلمات الهجينة في اللغة العربية. ولذا تجده يستخدم الكلمات العربية الأصيلة مع الإشارة إلى ما هو شائع، مثلا ذكر العبودي التأشيرة بـ "سمات الدخول"، وكذلك البلاستك بـ "اللدائن"، مع أن استخدام الكلمتين أصبح شائعا ذائعا في اللغة العربية.

وكتب العبودي متأثرا بمنظر نهر "ورزاب" في تاجكستان:

"وقفنا في مكان متسع قليلا على ضفة نهر (ورزاب) للتمتع بمرأى النهر هو يغذ السير بل الانحدار. ولمياهه خرير جميل يجلب النعاس لرتابته وتوازن وقعه. وقد انتصبت الحيطان الجبلية التي تكاد تخنق وادي النهر بأيدٍ خضر، ولكن النهر يبادر فيغسل أقدامها دون أن يصل هامها.... ومع جمال المنطقة وتدافع مياه النهر الذي ارتدت صفحته المضطربة ثيابا بيضا من شدة الاضطراب، فإن مجرد رؤية الجبال المنتصبة التي تكاد تغلق النظر دون الأفق القريب، بل إنها تغلقه بالفعل؛ لأن الوادي ينحرف بعد أن يتجاوزنا هي، مما لا يشعر المرء معه بالارتياح، إذا تصور أنه سيقيم على سبيل الافتراض – بين هذه الجبال".

"وجدت القرية مهملة من العناية في المرافق العامة وهي نفسها صغيرى تتعلق بيوتها بأهداب الشعب الجبلي الذي تقع على قدمه. بيوتها من الآجر والخشب وبعضها من الطين الذي بنيت أساساته من الحجارة. ... وكان المشهد مشهدا ممتعا قلما يحلم به المرء، وهو أن يرى قرية منزوية في شعب من شعاب الجبال التاجيكية. ويحيط به قوم من الإخوة المسلمين من

أهل هذه البلاد من العريقين في الإسلام. وإن كانت حصيلتهم من المعرفة بالإسلام قد قلت الآن، أو كادت تعدم، إذا نظرنا إليهم أفرادا من العامة".[1]

ووصف العبودي حديقة الفندق الذي نزل به في دوشنبة، فكتب:

"ولم أستطع مقاومة الإغراء في النزول إلى الحديقة، رغم قصر الوقت. فنزلت أتمشى في الحديقة في هذا الصباح الذي خيل إلي أنه كان يبتسم لي أو لأهل هذه المدينة، بعد عبوس طويل ران عليها لأدهار، حتى أصبح الكبار من أهلها لا يذكرون من زمانهم غير العبوس. وكان الصباح باردا بردا ربيعيا لذيذا ما لبث أن خف مع ارتفاع الشمس. فكان كغضب الحبيب ما يلبث أن يزول، بل ما يلبث أن يتحول إلى حب لذيذ أو أمل في حب لذيذ".[2]

ووقف العثماني أيضا على منظر نهر "ورزاب" نفسه، فجاد قلمه بما هو آت:

"تقع مدينة دوشنبة على ضفتي نهر "ورزاب" والنهر يجري وسطها مثل نهر سوات في باكستان. وتحيط الجبال المدينة من جانبين. وقد أنشأ الرئيس التاجكي قصرا له على ضفة ورزاب على مسافة ثلاثين كلومترا من دوشنبة. وأقيم حفل غداء على شرف ضيوف المؤتمر هناك. ورغم أنني كنت لا أجد في نفسي رغبة في زيارة ذلك المكان بسبب وضعي الصحي؛ إلا أن رفاقي منّوني بأن المناظر البهيجة قد تخلف أثرا جميلا على صحتك. فانطلقت معهم.

وكان الطريق كان جميلا جدا، والوجهة كانت فعلا منطقة رائعة. وكانت تشبه شيئا ما بمنطقة "بحرين" في سوات. وقد أنشئ القصر الرئاسي في قلب ذلك المنتجع السياحي، وتحيطه بساتين وأزهار. ولا بد من أن يطبع مثل هذا المنظر البهيج أثرا في النفس، في عامة الأحوال؛ لكنني كنت أشعر بضعف شديد والمرض قد أثر علي. فكان تفكيري معلقا بالعودة إلى دوشنبة بدلا من الاستمتاع بتلك المناظر الخلابة.

والله سبحانه وتعالى قد أسبغ علينا نعما لا تحصى ولا تعد؛ لكن بهجة القلب هي النعمة التي لا يمكن شراؤها بصرف أي كمية من المال. وأن هذه النعمة تحصل لنا عادة بالمجان؛ لكن الإنسان بدلا من أن يشكر الله عليها، يبقى غافلا حتى عن الاعتراف بوجودها أيضا".[3]

وألقى العثماني نظرة على مدينة "دربند" من برج القلعة، فكتب:

---

[1] يوميات آسيا الوسطى، ص : 180-183

[2] يوميات آسيا الوسطى، ص: 190

[3] انظر، سفر در سفر، ص : 283-284، وترجمة النص للباحث.

"ہم یہاں ظہر کے وقت پہنچے اور نماز اسی مسجد میں ادا کی اور اس کے بعد دربند شہر کی طرف روانہ ہوئے جو ایک پہاڑ کے دامن میں واقع ہے اور پہاڑ کے اوپر دربند کا مشہور تاریخی قلعہ ہے جو صدیاں گزر جانے کے باوجود اب بھی شان وشکوہ کی تصویر ہے۔ قلعے کے برج سے گرد و پیش کا دلآویز منظر ناقابل فراموش تھا۔ پہاڑ کے دامن میں دور تک پھیلا ہوا دربند شہر، اس کے پیچھے افق تک بحیرہء خزر کا نیلگوں پانی اور قلعے کے دائیں بائیں سرسبز پہاڑ اور وادیاں! دیر تک ہمارے رفقاء اس منظر سے لطف اندوز ہوتے رہے۔"[1]

"وصلنا إلى هنا ظهرا. وصلينا الصلاة في نفس المسجد. ثم انتقلنا إلى مدينة دربند التي تقع عند سفح الجبل. وعلى قمة الجبل قلعة دربند التاريخية الشهيرة التي لا تزال مهيبة رغم مرور القرون. وهي لوحة لعظمتها السابقة. والمنظر الخلاب من برج الحصن، مشهد لا يُنسى. المدينة عند سفح الجبل ممتدة إلى مسافة بعيدة، ووراءها المياه الزرقاء لبحر قزوين حتى الأفق خلفها، والجبال والوديان الخضراء على يمين الحصن ويساره! لفترة طويلة استمر رفاقنا في الاستمتاع بهذا المشهد".([2])

ومثل هذه النصوص الأدبية متناثرة في طيات رحلات العبودي والعثماني كفصوص جميلة تخلب العقول، وتزيد من شوق القارئ إلى قراءة ما كتباه، للمتعة الأدبية، ولو لم تكن أي فائدة أخرى مطلوبة منها.

7. ذكر الانطباعات الناشئة عن مشاهدة أي منظر أو لقاء أي شخصية:

من المعروف أن الرحلة لا تعني وصف ما يشاهده الرحالة من دون أي تأثر أو تفاعل معه؛ لأن مثل هذا الوصف والبيان يعني أن الرحالة لم يكن متفاعلا مع الوضع، ولم يقدر على إيضاح بيان مشاعره وأحاسيسه عما شاهده. وقد أخذوا على الرحالة الكبير ابن جبير أن رحلاته تصف كل ما جرى، لكنها لا تشمل انطباعاته وأحاسيسه ومشاعره عما جرى.

أما بالنسبة للعبودي والعثماني، فإنهما دائما يعربان عن مشاعرهما وانطباعاتهما خلال رحلاتهما عما يحدث. ولا يبخلان بالتعليق على ما يجري. وإليكم هذه الفقرة

---

[1] سفر در سفر، ص: 174

[2] ترجمة النص للباحث.

من رحلة العبودي إلى مدينة أنديجان، عندما شاهد قرية يعمل فيها الكبار والصغار لإنشاء مسجد:

"ولا أظن أن الزمن – ولو طال- يمكنه أن يمحي من ذاكرتي هذا المنظر العجيب، بل المهيب الذي يدل على عظمة هذا الدين. وهو أن الشيوعي الملحد المتعصب للإلحاد، المحارب بطبيعته للدين الإسلامي الحنيف، ومع ذلك لم تستطع الشيوعية بسلطتها وجبروتها وهيمنتها على كل شيء في البلاد، واحتكارها للتربية والتعليم وللدعاية والإعلام، وتجريمها تعلم أي شيء من الإسلام، بل حتى ذكره في غير المسجد، مع أن المساجد التي أبقوها في أيدي المسلمين، هي قليلة العدد، مراقبة من الشرطة، بحيث يتعرض من يدخلها للمضايقات. وإذا كان موظفا في الحزب الشيوعي أو الإدارة الحكومية، فإن مصيره كان الفصل والطرد. وظل الإسلام قويا في النفوس، متمكنا من القلوب، حتى إذا خف الضغط، وانحسر التعصب، ظهر على حقيقته التي ظن الملحدون أنهم قد طمسوها، فإذا به النور الوضاء الذي يعمر القلوب، وينير البصائر. ويسارع الصغار والكبار للعودة إليه والاغتراف من معينه".[1]

وكتب العثماني بعد ما زار شيخا بقرية في قيرغيزستان:

زار العثماني مدينة (قارا بالتا)، وهي تبعد عن بشكيك 70 كلم، لافتتاح أول مسجد في قرية (كالاك). فألقى أمام الحضور كلمة. فأخبره أحد العلماء أن في القرية عالما جليلا مسنا، لا يقدر على المشي. فقرر العثماني زيارته في بيته. وكتب عنه، أنهم زاروا الشيخ (دا ملا محمد سفر) في منزله. وليس منزله سوى غرفة مثل عريشة، يقضي حياته فيه كـ "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل". ووجهه كان مستنيرا يلمع عليه التقوى والخشية. وقد سُر بزيارتنا له.

وعندما سألوه عن كيفية تحصيله، أخبرهم أنه ذهب إلى تاجكستان بعد الثورة الشيوعية. وهناك درس بعض الكتب على شيخ في حقل للقطن خفية. وبعد ذلك قام بالتدريس للتلاميذ على نفس المنوال. وكتب العثماني في انطباعاته عن هذه اللقاء:

"والحقيقة أنه يمكن برؤية مثل هؤلاء الشيوخ تخمين التضحيات التي قدموها لحماية الدين. ونحن الذين شرفهم الله تعالى بثروة الإيمان بدون أي جهد، ولم تشكنا شوكة في

---

[1] يوميات آسيا الوسطى، ص:269

هذه السبيل، كيف لهم أن يخمنوا حلاوة الإيمان التي حصل عليها مثل هؤلاء الشيوخ بالمخاطرة بأنفسهم. واللقاء للحظات مع هذا الشيخ قد خلف أثرا كبيرا على القلب".[1]

8. المعلومات الجغرافية

يقدم كل من الشيخ العبودي والعثماني المعلومات الجغرافية الأساسية عن كل بلد يزوره. ورغم أنه يمكن أن تختلف المعلومات التي يقدمانها عن بلد واحد، بسبب الاختلاف في زمن زياراتهما؛ إلا أنها مفيدة جدا لمعرفة تلك البلاد. كما أنها تقدم فرصة لإجراء مقارنة بين التغيرات التي حصلت في تلك البلاد بين حين وآخر.

على سبيل المثال، قدم العبودي المعلومات الجغرافية التالية عن فرغانة:

"أسست ولاية فرغانة في عام 1938م ولم تكن قبل ذلك ولاية مستقلة ذات وحدة إدارية واحدة، بل كانت جهة تابعة لمناطق إدارية أخرى. ومساحتها 4447 كيلو متر مربعا، وسكانها مليونان و200 ألف نسمة. 70% منهم مسلمون والبقية أغلبهم من الروس، وفيهم نصارى من الأوكرانيين والأرمن وغيرهم. وهناك قلة يهودية.

وأهم مدنها القديمة: مرغلان التي كانت تسمى قديما (مرغنان كما سبق توجيهه). ويقول أهل فرغانة: إن مدينة مرغلان هي أقدم المدن في الوادي وأنها أسست قبل ألفي سنة. وأن الفيضان الذي كان يحدث فيها كل مائة سنة، لم يصبها ولا مرة واحدة؛ لأنها مرتفعة. وحتى آخر فيضان قبل اثني عشر سنة لم يصبها بسوء. وقالوا أيضا: إن الزلزال الذي أصاب مدينة فرغانة الحالية، وغيرها، وأحدث فيها خرابا، لم يصب مدينة مرغلان بأضرار.

وقد احتل الروس مرغلان عام 1860م وآخر ما سقط في أيديهم من مدن فرغانة المهمة (خوقند) في عام 1876م".[2]

وكتب العبودي عن التقسيم الإداري للاتحاد السوفييتي:

بالإشارة إلى التقسيم السياسي والإداري لروسيا الاتحادية، ذكر العبودي أن روسيا الاتحادية تتألف من 169 وحدة سياسية ذات استقلال داخلي محلي. وأن العادة عندهم – الروس- أن السكان إذا كانوا من أصل واحد أي كيان سابق على إلحاقهم بروسيا، فإنهم يخصصون لهم جمهورية محلية مثل (تتارستان) و(الشيشان)

---

[1] سفر در سفر، ص: 141، ترجمة النص للباحث.

[2] يوميات آسيا الوسطى، ص: 249

والأنقوش والأديغي الذين من الشركس والياقوتيين الذين يقطنون أقصى الشمال في بلاد هي أقسى بلاد روسيا بردا ولكنها ذات معادن كثيرة.

وإذا كان الشعب صغيرا وبجانبه شعب آخر مثله ذو كيان ولكنه صغير العدد مثل القرتشاي الذين يتكلمون التركية والشركس الذين يتكلمون الشركسية جعلوا لهم جمهورية صغيرة مشتركة مثل (قرتشاي شركس). أما إذا كان الإقليم لا يرجع إلى أصل خالص لطائفة ذات أصل عنصري واحد، فإنهم يسمونه إقليما مثل (إقليم كمشاتكا) وإقليم (خباروفسك).[1]

وفي المقابل قدم العثماني المعلومات الجغرافية والتاريخية التالية عن تاجكستان:

إن تاجكستان دولة تقع في وسط آسيا وتمتد على 55250 كلم مربعا، وتشارك حدودها مع كل من الصين وأزبكستان وقيرغيزستان وأفغانستان. ومعظم أراضيها جبلية. وبين تلك الجبال سلسلة جبال بامير التي تظل ذراها متوجة بالثلوج طول العام. وعاصمتها دوشنبة، بينما تعتبر مدينة خوجند ثاني أكبر مدينة لها. ولغتها الرسمية فارسية لكنها تكتب بالحروف الروسية منذ استيلاء الروس عليها.

من الناحية التاريخية، تعتبر تاجكستان جزءا من بلاد ما وراء النهر. والمراد من النهر هنا هو نهر جيحون الذي يسمونه الآن (آمو دريا). وكانت البلاد التي تقع وراءه، تسمى بـ بلاد ماوارء النهر. وهي تشمل أزبكستان وقيرغيزستان وتاجكستان والمناطق المجاورة لها. والمسلمون فتحوا هذه البلاد في القران الثاني الهجري. وأن المنطقة التي تنقسم الآن إلى عدة دول، كانت تعتبر إقليما واحدا من الدولة الإسلامية.

وكانت تاجكستان جزءا من إمارة بخارى في العصر الأخير. وفي القرن الثامن عشر تم ضم المناطق الجنوب غربية من نهر جيحون إلى أفغانستان وبينها منطقة بلخ أيضا. ويوجد بها عدد كبير من التاجك. وبدأ القيصر الروسي الاستيلاء على إمارات وسط آسيا في 1860م. وقاومت إمارة بخارى لفترة؛ لكن روسيا استولت على المنطقة كلها عام 1868م.

---

[1] انظر، العبودي، محمد بن ناصر، إلى الشرق الأقصى الروسي، الرياض، دار الثلوثية للنشر، ط1، 1433هـ/2012م، ص:149

وبدأ الشيوعيون حملات للاستيلاء على هذه المناطق كلها بعد الثورة الشيوعية عام 1917م. وسقطت دوشنبة بيدهم عام 1921م. واستمرت المقاومة بقيادة إبراهيم بك من بخارى، حتى عام 1931م؛ إلا أن الاتحاد السوفييتي نجح في فرض حكمه عليها. وتم القرار على أن تكون تاجكستان الجمهورية الخامسة عشر من الاتحاد السوفييتي وسموها جمهورية تاجكستان الاشتراكية.[1]

وكتب العبودي عن تاجكستان:

"تقع تاجكستان في جنوب تركستان الغربية بآسيا الوسطى على حدود أفغانستان. تأسست في البداية باسم مقاطعة تاجكستان ذات الحكم الذاتي كجزء من جمهورية أزبكستان في 14 أكتوبر 1924م. وبعد أن ألحق بها إقليم خوجند وإقليم بدخشان من هضبة البامير، تحولت إلى جمهورية تاجكستان ذات الحكم الذاتي التابعة لأزبكستان في 15 مارس 1925م. ثم قررت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي فصلها تماما عن أزبكستان. وفي 5 ديسمبر 1929م أعلنت جمهورية تاجكستان الاشتراكية السوفييتية الفدرالية.

وتقدر مساحة تاجكستان 143000 كم مربع، وعاصمتها دوشنبة، ويبلغ عدد سكانها 4801000 نسمة في إحصاء عام 1979م. نسبة المسلمين منهم 86 في المائة".[2]

9: تحقيق الأسماء التاريخية:

كما أسلفنا أن العبودي والعثماني ليسا مجرد سياح ورحالة، يطوون الأرض بدون أي هدف، بل إنهما عالمان مثقفان بعلوم مختلفة، ولاسيما العلوم الإسلامية والعربية. وبما أن جمهوريات وسط آسيا أو دول وسط آسيا أو منطقة تركستان الغربية التاريخية، كانت مهدا لأنواع من العلوم، فكان اهتمامهما بها أكبر. فكل واحد منهما سعى لنقل أدق المعلومات عن تلك البلاد إلى قرائه. وهذا الأمر يبدو واضحا عندما يبحث العبودي والعثماني عن الأسماء القديمة لمختلف المدن في آسيا الوسطى.

وكتب العبودي عن مدينة فرغانة:

"فعل المحدثون في وادي فرغانة، كما فعل الأقدمون الذين سموا المنطقة فرغانة، وأسموا مدينة فيها هي قاعدتها فرغانة. كما قال ياقوت الحموي: إن (فرغانة) مدينة وكورة واسعة.

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص : 272-273، نقل الباحث النص إلى العربية.

[2] يوميات آسيا الوسطى، ص: 171

والمحدثون الآن يسمون المنطقة فرغانة أو (وادي فرغانة)، ويسمون مدينة فيها وهي قاعدته (فرغانة)، ولكن هناك فرق بين (الفرغانتين) بين الأقدمين والمحدثين. ففرغانة المحدثين أي المتأخرين غير فرغانة الأقدمين.

هذه المدينة المسماة الآن فرغانة، وهي عاصمة الوادي، بناها الروس عندما احتلوا بلاد المسلمين هذه قبل الثورة الشيوعية. وإنما ذلك في عهد القياصرة وأسموها (فرغانة). أما مدينة (فرغانة) القديمة، فإن الظاهر أن اسمها الآن (مرغلان) بميم في أولها... وتقع مرغلان الآن مجاورة لمدينة فرغانة الحالية التي بناها الروس كما سبق، على أنه ليس لدينا دليل على أن (مرغلان) الحالية هي مدينة (فرغانة) القديمة. نظرا إلى أن مرغلان كانت معروفة منذ أكثر من ثمانمائة سنة باسم (مرغنان)، ذكرها ياقوت الحموي بهذا الاسم".[1]

والجدل عن أسماء المدن القديمة، ليس أمرا غير واقع؛ لأن الأسماء تتغير مع مرور الزمن. كما أن الأسماء تغيب عن الساحة كلما يتجدد بناء أي منطقة. وهو أمر معروف في كل مكان. لأجل ذلك يقوم العلماء المهتمون بالجغرافيا الحفاظ على الأسماء القديمة والحديثة للمناطق والمدن والقرى.

ومن هذا المنطلق، عندما قام العثماني بجولة في دوشنبة، بدأ يبحث عن مدينة (صغانيان) أو (جغانيان)؛ لأن اسمها ورد في الكتب القديمة؛ لكن لم يعرف أحد مدينة أو قرية بهذا الاسم على أرض الواقع. فلنقرأ ما كتب العثماني عن (صغانيان):

قام العثماني بجولة في "دوشنبة" – ومعناها يوم الاثنين- حيث زار المناطق المهمة منها، في سيارة. ثم ألقى نظرة على دوشنبة من فوق تلة عالية. وذكر العثماني أنه لا يوجد أي ذكر لـ دوشنبة في الكتب القديمة. وكان الروس شكلوا هذه المدينة من ثلاثة أجزاء، أحدها "دوشنبة". وكانوا يسمونها "ستالين آباد"، لكن تمت إعادة اسمه القديم دوشنبة إليها بعد الاستقلال من النظام الشيوعي. ودوشنبة كانت منطقة تقام بها سوق كل اثنين.

أشار العثماني إلى أنه يرى أن دوشنبة تقع في موقع تذكره الكتب القديمة باسم "جغانيان" أو "صغانيان". وينتمي إليه الكثير من العلماء. ويستدل على رأيه بكون قبر

---

[1] يوميات آسيا الوسطى، ص : 236-237

الشيخ يعقوب التشرخي في دوشنبة، مضيفا أنه مكتوب في سيرته أنه كان يسكن "صغانيان"؛ إلا أنه ذكر أنه عندما سأل الكثير من التاجك عن "صغانيان"، قالوا إنهم لا يعرفون أي مدينة بهذا الاسم. وكتب أن ما ورد في تعريف صغانيان في الكتب القديمة، هو أيضا يدل على أن "صغانيان" قد تكون من البلدات الثلاث التي أنشئت "دوشنبة" بعد ضمها معا.[1]

10. التعامل مع القضايا الشائكة بحنكة:

قام العبودي برحلات إلى جمهوريات وسط آسيا، عندما كان النظام الشيوعي قائما، والمسلمون يعيشون تحت ذلك النظام مضطهدين دينيا؛ لأن النظام الشيوعي كان قائما على أساس معارضة الدين. وبناء على ذلك تمت مصادرة المساجد وهدمها أو تحويلها إلى مرافق أخرى غير كونها مكانا لأداء العبادات.([2])

وهذا النظام لا يقوم إلا على أساس نظام مخابراتي قوي مطلع على أنفاس المواطنين. وكان الناس تحت رقابة دائمة. ولا يجوز لهم الاختلاف مع الحكومة لا نظريا ولا عمليا. وجاءت زيارات العبودي في هذه الخلفية. فكان في حاجة شديدة إلى التعامل الحذر خلال تحركاته داخل حدود الاتحاد السوفييتي. وهذا ما فعله بالفعل. وهو واضح من لقاءاته مع التلفزيون السوفييتي وإذاعة أزبكستان، ولقاءاته مع المسؤولين في الإدارة الدينية. وقد ورد ذكرها في موضعها من هذا البحث.

أما الشيخ العثماني، فقد كانت أسفاره إلى دول وسط آسيا، بعد سقوط النظام الشيوعي؛ لكن مع ذلك لم يكن الوضع على ما يرام؛ لأن بقايا النظام الشيوعي لم يزالوا

---

[1] انظر، سفر در سفر، ص : 282-283، نقل الباحث معنى النص إلى العربية.

[2] كان النظام الشيوعي بدأ حملة واسعة ضد الإسلام بعد الثورة. وكانت تلك الحملة تهدف إلى طمس الهوية الإسلامية للمسلمين في الاتحاد السوفييتي. فتم القضاء على المساجد والعلماء خلال تلك المرحلة، إذ كان 26000 مسجد و45000 عالم في الاتحاد السوفييتي غير بخارى وخيوة عام 1928م؛ لكن عدد المساجد النشطة هبط إلى 1312 مسجدا عام 1942م. وارتفع عددها إلى نحو 1500 مسجد زمن ستالين عندما قام بتليين الحملة ضد الإسلام نوعا ما؛ إلا أن ذلك العدد انخفض إلى نحو 400 مسجد فقط عام 1953م عندما بدأ خروشجيف حملة تحت عنوان "العودة إلى لينين". ولم يبق من العلماء إلا ما بين 2000-3000 عالم. انظر:

Bennigsen, Alexandre, and Broxup Marie, The Islamic Threat to The Soviet State, Services Book Club, 1984, p:48

يحكمون تلك الدول بسلطة استبدادية على سبيل العموم. وبالتالي، فإن الزوار إلى تلك البلاد، ولاسيما إذا كانوا من أهل العلم، يحتاجون إلى توخي الحذر والحيطة، حتى لا تتسبب زيارتهم في إنشاء المشاكل لهم أو لغيرهم. ولأجل ذلك أوصى العثماني بأنه ينبغي لكل من يريد القيام بأي نشاط ديني، أن يقوم بذلك بالتنسيق مع الإدارة الدينية، لإبعاد الشك عنه، لتعم الفائدة. وكانت رحلاته أيضا مرتبة بهذا الأسلوب.

هذا، وأرى أنه قد تكون هناك أوجه شبه أخرى أيضا بين رحلات العبودي والعثماني؛ لكنني أكتفي بهذه الأوجه العشرة. وهي غيض من فيض. ولا أدعي بأنني استوعبتها جميعا.

الفصل الثاني: أوجه الخلاف بين رحلات العبودي والعثماني:

بعد دراسة رحلات مختارة للشيخ محمد بن ناصر العبودي والشيخ محمد تقي العثماني، عثرت على الكثير من أوجه الشبه بين رحلاتهم، بينما لا توجد أوجه الخلاف بينها، إلا قليلا. وقد أشرت إلى سبب ذلك في بداية الفصل الأول من هذا الباب. وفيما يلي بعض الخلافات بين رحلات الشيخين:

التفاصيل حول مرافق السفر:

من عادة الشيخ محمد بن ناصر العبودي، أنه يكتب عن كل شيء في السفر بالتفصيل، من المطارات إلى الفنادق إلى المضيفات، ومعظم الأحيان لا تخلو كتاباته حتى من تقديم صورة قلمية للمضيفات أيضا؛ لكن هذه الأمور تنال اهتماما أقل لدى الشيخ العثماني. وقد تبدو التفاصيل التي يذكرها العبودي غريبة؛ لكنها دائما تكون مثيرة.

نال العبودي استقبالا وحفاوة في موسكو، حيث تم نقله في موكب عادة يكون مخصصا لرؤساء الجمهوريات، وأنزله المضيفون مع وفده المرافق في فندق (سوفييتكايا). ويشرح العبودي أن (سوفييتكايا) معناها السوفييتي، وكلمة (كايا) مثل ياء النسبة باللغة العربية. والفندق واسع وفخم. وكان إستالين ينزل ضيوفه فيه. وشرح العبودي وضع الفندق من الألف إلى الياء مع تعليقاته حول ما يشاهده. وكتب أن في كل غرفة سريران لكن السرير ضيق، رغم ضخامة أجسام الروس. والغريب فيما ورد عن الفندق، وصف السرير، إذ يقول العبودي:

> "أما الغطاء فإنه بطانية صوفية غليظة قد وضعوها في غلاف من القماش الأبيض النظيف. وجعلوا فيما يلي جسم النائم منه فتحة يطل منها وسط البطانية، يدخل منها النائم رجليه حتى يثبت عليه غطاؤه الذي هو ضيق أيضا وثقيل، بحيث إذا لم يفعل ذلك، فإنه ينزلق عنه مع ضيق السرير. وإذا حدث ذلك في شتاء هذه البلاد الباردة كان الضرر مؤكدا. وأما أرض الغرفة فإنها مفروشة بشيء رديء من السجاد

الموحد (الموكيت) فوق أرض خشبية كاملة. وقد وضعوا في غرفة الجلوس وفيما بين السرير سجادا صغيرا".[1]

وكتب العبودي عن فندق سمر قند:

"وكانت غرفتي في الطابق التاسع مؤلفة من غرفة نوم فيها سريران ضيقان، وغرفة استقبال. ووجدناهم أعدوا العشاء في الغرفة. ففي غرفتي كباب، أي شواء بالقضيب، وخبز وجبن وتفاح وخضروات من الخيار والطماطم وحلوى وماء معدني. وقد نلت من ذلك قليلا.

ثم ذهبت أتفقد الفندق. فرأيت كل ذلك يصح أن يقال فيه إنه يحتاج إلى صيانة. فباب الغرفة لا يكاد يغلق، ووجدت صعوبة في إغلاقه. والحمام الخاص في الغرفة تنقط من فوقه نقط من الماء الخفيف لا شك في أنها متسربة من الحمام الذي فوقه في الطابق العاشر، وصنبور الماء لا يمسك الماء إذا أغلق إمساكا كاملا".[2]

أما العثماني فقد كتب في وصف الفندق في دوشنبة:

"وقد تم تنظيم أمور السكن في فندق أَوِستا. وذكر منظمو المؤتمر بعد الوصول إلى مقر الإقامة، أن هناك برنامجا للذهاب بالضيوف لزيارة قلعة تاريخية هنا (قلعة حصار) بعد الظهر؛ إلا أن تعب السفر كان إلى درجة اعتذرنا عن تلك الزيارة، واسترحنا لوقت ما".[3]

وهكذا فإنه وإن يذكر الفنادق أو أي مكان آخر ينزل به؛ لكنه لا يقدم عنها التفاصيل كثيرة. مثلا كتب عن مسكنه في بشكيك:

" وعندما وصلنا إلى بشكيك، استقبلنا الشيخ محمد علي، والسيد مختار وأصدقاء آخرون، كما كان متوقعا. وعلى الرغم من أن الحجز من جانب الخطوط الجوية كان موجودا في فندق ممتاز؛ إلا أن

---

[1] في بلاد المسلمين المنسيين، ص: 31

[2] انظر، نفس المصدر، ص: 146

[3] سفر در سفر، ص: 277، وترجمة النص للباحث.

الأصدقاء في بشكيك رتبوا للسكن في منزل السيد ثمر أحد التجار المشهورين من بشكيك، تلبية لطلبه. وهو في منطقة ذات مناخ رائع في المدينة، ومزود بجميع المرافق".[1]

الاختلاف في دوافع الرحلات:

تختلف رحلات العبودي والعثماني من ناحية الجهة المشرفة والمنظمة لتلك الرحلات، إذ قام العبودي بمعظم رحلاته كأمين عام للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة أو كأمين عام مساعد لرابطة العالم الإسلامي. وكانت تلك الرحلات تهدف في المقام الأول إلى نقل مساعدات مادية للمسلمين. وهذا واضح من جميع رحلات العبودي إلى جمهوريات وسط آسيا، حيث قدم التفاصيل عن المساعدات التي قدمها عن الرابطة لبناء المساجد، إضافة إلى نقل الكتب الإسلامية والمصاحف إلى تلك الدول. فكان يلقى العبودي استقبالا رسميا، محدد البرامج واللقاءات في إطار رسمي؛ لكن مع ذلك كان العبودي السائح ينتهز الفرصة لتجاوز المراسم. وقد أشرنا إلى ذلك ضمن رحلة العبودي إلى تاجكستان.

أما بالنسبة لرحلات العثماني، فمعظمها كانت زيارات شخصية، سوى رحلته إلى تاجكستان، حيث كان ضيفا رسميا للحكومة التاجكية، لكن مع ذلك لقي حفاوة وترحيبا من جانب الجهات والشخصيات الدينية خلالها. وكانت رحلاته تنحصر في تقديم المساعدة الروحية والعلمية للمسلمين في تلك البلاد، بدلا من تقديم أي مساعدة مادية. وهذا الأمر واضح من رحلاته إلى قيرغيزستان وتاجكستان و روسيا.

شرح الكلمات الغريبة والمقارنات:

من عادة العبودي في رحلاته أنه قلما يدع كلمة غريبة بدون شرح. وهذا أمر ملحوظ في رحلاته إلى جمهوريات آسيا الوسطى أيضا. على سبيل المثال، يكتب العبودي:

---

[1] سفر در سفر، ص: 289، ترجمة النص للباحث.

"... وصلنا إلى تاش حوض. ومعنى اسمها: الحوض الحجري. فتاش حجر بالتركمانية، و(حوض) هي العربية المعروفة التي جمعها أحواض... مسجد الله برقان إيشان... ومعنى اسمه: عطاء الله إيشان. وقد أسموه بهذا الاسم على اسم شيخ يسمى (الله برقان إيشان) بمعنى الشيخ الصوفي عطاء الله، فبرقان: عطية أو عطاء، وإيشان: شيخ صوفي".[1]

"فذهبنا مع مضيفنا الشيخ أحمد جان سعيد إلى رؤية (جامع أخون بابا)، وأخون في اصطلاح أهل آذربيجان معناها إمام.... وكنت أقول: صباح الاثنين، رغم كون اليوم هو يوم الأربعاء. وذلك أن اسم هذه البلدة (دوشنبة)، هو يوم الاثنين؛ لأن (دو) بالفارسية... هي اثنان، وشنبة هو يوم السبت. ففي الفارسية أول الأسبوع يوم السبت واسمه (شنبة)، وبعده يوم الأحد (أيك شنبة) أي السبت الأول أو الواحد. وبعد الأحد الاثنين (دوشنبة) أي اليوم الثاني بعد السبت أو بالترجمة الحرفية غير الفقهية السبت الثاني...."[2]

ومثل هذا الشرح مطرد في رحلات العبودي، لكنه قليل ونادر في رحلات العثماني. على سبيل المثال شرح العثماني كلمة (براسبكت ميرا) و(كريملين) في رحلته إلى روسيا، حيث ذكر أن (براسبكت ميرا) معناها الطريق العام، و(كريملين) معناها: منطقة قديمة من أي مدينة تقع داخل قلعة. وذكر أن في روسيا (كريملينات) كثيرة؛ لكن كريملين موسكو أشهرها؛ لأنها كريملين العاصمة.[3]

التفاصيل عن الملابس والأوجه:

من عادة العبودي في رحلاته أنه يطالع كل شيء. وينقل كل ما يشاهده ويراه، وما ينبعث من المشاعر في قلبه. ولا تفوته التعليقات على مظاهر الناس وملابسهم وملامحهم.

---

[1] يوميات آسيا الوسطى، ص : 113-115

[2] نفس المصدر، ص: 189

[3] انظر، سفر در سفر، ص: 194

ونجد في رحلاته إلى جمهوريات وسط آسيا تعليقات على هذه الأمور. مثلا كتب عن سحن الناس في تركمنستان، خلال زيارته لمدينة (تاش حوض):

"ولاحظت أن سحن الناس الذين هم من التركمان تختلف قليلا عن سحن إخوانهم في خوارزم، وحتى في أزبكستان، مع أن الأزبك هم في الأصل أقوام من الترك، ولكنها افترقت عن الفروع التركية الأخرى منذ زمن. وتتضح السمات البخارية التي نعرفها في الحجاز عن التركستانيين الذين نسميهم البخاريين فيهم أكثر مما هي في التركمان.

أما الخوارزميون فإن فيهم أعراقا فارسية اختلطت بالأعراق التركية، وإن كانت التركية أو لنقل التركستانية أو البخارية فيهم أكثر. ومظهرهم كمظهر البخاريين؛ إلا في أمور لا يعرفها إلا خبير أو دقيق الملاحظة. وقد كرر الإخوة الذين معنا والذين التقينا بهم القول بأننا أول وفد إسلامي يصل إلى هذه المنطقة خلال التاريخ الذي يعرفونه في تاريخها".[1]

وكتب تعليقا على مظهر المسلمين في طشقند:

"وكان أكثر ما يلتقط النظر، رؤية نساء المسلمين وعليهن القمص الطويلة (الفساتين) المصنوعة من الحرير الطبيعي (القز) الذي تنتجه هذه البلاد بكثرة. ويكون القميص إلى ما دون الركبة بقليل، وكمّاه قصيران. فهو لباس غير محتشم، إضافة إلى كونه من الحرير الطبيعي الملون الذي يبرز الإغراء في المرأة. وتقتصر النساء على هذه القمص، فليس على الرأس شيء إلا ما كان من منديل صغير على رؤوس القلة منهن. أما الرجال، فإن لباسهم هو الأفرنجي المعتاد؛ إلا أنهم يضعون على الرأس (طاقية) مربعة الأعلى، منقوشة بنقش خاص، يريدون بذلك أن يثبتوا لهم شعارا خاصا بهم. ولا يلبسها إلا المسلمون".[2]

وتعليقا على ركاب الطائرة، خلال رحلته من أوركنج إلى بخارى، كتب العبودي:

---

[1] يوميات آسيا الوسطى، ص : 115

[2] نفس المصدر، ص : 50-51

"أما الركاب فإنهم مختلطون ما بين روس وأوكرانيين، وكلاهما من الأوروبيين، بل إن بعضهم يجعل العنصرين الروسي والأوكراني كليهما من السلافيين، وبين وطنيين بخاريين. وإن شئت الدقة قلت آسيويين أوسطين، نسبة إلى آسيا الوسطى التي تضم خوارزم وبخارى.

والفرق ظاهر بين الأوروبيين وهؤلاء الآسيويين الأوسطين أكثر مما هو ظاهر بين العرب الشماليين كالسوريين واللبنانيين والتونسيين مثلا، وبين الأوروبيين الجنوبيين كالأسبانيين والبرتغاليين. فالمسلمون هنا يتميزون عن الأوروبيين بالسمرة الواضحة، إضافة إلى التقاطع التي يمكن أن نوضحها لبني قومنا الذين يعرفون البخاريين بأنها بخارية".[1]

ومثل هذه التعليقات كثيرة في رحلات العبودي؛ إلا أنه لا توجد إلا تعليقات نادرة ومختصرة من هذا النوع في رحلات العثماني. فقد ذكر العثماني في رحلته إلى قيرغيزستان، خلال الإشارة إلى الغزو الثقافي الذي تعرض له المسلمون إبان الحكم الشيوعي، والموجات الثقافية التي غزت دول وسط آسيا بعد سقوط النظام الشيوعي:

"والوضع السائد الآن، هو أن المسلمين على سبيبل العموم قد تأثروا من الأفكار التي نشرها الاتحاد السوفييتي والثقافة الروسية، إلى درجة أنهم يجهلون المبادئ الأساسية جدا من الدين، وأنهم قد نزعوا من الشعائر الإسلامية بسبب تصبغهم بالحضارة والثقافة الغربية. وبرؤية النساء الشبه العاريات اللاتي يتجولن في الشوارع، لا يمكن الاطلاع على هويتهم الإسلامية، ولو بالمجهر...".[2]

المقارنات:

من ميزات رحلات العبودي أنه يقوم بمقارنات بين أشياء مختلفة يشاهدها خلال رحلاته. وعندما يرى شيئا ما في مكان، يتذكر به شيئا مماثلا له شاهده في مكان آخر، فيذكره للقارئ. وهكذا يتمكن من ربط بعض رحلاته بعضها بالبعض؛ لكن

---

[1] في بلاد المسلمين المنسيين، ص: 205

[2] انظر، سفر در سفر، ص: 137، ترجمة النص للباحث.

هذا الأمر غير موجود في رحلات العثماني التي درستها لإعداد هذا البحث. وهذا فرق آخر بين الفروق التي تميز رحلات العبودي من رحلات العثماني. وإليكم بعض النماذج.

كتب العبودي تعليقا على المشاهد التي شاهدها من الطائرة خلال رحلته من طشقند إلى خوارزم:

"كما ذكرني هذا المنظر بمناظر رأيتها من الطائرة فوق صحراء (غوبي) في الصين الشعبية. وقد صار طيران الطائرة رخاء لا يحس الراكب معه أنها تطير مما جعل الركاب ينامون، لاسيما أنه ليس على الأرض منظر يمكن أن يسترعي انتباههم. فالطيران على ارتفاع عال والأرض صحراوية. وما رأيت مثل هدوء الطائرات السوفيتية النفاثة، إذا استوت في الجو. فهي أهدأ من الطائرات الأمريكية ومن الطائرة الأوروبية (أير باص). واستمر منظر الصحراء الخالية من الجبال العالية. ولا يدرك البصر مما على الأرض إلا أشجارا صحراوية كأشجار الطلح، وإن كانت تبدو صغيرة بسبب ارتفاع الطائرة".[1]

وذكر العبودي خلال الإشارة إلى تأثر المصلين وبكائهم، على كلمة ألقاها في جامع الإمام أبي حنيفة بـ نمنكان في أزبكستان:

"إذ ذكرني بكاؤهم عند سماع هذه المعاني وشوقهم إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة وازدحامهم علينا عندما أردنا الانصراف من المسجد، بما لقيناه من مثل ذلك من إخوانهم التركستانيين الشرقيين في مدينة (كاشغر) من إقليم تركستان الشرقية الذي يسميه الصينيون الآن إقليم (شنجانغ). وكانوا يسمونه قبل ذلك (سينكيانغ). فقد زرت مدينة (كاشغر) على رأس وفد من رابطة العالم الإسلامي في عام 1404هـ/1984م. فوجدت من استقبال الإخوة المسلمين لنا في

---

[1] يوميات آسيا الوسطى، ص: 71

تلك المدينة ما يعجز عنه الوصف. وذكرت ما أمكنني ذكره في كتاب (في مهد الترك)".[1]

وكتب العبودي عندما جلس على مائدة في طشقند:

"وقد ذكرتني بعض أنواع الطعام التي قدمت بموائد شهدناها في تركستان الشرقية التي هي شقيقة تركستان الغربية هذه، التي أسماها الاتحاد السوفييتي الآن بوسط آسيا السوفيتية. وذلك مثل (اليغمش) الذي نعرفه في الحجاز من طعام البخاريين، أهل بخارى. يستوي منهم عندنا من كان من تركستان الشرقية، ومن كان منهم من تركستان الغربية".[2]

ونقرأ هذه المقارنة التي أجراها العبودي، خلال زيارته مدينة أنديجان في أزبكستان:

"وعندما رأيت هذه الخيرات من المزروعات المزدهرة والأنهار المتدفقة، والمياه السارحة، وتصورت بلادنا صحراء العرب الجرداء التي كان يأتي على أهلها زمان يأكلون فيه القد. كما قال راعي النميري:

إلى ضوء نار يشتوي القد أهلها وقد يكرم الضيف والقد يشتوي

والقد: إن لم تكن تعرفه، هو الجلد غير المدبوغ.

ذكرني هنا أبياتا لأبي ذبابة السعدي من الصحابة، أنشدها الجاحظ، والشاعر من بني سعد من تميم، قال:

لكسرى كان أعقل من تميم ليالي فر من أرض الضباب

فأسكن قومه ببلاد ريف وجنات وأنهار عذاب

فلا رحم الإله صدى تميم فقد أزرى بنا في كل باب" [3]

---

[1] يوميات آسيا الوسطى، ص : 292-293

[2] في بلاد المسلمين المنسيين، بخارى وما وراء النهر، ص: 106

[3] يوميات آسيا الوسطى، ص : 274-275

وأرى أن هذه المقارنة بين رحلات العبودي والعثماني، تكفي لتقديم صورة واضحة عن أوجه الشبه والخلاف بينها، وإن كانت الفروق أقل، كما كتبت سابقا، من القواسم المشتركة؛ لكن مع ذلك لا أدعي استيعاب كل الفروق والقواسم المشتركة بينها؛ لأنني قمت فقط بدراسة رحلتين للعبودي إلى دول وسط آسيا وثلاثة رحلات مختصرة للعثماني إلى جمهوريات وسط آسيا. وأعتقد أن كل سيوسع من بعدي في دراسة المزيد من الرحلات، فإنه سيعود بمزيد من اللآلي والدرر الكامنة من قعر هذا البحر العميق من رحلات العبودي والعثماني. (**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**).([1])

وصلى الله وسلم على نبيه الكريم وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

****

[1] يوسف: 76

خاتمة

الحمد لله الذي وفقني لإتمام هذا البحث والصلاة والسلام على النبي الأمي الذي نشر العلم والهدى وارتحل لذلك الغرض النبيل من مسقط رأسه إلى يثرب التي أصبحت المدينة المنورة بعد نزوله فيها. أما بعد!

يحتوي هذا البحث على مقدمة والتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة وتوصيات. وشمل التمهيد معنى الرحلة لغة واصطلاحا، فمفهوم أدب الرحلة، والرحلة في القرآن الكريم، وأنواع الرحلات، وموضوع أدب الرحلة، ونشأة أدب الرحلة، والرحلة في العصور الوسطى وأهمية الرحلات. وكتبت نبذة عن أهمية الرحلات، ودوافع الرحلات وأسبابها.

وبما أن هذا البحث، بحث يهدف إلى مقارنة بين رحلات للشيخ محمد بن ناصر العبودي بالعربية، وأخرى للشيخ محمد تقي العثماني بالأردية، أوردت في التمهيد معلومات تتعلق بالرحلة في الأدب الأردي أيضا، ليكون هذا البحث شعاعا ينير الطريق لكل طالب علم يرغب في معرفة الرحلة في الأدب الأردي.

ويلي التمهيد الباب الأول. وفيه فصلان:

الفصل الأول: سيرة الشيخ محمد بن ناصر العبودي ومؤلفاته، وهذا الفصل ينقسم إلى مبحثين: المبحث الأول: ترجمة الشيخ محمد بن ناصر العبودي، والمبحث الثاني: مؤلفات الشيخ العبودي

الفصل الثاني: سيرة الشيخ محمد تقي العثماني ومؤلفاته. وهذا الفصل أيضا ينقسم إلى مبحثين: المبحث الأول: ترجمة الشيخ محمد تقي العثماني، والمبحث الثاني: مؤلفات الشيخ العثماني

وفي هذا الباب كتبت ترجمة للشيخ العبودي والشيخ العثماني. ونقلت معظم ترجمة العبودي عن كتابه "سبعون عاما في الوظيفة الحكومية". وعلى الرغم من أن ذلك الكتاب ليس سيرة ذاتية للعبودي، كما أشار إليه هو بنفسه؛ لأنه كان يريد كتابة سيرة ذاتية له على حدة؛ لكن مع ذلك كان هذا الكتاب الحافل يفي بحاجة معرفة أهم محطات حياة العبودي. وهذا كان مطلوبي من ترجمته. وحاولت في الفصل الثاني

تقديم قائمة بمؤلفات العبودي؛ لأنه شخصية موسوعية وله آثار علمية كثيرة في مختلف المجالات والموضوعات.

وفي الفصل الثاني تم تقديم ترجمة الشيخ محمد تقي العثماني. ومعظمها منقولة من "يادين" –ذكريات–. وهي سيرة ذاتية للشيخ العثماني، يكتبها بمجلة "البلاغ" الناطقة بالأردية التي تصدر عن دار العلوم كراتشي، في حلقات. وهذا الأمر ساعدني كثيرا في معرفة الأوضاع الحقيقية التي عاشها في صباه، وبعد الهجرة إلى باكستان، إضافة إلى المشاق التي امتشقها في سبيل طلب العلم. وقد عرضت سيرته بتفصيل أكثر، من أجل زيادة النفع.

والباب الثاني: يشمل عرض رحلات الشيخين. وفيه أيضا فصلان. الفصل الأول: رحلات الشيخ العبودي (الأسلوب والأفكار والموضوعات). وينقسم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث: المبحث الأول: عرض كتاب "في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى و ما وراء النهر "، والمبحث الثاني: عرض كتاب "يوميات آسيا الوسطى"، والمبحث الثالث: "إلى تاجكستان وفرغانة". وهذا المبحث أيضا معروض من "يوميات آسيا الوسطى". وقد تم عرض الأسلوب والأفكار والموضوعات مع التعليق عليها، لدى الحاجة.

وقبل الدخول إلى الفصل مباشرة، كتبت "مدخلا" ليكون دليلا على ما سيرد في الفصل. وأشرت فيه إلى خلفية تلك الرحلات، ليسهل على القارئ استيعاب ما ورد في الفصل بسهولة.

الفصل الثاني: رحلات الشيخ العثماني (الأسلوب والأفكار والموضوعات). وهذا الفصل أيضا ينقسم إلى ثلاثة مباحث. والمبحث الأول هو: رحلات الشيخ العثماني إلى قيرغيزستان، والمبحث الثاني: رحلة العثماني إلى جمهورية تاجكستان. والمبحث الثالث: رحلة العثماني إلى روسيا.

وهنا أيضا قدمت "المدخل" على الفصل. وهو أيضا يشير إلى الأوضاع التي قام فيها العثماني بتلك الرحلات. والفارق بين رحلات العبودي والعثماني، هو أنني عنونت رحلات العثماني بـ "رحلات الشيخ محمد تقي العثماني إلى دول وسط آسيا و

روسيا"، بينما عنونت لرحلات العبودي بـ "رحلات العبودي إلى الاتحاد السوفييتي وجمهوريات وسط آسيا". وذلك لأن رحلات العبودي التي تناولتها في هذا البحث، هي كانت إبان العهد الشيوعي الذي انتهى عام 1991، بينما قام العثماني بالرحلات التي تناولتها في هذا البحث بعد سقوط النظام الشيوعي. وبذلك أصبحت جمهوريات وسط آسيا، دول وسط آسيا.

وفي نهاية كل فصل من هذين الفصلين، قمت بتحليل الأفكار الواردة فيه. وهذا التحليل يشمل قراءتي لذلك الموضوع، وذكر أسلوب الكاتب فيه أو أي معلومة جديدة جديرة بالذكر بالنسبة لي؛ لأن الأمر هنا يتعلق بالذوق. وكل شخص له ذوقه وفكرته عن كل شيء. وبالتالي قد يكون أمر ذا أهمية كبيرة لشخص، ولا يحظى بتلك الأهمية لدى الآخر. وللناس فيما يعشقون مذاهب.

والباب الثالث، وهو الباب الأخير من هذا البحث. وعنوانه: المقارنة بين رحلات الشيخين العبودي والعثماني، وهو ينقسم إلى فصلين: الفصل الأول: أوجه التشابه بين رحلات الشيخين، وهي كثيرة، والفصل الثاني: أوجه الاختلاف بين رحلات الشيخين، وهي قليلة؛ لكنها موجودة. وبذلك انتهي البحث.

نتائج البحث

نتائج عن رحلات العبودي:

بعد دراسة موضوعية لرحلات مختارة للشيخ العبودي خلال هذا البحث، وصلت إلى نتائج كثيرة. وأذكر بعضها فيما يلي:

1. لم تكن رحلات العبودي إلى جمهوريات وسط آسيا والاتحاد السوفييتي، رحلات سياحية عادية، بل إنها كانت رحلات هادفة، ترمي إلى تقصي أوضاع المسلمين في الاتحاد السوفييتي الذي كان يعتبر سجنا كبيرا في ظل النظام الشيوعي، بسبب غياب الصلات بين المسلمين في هذه البلاد والبلاد الأخرى، إضافة إلى تقديم دعم لإنشاء المساجد.
2. كانت الشعوب في ظل النظام الشيوعي مكبوتة، لا صوت لها؛ لكن المسلمين كانوا أكثر تعرضا للظلم والاضطهاد، حيث جرت محاولات مدروسة لقمعهم وطمس هويتهم الإسلامية. ووصل الأمر إلى أن الشيوعيين صادروا المساجد وحولوها إلى مستودعات ومستوصفات ومدارس، وحتى تم هدمها. ولم تبق بعد الثورة الشيوعية في الاتحاد السوفييتي إلا 100 مسجد مفتوحا.
3. عرفنا من رحلات العبودي أن الاتحاد السوفييتي كان يمنح التأشيرات لمدن محددة، وليس للسائح والزائر أن يزور أي مدينة غير مدرجة في تأشيرته.
4. ذكر العبودي أن الطائرات الروسية كانت كبيرة جدا، وأنها مهيأة لمقاومة البرد أكثر من كونها مهيأة لمقاومة الحرارة؛ لأجل ذلك لا توجد في الرحلات الداخلية الروسية المكيفات.
5. شرح العبودي الكلمات الغريبة والأعجمية التي وردت في رحلاته. وبعض الأحيان يقوم بإعادة الكلمات إلى أصلها أيضا. كما أنه يصر على استخدام المصطلحات والأسماء القديمة لجمهوريات آسيا الوسطى؛ لأن تلك المناطق معروفة في التاريخ الإسلامي. وكانت لها أسام قضت عليها الثورة الشيوعية.
6. يُعرف من رحلات العبودي أن الجمهوريات التي كانت تسمى جمهوريات مستقلة، لم تكن تحظى بأي استقلال داخلي، بل كانت موسكو تديرها كما تشاء. كما

أنه أشار إلى أنه تم تقسيم بلاد المسلمين على أسس عرقية أو إثنية، فقط من أجل ترسيخ التفرقة بينهم، وإلا فإنهم من أصل تركي واحد.

7. عرفنا من رحلات العبودي أن موائد المسلمين في جمهوريات آسيا الوسطى واسعة ومتنوعة، وأن شعوبها مضيافة أكثر من أي شعب شاهده العبودي.

8. تُدار شؤون المسلمين الدينية في الاتحاد السوفييتي عن طريق الإدارات الدينية. وهي كانت أربع إدارات تشرف على شؤون المسلمين في جميع أنحاء الاتحاد السوفييتي.

9. لم يكن بالاتحاد السوفييتي لتعليم المسلمين سوى معهدين، معهد الإمام البخاري في طشقند، ومدرسة مير عرب في بخارى، وعدد الطلاب فيهما معا لا يتجاوز مائة وخمسين طالبا، مع العلم أن الاتحاد السوفييي كان يعترف رسميا بوجود أكثر من ثلاثين مليون مسلما على أراضيه.

10. ذكر العبودي التقسيم الإداري للاتحاد السوفييتي، إضافة إلى نبذة عن تاريخ وجغرافية البلاد التي زارها، خلال رحلاته.

11. كان الزوار للاتحاد السوفييتي يتعرضون لأشد أنواع المراقبة، من أجل الحيلولة دون أي تعامل بينهم وبين السكان المحليين. وقد ذكر العبودي أن جميع حركاته وسكناته كانت تحت عين الرقيب، رغم أنه كان ضيفا رسميا للدولة.

12. أثنى العبودي على بعض إجراءات الاتحاد السوفييتي وبينها منع التدخين والخمر على متن الرحلات الداخلية، والرخص في الإيجار والنقل.

13. لم يترك العبودي مرافق السفر بدون وصف تام لها. فقدم صورة قلمية واضحة للفنادق والطائرات والأسواق، والمكاتب، ومرافق النقل.

14. ذكر العبودي أن المسؤولين المسلمين في الاتحاد السوفييتي لا يقدرون حتى على الاعتراف بكونهم مسلمين؛ لأن ذلك الأمر يعتبر مخالفة للمبادئ الإلحادية للحزب الشيوعي. ويعاقبون على ذلك.

15. يصف العبودي طبيعة المناطق التي يزورها، كما يلقي الضوء على ملامح سكان تلك المناطق ومظهرهم.

16. لا ينسى العبودي واجبه الديني، ويُنكر البدعات التي يراها.

17. يحرص العبودي على زيارة الأماكن التاريخية والهامة في البلاد التي يزورها، ويتأسف على ما لم يقدر على مشاهدته، أيا كان سببه.

18. يتعامل العبودي مع وسائل الإعلام والشخصيات التي يلتقيهم، بحصافة وحنكة دبلوماسية، تفاديا لأن تتسبب أي كلمة له في إنشاء أي مشكلة لمضيفيه أو حرج له.

19. يلخص العبودي في رحلاته، الكلمات التي يلقيها بأي مناسبة، كما أنه ينقل خلاصة الكلمات التي تُلقى لاستقباله.

20. توجد في رحلات العبودي مقارنات كثيرة، بين شعب وشعب، وبين شيء وشيء، وبين منطقة ومنطقة، وبين كلمة وكلمة، وبين المناظر الطبيعية في بلاد مختلفة، وعلى هذا القياس.

نتائج عن رحلات العثماني:

اكتشفت بعد دراسة رحلات للشيخ محمد تقي العثماني لدول وسط آسيا، أمورا عدة. وأذكر بعضها في هذه النتائج على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر:

1. كانت رحلات العثماني إلى دول وسط بعد سقوط النظام الشيوعي. وكانت أمامه فرصة لمعرفة الأمور أكثر لأن الناس كانوا يحظون بحرية أكبر. وذكر أنه تم القضاء على العلماء بعد الثورة الشيوعية، أو تم نفيهم إلى سيبيريا، حيث ماتوا في وضع مأساوي. وذكر أنه يبدو له أنه لن يمكن الاطلاع على الحقائق كاملة حول ما جرى للمسلمين خلال الحكم الشيوعي.

2. يقدم العثماني النصح للمسلمين في كتاباته ويدعوهم إلى التمسك بالدين والعمل به.

3. يكتب العثماني عن تاريخ البلاد التي يزورها وجغرافيتها.

4. يتضح من رحلات العثماني إلى دول وسط آسيا، أن البيئة للعمل الديني أفضل في قيرغيزستان مقارنة بالدول الوسط آسيوية الأخرى، حيث يحظى الناس بحرية أكبر، بينما الوضع في تاجكستان أسوأ من هذه الناحية.

5. ذكر العثماني أن العلماء حافظوا على ما عندهم من علم الدين، ونشروه بالتدريس في السراديب والحقول والمقاهي، خفية. لذلك لا يمكن لهذا العلم، إلا أن يحوي العلم الأساسي وحفظ المبادئ.

6. يشرح العثماني الكلمات الغربية التي ترد في كتاباته؛ إلا أنه يكتب باللغة الأردية الخالصة، لا تشوبها الكلمات الإنجليزية.

7. يذكر العثماني ملخص كلماته وخطبه التي يلقيها بأي مناسبة، لتعم الفائدة.

8. يدعو العثماني إلى التمسك بالدين وسلوك طريق الاعتدال ونبذ الخلافات الفرعية للحفاظ على المبادئ الأساسية.

9. يقدم العثماني في رحلاته صورا قلمية للمناظر التي تعجبه بأسلوب أدبي رفيع غير متكلف.

10. أشار العثماني إلى أن العمل الديني في دول وسط آسيا، لا يزال يحتاج إلى موافقة "الإدارة الدينية"، وأوصى بمراعاة هذا الأمر تفاديا لإثارة أي مشاكل.

11. ذكر العثماني أن "الكريملين" ليس اسم مدينة بعينها في روسيا، بل هي تعني "المدينة التي تقع في قلعة". وهي كثيرة في روسيا؛ لكن كريملين موسكو أشهرها، لكونها كريملين العاصمة.

12. يتضح من رحلات العثماني أنه يلتزم بالنزهة الصباحية. وكذلك يقوم بالتجول والسياحة، إذا وجد فرصة لذلك.

13. يسعى العثماني خلال رحلاته للتحقيق فيما يتعلق بالأمكنة. مثلا نراه يحقق عن كهف أصحاب الكهف في زيارته للأردن، ويزور مدينة دربند خلال رحلته إلى داغستان للتحقيق في "سد ذي القرنين".

14. رغم أن العثماني يسجل انطباعاته في فقرات رحلاته؛ إلا أنه كتب انطباعاته على حدة في نهاية رحلته لروسيا.

15. تحتوي رحلات العثماني على مسائل فقهية أيضا.

توصيات واقتراحات

بناء على النتائج التي ذكرناها آنفا، بعد دراسة رحلات للشيخ العبودي والشيخ العثماني، يبدو من المناسب طرح التوصيات التالية:

1. ينبغي نقل رحلات العبودي إلى اللغة الأردية، ورحلات العثماني إلى العربية، لتكون جسرا ثقافيا بين الناطقين بالعربية والأردية، وليستفيد قراء اللغتين من تجاربهما في الرحلات.
2. من المناسب دراسة رحلات الشيخين من نواح مختلفة؛ لأنها تحتوي على مواد متنوعة. على سبيل المثال، يمكن دراسة المعلومات الجغرافية، والمعلومات الثقافية، والمعلومات التاريخية، والمعلومات الفقهية، والشخصيات التاريخية التي ورد ذكرهم في تلك الرحلات، على حدة.
3. دراسة حول ملامح وعادات الشعوب التي ورد ذكرها في رحلات العبودي؛ لأنه يقدم معلومات جيدة في هذا الباب.
4. دراسات مقارنة بين رحلات العبودي والرحالين الكاتبين باللغة الأردية لتنويع الدراسات.
5. دراسة رحلات العبودي لمعرفة أوضاع المسلمين في الاتحاد السوفييتي قبل سقوط النظام الشيوعي.
6. دراسة رحلات العثماني للدول الغربية للكشف عن المشاكل التي يواجهها المسلمون في المجتمعات الغربية.
7. دراسة لرحلات العبودي لمعرفة جهود رابطة العالم الإسلامي لإنشاء المساجد ودعم الجاليات الإسلامية في العالم.
8. دراسة لرحلات العبودي لمعرفة أوضاع المسلمين في الدول الإفريقية والدول الجنوب أمريكية والجزر في المحيطات التي لا تتوفر عنها المعلومات الدقيقة حتى في أيام العولمة هذه.
9. دراسة الأساليب البلاغية في رحلات الشيخ العبودي والعثماني.

10. دراسة متعمقة لرحلات العبودي والعثماني، من أجل الكشف عن الخطوط العريضة للتعاون بين مختلف الشعوب في العالم.

****

الفهارس

فهرس الآيات

الرقم	نص الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	4_سورة النساء		
1	﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾	97	24
2	﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾	100	2،24
	6_سورة الأنعام		
3	﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾	11	1، 25
	9_سورة التوبة		
4	﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾	122	1
	12_سورة يوسف		
5	﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾	62	21
6	﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾	70	22
7	﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾	75	22
8	﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾	76	22
	14_سورة إبراهيم		
9	﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾	7	ح
	18_سورة الكهف		
10	﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴾	16	24
11	﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾	66	23
	22_سورة الحج		
12	﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾	27	17
	106_سورة قريش		
13	﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾	2	21

فهرس الأحاديث

الرقم	نص الحديث	رقم الصفحة
1	((إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعهُ مِنَ النَّاسِ، وَلكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ))	229
2	((إن ملك الحبشة لا يُظلم لديه أحد))	22
3	((كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته))	322
4	((كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل))	327 ,261

فهرس الأشعار

الرقم	الشعر	الشاعر	رقم الصفحة
1	لَعَمْرُكَ إنّ الموَتَ مَا أَخْطأَ الْفَتى لكَالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْيَاهُ في اليَدِ	طرفة بن العبد	227
2	فإن أتوكَ وقالوا إنَّها نصفٌ فإنَّ أطيبَ نصفيه الذي ذهبا	ابن نباته المصري	175
3	لكسرى كانَ أعقلَ من تميمٍ ليالي فرَّ من بلدِ الضَّبابِ	الفرزدق	341 ,249
4	وإنّ لنا قبرين: قبر بلنجر وقبرا بأعلى الصّينيا لك من قبر	ابن جمانة الباهلي	209
5	والوقْتُ أَنْفَسُ ما عَنِيتُ بِحِفْظِهِ وَأَرَاهُ أسهَلَ ما عليك يَضِيعُ	يحيى بن هُبَيرة البغدادي	310
6	إلى ضَوءِ نارٍ يَشتَوي القِدَّ أَهلُها وَقَد يُكرَمُ الأَضيافُ وَالقِدُّ يُشتَوى	الراعي النميري	249

فهرس الأعلام

الرقم	العلم	الصفحة
.1	أحرار، عبيد الله	200
.2	آزاد، محمد حسين	42
.3	أصحمة بن أبحر	22
.4	إقبال، محمد	8
.5	البيروني، أبو الريحان	39
.6	تيمور لنك	195
.7	جعفر بن أبي طالب	22
.8	حكيم، لقمان	17
.9	رازي، محمد ولي	94
.10	السرخسي، محمد بن أحمد	267
.11	شمس الدين بن ضياء الدين	172
.12	صديقي، حسن الزمان	117
.13	عبد العزيز	287
.14	العثماني، شبير أحمد	92
.15	العثماني، محمد رضي	94
.16	العثماني، محمد رفيع	94
.17	العثماني، محمد شفيع	91
.18	العظيم، إسكندر	6
.19	فاهيان	5
.20	قثم بن العباس	194
.21	كاكي، قطب الدين بختيار	266
.22	كولومبس	5
.23	كيفي، محمد زكي	94
.24	المتقدر بالله	38
.25	محمود الحسن	91
.26	ميكاس تينيز	6
.27	النعماني، شبلي	32
.28	الواثق بالله	38
.29	ولي الله، الشاه	39

فهرس الأماكن

الرقم	المكان	الصفحة
1	أديس أبابا	157
2	آذربيجان	72, 150, 152, 201, 240, 315, 316, 337
3	الأردن	54, 123, 138, 155, 158, 159, 305, 312
4	أرمينيا	74, 152
5	أزبكستان	10, 140, 150, 176, 178, 179, 180, 187, 188
6	الأزهر	54, 114, 279
7	إستانبول	21, 168, 199, 259, 287, 318
8	أستراليا	45, 62, 73, 77, 78, 79, 81, 137, 218
9	إسلام آباد	16, 67, 121, 212, 259, 264, 265, 271, 272, 276
10	أفريقية	8, 55, 56, 70, 71, 72, 73, 75, 78, 197, 224, 231
11	أفغانستان	40, 57, 176, 185, 209, 234, 235, 274, 282, 329, 330
12	الإمارات العربية المتحدة	122
13	أمريكا	34, 45, 58, 61, 71, 73, 77, 81, 138
14	إنجلترا	40, 42
15	إندونيسيا	57, 74, 81
16	إيران	41, 42, 45, 57, 137, 201, 315, 316
17	إيطاليا	42, 43, 44, 137
18	باريس	42, 43, 45, 85
19	باكستان	4, 5, 16, 17, 47, 48, 57, 80, 90, 92, 93
20	البحرين	25, 53, 122
21	البرازيل	58, 71, 74, 75, 76, 77, 81, 138, 254
22	البرتغال	79, 80
23	بريطانيا	34, 61, 98, 136
24	بغداد	43
25	بنغلاديش	90, 92, 106, 115, 136
26	بيرو	61
27	بيروت	12, 19, 20, 34, 35, 54, 56, 58, 64, 70

28	تاجكستان	10, 11, 138, 150, 205, 208, 234, 348
29	الحجاز	42, 46, 47, 52, 139, 140, 287, 318, 338, 341
30	خوارزم	150, 158, 202, 203, 208, 209, 217
31	خيبر بختونخوا	92, 108, 120
32	الداغستان	10, 72, 150, 152, 315, 317
33	داغستان	80, 153, 162, 229, 284, 285, 286, 287, 288
34	دمشق	17, 54, 93, 120, 128
35	الدنمرك	61
36	ديوبند	90, 91, 93, 94, 96, 97, 98, 100, 108, 114, 126, 308
37	روسيا	10, 11, 34, 45, 64, 74, 76, 77, 137, 149, 150
38	الرياض	48, 50, 52, 53, 55, 66, 67, 68, 70, 71
39	الشام	21, 36, 154, 288, 316
40	الصين	33, 37, 42, 45, 61, 63, 72, 74, 76, 78
41	طشقند	159, 166, 169, 173, 174, 175, 176, 177, 181
42	العراق	42, 47, 135, 139
43	فلسطين	2, 25, 168
44	القاهرة	33, 54
45	كراتشي	7, 8, 17, 57, 62, 93, 94, 95, 97, 98, 99, 100
46	الكويت	47, 64
47	لاهور	41, 43, 45, 48, 57, 94, 107, 108, 109, 123, 264
48	لكناو	41
49	لندن	40, 41, 42, 44, 45, 106
50	المدينة المنورة	1, 2, 23, 26, 53, 54, 55, 78, 79, 287
51	مصر	2, 25, 26, 32, 41, 44, 53, 54, 109, 136
52	مكة المكرمة	26
53	المكسيك	63, 81
54	موسكو	158, 159, 160, 163, 164, 165, 166, 167
55	اليابان	44, 137, 294
56	اليمن	2, 21, 36, 137

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

المصادر والمراجع العربية

الرقم	المصادر
1	أحمد، د. أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، بدون تاريخ
2	بت، توصيف أحمد، رحلات محمد بن ناصر العبودي إلى شمال شبه القارة الهندية (دراسة وصفية تحليلية)، بحث تكميلي لنيل درجة ماجستير الفلسفة في الأدب العربي، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، العام الدراسي 2019م/ 1440هـ،
3	بديع، إميل، وميشال عاصي، المعجم المفصل في اللغة والأدب، بيروت، دار العلم للملايين، ط 1، 1987م
4	بين الأرغواي والبارغواي، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1413هـ/1992م
5	حسن، زكي محمد، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، بيروت، دار الرائد العربي، ط 1401هـ /1981م
6	حسين، حسني محمود، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1403هـ /1983م
7	الحسني، العلامة الشريف عبد الحي بن فخر الدين، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، بيروت، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 1420هـ/1999م
8	حكيم، لقمان، محمد تقي العثماني القاضي الفقيه والداعية الرحالة، دمشق، دار القلم، الطبعة الأولى، 1423هـ/ 2002م
9	الحمد، محمد بن سعود، موسوعة الرحلات العربية والمعربة المخطوطة والمطبوعة – معجم ببليوجرافي، مثقفون بلا حدود، الطبعة الأولى، 1428هـ/2007م
10	الحمد، محمد بن سعود، موسوعة الرحلات العربية والمعربة المخطوطة والمطبوعة – معجم ببليوجرافي، مثقفون بلا حدود، الطبعة الأولى، 1428هـ/2007م
11	خليل، عماد الدين، من أدب الرحلات، دار ابن كثير، ط 1426هـ/2005م
12	رشاد بك، سياحة في الروسيا، وندسور، مؤسسة هنداوي، 2015م
13	الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، بيروت، دار المعرفة، الطبعة الثالثة، 1430هـ/2009م
14	عبد الدائم، الشيخ أحمد بن يوسف بن، المعروف بالسمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم، تحقيق محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1417هـ/1996م
15	عبد العزيز بن سعود العويد , لطائف من رحلات الشيخ الرحالة محمد بن ناصر العبودي، الرياض، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، 1435هـ/2014م
16	العبودي، محمد بن ناصر، إلى الشرق الأقصى الروسي، الرياض، دار الثلوثية، ط1، 1433هـ/2012م
17	العبودي، محمد بن ناصر، بلاد الداغستان، الرياض، مطابع الفرزدق التجارية، الطبعة الأولى، 1413هـ
18	العبودي، محمد بن ناصر، سبعون عاما في الوظيفة الحكومية، الرياض، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، 1436هـ/2015م الطبعة الأولى

19	العبودي، محمد بن ناصر، في بلاد المسلمين المنسيين، بخارى وما وراء النهر، ط 1، 1412هـ / 1991م، بدون اسم المكتبة
20	العبودي، محمد بن ناصر، يوميات آسيا الوسطى، الطبعة الأولى عام 1415هـ /1995م
21	العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، 2012م-1433هـ
22	الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط8، 1426هـ/2005
24	قنديل، فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1423هـ/2002،
25	كاتب جلبي، حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2000م،
26	المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين، ديوان المتنبي، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، 1403هـ/1983م
27	محمد بن أحمد سيد أحمد، الشيخ العلامة والأديب الرحالة محمد بن ناصر العبودي، جدة، دار الثقافة العصرية، الطبعة الأولى، 1431هـ/2010م
28	محمد بن عبد الله المشوح , دراسات ومقالات عن معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الرياض، 2013م
29	المعجم الوسيط، جمع من العلماء، استانبول، دار الدعوة، 1410هـ/1989م
30	معلوف، لويس، المنجد في الأعلام، بيروت، دار المشرق، الطبعة الحادية والعشرون، 1996م
31	معلوف، لويس، المنجد في اللغة، الطبعة الثالثة والثلاثون، بيروت، دار المشرق، 1994م
32	ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، القاهرة، دار المعارف، بدون تاريخ

المصادر والمراجع الأردية

1	آزاد، محمد حسین، آب حیات، لاهور، علم و عرفان پبلشرز، 2015م
2	ابن إنشاء، "ابن بطوطہ کے تعاقب میں" (في ملاحقة ابن بطوطة) لاہور، لاہور اکیڈمی، ط24، 2017م
3	اردو انسائکلوپیڈیا (دائرة المعارف الأردية)، لاہور، فیروز سنز، الطباعة الأولى، 1962م
4	"ابن بطوطہ کے سفر نامے" (رحلات بنت بطوطة)، إسلام آباد، نیشنل بک فاؤنڈیشن، 2017م
5	بیگ، مرزا حامد، اردو سفر نامے کی مختصر تاریخ، لاہور، اورینٹ پبلشرز، بدون تاریخ
6	تشنة، بروفیسر أیم نذیر أحمد، تاریخ پاکستان 1947-2013، جہلم، بک کارنر، 14 أغسطس 2013م
7	ساجد، ضیاء، "اردو کے شاہکار سفر نامے" (روائع الرحلات بالأردية)، لاہور، مکتبة القریش، 1997م
8	سدید، أنور، اردو ادب میں سفر نامہ، مغربی پاکستان اردو اکیڈمی، لاہور، الطبعة الثانية، 2017م
9	عثمانی، محمد تقی، جہان دیدہ، طبع جدید، کراچی، مکتبہ معارف القرآن، 2012

10	عثماني، محمد تقي، سفر در سفر، طبع جديد، كراچي، مكتبه دار معارف القرآن، 2011
11	عثمانی، محمد تقی، دنیا مرے آگے، ص:8، کراچی، مکتبہ معارف القرآن، طبع جدید، 1433ھ-/2012م
12	قادري، أخلاق أحمد، دنیا کے 100 نامور سیاح اور ان کے سفر نامے
13	مجلہ البلاغ، دارالعلوم کراچی، ربیع الثانی 1439ھ- ذو القعدة 1441ھ

المصادر والمراجع الإنجليزية

Bennigsen, Alexandre, and Broxup Marie, The Islamic Threat to The Soviet State, Services Book Club, 1984	1
https://www.britannica.com/place/Russia/The-Gorbachev-era-perestroika-and-glasnost	2
https://edition.cnn.com/2017/08/08/asia/india-pakistan-independence-timeline/index.html	3
https://en.wikipedia.org/wiki/Taqi_Usmani	4
The Hutchenson Encyclopedia, New Edition, Oxford, Helicon Publishing Ltd., 1992	5